حقائق باهرة يجب أن نعرفها الآن

العقل الإسلامي بين الأصالة والتقليد

بقلم: الدكتور كمال الدين حسن البتانوني

قلما تخلو صحيفة أو مجلة من الحديث عن قضايا التراث، التي يتعرض لها الكتاب بمسميات عديدة، وليس هدفنا التعرض لمناقشة هذه المسميات، أو تغليب رأي على آخر، أو بحث ماهية الأصالة وماهية المعاصرة، وغير ذلك من الموضوعات، إنما نهدف إلى عرض بعض الجوانب المشرقة من التراث العلمي الاسلامي.

ويجمل بنا، قبل الولوج في الحديث عن التراث العلمي الاسلامي، أن نوضح للقارئ أننا نقصد بالتراث العلمي، ما خلفه لنا المسلمون الأوائل من آثار جليلة في مجالات العلوم الطبيعية الأساسية من معارف، من رياضيات وطبيعة وكيمياء، وفلك ونبات وحيوان وجيولوجيا، وتطبيقات هذه المعارف في الطب والزراعة والهندسة والصيدلة والبيطرة وما إليها.

أما المعارف الأدبية والفلسفية والدينية، فانها خارجة عن نطاق هذه الدراسة، حتى لا نتوه في متاهات لا قبل لنا بها، مع اعترافنا بأن التراث الاسلامي في هذه المجالات، ما زال يمثل معينا ثراً لا ينضب، ننهل منه كل يوم.

ورغم أن المؤلفات العلمية التراثية كانت المصدر الأول لكثير من المعارف عند الأوروبيين في بداية نهضتهم، وكانت العمدة في دراسة العلوم عندهم، فإننا للأسف لا نشير في حديثنا عن الاكتشافات العلمية إلا للغربيين، مع أن كثيراً من هذه الاكتشافات كانت بفضل التراث العلمي الاسلامي.

إن الغرب يطنطن لهارفي على أنه مكتشف الدورة الدموية، مع أن مكتشفها الأصلي هو ابن النفيس الطبيب المسلم.

كما يعتز الغرب بآراء علمائه في الطبيعة والضوء والانكسار والابصار، ومصدرها الأصلي منذ قرون مضت هو ابن الهيثم.

وما نادى به، لا مارك، من أثر الطبيعة والبيئة على الكائنات الحية، لم يغفله ابن خلدون، حيث قال: إن العادة قد تغير من صفات العضويات، بمثل ما يغير الطقس.

ومما يؤسف له أن ما ندرسه وما ندرسه من مناهج عبر المراحل التعليمية لا يتعرض لانجازات العلماء المسلمين مثل ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمي وابن النفيس والرازي والدينوري والجاحظ وغيرهم من العلماء الذين يزدهي بهم العلم في كل عصر وإن. فاذا اعتز الغرب بعلمائه، فينبغي علينا ألا نغمط حق علمائنا الذين نقل عنهم الغرب في سالف الأيام.

ما هو التراث العلمي الذي نعنيه؟

إننا نقصد بالتراث العلمي ما خلفه العلماء المسلمون من ألوف المصنفات والكتب والرسائل، والتي تكتظ بها مكتبات الشرق والغرب، العامة منها والخاصة، والتي حقق منها القليل، ومازال الباقي مخطوطاً كما تركه مؤلفوه، أو كما خطه ناسخوه.

وقد لايكون هناك أمة من الأمم لها ما للأمة الاسلامية من تراث خالد، ذي أثر بعيد الغور في تطور العلوم. حتى قيل وبحق، إنه لولا أعمال علماء المسلمين من أمثال ابن الهيثم وابن سينا والبيروني والرازي والخوارزمي والبتاني والكندي وابن النفيس والزهراوي وغيرهم، لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء، ولتأخر سير المدنية عدة قرون (١).

وعلى الرغم من الهجمات التي يتلقاها التراث الاسلامي، فان هناك بعض المنصفين من علماء الغرب، الذين يعترفون بأن أوربا مدينة للمسلمين بخدمتهم العلمية، تلك الخدمة التي كانت العامل الأكبر في النهضة الأوربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

فقد كانت الحضارة العلمية العربية الاسلامية بمثابة حلقة الاتصال بين الحضارة الإغريقية والحضارة الحديثة.

هل هو تراث عربي أم اسلامي؟

يزعم البعض أن الحضارة التي ازدهرت في الفترة من القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في الأقطار التي سادها الاسلام في قارات ثلاث هي آسيا وأفريقيا وأوربا، حضارة عربية، استناداً إلى دور العرب في تلك الحضارة، وإلى أن اللغة العربية كانت لغة العلم، فمن أراد في ذاك العصر الذي ذكرناه، أن يكتب علماً تقرؤه الناس من القاطنين في أرجاء العالم الاسلامي المترامي الأطراف، لجأ إلى العربية فكتب وألف بها، ونشر علمه بين الناس بلغة العرب.

ومن الفريق الذي يدافع عن وجهة النظر هذه، هل، (٢) حيث يقول: «ولايمكن أن نغفل في معالجة تطور العلم في الاسلام الدور الذي قامت به في ذلك الميدان أمم عديدة دخلت هذا الدين، .. ولكن يجب برغم ذلك أن لا نبخس قيمة الأثر الكبير الذي تركته العقلية العربية في الحضارة الاسلامية، وإن كان من الصعب تقدير هذا الأثر تقديراً دقيقاً، ذلك أن نفراً من الباحثين أراد أن يبخس أثر العرب في تلك الميادين، فزعم أن العلماء







ابن خلدون — الرازي — ابن سينا — الخوارزمي

المسلمون أسبق من الأوربيين وهم رواد الاكتشافات الكبرى التي ينعم بها الانسان في هذا العصر ولولا علماء المسلمين لتأخر سير المدنية عدة قرون

المسلمين كانوا من أمم مختلفة ، ملكوا ناصية اللغة العربية ، وعاشوا في اتصال وثيق مع العرب ، ودونوا تاريخهم وأشعارهم وأفكارهم وألفوا الدراسات العميقة المسهبة في شتى العلوم ، وأنهم لم يستمدوا أصول تفكيرهم في كل ذلك من ينابيع عربية ولكن ينبغي أن لا تنسى أن العرب هم الذين أثاروا في تلك الأمم من جديد الشوق إلى المعرفة وأتاحوا لها الفرصة لارضاء هذا الشوق المتجدد ، وكذلك يجب ألا تنسى أن دولة عربية هي التي رعت الحضارة والثقافة بشكل رسمي وبذلت جهدها لإحياء العلوم والسير بها إلى الأمام ».

كما يذهب البعض إلى تسميتها بالحضارة العربية نظراً لمشاركة عدد من أصحاب الديانات الأخرى من مسيحيين ويهود وصابئة وغيرهم في منجزات هذه الحضارة .

ومن ناحية أخرى ، يرى البعض الآخر بأن تسمية تلك الحضارة بـ « الحضارة العربية » ليست على درجة كبيرة من الدقة ، آخذين في اعتبارهم أن العنصر العربي لم يسهم وحده في تكوين هذه الحضارة وابداعها ، بل لقد شاركه في ذلك أمم مختلفة من فرس وآسيويين آخرين وسريان ، وغيرهم من الشعوب التي عاشت في ظل الدولة الاسلامية ، هذا إلى جانب حكومات إسلامية غير عربية أسهمت في احتضان تلك الحضارة ، وســاعدت على نموها وتطورها ، وذلك بعد الانحلال والتفكك الذي أصاب الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث الهجري .

ولكن هذا العالم الاسلامي ، رغم ما يضمه من دول منفصلة من الناحية السياسية ، إلا أنه ظل عالماً مشتركاً في هوية واحدة ، هي الهوية الإسلامية التي تجمع شتاته وتميزه عن غيره من مناطق العالم ، فقد كان عالماً اسلامياً لا عربياً فحسب ، يقوم على وحدة العقيدة المشتركة ، بديلاً عن عصبيات الروابط العرقية والقبلية . ولذلك فان الحضارة والتراث الذي نحن بصدده إسلامي .

وفي هذا الصدد ، يجدر بنا أن نورد ما ذكره المؤرخ الكبير الاستاذ محمد شفيق غربال ، حيث يقول : « ... مما ذاع بيننا نقلاً عن المصطلح الفرنجي تقييد استعمال الكلمة « اسلامي » فكما أن العلماء الأوربيين لا يستخدمون في دراستهم التاريخية الوصف (نصراني) إلا على الأزمنة السابقة للعصور الحديثة والمعاصرة أو لا يطلقونه إلا على ما يتصل بالعقائد . فانا أيضاً أخذنا عنهم تحديد طور « اسلامي » داخل أطوار الامم الاسلامية . هذا المصطلح الفرنجي له ما يبرره عندهم ... أما عندنا فما وجه تبريره ؟؟ » .

وهناك قوم يقفون بين هؤلاء وأولئك ، فيطلق الدكتور عنقاوي اسم « الحضارة العربية الاسلامية » إذ هي عربية في لغتها وفي العناصر العربية المسلمة وغير المسلمة التي أوجدتها ، كما هي اسلامية في روحها وفي الحكومات التي احتضنتها وفي الشعوب الاسلامية وغير العربية التي شاركت فيها وأبدعتها وغذتها بنتاجها وتراثها .

وفي رأينا أنها حضارة اسلامية ، خلفت تراثاً علمياً اسلامياً ، مستشهدين بما قاله الدكتور عنقاوي رغم تسميته لها بالحضارة العربية الاسلامية فيقول : « الاسلام هو الدين الذي فتح آفاقاً جديدة للشخصية العربية ، ومهد لها السبيل لتحتل مكانتها بين أمم الأرض ، وهو أيضاً الدين الذي حض على التعليم وتحصيل الثقافات أينما وجدت » .

فقبل الاسلام لم يكن للعرب ذلك التراث العلمي العظيم ، الذي يحوي العديد من المعلومات والمعارف العلمية ، وكذا الآراء والنظريات والمشاهدات والتجارب .

فلم يكن لهم تراث يمثل نواة لمثل هذا التراث العلمي الاسلامي الذي خلفه المسلمون ، ولما أفاء الله عليهم بالاسلام ، تغيرت الأوضاع تماماً ، فطلبوا العلم وأعانوا على البحث فيه ، فالاسلام دين يحض في دأب وعنف على طلب العلم ، إنه لدين معجزته كتاب ، ألا وأول آيه « اقرأ » ، وإنه ليوصي بإمعان النظر في ملكوت السموات والأرض ، والتفكر في خلق الله ، والإمعان في معرفة الكون والكائنات .

ولم يكن الفاتحون المسلمون مجرد غزاة من الصحراء ، بل كانوا فاتحين يحملون معهم الاسلام ، والاسلام دين جامع ، يمثل نظاماً يحيط بكل جوانب الحياة الانسانية .

وبذا كان لابد للمسلمين أن يمارسوا حياة إسلامية في مجتمع إسلامي ، في ديار إسلامية .

لقد انطلق المسلمون الفاتحون في الشرق والغرب ، ووجدوا أنفسهم إزاء حضارات أكثر تقدماً وغنىً بمراحل عن أية حضارة عرفوها من قبل ، ولكن الفتح الاسلامي ، وحد الثقافة في مجتمع اسلامي تسوده النظرة الاسلامية التي أصبحت النهج المقبول للدولة والمجتمع . وأصبح المسلم ينتقل بحرية من أدنى الدولة الاسلامية إلى أقصاها ، ويكفيه أن يتوجه للمسجد ليشعر أنه في وطنه ، فلا غربة في العالم الاسلامي ، ومساجده دور عبادة ودراسة ، وهكذا نشأ مناخ لم تتعود عليه الشعوب التي فتح الله عليها بالاسلام قبل ذلك .

وفي هذا المناخ الاسلامي ، البعيد عن التعصب العرقي والطائفي والديني ، تكونت ثقافة وحضارة عالمية جديدة ، ونتج تراث اسلامي ، ذو هوية مستقلة وشخصية متميزة الخصائص .

ولو لم ينشأ هذا المناخ الاسلامي ، لم تكن هناك

أدنى فرصة لتكوين هذا التراث ، الذي ساهم فيه العرب والعجم وأهل الذمة تحت مظلة الاسلام .

لكل هذا وغيره ، نعتقد أن هذا التراث العلمي اسلامي المولد والنشأة .

ورغم قولنا هذا ، فاننا لا نتبع تماماً مقولة ابن خلدون « من الغريب أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم ، وليس في العرب حملة علم .. » أو قوله : أما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم ، والنظر فيه ، فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن ، وما يجر إليها ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، ومازالوا يرون لهم حق القيام به ، فانه دينهم وعلومهم ... (٦) .

وانا لنعتبر هذا تجنيا على العرب المسلمين ، فهم الذين احتضنوا العلماء من المسلمين الأعاجم ومن غير المسلمين ، وبرعايتهم لأمور الدولة ، فقد وفروا المناخ المناسب للفكر والعلم ، بل إن بعضهم ملك ناصية بعض العلوم وأتقنها .

أما أن التراث بلغة عربية ، فلأنها لغة العقيدة ، ولأن استعمال اللسان العربي صار من شعائر الاسلام ، ولا نقول أبداً كما قال الغربيون إنها لغة الغزاة ، فكم من غزاة اندمجوا في الشعوب المغلوبة وتاهت لغتهم ، لكن اللغة العربية وهي لغة القرآن الكريم ، كرمها الله بذلك وشرفها ، قد لعب الاسلام الدور الأول والرئيسي في انتشارها وسيادتها . ويجمل بنا في هذا الصدد ، أن نعترف بأن اللغة العربية تتسم بطاقة ضخمة على أن تكون أداة للتخاطب المصقول والتعبير عن الافكار المعقدة ، ويمكن فيها توليد كلمات جديدة تشتق من صيغ الأفعال ، وبها يمكن حشد عديد من المعاني في تعبير واحد موجز قوي الايحاء ، ولا مراء أنها أداة رائعة للتفكير والبحث العلمي .

نقل أم إبداع !!

يتعرض التراث العلمي الاسلامي للهجمات من قبل بعض مفكري الغرب ، أو من سار سيرتهم ، ونهج نهجهم ، وهؤلاء يدعون أن هذا التراث تقليد ونقل مطلق عن اليونان وغيرهم ، مجردين هذا التراث من صفة الابداع والابتكار .

وقبل أن نناقش موضوع النقل والابداع ، يحسن بنا أن ننقل هنا ما ذكره الاستاذ قدري حافظ طوقان (٧) ، مع اختلافنا معه في تسمية « الحضارة العربية » ، يقول : « إن الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت . وقد قام أصحابها العرب بدورهم في تقدم الفكر وتطوره بأقصى حماسة وفهم ، وهم لم يكونوا مجرد ناقلين كما قال بعض المؤرخين ، بل إن في نقلهم روحاً وحياة ، وكذلك لم يكن ميكانيكياً ، فهو أبعد ما يكون عن الجمود ، وقد خطوا في العلوم خطوات فاصلات كان لها أبعد الأثر في تقدمها ، فبعد أن اطلع العرب على ما أنتجته قرائح القدماء في سائر ميادين المعرفة نقحوه وشرحوه ، وأضافوا إليه إضافات هامة أساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار . »

وأضيف ما ذكره الدكتور عمر فروخ (٨) حيث يقول : « ويجب علينا أن نعلم أن العلوم ــ وهي وجه من أوجه الحضارة ــ لا تبرز في الأمة فجأة ، مقطوعة عن جهود الأمم السابقة ، بل تنتقل من أمة إلى أمة ، وفضل كل أمة إنما هو فيما تزيده في التراث العام للانسانية » ، كما أضيف قول برنارد لويس (٩) : « ولم تكن الحضارة الاسلامية ، رغم تنوع أصـــولها ، مجرد تجميـــع آلي للثقافات القديمة ، بل هي بالأحرى خلق جديد انبثت فيه جميع هذه العناصر لتكون حضارة جديدة أصيلة ، ذلك بأن انتقلت إلى صورة عربية اسلامية ، وهذه العملية سمة مميزة لكل مرحلة من مراحل تطور هذه الحضارة . »

ولعلنا نتفق مع بادو (١٠) في قوله : « وصحيح أن صانعي الحضارة الاسلامية ، أول الأمر ، ضموا هذا التراث المتنوع (يقصد تراث الكتابات الاغريقية القديمة والفكر الأفلاطوني ، والمؤسسات البيزنطية ، والتشريع الروماني ، والبحث العلمي السرياني والفني الفارسي) إلى ملكهم ضماً لم يكد يناله التحوير ، ولكن لم يمض إلا قليل من الوقت حتى أصبحوا أكثر اصطفائية في الانتفاع به ، وأخذوا يدمجون عناصره في قوالب ونماذج مستحدثة ، وجد فيها أهل العلم الاسلامي مادة للبناء وحافزاً للابداع ، أما النتيجة فلم تكن مجرد تلفيق متباينات صفت فيه جزيئات الثقافات المتفرقة ونثاراتها بعضها لصق بعض ، بل كانت في الحق خلقاً جديداً ذا نسق مميز خاص به ، تسري في ثناياه روح جديدة ويمثل نظاماً اجتماعياً جديداً . »

وإذا كان المسلمون الأوائل أفادوا من الحضارة الاغريقية ، فان الباحث المنصف لا يمكن أن يغفل أمر المدنيات والحضارات القديمة ، التي سبقت العصر الاغريقي ، وتقدمت عليه في التاريخ ، ولا يمكن أن تكون الدنية الاغريقية قد نشأت فجأة ، وبمعزل عن المدنيات الأخرى من بابلية وأشورية وفرعونية ، فالحضارات لا تعيش بمعزل عن بعضها البعض ، لكنها تتفاعل مع بعضها مكونة تراثاً إنسانياً ، يضاف إليه كلما ازدهرت الحضارات .

وقد أنصف هيرودوتس الحضارات القديمة عندما قال : إن معظم فلاسفة الاغريق القدامى ، كانوا يقضون شطراً من حياتهم على ضفاف النيل في مصر وفي بلاد ما بين النهرين .

ويقول الدكتور عبدالحليم منتصر (١١) : « يعترف المنصفون من المستشرقين بأن الرومان وهم ورثة اليونان ، لم يحسنوا القيام على التراث الاغريقي ، وأن العرب كانوا على خلاف ذلك ، فقد حفظوا هذا التراث وأتقنوه ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل تعدوه إلى ترقية ما أخذوه وتطبيقه ، باذلين الجهد في تحسينه وإنمائه ، حتى سلموه لعلماء النهضة الأوروبية ، فعلماء العصر الحديث » .

كما يذكر الدكتور توفيق الطويل (١٢) في معرض حديثه عن التراث العربي الاسلامي : « وهكذا نرى من كل ما أسلفنا أن العرب قد نهلوا من علوم الأوائل ــ شأنهم في هذا شأن بناة الحضارة من شعوب الأرض طراً ، ولكنهم لم يقفوا عند حد الطلب ، ولم يقنعوا بما تلقوا من معارف بل أخذوا يتحررون بالتدريج من التقديس الخرافي للأوائل ، وبفضل مناهجهم العلمية تجاوزوا مرحلة النقل والتقليد إلى مرحلة الابداع والتجديد ، وكان مرد هذا إلى ما تهيأ لهم من خصائص التفكير العلمي الذي سبقوا بها عصرهم ، وتميزوا بها دون من عاصرهم من شعوب الأرض ، وكشفوا ، عن طريقها ، عن كنوز من الحقائق ميزت تراثهم الأصيل المبتكر ، واتجهت أوروبا وهي تنفض عنها أثواب تخلفها الذي غطت فيه قروناً ، فاستيقظت على نور العلم العربي واستضاءت به في مسيرتها نحو التقدم والازدهار العقلي الذي تمارسه اليوم » .

والمسلمون في دورهم في النقل والترجمة والدراسة ، لم يكونوا كالنمل يجمع غذاءه ، ويحفظه كما هو حتى وقت الحاجة إليه ، إنما كانوا كالنحل ، يجمع الرحيق ، بل يصطفي ما يجمعه ، ويهضمه ويقدمه للانسانية عسلاً سـائغاً ، فيه شفاء للناس . وفي ظل الاسلام الوارف ، أخذ المسلمون ينهلون من موارد العلم ، وانتجوا تراثاً علمياً اسلامياً ، وظهر عدد من العلماء المسلمين يزدهي بهم العلم ، شاركوا مشاركة فعالة في بناء النهضة العلمية الانسانية ، وخطوا بالانسانية خطوات فسيحة في سبيل الرقي والتقدم .

ويجمل بنا أن ننقل ما ذكرته الدكتورة سيجفريد هونكه (١٣) عن موقف أوروبا تجاه التراث الاسلامي ، فتقول : « وفي مراكز العلم الأوروبية ، لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا ومد يده إلى الكنوز العربية هذه يغرف منها ما شاء الله له أن يغرف وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب ، ولم يكن هناك كتاب واحد

من بين الكتب التي صدرت في أوروبا آنذاك إلا وقد ارتوت صفحاته بالري العميم من الحضارة العربية ، فالكتب التي درسها الدارسون ، واستند إليها الباحثون ، كانت كتب ابن سينا وأبي القاسم الزهراوي وابن زهر وحنين بن اسحق واسحق الاسرائيلي ، وكما كانت الثقافة اليونانية منهلاً للعرب ، كذلك أصبحت الثقافة اليونانية العربية منهلاً للأوروبيين المتعطشين للعلم والمعرفة . »

ولعلنا نلاحظ أن المستشرقة الألمانية ، رغم إنصافها للمسلمين وحضارتهم فيما ذكرته ، إلا أنها تصر على تسميتها بالحضارة العربية ،وتحاول ربط الثقافة العربية بالثقافة اليونانية بتسميتها ثقافة يونانية عربية .

وإنا لنعتقد أن في هذا تجنيا على الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي ، وإلا كان من الأحرى بنا أن نقول الثقافة الفرعونية البابلية الأشورية اليونانية العربية . وهذا يوضح لنا حقيقة يجب ألا تغيب عن أعيننا ، وهي أنه حتى من يحاول إنصاف الحضارة والتراث الاسلامي ، فانه يدس بعض المفاهيم والمسميات ، لوياً للحقائق ، ليخدم بها هدفاً لا يخفى على كل لبيب .

وبالرغم من أن بعض علماء الغرب قد أعماه التعصب والحقد ، فلم يعترف لعلماء المسلمين بالفضل ، فانه تظل هناك حقيقة واحدة ، هو أن كثيراً من النظريات والآراء العلمية الحديثة إنما تمتد جذورها إلى التراث الاسلامي ، الذي قدم ألوف المؤلفات والكتب والمصنفات التي ظلت العمدة التي يعتمد عليها علماء الغرب طيلة قرون وقرون .

أهم مصدر لعلماء الغرب

واذا كان هناك بعض المغرضين في طمس هذه الحقيقة ، فان التاريخ يقف شاهداً بأن التراث العلمي الاسلامي كان أهم مصدر لعلماء الغرب حينما نهضوا بحضارتهم ، والأمثلة كثيرة تفوق الحصر ، ولا يمكن مجرد سردها في الحيز الضيق المتاح لهذا المقال ، وإن كنا نضرب بعض الأمثلة ، فهي تمثل قدراً ضئيلاً ، ونزراً يسيراً من اسهامات التراث العلمي الاسلامي في الحضارة الغربية . ولقد بدأت ترجمات التراث العلمي الاسلامي إلى اللغة اللاتينية ــ التي كانت لغة العلم في وقت ما في دول أوروبا ــ منذ قرون عديدة . وعلى سبيل المثال ترجم الطبيب اليهودي فرج بن سالم عام ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م كتاب « الحاوي » لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (المتوفي ٢٢٣ هـ/٩٣٤ م) إلى اللاتينية . فكان من حيث حجمه واحداً من أوائل الكتب الطبية الضخمة التي طبعت في الغرب ونشر عام ١٤٨٦ م وأعيد طبعه أكثر من مرة في القرن السادس عشر ، وهو دائرة معارف ضخمة .

ومن رسائل الرازي المشهورة التي أبدى فيها أصالة وابتكاراً ، رسالته في الجدري والحصبة ، التي ترجمت إلى اللاتينية عام ١٤٩٨ م في البندقية بواسطة فالا ، ثم نشرها مع ترجمتهااللاتينية عام ١٧٦٦ م شاننج ، ونستطيع أن نتبين أهمية هذه الرسالة إذا عرفنا أنها طبعت بالانجليزية وحدها أربعين مرة بين سنتي ١٤٩٨ و ١٨٦٦ .

أما أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (المتوفي ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م) فقد ألف كتاباً بعنوان « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وقد لعب هذا الكتاب دوراً كبيراً في اثراء المعرفة الطبية ، بما حوى من اكتشافات ، عند الغربيين منذ زمن بعيد .

فقد كان الزهراوي السابق إلى ربط الشرايين والأوعية الدموية لإيقاف النزيف في الجراحات ، وكان أول من قدم وصفاً واضحاً للأحوال والظروف الوراثية المرتبطة باستعداد بعض الأجسام للنزيف ، وعالجه بالكي ، كما كان أول من وصف بعض أوضاع الجنين في الرحم ، وجسور الأسنان ذهبية وفضية ، وأدوات ضغط اللسان والقسطر الرصاصي .

كما أجرى جراحات ناجحة في شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصاة في المثانة وغير ذلك كثير .

وللأسف لا توجد طبعة كاملة لكتابه « التصريف » وقد ترجمت بعض مقالاته إلى اللاتينية منذ عام ١٤٢٣ م (٨٢٦ هـ) بواسطة بيترو أرجيلاتا ، كما ترجم جيرار كريمونا بعض رسائل الزهراوي . ويكفي أن نذكر أن الجراح الفرنسي « جي دي شولياك » استشهد في كتابه « الجراحة العظيمة » الذي اكتمل عام ١٣٦٣ م (٧٦٤ هـ) بكتاب التصريف أكثر من مئتي مرة .

أما كتاب القانون لأبي على الحسين بن عبدالله ابن سينا (المتوفي ٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م) فقد ترجمه إلى اللاتينية جيرار دوجمونسيري ، وطبعت أجزاء من هذه الترجمة عدة مرات قبل عام ١٥٠٠ م (ميلانو ١٤٧٣م ، بادوا ١٤٧٦م ١٤٩٧م البندقية ١٤٨٣م الخ) وطبعت الترجمات كاملة في البندقية (١٥٤٤ ، ١٥٨٢ ، ١٥٩٢ م) ولوفان ببلجيكا (١٨٥٨ م) ونابولى (١٤٩١ ــ ١٤٩٢ م) ، وترجم الكتاب أيضاً إلى العبرية .

وأول طبعة عربية صدرت من هذا الكتاب كانت في روما عام ١٥٩٣ م ، كما طبع في القاهرة مطبعة بولاق عام ١٨٧٧ م .

ومن الطبعات الجزئية للقانون طبعة باريس ١٦٥٧ ، وهاله ١٧٩٦ وفريبورج ١٨٤٤ وهولندا (ليدن ، ١٨٩٦ م) وكانت كليات الطب في الغرب ــ حتى أوائل القرن العشرين ــ تنشر في رسالاتها أجزاء من الكتاب كما أنه كان أساساً لتعليم الطب في كل أوربا .

أما كتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس (المتوفي ٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م) ، الذي توصل فيه في أول ثورة حقيقية على تشريح جالينوس ، إلى كشف الدورة الدموية ، فقد ترجم إلى اللاتينية في البندقية عام ١٥٤٧ م .

ومن العجيب أنه ظهر ثلاثة من علماء أوروبا يصفون دورة الدم في الرئة بنفس الألفاظ التي استخدمها ابن النفيس ، هم ميشيل سرفيتوس الاسباني ، الذى نشر كتابه Christianismi Vestituto عام ١١٥٣ م ، وقد أعدم بسببه حرقاً .

وريالدو كولومبو أستاذ التشريح فى جامعة بادوا ، الذى نشر عام ١٥٥٩ رأيه فى كتابه ثم وليم هارفي (توفى ١٦٥٨ م) الذي نشر عام ١٦٢٢ م كتابه Motu Cardis ونسبت إليه نظرية الدورة الدموية ! .

هذه عينة صغيرة ، وهناك الكثير مما نقله الغرب من التراث العلمي الاسلامي في مجال الرياضيات والكيمياء والصيدلة والطب والجغرافيا والفلك وغير ذلك من العلوم .

ونأمل من هذه الدراسة وأمثالها ، أن يتعرف النشء العربي المسلم على تراث أجداده الأولين ، ويعلم أن الحضارات دورات تمر من قوم إلى اخرين ، وخلال دورة الحضارة ، يضاف إليها ما يثري التراث الانساني ، وأن المسلمين أضافوا الكثير إلى هذا التراث .

كمال الدين حسن البتانوني
جامعة قطر

هوامش

(١) الدكتور عبدالحليم منتصر . احياء التراث العلمي العربي . مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم . العدد الخامس . ص٥

(٢) هل : الحضارة العربية . ترجمة ابراهيم العدوي . القاهرة ١٩٥٦ ص ٩٨

(٣) وردت في الفكر الجغرافي . تأليف نفيس أحمد ، ترجمة فتحي عثمان . دار القلم الكويت ط٢ ١٩٧٨

(٤) الدكتور عبدالله عقيل عنقاوي . الأصالة والتجديد في الحضارة العربية مجلة كلية الآداب . جامعة الملك سعود .م ٩ (٤٧ ــ ٦٢) ١٩٨٢ . ص ٥٢

(٥) نفسه ص ٥٦

(٦) ابن خلدون . المقدمة

(٧) قدري حافظ طوقان . من تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك . دار الشروق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . ١٩٦٣

(٨) الدكتور عمر فروخ . تاريخ العلوم عند العرب . دار العلم للملايين . بيروت ط٣ ١٩٨٠ ص٩

(٩) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص ١٩٢

(١٠) جون س . بادو : دور العرب في الثقافة الاسلامية . في عبقرية الحضارة العربية ينبوع النهضة . مركز الوثائق والدراسات . ديوان رئيس الدولة . أبوظبي : دولة الامارات العربية المتحدة ١٩٧٧ . ص ٢٠

(١١) الدكتور منتصر نفسه ص ٥

(١٢) الدكتور توفيق الطويل : في تراثنا العربي الاسلامي . عالم المعرفة (٨٧) مارس ١٩٨٥ . ص ٦٢

(١٣) سيجفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب . ترجمة بيضون دسوقي . بيروت ١٩٦٩ .

نهاية أبي حيّان التوحيدي

كنت أسير في حديقة من حدائق لندن مبتهجاً بنبأ صدور كتاب جديد لشاعر ينشر الجهل والزكام والعمى باسم الحداثة ، فاصطدمت فجأة برجل عجوز صدمة قوية أوشكت أن تطرحه أرضا ، فاضطربت وخجلت وارتبكت ، ولكني ما أن فتحت فمي راغبا في الاعتذار حتى قال لي الرجل العجوز بلغة عربية فصحى وبلهجة حانقة موبخة : « أأنت أعمى ؟ لماذا لا تستخدم عينيك اللتين منحهما الله لك كي تبصر ما حولك ؟ » .

فبادرت إلى الاعتذار بحرارة ، ولكن الرجل العجوز ظل غاضبا ، وقال لي : « أنصحك بالذهاب فورا إلى أقرب طبيب عيون ، فكيف تصطدم بي بينما الحديقة واسعة إلى حد أنها تصلح لأن تكون ساحة يتقاتل فيها جيشان ؟ » .

قلت للرجل العجوز بصوت يشبه صوت شحاذ : « أنت عربي وأنا عربي ، والعربي أخ للعربي في كل مكان في العالم ما عدا الوطن العربي ، فلماذا لا نجلس على مقعد من مقاعد الحديقة ونتعارف ونتحادث بدلا من أن تستمر في توبيخي على خطأ غير مقصود ؟ » .

ففكر الرجل العجوز لحظات ، ثم جلس على أحد المقاعد القريبة ، وجلست بجواره قائلا له : « ما الاسم الكريم ؟ » .





بقلم : زكريا تامر

قال الرجل العجوز : « اسمي أبو حيان التوحيدي » .

فقلت وأنا أبتسم : « اسم جميل لابد من أن المرحوم والدك كان معجباً بالأديب العربي الشهير أبي حيان التوحيدي ، فاختار اسمه كي يكون اسمك » .

فقال لي الرجل العجوز بغيظ واعتداد : « أنا أبو حيان التوحيدي نفسه الذي تقول عليه إنه الأديب المشهور » .

فضحكت ، ثم قلت : « غير معقول أنت بالتأكيد محب للمزاح ، ولو كان ما تقوله صحيحا فهذا اليوم هو يوم تاريخي في حياتي لأني معجب بكتب التوحيدي اعجابا يثير حنق زوجتي وغيرتها ، ويدفعها إلى أن تقول لى : لماذا تزوجت بي ولم تتزوج الكتب ؟ » .

فقال الرجل العجوز : « ما أقوله هو الصدق ، وأنا لا أكذب ، وميزتي في كتاباتي هي أني إذا اضطررت إلى الكذب فإني أتعمد أن أكذب كذبا ليس من العسير على القارىء أن يكشف أنه كذب » .

قلت بحيرة : « ولكن الكتب تقول إنك قد مت قبل مئات السنين » .

قال أبو حيان : « لا تكن ساذجا ، ولا تصدق كل ما تقوله الكتب فهي أحيانا ملأى بالأكاذيب المخجلة ، فالأديب الأصيل المبدع لا يموت ويبقي حيا بينما يكون الأديب التافه ميتاً وهو حي » .

فقلت بأسى : « ولكننا الآن في زمان لا حياة فيه ولا تكريم ولا اجلال إلا للأديب التافه بينما الأديب الحقيقى محكوم عليه بالفناء أو النوم أو الدفن تحت جبال من الغبار » .

فلم يعلق أبو حيان بكلمة على ما قلته إنما راح يحملق بإعجاب إلى أشجار خضراء .

فسألته : « متى جئت إلى لندن قادما من الوطن العربي ؟ » .

قال أبو حيان : «أنا لم آت من أي بلد عربي بل أتيت من أوغندا».

فقلت بدهشة : «أوغندا ؟ ماذا كنت تفعل في أوغندا ؟».

فضحك أبو حيان التوحيدي ضحكة هازئة ، وقال لي : «أنت كمن يسأل السمكة عما تفعل في الماء . أنا أوغندي الجنسية ، ومقيم بأوغندا ، وجواز سفري أوغندي».

قلت مبهوتا : «وجنسيتك العربية ؟».

قال أبو حيان : «تخليت عنها منذ أعوام بسرور لا يوصف وبحزن لا يوصف».

قلت : «وما السبب ؟».

قال أبو حيان : «لا تسألني بل اسأل الأحوال العربية».

فصحت غاضبا : «يا للعار ! لم أكن أتخيل أنك ستهجر جنسيتك العربية . كيف سمح لك ضميرك بارتكاب مثل هذا الفعل المنكر ؟».

فتأملني أبو حيان بنظرات متفحصة ، ثم قال لي بازدراء : «يخيل إلي كأنك تلومني مع أنك لو أتيحت لك فرصة الحصول على الجنسية السيريلانكية لا تقضضت عليها بالأظافر والأسنان والأضراس».

فنكست رأسي قائلا : «وكيف حياتك الجديدة في أوغندا ؟».

قال أبو حيان : «رائعة مدهشة ! مثالية ! في سنة واحدة اعتقلت شهرا بتهمة أني رجعي ، واعتقلت شهرا بتهمة أني يساري ، واعتقلت شهرا بتهمة أني أكتب مديحا ، واعتقلت شهرا بتهمة أني أكتب هجاء».

فقلت بذهول : «كيف تسمي هذه الحياة رائعة مع أنها لا تستحق أن توصف إلا بأنها أسوأ حياة ؟».

فقال لي أبو حيان كأنه يخاطب طفلا ملتصقا بصدر أمه ولم يخرج يوما من بيت والديه : «أن أسجن خير من أن أقتل بعد تعذيب».

فلذت بالصمت هنيهات ، ثم قلت لأبي حيان متسائلا بفضول : «وما سبب مجيئك إلى لندن ؟». قال أبو حيان : «إني أعتزم اصدار مجلة أدبية فكرية ذات مستوى راق».

قلت بحماسة : «هذه فكرة رائعة ، فغالبية المجلات الأدبية والفكرية الآن تتناسى أنها موجهة إلى أناس أحياء ذوي عقول وقلوب ، ولا نفع فيها إلا لمحرريها وكتابها وأصحاب المطابع والمصانع المنتجة للورق ، ولكن متى ستصدر العدد الأول ؟».

قال أبو حيان : «الصدور متوقف على ايجاد الممول الذي لا يحول المجلة إلى خادم وجارية».

فقلت بمرح : «ثق بأن مجلتك لن تصدر إلا بعد ألف سنة».

فقال أبو حيان : «اذا صدرت بعد ألف سنة فهذا أمر جليل ودليل على أنه سيوجد في المستقبل من سيحترم الأدب والفكر».

قلت : «ما رأيك ؟ ما دمنا قد التقينا مصادفة ، فهل توافق على أن أجري معك مقابلة صحافية ، فتوفر علي عناء كتابة مقالة ولاسيما أني كاتب مبتدئ أنجح مرة وأخفق أعواما ، وعندي أسرة يجب أن تأكل كل يوم».

قال أبو حيان بصرامة : «موافقتي مرتبطة بموضوع المقابلة».

فقلت فورا : «الموضوع بالطبع سيتناول الحياة الأدبية والفكرية في البلاد العربية».

فتجهم وجه أبي حيان ، وقال لي باستنكار : «هل أنت ضعيف الذاكرة أم أصم ؟ ألم أقل لك إني أوغندي ، فكيف تريد مني التحدث عما أجهله ؟».

قلت : «إذاً سنتحدث عن الحياة الثقافية الأوغندية».

فقال أبو حيان وهو يتنهد بارتياح : «أنا موافق ، فهيا اسأل ما طاب لك من الأسئلة» :

— «هل يوجد شعر في أوغندا».

— «يوجد شعر من مختلف الأنواع والأزياء . شعر موزون مقفى وشعر حديث وشعر حر».

— «وما هي أهم صفات كل نوع من أنواع ذلك الشعر ؟».

— «الشعر الموزون المقفى أفضل من أية حبوب منومة ، والشعر الحديث يروج له الأطباء ، فمن يطلع عليه لابد له من أن يركض باحثا عن طبيب نفسي أو عقلي ، والشعر الحر من ينصت له ثلاثة أيام يصبح حرا ويطير إلى عالم لا عودة منه».

— «والقصة القصيرة ؟».

— «القصة القصيرة هي وفق القوانين السائدة فن محبوب ، ولا يكتبها إلا من كان قصير القامة ، وقصير النظر ، وقصير اليد».

— «والنقد ؟ ما أحواله ؟».

— «النقاد كثيرون ، ولكنهم مختلفون في الرأي حول ماهية النقد . بعضهم يقول إن النقد الواعي هو نقود ، وبعضهم يقول إن النقد هو كلمة وليس نفطا أو دبابة ، ولم يصل الخلاف إلى إتفاق».

— «وأدب الأطفال ؟ هل هناك اهتمام به وإيمان بدوره في تربية الجيل الجديد .. جيل المستقبل ؟».

— «الاهتمام بأدب الأطفال يفوق الوصف ، ويؤدى دوره التربوي والتثقيفي أروع أداء ، وقد نجح في خلق أجيال من المنافقين والأدعياء والانتهازيين والجبناء واللصوص والخانعين والقانطين».

— «وهل في أوغندا أدباء مشهورون ؟».

— «شهرة الأديب مرتبطة بموهبته في تأليف العصابات المؤازرة له في السراء والضراء ، فإذا كان موهوبا حقيقيا في هذا المضمار فهو لامحالة سائر في الطريق الموصلة إلى نيل جائزة نوبل للآداب».

— «وهل تشجع الصحف الأدب والأدباء ؟».

— «كل صحيفة تكرس صفحة يومية للشؤون الأدبية ، ويشرف عليها محررون معادون للتفاوت الطبقي في الأدب ، ولذا فهم يمتدحون الشعير ، ويذمون القمح ، ويقدمون القمامة بوصفها أجمل ورد».

— «وهل يعاني أدباء أوغندا أزمة ما تتعلق بحريتهم في التعبير عن أفكارهم ؟».

— «لا ، فالدولة الرشيدة افتتحت دكاكين ، وكل دكان مختصة بجنس من الأجناس الأدبية ، دكان للقصة والرواية ، ودكان للشعر ، ودكان للمسرحية ، ودكان للأبحاث النقدية والفكرية ، والكاتب الذي يبغي الكتابة يقصد دكانا من تلك الدكاكين ، ويعرض على الموظف الحكومي ما يرغب في كتابته ، فيقوم الموظف بالكتابة بأسلوب يتناسب مع مقتضى الحال ، فلا يغضب حاكما وينجي الأديب من متاعب تبدأ من السجن وتصل إلى المشنقة».

— «هل يوجد للأدباء في أوغندا اتحاد يجمع شملهم ويوحد صفوفهم ويدافع عن حقوقهم ؟».

— «بالطبع . هناك اتحاد للأدباء لا يكف عن عقد المؤتمرات ، وفي كل مؤتمر تتخذ أروع المقررات والتوصيات ، وتكتب بخط جميل على ورق فاخر».

— «وهل لذلك الاتحاد دور ما في تنشيط الحياة الثقافية ؟».

— إن دوره بالغ التأثير والأهمية ، ولاسيما أن الاتحاد مزيج من مخفر الشرطة وتجمع الأدباء ، وبعد تأليفه تضاءلت نسبة الجرائم نظرا لنشاطه في المجالات الأمنية».

ووجدت نفسي أنهض بغتة واقفا ، فسألني أبو حيان : «إلى أين ؟».

فقلت : «إلى أوغندا سيرا على الأقدام».

وسرت نحو أوغندا مستخدما قدمين سبق لهما أن اطلعتا على محاسن المخافر الأدبية اطلاعا لاينسى .

من أعلام الإصلاح الإسلامي في الجزائر





الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ذكراه العشرين

بقلم: الدكتور تركي رابح

احتفلت الجزائر في السابع والعشرين من شهر شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ١٩ مايو ١٩٨٥ بالذكرى العشرين لوفاة علم من أعلام الاسلام والعروبة والفكر والاصلاح الديني والاجتماعي في الجزائر، هو المرحوم محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٤٠ ــ ١٩٥٦) الذي توفى في عاصمة الجزائر يوم ١٩ مايو ١٩٦٥ عن عمر بلغ السادسة والسبعين عاماً قضى منها أكثر من اربعين عاماً في خدمة الاسلام والعروبة في الجزائر، والجهاد من أجل تحريرها من الاستعمار الفرنسي

... والشيخ محمد البشير الابراهيمي يعتبر من رجالات العالم الاسلامي الذين عملوا في النصف الأول من هذا القرن وما بعده (١٩٢٠ ــ ١٩٦٥) على تجديد شباب الاسلام، عن طريق تطهيره من البدع، والخرافات، التي لصقت به في عهود الجمود، والتأخر، ومحاولة الرجوع به إلى عهد السلف الصالح من الصحابة، والتابعين رضي الله عنهم، لذلك فهو وزميله الشيخ عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ ــ ١٩٤٠) الرئيس الأول لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١ ــ ١٩٤٠) يعتبران من «مدرسة التجديد الاسلامي» التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر في الشرق العربي، والعالم الاسلامي، وامتدت إلى المغرب العربي في بداية هذا القرن وكان ابن باديس والشيخ الابراهيمي من أساطينها في الجزائر.

... والشيخ محمد البشير الابراهيمي يعتبر من جهة أخرى من الكتاب البارزين في العالم العربي. وله قلم بليغ، وأسلوب جزل بلغ القمة، في المتانة، والرشاقة، والبلاغة، والسلاسة، والعذوبة وقد رأس تحرير «البصائر» الاسبوعية لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ابتداء من عام ١٩٤٧ إلى أن عطلها الاستعمار الفرنسي بعد نشوب الثورة الجزائرية في عام ١٩٥٤ وذلك في بداية عام ١٩٥٦.

... ولم تقتصر جهود الشيخ البشير الابراهيمي وجهاده وكتاباته على الدفاع عن استقلال الجزائر وحريتها وعن عروبتها واسلامها فحسب؛ بل شملت كذلك معظم أقطار العروبة والاسلام من أندونيسيا وباكستان إلى ليبيا، وتونس ومصر، والمغرب وفلسطين والجريحة.

... ومن أجل هذه الأعمال الجليلة التي أداها للجزائر وأقطار العروبة والاسلام تحيي الجزائر في كل عام ذكرى وفاته اعترافاً منها بجهاده، وتقديراً لاعماله الجليلة من أجل الوطن التي استمرت أكثر من أربعين عاماً قضاها معلماً ومربياً، وواعظاً مرشداً، ومجاهداً بقلمه وعلمه.. إلى أن وافته المنية في التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٩٦٥، في عاصمة الجزائر بعد استقلالها بحوالي ثلاث سنوات.

... وقد كان للشيخ الابراهيمي منهج خاص في الاصلاح الديني والاجتماعي وتربية الرجال عبر عنه في كتاباته العديدة في جريدة البصائر الاسبوعية، ومجلة الشهاب الشهرية التي كان يصدرها الشيخ عبدالحميد بن باديس في الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٩ وبعض المجلات العربية الأخرى.

وفي هذه الكلمة الوجيزة بعض الأضواء على هذا المنهج.

ضرورة معرفة القائد بنفسية الأمة

يرى الشيخ البشير الابراهيمي أن على الشخص الذي يتصدى لخدمة أمته في أي ميدان من ميادين الحياة العامة أن يعرفها معرفة جيدة أولاً، إذ لا يمكنه أن ينجح في مهمته النجاح المطلوب إلا اذا عرف نفسيتها وعقليتها معرفة متعمقة؛ ليس هذا فحسب بل يطلب منه كذلك أن يقرأها كما يقرأ

الكتاب ، ويدرسها كما يدرس الحقائق العلمية حتى يضمن لنفسه النجاح المنشود في مهمته ، يقول الشيخ البشير الابراهيمي في جريدة البصائر « من أراد أن يخدم هذه الامة (الجزائر) فليقرأها كما يقرأ الكتاب وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية ، فاذا استقام له ذلك ، استقام له العمل ، وأمن الخطأ فيه ، وضمن النجاح والتمام له ، فان تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ، ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل » وقد استفاد الشيخ البشير الابراهيمي من هذا المبدأ فائدة كبرى في سائر ميادين عمله الاسلامي والعربي الهام الذي قام به طوال فترة رئاسته لجمعية العلماء بعد وفاة رئيسها الشيخ عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠) أثناء الحرب العالمية الثانية . يقول الشيخ البشير الابراهيمي في جريدة البصائر «أما أنا فأزعم أنني جربت ودرست ، وانني قرأت هذه الأمة وفهمتها كما أقرأ الكتاب وأفهمه ، وما هذا ببعيد ولا كثير على من خدم أمته ولابسها عشرات السنين معلماً مدرساً ، واعظاً خطيباً ، محاضراً ينتزع مواضيع محاضراته من وجوه الجمهور قبل أعمالهم » ومن هنا ندرك سر نجاح الابراهيمي في جمعه كلمة الشعب حول حركة الاصلاح والتربية والتعليم في الجزائر ، وتأييدها ومناصرتها بكافة أنواع التأييد والمناصرة ، حتى تغلبت على كافة الصعوبات والعراقيل التي وضعها الاستعمار في طريقها ..

... وقد برز نجاح الشيخ البشير الابراهيمي في هذا الميدان في المدارس العربية الكثيرة التي أسستها جمعية العلماء في عهد رئاسته لها وكذلك في النوادي الثقافية الكثيرة ، والمساجد الاسلامية ، والبعثات العلمية إلى خارج الجزائر لطلب العلم لأنه استطاع أن يغرس في نفوس أبناء الشعب عادة البذل بسخاء للمشاريع الوطنية واحتضانها ومساندتها على الأمور الضرورية للحياة لأنها السبيل الوحيد للمحافظة على المقومات الاساسية للأمة ، والطريق السليم لتحرير الوطن من الاحتلال الاجنبي الغاشم .

وقد تجلت هذه العادة ـ عادة البذل بسخاء للمشاريع الوطنية ـ في أعظم صورها خلال سنوات الثورة (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) حيث كان الرجال والنساء يتسابقون على بذل كل ما يملكون من مال ومتاع للثورة ، فضلاً عن بذل أنفسهم وأولادهم لها وبذلك نجحت الثورة الجزائرية وحققت انتصاراتها العظيمة على الاستعمار الفرنسي وأجبرته في النهاية على الاعتراف باستقلال الجزائر التام ..

مرونة شخصيته

هناك ميزة يمتاز بها الشيخ البشير الابراهيمي ينبغي الاشارة اليها في هذا الصدد وهي مرونة شخصيته وقدرته على التكيف مع مختلف المواقف ، والظروف ، والأشخاص ، فقد كان رحمه الله عندما يكون وسط جموع الشباب مثلاً يبدو لنا وهو في الستين من العمر وكأنه شاب مثلهم يضحك معهم ويمرح ويلقي بالنكت والملح ، والطرائف ، ويتناقش معهم في اهتماماتهم ، وأحلامهم ، وطموحهم ، وبذلك يزيل بسرعة الكلفة بينه وبينهم وبالتالي يكسبهم إلى دعوته وفكرته ..

أما اذا كان مع المواطنين من عامة الشعب فهو مثلهم كذلك يحادثهم بلغتهم ويضرب لهم الأمثال والحكم والنكت من أقوالهم ، وبذلك يدخل إلى قلوبهم من أحب طريق اليهم ، وبالتالي يكسبهم هم الآخرين أيضاً إلى الحركة الاصلاحية بواسطة هذه الرابطة الروحية القوية والصداقات المتينة التي يكونها بسرعة معهم نظراًلأنه قد أزال كل حاجز يمكن أن يحول بينه وبينهم ، وفتح لهم قلبه ونفسه فاذا هم يشعرون بأنه بمثابة الأب والصديق أو الأخ الكبير لهم جميعاً يعمل لصالحهم وصالح دينهم ولغتهم ووطنهم ، وبذلك يلتفون حول الدعوة التي يدعو لها (دعوة الاصلاح الديني والاجتماعي والتربية والثورة) ويتسارعون إلى بذل أموالهم للمشاريع التي يدعو لها ، وهذا هو سر نجاحه العظيم في قيادة حركة جمعية العلماء بعد وفاة الامام عبدالحميد بن باديس في ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ وقد ازدهرت على يديه الحركة الاصلاحية والتربوية ازدهاراً كبيراً حتى قارب عدد مدارس جمعية العلماء على ٤٠٠ مدرسة عربية تعلم أبناء الشعب اللغة العربية والدين الاسلامي في كامل أنحاء القطر قبل نشوب الثورة الجزائرية في عام ١٩٥٤ ـ والمعروف أن فرنسا كانت تعتبر اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية ، وبالتالي لا تدرس في المدارس التي تشرف عليها إلا على هذا الأساس وتحاربها حرباً شعواء ..

شجاعته في إبداء الرأي

وإلى جانب مرونة شخصيته ، وروحه المرحة ، هناك ميزة أخرى يمتاز بها الشيخ البشير الابراهيمي ، هي شجاعته الفائقة في ابداء الرأي وقول كلمة الحق ، مهما كانت الظروف ، ومهما تحرجت المواقف ، لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يخاف بأس الاستعمار وجبروته .

والذى يطالع مقالاته التي كان يكتبها في البصائر وهي مقالات نارية يهاجم فيها الاستعمار وأعوانــه بكل قوة وعنف لتملكه الدهشة من هذه الجرأة ، والشجاعــة التي كان يتمتع بهما وهو الأعزل من كل سلاح إلا سلاح الايمان بالله وحب الشعب له ، والتفافــه حول حركة جمعية العلماء ، التي كان يقودها مع ثلة من رفاقه .. فقد كتب في العدد الأول من السلسلة الثانيــة من جريدة البصائر في عام ١٩٤٧ مهاجماً الاستعمار بصريح العبارة وبلغة كانت في غاية القوة والعنف مبيناً جرائمــه ضد الشعب الجزائري . كتب يقول « جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر كمـا تجيء الأمراض الوافدة ، تحمل الموت وأسباب الموت » ثم يقول « والاستعمار سل يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح ، وهو في الجزائر قد أدار قوانينــه على نسخ الأحكام الاسلامية ، وعبث بحرمة المعابد ، وحارب الايمان بالالحاد ، والفضائل بحماية الرذائل ، والتعليم بافشاء الأمية والبيان العربي بهذه البلبلــة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير » ..

ويخاطب النواب الجزائريين في المجلس الجزائري في عام ١٩٤٧ فيقول « يا هؤلاء إن الاستعمار شيطان ، وإن الشيطان لكم عدو (فاتخذوه عدوا) ، وإن الاستعمار شر ، ومحال أن يأتي الشر بالخير ، ومحال أن يجني من الشوك العنب » .

... وفي عام ١٩٥١ كتب في نفس المعنى يقول : « الاستعمار لا يؤمن بالله حتى نسأله الانصاف لدينه الحق ، ولكنه يؤمن بالقوة فلنحذره عواقب الاغترار ، فان هذه الأمة في مجموعها قوة بعددها وبالمعاني التي استيقظت فيها ، وبايمانها بحقها ، وبتصميمها على استرجاعه فاذا تعامى (الاستعمار) عن هذه القوات كلها فان تقلبات الدهر ستفتح عينيه منها على ما يكره ، وإن الله للظالمين لبالمرصاد » .

لقد كانت جريدة البصائر الأسبوعية التي كان الشيخ البشير الابراهيمي يرأس تحريرها قبل أن توقفها فرنسا بعد نشوب الثورة الجزائرية حوالي عامين في مطلع عام ١٩٥٦ ملتقى للأفكار العربية والاسلامية الحرة الصادقة في الجزائر ، وكانت تتابع الأحداث الجزائرية ، وسياسة فرنسا في الجزائر ، كما كانت تولي أهمية بالغة للأحداث التي كانت تقع في الوطن العربي وبقية البلدان الاسلامية ، وكان قلم الشيخ بشير الابراهيمي البليغ بما عرف عنه من جرأة وبسالة ، وعمق يقف لهذه السياســة الاستعمارية بالمرصاد ويكتب في بيان خطرها على الوطن ، واللغة العربية ، والدين الاسلامي ، المقالات النارية التي تعتبر بمثابة قنابل تنسفها من الأساس .

وكان الابراهيمي كما قلنا لا يخاف ولا يماري في حقوق الوطن فقد كتب سلسلة مقالات في عام ١٩٤٩ تحت عنوان « التعليم العربي والحكومة (فرنسا) » كشف فيها بكل وضوح ألاعيب فرنسا ومناوراتها لوأد اللغة العربية في الجزائر ، بعد أن اعتبرتها قبل الحرب العالمية الثانية لغة أجنبية في هذا القطر العربي المسلم ثم كبلت تعليمها في الجزائر بمختلف القوانين الجائرة ، وقد جاء خاتمة تلك المقالات ه « أما الرأي الشجاع العاقل الحصيف الموزون بميزان العدل والحق فهو أن نجتمع

ونصمم ، ونعتمد على أنفسنا ونتوكل على ربنا ونتعلم ديننا ولغتنا وكل ما يخدمهما من علوم وفنون من البدايات إلى النهايات لأن ذلك ألزم لحياتنا ووجودنا من الطعام والشراب . ولا نبالي بأي مخلوق ، ثم يقول « أما نحن (يقصد أعضاء جمعية العلماء) فقد كنا علماء دين ، ودعاة علم وتربية ، وزراع خير ورحمة ، ولكن الحكومة (يقصد فرنسا) تعد هذا كله سياسة ، وتعتبرنا لأجله سياسيين فليكن ذلك ، ولنكن علماء وسياسيين ، ولنكن كل شئ ينفع أمتنا ويحمي ديننا ولغتنا ، ومادمت لا تجد صاحبك إلاحيث تكره ، فمن العدل ألا يجدك صاحبك إلاحيث يكره » .

... وهكذا إذا رحنا نتتبع كتابات الشيخ البشير الابراهيمي ومواقفه في مختلف المناسبات فسنجد أنه كان صاحب شجاعة نادرة في إبداء هذا الرأي والاصرار عليه مهما كانت القوة التي يواجهها ، وهذه الميزة أو الخاصية هي أيضاً من عوامل نجاحه الباهر في قيادة حركة الاصلاح الديني والتعليم العربي في الجزائر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة أول نوفمبر عام ١٩٥٤ .

رأيه في يقظة المسلمين

كان الشيخ البشير الابراهيمي يؤمن إيماناً عميقاً بأنه لا يمكن المحافظة على كيان الجزائر العربي الاسلامي في وجه موجات الغزو الفكري الغربي ، وسياسة الفرنسة التي إتبعتها فرنسا في الجزائر بعد الاحتلال مباشرة في عام ١٨٣٠ بقصد فصلها نهائياً عن جسم العروبة والاسلام ـ لايمكن المحافظة على هذا الكيان إلا عن طريق نشر التعليم العربي الاسلامي في البلاد لأنه هو وحده الذي يعمل على المحافظة على عروبة الجزائر واسلامها وبالتالي المحافظة على كيانها القومي العام ضد عوامل الهدم والتخريب الاستعمارية ، ولذلك وجه جل نشاطه وفكره ، وسخر قلمه البليغ للدعوة إلى نشر التعليم العربي في أوساط الشعب ، وحثه على تأسيس المدارس العربية التي تقوم بتدريس اللغة العربية والدين الاسلامي لابناء الجزائر ثم المطالبة بفصل الدين عن الحكومة الفردة حتى لاتكون لها أية صلة بالدين نظراً لأنها حكومة غير مسلمة ، وبالتالي لايحق لها التدخل في الشئون الدينية للمسلمين وتركهم أحراراً يتصرفون في مساجدهم وأوقافها وأئمتها كما يأمرهم دينهم الحنيف فقط .. وكانت فرنسا تدرك خطورة هذه الدعوة على سياستها الاستعمارية في الجزائر ، ولذلك كانت المعركة بينها وبين جمعية العلماء التي كان الشيخ البشير الابراهيمي يتولى رئاستها معركة رهيبة صامتة حيناً ، وجهرية مدوية أحياناً أخرى .

ومنهج الابراهيمي في الاصلاح الديني والاجتماعي للمجتمع العربي والمسلم في الجزائر يقوم بوجه عام على أساس الرجوع إلى الاسلام في منابعه الأولى التي هي القرآن الكريم ، وسنة محمد وكان يرى أنه لن تقوم للمسلمين قائمة ما داموا لم يجعلوا من الاسلام سلوكاً عملياً لهم في الحياة وماداموا بعيدين عن روح القرآن الكريم في أعمالهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والادارية والسياسية ، فقد كتب في مجلة الشباب التي كان يرأس تحريرها الإمام عبدالحميد بن باديس قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٢٥ ـ ١٩٣٩) كتب يقول « إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت ، وأنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ، ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة للقرآن » .

ويقول في مقال آخر طويل تحت عنوان « دولة القرآن » نشره في مجلة « المسلمون » مؤكداً على نفس الفكرة وهي أن السبب في تدهور المسلمين ، وضياع دولتهم ، وزوال هيبتهم أمام دول العالم ، هو بعدهم عن هداية القرآن الكريم ، وأنه لا مناص لهم من العودة إلى القرآن مرة أخرى إذا أرادوا استعادة مجدهم الغابر ، وهيبتهم الضائعة ، يقول « ما أضاع المسلمين ، ومزق جامعتهم ونزل بهم إلى هذا الدرك من الهوان ، إلا بعدهم عن هداية القرآن ، وعدم تحكيمهم له في أهواء النفوس ليكفكف منها ، وفي مزالق الآراء ليأخذ بيدهم إلى صوابها وفي معترك الشهوات ليكسر من شرتها ، وفي مفارق سبل الحياة ليهديهم إلى أقومها ، وفي شعب الأحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب » .

والشيخ البشير الابراهيمي في كتاباته عن واقع المسلمين في بداية هذا القرن الذي يغلب عليه طابع التأخر الفكري ، والحضاري ، والتمزق الأخلاقي ، والتبعية السياسية والاقتصادية للدول الأوربية المستعمرة ـ في كتاباته عن هذا الواقع يرجع أسبابه إلى عاملين اثنين في رأيه :

١ ـ إلى فريق من علماء المسلمين وضعوا أنفسهم موضع القدوة وهم ليسوا بأهل لها .

٢ ـ إلى طوائف من غلاة المتصوفة الذين اختلت عندهم الموازنة التي أقامها القرآن الكريم بين الجسم والروح .

يقول في مقاله سالف الذكر (دولة القرآن) « ومازاد المسلمين ضلالاً عن منبع الهداية وعماية عنها إلا فريق من العلماء وضعوا أنفسهم في موضع القدوة والتعليم .. ثم طوائف من غلاة المتصوفة انتحلوا وظيفة التربية والتقريب من الله ـ فهم الذين أبعدوهم عن القرآن وأضلوهم عن سبيله بما زينوا لهم من اتباع غير سبيله .. ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم يصدرون في شأن القرآن عن هوى لا عن بصيرة الخ » ونفس هذا المعنى تقريباً تناوله في مقال آخر تحت عنوان « داء المسلمين ودواؤهم » نشره في مجلة « المسلمون » وقد تعجب فيه قائلاً « كيف يسقط المسلمون هذا السقوط المريع وفيهم كل أسباب الصعود وبين أيديهم كل ما ارتقى به أسلافهم من كتاب وسنة ، ولغة عربية ان لم ترتق فهي لم تنحدر » ويكرر القول بأن السبب في ذلك هو بعد المسلمين عن هداية القرآن ثم يضيف سبباً آخر هو « تقليد المسلمين الأعمى لأوربا في قشور الحضارة ، وتوافهها لا في جوهرها وأصولها التي تقدمت بها أوربا على العالم الاسلامي وحازت بها قصب السبق ..

التربية وتكوين الرجال

يؤمن الشيخ البشير الابراهيمي إيماناً مطلقاً بالعلم ويرى فيه السبيل الوحيد لنهضة الأمة وانتشالها من مخالب التخلف السياسي والاقتصادي ، والثقافي والاجتماعي ، واعدادها للمعركة الفاصلة مع المحتل الغاصب الذي يجثم على صدرها غير أن العلم وحده ليس كافياً في رأيه لتكوين رجال يعتمد عليهم في النهوض بهذه المهمة الخطيرة اذا لم يكن هذا العلم يستند إلى تربية اخلاقية واعية ..

... لقد لاحظت من خلال مطالعاتي لمقالاته في جريدة « البصائر » ومجلة « الشهاب » ومجلة « المسلمون » وفي سائر انتاجه الذي وقع تحت يدي وكذلك من خلال ملازمتي له مدة إثنى عشر عاماً كاملاً لاحظت أنه يجعل التربية في المنزلة الأولى ثم التعليم في المنزلة الثانية وكان يرى بأن السبب في تدهور الشعب الجزائري بعد الاحتلال لا يرجع في الواقع إلى قلة المتعلمين من أبنائه بقدر مايرجع إلى تدهور أخلاقهم التي كانت على غاية من السوء ... وفي هذا المعنى كتب في جريدة البصائر يحث المعلمين في مدارس جمعية العلماء على وجوب التمسك بالأخلاق القويمة لأنهم هم الذين يصنعون الأجيال الصاعدة التي تعتمد عليها الجزائر في المحافظة على كيانها ، وفي افتكاك استقلالها من المحتل الغاصب .. وشرح لهم بأنهم سوف ينجحون في مهمتهم التربوية إذا كانت أخلاقهم مستقيمة حتى ولو كان حظهم من الكفاءة العلمية ليس على مايرام يقول « لا يضيركم ضعف حظكم من العلم اذا وفر حظكم من الأخلاق الفاضلة ، فان أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل أشد وأوكد من حاجتها إلى العلم لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم ولكن من نقص في الأخلاق . »

وهناك نصوص كثيرة من كتابات الشيخ البشير الابراهيمي في مختلف المناسبات توضح ايمانه

العميق بالعلم وضرورة توفيره لأبناء الأمة من ذلك مثلاً أنه كتب افتتاحية بليغة في « البصائر » عن التعليم وضرورة تكاتف أبناء الشعب لتشييد المدارس العربية في كل مكان حتى يمكنها أن تستوعب الأطفال الذين يقضون حياتهم خارج أسوارها لأنهم لم يجدوا لهم أماكن فيها نظراً لقلتها وعدم عناية الحكومة الاستعمارية بتوفيرها لتعليم أبناء الجزائر ـ فهؤلاء الأطفال هم عماد مستقبل الوطن في تحرره وخلاصه من الاحتلال يقول : « حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس ، مافي ذلك شك إلا في قلوب ران عليها الجهل ، وشملها الفساد ، ونفوس ختم عليها الضلال ، وضرب على مشاعرها المسخ ، وطال عليها الأمد في الرق فصدئت منها البصائر ، وعمت الأبصار فتغير نظرها في الحياة ووسائلها ، فرضيت بالدون ، ولاذت بالسكوت ... الحياة بالعلم والمدرسة منبع العلم . ومشرع العرفان ، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة ، فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم ذل ، ومن التمس الهداية اليه من غيرها ضل ، وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد صدق على ذلك . » ثم يقول : « إن الأمم تبني ما تبني من القصور وتشيد ما تشيد من المصانع وتنسق ما تنسق من الحدائق ، وتحف ذلك كله بالسور المنيع فإذا ذلك كله مدينة ضخمة جميلة ، لكنها بغير المدرسة عقد بلا واسطة ، أو جسم بلا قلب » .

والتربية القويمة والتعليم السليم ينبغي أن يكونا في نظره باللغة العربية لأنها وعاء ثقافتنا ، وحافظة تراثنا الفكري والحضاري ، وذلك بالخصوص في المرحلة الأولى من التعليم حتى يشب الطفل على محبة قومه ، وتاريخ بلاده ، والولاء لوطنه ثم لا بأس بعد ذلك من دراسة اللغات الأجنبية في المراحل التعليمية التالية بعد أن تنضج مداركه النضج الكافي ، وهو في هذا الرأي يتفق مع أحدث النظريات التربوية التي تنادي بأن الطفل لا يستطيع أن يتلقى تعليمه الابتدائي بلغتين مختلفتين في وقت واحد لأن ذلك يرهق ذهنه الغض وفي نفس الوقت سوف يكون على حساب لغة قومه الوطنية بدون شك ولا ريب والمطلوب هو العناية باللغة القومية في الدرجة الأولى في هذه المرحلة الاساسية من التعليم .

فقد كتب في عام ١٩٤٧ سلسلة مقالات تحت عنوان (التعليم العربي والحكومة) جاء في بعضها مايلي بالحرف الواحد « اللغة العربية هي لغة الاسلام الرسمية ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان كل منهما يقتضي وجوب تعلمها ، فكيف اذا اجتمعا :

١ ـ حق من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة .

٢ ـ وحق من حيث أنها لغة جنسها في المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معاً ومن هنا نشأ مانراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية .. »

ويشرح خطورة التعليم باللغة الأجنبية وحدها وعدم تعليم أبناء الجزائر باللغة العربية التي تعصمهم من الزلل والانحرافات الفكرية والقومية فيقول « والتعليم الأجنبي (يقصد الفرنسي) على تفاهته في الكيف ، وقلته في الكم وعلى اضطرارنا اليه ، واقبالنا عليه يسبقه جهل ، وتقترن به آفات وتعقبه مفاسد ، وهو على ذلك كله يفتح عينا ليعمي عينا ، ومن بلغ إلى غايته منا أصبح بالطبيعة متنكرا لماضيه ، ودمه ، وقومه ، لأن ذلك التعليم وجده فارغا فملأه بما يشاء هو لا بما نشاء نحن » .

وقد كان الشيخ البشير الابراهيمي يعمل في المدارس التي كانت تخضع لاشراف جمعية العلماء على أن تبني التربية فيها على أساس الدين والمقومات الوطنية أي أنه كان يرى أن يكون تدريس التربية الدينية إجبارياً مثل تدريس العلوم والآداب والاخلاق والرياضيات . فحاجة الأمة كما كان يردد دائماً إلى رجال أقوياء في أخلاقهم وسلوكهم العام ، أحوج منها إلى علماء متبحرين في مختلف العلوم والفنون ولكنهم ضعفاء في إيمانهم وأخلاقهم .

فهؤلاء يمكن الاعتماد عليهم في الشدائد والملمات ، وفي المحافظة على التراث القومي للبلاد ، أما الآخرون فانه يسهل التأثير عليهم واغراؤهم كي يتنكروا لشعوبهم وقوميتهم من طرف رجال الاحتلال بل وربما خانوا وطنهم ..

وقد تطرق من هذا إلى ضرورة عدم سفر أبناء المسلمين للدراسة في أوربا الا بعد أن يتعلموا في بلادهم تعليماً قومياً متيناً حتى لا ينخدعوا ببريق المدنية الأوربية عندما يسافرون إلى أوربا وبالتالي قد يتنكرون لتاريخهم وقوميتهم وثقافة بلادهم ، يقول في مقال تحت عنوان « داء المسلمين ودواؤهم » أن جل أبنائنا الذين التقطتهم أوربا لتعليمهم عكسوا آية فرعون مع موسى . ففرعون التقط موسى لينفعه ويتخذه ولدا ، ورباه صغيرا وأحسن اليه فكان موسى له عدواً وحزنا وسدة عين ، أما أبناؤنا فقد التقطتهم أوبا وعلمتهم وربتهم فكانوا عدوا لدينهم وحزنا لأهله وسخنة عين لأهلهم وأوطانهم إلا قليلاً منهم » ثم يقول :

« .. ان الغرب لا يعطينا إلا جزاءاً مما يأخذه منا ولا يعطينا إلا ما يعود علينا بالوبال وقد أعناه على أنفسنا فأصبح المهاجر منا إلى العلم يذهب بعقله الشرقي فينبذه هناك ، كأنه عقال على رأسه ، لا عقل في دماغه ثم يأتينا يوم يأتي بعقل غربي ، ومنهم من يأتي بعقل غربي ومعه امرأة تحرسه أن يزيغ . »

وبالجملة فالتعليم في نظر الشيخ البشير الابراهيمي لا يمكن فصله عن التربية وهو يرى أن حاجة الجزائر الأكيدة قبل الاستقلال هي إلى شئ قليل من العلم وفي نفس الوقت إلى قدر كبير من الأخلاق الفاضلة ، التي لايمكن اكتسابها إلا عن طريق التربية الدينية والأخلاقية ..

وهكذا تتجه فلسفة الابراهيمي في تكوين الرجال إلى الجانب الأخلاقي والروحي فيهم قبل الجانب الفكري المحض أو الجانب المعرفي المحض يقول الشيخ الابراهيمي في شرح مذهبه أو فلسفته هذه : « كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في عام ١٩١٣ في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم ، وانما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل ، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا » وهذا ما يفسر لنا كثرة توجيهاته إلى المعلمين الأحرار بأن يولوا عنايتهم في مدارس جمعية العلماء بتقويم الأخلاق ، واصلاح العوج منها عند التلاميذ ، قبل أي شئ آخر يقول الشيخ الابراهيمي في هذا المعنى : « أحرصوا (الخطاب موجه للمعلمين) على أن تكون التربية قبل التعليم واجعلوا الحقيقة التالية نصب أعينكم وحاديكم في تربية هذا الجيل الصغير ، وهاديكم في تكوينه وهي : « أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص في العلم ، وانما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق ، فمنها كانت الخيبة ، ومنها كان الاخفاق .. أنتم حراس هذا الجيل الجديد والمؤتمنون عليه ، والقوامون على بنائه ، وأنتم بناة عقوله ونفوسه فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة ، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية » .

الغاية من التربية والتعليم

كانت الغاية من وراء الجهود التي بذلها الامام عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠) ورفيقه في الجهاد وخليفته في جمعية العلماء الشيخ البشير الابراهيمي هي أن يكونا للجزائر جيلاً قائداً مسلحاً بالأخلاق الاسلامية المتينة والمعارف العلمية الضرورية لمعركة الحياة ـ وكانا يهدفان إلى أن يحمل هذا الجيل القائد الدعوة الاسلامية بين جوانحه ، والايمان بالعروبة والجزائر في قلبه كي يعمل بروح عربية ثورية على إنقاذ الجزائر من وهدة السقوط الأخلاقي الذي تردت فيه ، وانقاذ الوطن من مخالب الاحتلال الغاصب الذي جثم عليه قرناً ونيفاً من الزمن وقد تم لهما ما أرادا حيث أصبح تلامذة ابن باديس والابراهيمي ينتشرون في كل مكان من أرض الجزائر ، وجاءت ثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ فوجدت الجيل الذي كونه ابن باديس والابراهيمي وجمعية العلماء على أساس الاسلام والعروبة والوطنية الصادقة في طليعة الثوار الذين جاهدوا بصدق وايمان وبطولة من أجل تحرير الجزائر العربية المسلمة ـ مع سائر المجاهدين الصادقين من أبناء الجزائر البررة ..

تركي رابح ـ جامعة الجزائر المركزية

حقيقة اليوم الذي تغيَّرت فيه الدنيا

الأصول العربية للنهضة الأوربية

بقلم : الفريد فرج

تناثرت المخطوطات العربية فى أنحاء أوربا بعد سقوط الأندلس فصنعت عصر النهضة الأوربية. وقد أنكرت أوربا فضل العرب على الغرب مئات السنين بدواعى التعصب أو بادعاءات التفوق والامتياز. ولكن يطيب لنا من وقت لآخر أن تتخلى أدبيات التاريخ الأوربي عن ذلك التعصب لتضيف إلى معلومات الناس جانبا من الحقائق وصفحات جديدة من فضل العرب على أوروبا

وأشهر الكتب الحديثة فى هذا الموضوع كان كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية زيجفريد هونكه .. بينما أحدث الاسهامات في هذا الصدد كانت سلسلة البرامج التليفزيونية التى أنتجها التليفزيون البريطاني وحققها وقدمها جيمس بيرك بعنوان : «اليوم الذي تغيرت فيه الدنيا ـ نظرة شخصية».

وقد اعتاد مؤلفو تاريخ العلوم وتاريخ الحضارة الغربية التغاضي عن هذه الأيام الحاسمة في تاريخ أوربا التي باع فيها الغزاة الاسبان مكتبة قرطبة بعد سقوطها ، وكانت تضم أربعمائة وأربعين ألف مجلد ، إلى الباعة المتجولين .. وباعوا مكتبة طليطلة بعد سقوطها وكانت تضم أكثر من خمسمائة ألف مجلد ! وباعوا مجلدات المكتبة العامة لغرناطة ..

وحمل الباعة أحمالهم على ظهور البغال فى قوافل طويلة ، عبروا بها الهضبة الأسبانية وجبال البرانس وانتشروا بها فى أوربا يبيعونها للطلبة والمترجمين والدارسين .. وتغير بها وجه الحياة فى القارة التي عاشت قبلها فى الظلام.

وقد دأب المؤلفون الأوربيون على تحجيم هذا الحدث الخطير أو تجاهله أو إنكاره بدواع عنصرية أو استعمارية تناسب إدعاءاتهم بالتفوق والامتياز.

ولكن بسقوط دعاوي التفوق والامتياز وانهيار إدعاءات العنصرية فى القرن العشرين .. لم يعد إنكار فضل العرب على الغرب مستساغا أو سهلا ، وأصبح من الوارد أن تهتم أدبيات التاريخ الأوروبي بطرح أبعاد التأثير العربي فى عصر النهضة الأوربية على نحو يخدم العلم والحقيقة.

الظلام الأوربي .. ما هو ؟

تعال نلق نظرة على أوروبا قبل سقوط الأندلس.

كانت أوروبا الممتدة من روسيا إلى فرنسا ،

ومن السويد إلى إيطاليا تعيش عصراً من البداوة والجهل والخوف والترحال لم يعرف الشرق له مثيلا إلا قبل آلاف السنين .

ومنذ انهيار الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى كانت هذه حال قبائل الواندال والأنجلوساكسون والهون والغال وغيرها على السواء .

وابتداء من القرن السادس الميلادي كان الرهبان يتداولون في أديرتهم كتابا للقديس أوغسطين مؤلفا عن انطباعات تاريخية قديمة عن الحياة الآخرة ، ولم تكن ثمة علوم دنيوية مدونة ، وكان القديس يدعو مريديه لادارة ظهورهم للعالم الفاني والتعلق بالتفكير في يوم الحساب والحياة الآخرة .

وكان الرهبان يحفظون ذلك الكتاب ويقضون حياتهم خلف الجدران السميكة للأديرة فى عزلة اختيارية عن العالم ، وقد اعتصموا بحصونهم المنيعة ، يقرأون ويكررون قراءة القديس أوغسطين .

وفي القرن السابع الميلادى استطاع بعض الرهبان أن يجمعوا بعض المعارف القديمة التي ترجع إلى العصر الروماني وصاغوها في مختارات وملخصات ومقتبسات جمعوها في مجلد واحد صاروا يعلمونه للنشء جيلا بعد جيل .

كانت المعرفة ثابتة .. مثلما كانت رسوم الكنائس ثابتة لا تتغير .

وكانت كل معرفة يملكونها قديمة ترجع إلى قرون خلت .. يقرأونها وكأنهم يحلمون بماض أفضل من حاضرهم ويتلهفون على العيش فيه ، بالوهم ان استحال رجوعهم إليه في الحقيقة .

شـــــارلمان

وفجأة أضاء أوروبا قبس ضئيل وقصير . فقد تولى شارلمان الملك عام ٧٦٨ م ثم توجه البابا امبراطورا عام ٨٠٠ م وكان ملكا طموحا وعلى صلة بالخلفاء العباسيين فأمر باستدعاء جميع النساخين في بلاده وأمرهم بالاتفاق على شكل موحد للحروف الهجائية وما ترمز إليه من أصوات ، والاتفاق على أسلوب واحد فى تهجي الكلمات ..

هكذا ولدت اللغة الألمانية وضبطت الحروف اللاتينية التي كتبت بها فيما بعد جميع اللغات الأوربية ، في القرن التاسع الميلادي .

كما أمر شارلمان بفتح مدرسة لتعليم النشء في كل كاتيدرائية وفي كل دير في بلاده ، وأمر بوضع كتاب جديد يجمع شذرات المعرفة المتداولة في عصره . فوضع المؤلفون ذلك الكتاب وقسموه إلى سبعة أبواب هي :

الحقائق المتداولة عن الزراعة والحرف . نظرية للموسيقى لضبط أغانى الصلوات . الحساب لضبط الضرائب والنفقات . الهندسة للبناء .

الفلك لضبط التقويم وحساب الأيام .

قواعد اللغة والبلاغة لضبط معانى الكلمات ، المنطق لفهم اللغة .

وقد دونت في هذا الكتاب الشامل كل المعارف القديمة . وتم نسخه وتعميمه فى المدارس .

ولكن شارلمان توفى عام ٨١٤ م ، واجتاحت أوروبا غزوات الفايكنج وهي قبائل متوحشة خربت المدن والسواحل ووفدت من الشمال .

مليون مجلد من روائع الثقافة العربية في غرناطة وقرطبة يستولى عليها الباعة المتجولون بعد سقوط الأندلس .

فعادت أوروبا إلى الظلمات ..

وعادت الفوضى والخرافة والجهالة إلى عهدها في كل انحاء القارة ..

وعاد الخوف والترحال ..

الأســـواق

وبعد انحسار موجات الفايكنج ، استقرت الحياة إلى حد ما ، فعرفت أوروبا الأسواق .. ابتداء من منتصف القرن العاشر الميلادى ، وبدأت حركة التجارة . انعقدت الأسواق اسبوعية ، ثم صارت بعضها أسواقا يومية ، وبدأت عادة الشراء والبيع وتبادل الانتاج وأول بوادر تقسيم العمل . كما بدا العمران يمتد حول الاسواق ، لتنشأ القرى الكبيرة أو المدن الصغيرة هنا وهناك .

وفى منتصف القرن الحادى عشر أصبحت مدينة بولونيا الإيطالية الواقعة في وسط البلاد وملتقى الطرق مركزا تجاريا مهما .

ويلاحظ أنها ككل المدن الإيطالية المعاصرة قد بنيت حول ميدان كبير ذى أربعة أضلاع .

قصر الحاكم يشغل أحد الأضلاع .

والمجلس الحاكم يشغل الضلع الثاني .

والكنيسة هى الضلع الثالث .

والسوق هي الضلع الرابع .

ومع ازدياد حركة التجــارة لم تــكن الأمــور على ما يرام في المدينة التجــارية الجديدة .. حيث أفتقدت المدينة وافتقد السوق النظام القانونى والقضائي الذي ينظم المعاملات .

كانت الخلافات التجارية أو المدنية تسوى على أساس العرف والعادات والتقاليد القبلية البربرية وبالاحتكام إلى الكبراء .

وهذه أحكام فضفاضة ومطاطة لا يطمئن لها سوق .

فالسوق يحتاج إلى تشريع ويحتاج إلى قاض يحكم بالقانون .

فى عام ١٠٧٦ م عثر راهب اسمه ديونيرياس على قانون جستنيان الروماني ، وأعاد نسخه بعد أن أثقله بالشروح والهوامش . ولكن ذلك القانون ظل صعبا على الفهم ، كما أنه وضع في ظروف مختلفة فلم توافق نصوصه الحال دائما ، واجترأ الكثيرون على الاجتهاد فيه معا دفع البولونيين للنظر نحو النظام القضائي بالاندلس .

قـــرطبـة

إذا أحببت أن تعرف قرطبة في ذلك الزمان من القرن العاشر والحادي عشر الميلادي .. فإن صورتها لم تكن تختلف عن بغداد أو القاهرة أو دمشق فى أزهى عصورها .

ولم تكن قرطبة تختلف عن طليطلة أو اشبيلية أو غرناطة إلا بأنها عاصمة الأندلس .

هي أكبر مدينة أوروبية ومنارة ثقافية عالمية .

تعدادها مليون نسمة وعمرانها حجمه مائتان وستون ألف مبنى ، وبها ثمانون ألف دكان وثلاثة آلاف مسجد وثلثمائة حمام وقصور ومكتبة عامة تضم حوالى نصف مليون مجلد .

ازدهرت بقرطبة ، وبالأندلس عامة صناعات

الأصول العربية للنهضة الأوربية

المعمار والحرير والجلد والحلى والمعادن ، كما عرفت تجارة المحاصيل وفنون الري والزراعة .

كانت شوارع قرطبة تضيء بالليل وتحفها الأرصفة من الجانبين ، وأمسياتها غنية بالشعر والغناء والموسيقى ، وأسواقها تبيع الكتب التى ينسخها النساخون على الورق ويزينونها بالرسوم .

ولعل الزائر الأوروبي كان يذهله معمار مسجدها الكبير بمقرنصاته وشبابيكه المزخرفة بالزجاج وغابة الأعمدة التي تعتمد السقف أو أسلوب تحميل المبني على الأكتاف الحجرية مما يعتبر لغزا معماريا فى نظر الأوروبيين .

أو لعل الزائر الأوروبي كان يذهله نظام النافورات والفسقيات وجريان الماء إلى المستويات العالية بالضغط ، ويعجب من ذلك الأسلوب الذي يتيح للفلاحين ري الأراضى العالية .

وقد كانت قرطبة حاشدة بالعلماء والدارسين للتفسير والتشريع وعلوم اللغة وعلوم وفنون الطب والجراحة ، والموسيقى وأنماط السلوك المرفه الذي نقله الفنان زرياب من بغداد العباسيين وزاد عليه من ترتيبات الترف .

ولابد أن الزائر الأوروبي لقرطبة كان يعجب من تغير أزياء الناس بين الصيف والشتاء ، وسنة بعد سنة ، أو كان يعجب من أنماط السلوك على مائدة الطعام وتعدد الأطباق وتناول الحلوى بعد الطعام .

وقد كان التسامح الديني بمدن الأندلس يسمح للمسيحيين بالاحتفاظ بكنائسهم وبإقامة شعائر دينهم .. مما يضاعف بشاعة ما أقام الأسبان بعد انتصارهم من محاكم التفتيش وما مارسوه من اضطهاد للمسلمين ولابناء دينهم أيضا .. مما وصف بشاعته التاريخ .

ولم تكن اللغة العربية مجهولة فى أسواق المدينة أو خاناتها ، مما ساعد على اقبال الزائرين وذيوع أضواء الحضارة العربية .

١٥٠ سنة بعد سقوط قرطبة

سقطت طليطلة عام ١٠٨٥ م بينما كانت بولونيا تبحث عن نظام قضائي للسوق . وسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ م وسقطت غرناطة عام ١٤٩٢ م ونصبت فى كل مدينة من هذه المدن أسواق لبيع المخطوطات التي ذاعت شهرتها فى أوروبا كلها وحملها التجار عبر الدروب الوعرة لبيعها فى الاديرة والمدارس والقصور في كل انحاء القارة .

ويقدر جيمس بيرك أن النساخين والمترجمين استغرقوا مائة وخمسين سنة في نقل الكتب العربية إلى اللغات الأوربية .

عرفت أوروبا خلال المائة والخمسين سنة من سقوط قرطبة علوما جديدة لم تخطر ببال أحد من قبل ولم تشر إليها مدونات شارلمان .. كالرياضة والجبر والهندسة والفلك (مسارات النجوم) والطب والتشريح وعلم النبات وعلم الحيوان والكيمياء والصيدلة والطبيعة وعلم الضوء والمعمار والفلسفة .

كما عرفت أوروبا أرسطو على الوجه الصحيح .

وكانت أوروبا قبل نقل الكتب العربية تتناقل عن أرسطو بعض المأثورات السطحية والمجتزأة ، فعرفت أركان فلسفته لأول مرة بالعربية ، وكانت نظريته فى المعرفة والمنطق مفتاحا لمنهج جديد يتميز بضوابط دقة الفهم وسلامة الاستنتاج .

ومنذ وقوع أوروبا على ذخائر هذا الكنز الثمين تطور التشريع ونظام القضاء وانشأت بولونيا أول جامعة تمنح خريجيها شهادات معتمدة .

وعرفت أوروبا القياس العقلي ، كما عرفت فى مجال العلم التجربة والاختبار والتحليل والاستنباط

وأصبح اسم ابن رشد (١١٢٦ م ــ ١١٩٨ م) هو حجة المتعلمين فى أوروبا واشتهر بين العامة والخاصة .

البابا يتحرك

وقد عرف الأوروبيون بالطبع أسباب المطر وهبوب الرياح من الكتب العربية ، فآمنوا بجبرية القانون الطبيعى بحيث يمكن التعويل عليه فى الملاحة وفى الزراعة ..

ولكن هذه الجبرية كانت تناقض نظرية الكنيسة التي كانت تربط الظواهر الطبيعية بافكارها حول الرحمة واللعنة .

كما أن العلوم الجديدة أحدثت ثورة في الأفكار التقليدية .. مما دفع البابا عام ١٢١٠ إلى تحريم تداول الكتب العربية أو ترجمتها أو الجهر بما فيها .

فكأن ابن رشد قد نكب مرتين .. مرة فى قرطبة مدينته العامرة إذ اتهم فى دينه ومرة فى روما !

ولكن قرار البابا لم يحدث ما كان مرجواً منه .. فأضرب طلبة جامعة باريس عن تلقي الدروس اضراباً طويلاً استمر ست سنوات ، وأحدث الطلبة والعلماء فى مختلف أنحاء القارة شغبا أدى إلى مساع بين الطرفين لاحداث نوع من الوفاق على أساس أن الانسان يمكنه أن يكتشف الظواهر الطبيعية وقوانينها بالعقل الذي هو منة الله عليه ، ولكن أسرار الايمان يجب أن يظل موضعها الروح والقلب .

وهكذا رفع البابا أحكام الحرمان عن العلماء ، وأصبحت أسماء ابن سينا وابن حزم والخوارزمي والفارابي والادريسى إلى جانب أرسطو من الأسماء التي يتداولها الخاصة ليتميزوا بمعرفة علومهم . وسقطت بذلك الأوهام الأوروبية القديمة والمعارف الثابتة وفتحت أبواب المدن والقرى البربرية الأوربية لعصر النهضة وللتقدم العلمى والفنى والثقافي والفكرى .

العلوم إنسانية

من المجالات التى لا تطرقها جامعاتنا إلا نادرا هذا المجال : تاريخ العلوم .

واعتقد أن تكثيف البحث فى تاريخ العلوم العربية لابد أن يساعد فى حل بعض المعضلات الفكرية التي يعانيها المواطن العربي العصري .

فمع أن أوروبا قد اغترفت العلوم العربية ونشطت في تنميتها وتطويرها واستخدامها لتطوير الحياة على وجه القارة واستمدت منها القوة والقدرة على التقدم .. فمنا من لا يزال يتهيب الأخذ من الغرب .

وإن كانت أوروبا قد أنكرت فضل العرب واللغة العربية عليها هذا الانكار الطويل ، فإن واجبنا يحتم علينا ألا ننساق وراء دعاواهم الكاذبة فننكر مثلهم ذلك الفضل ضمنا .. بوصف العلوم والفنون الحديثة بأنها غربية الأصل والمسيرة فنتحرج من استردادها ونحن أصحابها .

إنها علومنا التي أضاءت ظلمات أوروبا ، وأفكارنا التى أثارت أفكارهم . فلا محل للتحوط أو النكوص عن استردادها وأن ننعم بثمارها وبتطوراتها .

إن ذلك ليس تغريبا أو اغترابا ، فقد نبعت العلوم من أصالتنا ، وأصالتنا قديرة على استيعابها واستقبالها بقلب مفتوح .

الفريد فرج

لندن

ابن تيمية
ومعاركه ضدّ الجهل والتخلف والجمود

بقلم: عبدالقادر بن محمد العماري

لقد أحسن التليفزيون القطري صنعاً بانتاجه مسلسلاً عن شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم الحراني المشهور بابن تيمية هذه الشخصية الاسلامية الفذة التي كان لها دور عظيم في ايقاظ المسلمين وتصحيح عقائدهم. وقد أجاد الممثلون واتقنوا أدوارهم وخاصة الممثل الكبير عبدالله غيث الذي مثل دور ابن تيمية.

لقد خاض الامام ابن تيمية معارك ضارية مع عصابات الجهل والجمود والتخلف الفكري كما خاض أيضاً معارك سياسية وحربية مع الطغاة والظلمة، وقاد المقاومة الشعبية للدفاع عن الوطن الاسلامي ولا زال هذا الامام بتراثه وفكره وكتبه التي تركها لنا يخوض المعارك الفكرية مع تلك القوى الجاهلة التي بدأت الآن بالقاء السلاح بعد أن عم الوعي في الشعوب وعرفت الحق من الباطل، فالى وقت قريب كان ذكر ابن تيمية عند كثير ممن يتسنمون المراكز الدينية في العالم الاسلامي ويتصدرون قيادة الفكر الديني يثير الغيظ والحنق والانفعال ويوصمونه بأقذع الألفاظ ويوجهون اليه أفظع التهم فقد اتهم ابن تيمية بالكفر والزيغ لأنه كشف الحجاب عن محاولات قوى البغي والظلام في ابقاء الشعوب الاسلامية أسيرة الجهل والتخلف وفرض آراء وأفكار تكرس الجهل والضلال.

لقد تضامن الحكام الظلمة ومشايخ الطرق الصوفية من أجل استغلال الشعوب فقام هذا الامام فصرخ في وجوه أولئك المستغلين قائلاً كفاكم تضليلاً وظلماً للمسلمين وكفى تمتيماً على الحق الذي جاء به الاسلام فلا نافع ولا ضار الا الله ولا وسطات بين العبد وربه ولا كهانة ولا استغلال في الاسلام.

وكم قرأنا في كثير من الكتب الصفراء وكم سمعنا من وعاظ وقصاص يسمون أنفسهم علماء تهجماً على هذا الامام كقولهم انه ضال مضل وقبل سنوات جاء شيخ أزهري صوفي تولى منصباً دينياً في احدى دول الخليج فحرض على حرق كتب ابن تيميه ولا زال بعض المشايخ ممن هم على شاكلة هذا الشيخ الأزهري يتهجمون على الامام ابن تيميه في كتبهم مثل ذلك الأزهري الذي ألف كتاباً بعنوان (ابن تيميه ليس سلفياً) أراد أن يتقرب بكتابه هذا إلى مشايخ الطرق في البلاد التي أصدره فيها ولا زال كثير من المشايخ يبررون البدع والخرافات التي أنكرها ابن تيميه لأنها تتعارض مع الاسلام.

ولأن ابن تيميه له آراء جريئة في الفقه أيضاً فقد أثار بذلك حفيظة الفقهاء المتعصبين من اتباع المذاهب الأخرى لأنه لا يتقيد في آرائه إلا بالدليل القوي من الكتاب والسنة على الرغم أنه حنبلي المذهب إلا أنه لا يتعصب لمذهب معين فالرأي الذي يؤيده الدليل أو تقتضيه المصلحة العامة يقف إلى جانبه ففتواه في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد التي خالف فيها المذاهب الأربعة لا زال يتردد صداها إلى اليوم بعد أن أخذت برأي ابن تيمية في هذه المسألة أكثر الدول الاسلامية في قوانين الأحوال الشخصية لأن رأي الجمهور في هذه المسألة هو المرجوح في ميزان الأدلة ودعوى الاجماع عليه ليست صحيحة والعمل برأي ابن تيميه في هذه المسألة فيه مصلحة جمع شمل الأسرة وحماية الأطفال من الضياع ولا يعقل أن كلمة واحدة قد يقولها الرجل من غير تفكير تكون سبباً في شتات أسرة بكاملها. والذين يصرون على رأي الجمهور في هذا العصر انما يدفعهم التقليد والحساسيات المذهبية وان غلبتهم الآراء وأيدت السلطة القول المخالف لرأي الجمهور اتباعا للمصلحة العامة للاقلال من حوادث الطلاق، قبلوا ذلك على مضض ثم اندفعوا في ايجاد المبررات بأن العصر يقتضي ذلك حتى لا يلجأ الناس إلى التحليل عن طريق التيس المستعار وكأن هذا التحليل لم يكن إلا في هذا العصر ولم يكن في عصر ابن تيميه الذي ذكره من جملة الاسباب التي جعلته يميل إلى هذا الرأي والغريب أن من جملة أسباب سجن ابن تيميه قوله بهذا الرأي الذي يكاد كل المسلمين يعملون به الآن والعجيب أن أحد الدكاتره أراد أن يوفق بين عاطفته المذهبية وواجبه كأستاذ للشريعة في كلية الحقوق فبعد أن شتم ابن تيميه وانتقد مخالفته للجمهور في هذه المسألة ذهب يبرر ما أخذ به قانون الأحوال الشخصية في هذه المسألة في البلد التي يعمل بها حتى لا يقال انه يعارض القانون.

ومن الآراء التي تبناها ابن تيميه رحمه الله مسألة عدم الاجبار للبنت في تزويجها وعدم أحقية أوليائها في تزويجها بمن لا تريده فقد كان ذلك أمراً سائداً في عصر ابن تيميه لأن بعض الفقهاء جارى التقاليد القبلية مما أضفى عليها نوعاً من الشرعية على الرغم أن هناك أحاديث نبوية صحيحة تؤكد على أن من حق البنت البكر أن تختار الزوج الذي تريده وليس لأوليائها أن يجبروها على من لا تريد، وقد شرح ابن القيم رأي شيخه ابن تيمية قائلاً (كيف ان الأب لا يستطيع أن يتصرف في الشيء اليسير من مال بنته من غير أخذ موافقتها ولا تؤخذ موافقتها فيما يتعلق بنفسها كيف يجوز أن يزفها بغير رضاها إلى من يريده هو وهي كارهة مبغضة لهذا الزوج الذي يريد أبوها أن يزفها اليه).

فمواقف ابن تيميه سواء في ميدان الحرب وردع المعتدين عن حياض الوطن الاسلامي أو في الميدان الاجتماعي أمر خلده له التاريخ وذلك ما يعرضه له المسلسل من تاريخه رحمه الله فجزى الله ابن تيميه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء وياليت علماء الاسلام اليوم يسلكون نهجك أيها الامام العظيم ويتبعون طريقك التي هي طريق الحق وهي التي ستقود المسلمين إلى النجاح في الدنيا والآخرة.

وأتمنى أن تقوم كل التليفزيونات في العالم الاسلامي بعرض هذا المسلسل حتى يعرف المسلمون جهاد هذا الامام العظيم، واني على يقين أن عرضه سيجد اعتراضاً من قبل بعض المخرفين من المتصوفة في العالم الاسلامي كما هي عادتهم في محاربة الحق وشكراً لتليفزيون دولة قطر.



مساكين أهل العشق

بقلم: الدكتور عبد السلام العجيلي

بين محفوظاتي بيت شعر قديم كنت قرأته في أيام الصبا في ألف ليلة وليلة ، هو التالي :

مساكين أهل العشـق ، ما كنت أشترى جميع قلـوب العـاشقين بدرهـم

تلوت بيت الشعر هذا على صاحبي يوسف بك ، وأسميه هكذا تعمية مني على اسمه الحقيقي ، في آخر لقاء لي به في مدينته التي زرتها منذ مدة قريبة ، فبدا عليه الامتعاض كأني أسأت به اليه . كان قد فتح لي صدره وقص علي من أمره ما ساقني الى ترديد هذا البيت عليه . إلا أنه ما لبث أن ابتسم ابتسامة خفيفة وقال ، بعد أن فكر قليلا : صدقت ، أو صدق قائل هذا الشعر .. الحق معه ، والحق معك ...

ويوسف هذا صاحب قديم لي ، تعود معرفتي به إلى أول شبابنا حين جمعتنا مقاعد الدراسة الثانوية وبعض فترة دراستنا العليا . عدت أنا إلى بلدتي الصغيرة بينما ظل هو في مدينته يتدرج في طريقه الذي اختاره لحياته إلى أن اصبح ذا اسم شهير ومكانة كبيرة .

كان له من هيبة الناس ما يغنيه عن تخوفهم منه ، وما كان يسمع ممن حوله إلا عبارات التقدير ولا يرى ممن يعاملهم غير التجلة والاحترام . ولاشك في أن تعوده على هذا هو ما خلق في نفسه النقمة التي ضاق لها صدره وكست وجهه ملامح انقباض واضحة جعلتني ، عندما التقيت به في هذه المرة ، اسأله بالحاح عما يشكو منه . تردد أول الامر في الافصاح عما به مدعيا أن كل أحواله على ما يرام غير انه ، بعد أن تمادينا في أحاديثنا إلى ما عاد بنا إلى ذكريات الشباب وحكاياتنا الحميمة القديمة ، خرج عن تحفظه . ورأيته يقاطعني فيما كنت أتحدث به ويقول :

ــ يافلان .. أتدرى أن صاحبك ، الذى هو أنا ، عاشق في هذه الأيام؟

تطلعت إليه في شبه دهشة وقلت :

ــ اسمعني الله عنك الأخبار الطيبة يا يوسف بك . في هذا العمر ، وهذه المكانة ؟!

ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكا وأنا أضيف :

ــ لا أصدق . ليس لأن العشق محرم عليك ، ولكن لو كان الأمر كما تدعي لفاض وجهك بشاشة على الأقل ، ولما لقيتني بهذا التجهم .. إلا إذا كنت عاشقا مهجورا أو محبا غير محبوب .

فهز صاحبي رأسه وقال : بل اني من حبي في سعادة غامرة . أما التجهم الذى تراني فيه فسأعلمك بسببه . انه يعاودني كلما عادت إلى بالي واقعة بسيطة جرت لي بسبب هذا الحب منذ أيام قليلة . واقعة بسيطة ، ومرت فوق ذلك بسلام ، ولكني لا أملك التخلص من النقمة التي تثيرها ذكراها في نفسي . هل تريد أن تستمع إلي ؟

قلت : كلي آذان صاغية . ماذا جرى لك منذ أيام قليلة ؟

• • •

راح يوسف بك يروي لي أسباب حنقه الذى تغض سعادته بحالة الحب التي يعيشها . قال :

ــ نعم ، في هذا العمر وهذه المكانة ! ألست انت الذي طالما رددت علي أن الحب لا يأبه بالأعمار ، وأن غوته أحب وهو في الخامسة والسبعين فتاة في دون العشرين من عمرها ؟ احسبني يا أخي مثل غوته . ما أقصه عليك لا يتعلق بحبي ذاته ، بل بما تعرضت إليه وأنا في طريقي إلى هذا الحب . منذ ثلاثة أيام فقط ، عدت من سفر بعيد ، من احدى رحلاتي التي يفرضها المركز الذى احتله علي . وجه الحبيبة الجميل لم يفارقني في حلي وترحالي . كنت أرى تقاطيعه ونظرة عيني صاحبته ، التي يتراوح ايحاؤها بين هدوء البحيرة الساجية ونفور القطة الشرسة ، أرى هذه وتلك في وجوه الفاتنات اللواتي كن يتسابقن إلى تحيتي في حفلات الاستقبال التي تقام لي ، وبين سطور الوثائق التي كنت أتلوها لنفسي قبل أن اضع توقيعي المبجل في أدناها . وحين رجعت إلى البلد ، وكان وصولي اليه مساء ، منذ ثلاثة أيام كما قلت لك ، كان أول شيء فعلته اني هتفت للحبيبة أعلمها بعودتي . ردت علي بقولها انها متلهفة لتراني ، ولتراني في هذه الساعة ! وانا ، هل كنت اقل لهفة ؟ وإنما كنت محاطا بمن كان عليهم أن يحتيطوا بي بعد هذه الغيبة الطويلة ، وليس سهلا أن اتخلص منهم لأزورها هي في دارها . لم تقبل لي عذرا في أن أؤجل لقاءنا إلى الغد ، وكانت كلمتها الأخيرة : لا تقل انك لن تخلص من واجباتك الملحة في الفجر ... سترى نافذة غرفتي المطلة على الشارع مضاءة إذا مررت تحتها عند الفجر ... حتى تلك الساعة سأكون في انتظارك !

ماذا يكون ، يا عزيزى ، ردك على هذه الكلمات إذا كنت في مثل حالي ؟ على كل حال لم تستبد بي واجباتي إلى الفجر لليلتها ، وإنما تأخرت بي حتى قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . خرجت من منزلي في تلك الساعة واستوقفت سيارة اجرة في الطريق وقصدت الحي البعيد الذى كانت ، هي ، تنتظرني فيه خلف نافذتها المضاءة . انحدرت من السيارة على مبعدة من العمارة التي يقع فيها منزلها وأكملت طريقي مشيا في الشارع المؤدى إلى ذلك المنزل .

كان الحي غارقا في الهدوء ، والشارع بعماراته المطفأة انوار النوافذ والشرفات يلتف في ظلام سابغ ، وكنت أنا امشي على الرصيف واتجهت نحو وسط الجادة رافعا رأسي لأتبين أنوار النافذة المضاءة من أجلي . وفي تلك اللحظة ، حين خطوت الخطوات الأولى على اسفلت الشارع ، حدث ما لم انتبه له ، وما لم اكن اتوقعه ، والذى أثر في إلى الدرجة التي رحت تتساءل معها عما أشكو منه .

ما الذى حدث ؟ خرق سمعي فجأة صوت بوق صاعق آت من ورائي تلاه صرير حاد ، كاد أن يمزق طبلة اذني ، لفرامل سيارة وقفت من ظهرى على قيد اصبع . نجوت من الدهس في تلك اللحظة نجاة لا تصدق . هل تظنني ارتعت لما حدث ؟ صدقني ان لا . كنت من احاسيسي آنذاك في

استغراق يبعد عني كل خوف ، غير تارك في نفسي مكانا لغير الغبطة التي ملأتها وانا اتميز النافذة المنيرة في ظلمة الحي الغافي . وكنت مستعدا إلى أن أتابع سيرى دون أن التفت إلى الوراء لأتبين لون العربة التي كانت ستقضي علي أو نوعية سائقها الذى كاد أن يحمل وزر دمي في عنقه . إلا أن ذلك السائق ، ورجل آخر كان يرافقه ، لم يتركاني في حالي . فقد نزلا من مقعديهما وتوجها إلي بصراخ حاد ، وبكلمات عنيفة ، بل بكلمات تجاوزت العنف إلى البذاءة . ما تصورت يوما ان انسانا يجرؤ على أن يتلفظ بمثل تلك الكلمات في حضوري ، فكيف أن يوجهها إلي ، إلي بالذات ! تلك الكلمات بحدتها وبفحش معانيها هي ، وليس خطر الموت الذى نجوت منه قبل لحظة ، هي ما اخرجني من سديم الغبطة التى كانت تسبح فيها مشاعري لتنبهني إلى ما أنا فيه في الواقع .

كيف تراني يا صاحبي ؟ أقصد كيف تراني من الناحية البدنية ؟ أؤكد لك أن البطش بذينك الرجلين لم يكن أمرا عسيرا علي . لم يكونا من ضخامة الجسم بما يخيف مثلي ، وكان الحنق من النعوت الفاجرة التي ألصقاها بي جديرا بأن يهبني قوة شمشون في تلك الساعة . بل أني رفعت يدي .. رفعتها ثم لم ألبث ان انزلتهـا ، وأطرقت برأسي . لم اخبرك بأني كنت أحمل في يدى هديتي إلى التي اضاءت نافذتها إلى الفجر في انتظارى . هدية هي آخر ما ابتكرته مصانع العطور في البلد الذى كنت في زيارته ، في تغليف بالغ الأناقة . في تلك اللحظة نسيت صراخ الرجلين وشتائمهما ، وداخلني الخوف لأول مرة مما كاد ان يحل بي . ماذا لو أن هذه السيارة لم تقف على بعد اصبع من ظهرى فاستمرت وسارت على جسدى ؟ ماذا سيقول الناس ، اولئك الذين يعرفونني ويسمعون بي والذين يحلفون باسمي ، حين تتحدث الألسنة بما وقع لي ، بعد منتصف الليل وفي جادة بعيدة ، وحيدا واصابعي مطبقة على زجاجة عطر لم تعرفها بعد غانية في هذه المدينة ؟ وكل ذلك تحت شباك مضاء لفاتنة ليست نكرة في الاسم والمنزلة ؟! .

نعم انزلت يدى واطرقت برأسي ، ولم ارد على الرجلين بكلمة ، وانما انسحبت من امامهما اجر قدمي في سيرى إلى موعدى . غطى خوفي مما كان ممكنا ان يحدث ، على حنقي مما كالاه لي من شتائم في تلك الدقائق فقط . اما بعدها فقد راحت تتردد في ذهني كلماتهما ويعود إلى خاطرى موقفي الجبان الذى وقفته امامهما وانا اتلقى شتائمهما المقذعة منهالة علي كأنها الصفعات . لماذا جبنت هكذا ؟ أهو خوف أن اخوض شجارا يحرمني موعد تلك الليلة ، أم خوف أن يجتمع علينا الناس فاعرف من أنا وما الذى جاء بي إلى هذا المكان في تلك الساعة ؟ ربما كان هذا وربما كان ذاك ، وربما كان الامران معا . إلا أن الذى لاشك فيه أني ما وقفت موقف الغضاضة والهوان ذاك الا لأني كنت عاشقا . وحين تراني في لحظة ما ممتعضا متجهم الوجه ، تأكد أني في تلك اللحظة اراجع نفسي والومها على أنها ورطتني في العشق إلى أن اذلني هذا الذل ...

* * *

وتوقف يوسف بك عن الكلام فابتسمت له كالمواسي . وكالمواسي ايضا رددت عليه بيت الشعر الذى افتتحت به مقالي ، عن مسكنة أهل العشق ، وأنا احدث نفسي بأن صاحبي يعمل من الحبة قبة . أو لعله العشق هو الذى وتر مشاعره وضخم ردود الفعل فيها على ما جرى له إلى هذه الدرجة . وتابعت مواساتي له بأن قلت له :

ـ لابد دون الشهد من ابر النحل ياعزيزي ولابد من أن تتطعم سعادتك بالحب ببعض المنغصات . انت مع هذا حسن الحظ بأن نجوت بجلدك ، وبسمعتك ، هكذا . انك تذكرني بعاشق مثلك كان مقدرا له حظ أبأس من حظك بكثير . لعلك تتعزى عما جرى لك إذا اخبرتك بما جرى له .

قال : من هذا الذى تعنيه ؟

قلت : إنه مريض جاءني في ذات يوم حاملا مشكلته . وعسى أن لا يأخذ زملائي الاطباء علي اني بحت بسر المهنة لأني رويت لك تلك المشكلة .

دخل هذا الرجل علي في غرفة المعاينة مع زمرة من المرضى . لعلك سمعت بطريقتي في العمل في عيادتي وكيف تضطرني كثرة المترددين عليها إلى ان استقبلهم جماعات . كلما طلبت من ذلك الرجل أن يتقدم لأفحصه ، لأن دوره حان ، كان يستمهلني طالبا أن يظل إلى آخر الحضور كان امرءا بدويا ، في آخر الشباب وأول الكهولة ، مورد الوجه نظيف الثياب ، وليس في ملامحه ما يشي باصابته بعرض ظاهر . ولما لم يبق غيره أمامي سألته عما يشكو منه ، فأجابني في شبه تردد : لست مريضا ، وانما جئت اسألك سؤالا . قلت : تفضل واسأل . قال : منذ أيام عضني كلب .. اترى في عضة الكلب ما يضر ؟ قال هذا وهو يكشف لي عن ساقه اليسرى فبان لي في ربلة الساق اثر جرح سائر إلى الاندمال . وكررلي سؤاله قائلا : اترى في هذه العضة ما يضر ؟

مثل كل طبيب أمام مثل هذه الحالة رحت استفهم من الرجل واسأله : منذ متى عضك ذلك الكلب ، وهل تعرفه ، وهل لا يزال حيا ؟ اجابني قائلا : اعرف الكلب ، فهو كلب منزل اناس اعرفهم ، وهو لم يعد حيا .. قتلته بمسدسي هذا حين انبت انيابه في ساقي .. ومن حسن الحظ اني فعلت ذلك وقبل ان يبتعد عني ، إذ خرست الطلقة لقرب المرمى فلم يسمع أحد صوتها .. كان ذلك ليلا ، بعد العشاء ، ومنذ خمسة أيام ! قلت للرجل : بل لعل ذلك لسوء الحظ.. لو ظل الكلب حيا بعد عشرة أيام من عضه لك لحكمنا بأنه سليم من داء الكلب . أما الآن فلابد من سوقك إلى المستوصف الحكومي لتأخذ الحقن الواقية من ذلك الداء ، فما من احد يضمن لنا سلامة ذلك الحيوان من السعار ... لماذا لم تراجعني قبل الآن ؟

جمجم الرجل لسؤالي الاخير هذا وتمتم . وراح يرجوني أن اصف له علاجا لا يحوجه إلى التردد على المستوصف ، لئلا يتسامع معارفه بأنه تعرض لعضة كلب في ذات ليلة . قلت له : ليس في عضة الكلب ما تتخوف له من كلام الناس عنها ، وكان الأجدر بك أن لا تتأخر في مراجعة الطبيب إلى اليوم . قال : ماكنت انوي التحدث عن هذه العضة إلى احد ، ولكني تغلبت على ترددى وجئت اليك ... الكلب ، ياحكيم ، هو كلب دار اعرفها جيدا ... هاجمني وأنا أحاول ، في غفلة الأهلين ، أن اتسلل إلى التي احبها ، تلك التي تسكن في تلك الدار !

واضفت وأنا احدث صاحبي ، فقلت له : وهكذا يا يوسف بك يا اخي ، مأزق ذلك البدوى اخطر من مأزقك بكثير ، وقد زج نفسه فيه لانه كان ، مثلك ، عاشقا . الخطر الذى كان يتهددك انت هو فضيحة تدوم يوما وليلة . وفي أقصى الاحوال كان يمكن أن تفارق الدنيا بهدوء ، تحت عجلات السيارة التي كادت أن تقضي عليك . أما ذلك المسكين فإنك لا تتصور ما كان مهددا به لو لم يراجعني قبل خمسة أيام من انتهاء مدة فاعلية اللقاح ضد داء الكلب . كان سيغدو مسعورا ، وسيموت حتما ... ليس الميتة الهادئة التى كانت تتهددك ، بل ميتة شنيعة لا يصل إليها قبل أن يمر بمراحل العذاب المرير . يصاب بالسهاف ، وهو ظمأ جنوني لا يستطيع ارواءه لأن مجرد رؤية الماء تثير فيه تشنجات حادة تصل إلى درجة الاختناق ، كما ان اشعة الضوء تبدو له كأسياخ محماة تنغرس في كرتي عينيه . يصرخ ويعوى ويهذى ، ويصبح خطرا على نفسه وعلى من حوله قبل أن يفارق الحياة في نوبات تشنج مريعة . كل ذلك تقبله ذلك الرجل ، وسكت عليه ، وتردد في محاولة الخروج منه ، لأنه كان عاشقا ! مساكين اهل العشق ...

* * *

عندما انتهيت من رسم صورة العذاب الذى كان يتهدد مريضي البدوى ليوسف بك ، رأيت التجهم الذى كان يكسو وجه صاحبي يتلاشى ، فتنبسط أساريره وترتسم على شفتيه ابتسامة بين الرضى والاستكانة . وسمعته يتمم من نفسه كلمات ذلك البيت من محفوظاتي في أيام الصبا قائلا :

ـ الحق معك ... ما كنت اشترى جميع قلوب العاشقين بدرهم !

الرقة ـ سورية

قصة مجاهد إسلامي كبير



عبد القادر الجيلاني

إخلاص عميق وقدوة عالية وتأثير واسع على الناس

بقلم: الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر

● أسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من غير المسلمين، وتاب مائة ألف من قطاع الطرق والخارجين على القانون

● عاش تسعين سنة لا يلبس إلا الثياب الخشنة ولا يأكل إلا أقل القليل

أينما يممت وجهك شطرا من العالم الاسلامي شرقاً أو غرباً، شمالاً أو جنوباً، في السهل والغابة والمدينة والقرية لابد وأن يصادف سمعك اسم (سيدي الجيلاني) و (الشيخ الجيلاني) و (سيدي عبدالقادر) و (الطريقة القادرية) و (الطريقة الجيلانية) و (القطب الغوث) وورد سيدي (عبدالقادر) الخ هذه الأسماء والمسميات تسمعها من مثقفين وأميين وتسمعها في أفريقيا وآسيا وغيرهما من أرض الله، وتتساءل ويتساءل معك الكثيرون من هو هذا الجيلاني، وما هي طريقته ؟

وإذا كان الجيلاني قد شغل بحديثه والحديث عنه المجتمع الاسلامي طوال القرن السادس الهجري فذلك أمر معهود في كثير من الأعلام في كل فن وعلم واتجاه.

أما أن يظل محفوراً على صفحة التاريخ، ومتردداً في ذاكرته وعلى لسان الزمان وسمعه، هكذا .. فتلك هي المسألة بل والمقتضى الذي تأتى من ورائه هذه السطور لتلقي ضوءاً تكشف به هذه الصفحة من تاريخنا الفكري والسلوكي ونتعرف على تيار كان وما زال له أثره النافذ بمنهجه ورجاله في أوساط الخاصة والعامة من مثقفين وأميين، هو المنهج التربوي أو السلوكي أو الصوفي الذي كان وما زال حديث التاريخ والحاضر والمدح والقدح والإقبال والنفور ومازال أئمته متربعين على عروشهم في ردهات التاريخ ودهاليز الزمان حاضره وماضيه.

هي سطور للاستكشاف أكثر منها سطوراً للتقييم لصفحة من صفحات الرجال العارفين عن طريق الذوق بمنهج قبله ناس ورفضه آخرون وبين القابلين والرافضين ملايين الجماهير التي تشارك بوعي وبغير وعي في مواكب القبول ومواكب الرفض على سواء.

هذا نمط من الدعاة أصحاب الكلمة المسموعة المؤثرة والنافذة إلى أعماق النفس البشرية بإذن ربهم طالما نلتقي بهم في عصور الدعوة ولا يخلو منهم زمان أو مكان على تفاوت في قوة تأثيرهم ، وآثارهم التي يخلفونها لمن بعدهم .

فكم منهم من أعلام تلاقت عليهم القلوب وائتلفت ، وأصغت لهم الأسماع ومالت ، واكتظت مجالسهم بالرواد والمتعلمين والمحبين والمعجبين من خاصة الناس وعامتهم ، وتناقلت الألسن الاشادة بهم وبمجالسهم وآثارهم ، وكم من جاحد أسلم على أيديهم بهدي الله ، وكم من عاص تاب في مجلسهم ، وكم من جاهل اهتدى بكلمتهم ، وكم من أمي تعلم بدروسهم .

ولا ننسى مجالس الحسن البصري ، ومالك ، والشافعي ، والغزالي ، وابن الجوزي وابن تيمية وسلطان العلماء العز بن عبدالسلام وغيرهم كثير وكثير .

وداعيتنا الشيخ عبدالقادر الجيلاني ممن حباه الله سعة في العلم ، وصفاء في النفس ، وتأثيراً بالكلمة ، والسمت الخاشع ، يدلك على الله حاله ويرشدك إليه مقاله ، وقد هدى الله على يديه آلاف الشاردين بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان حلو المنطق عذب الحديث ، قوي الكلمة .

بدأت دروسه ومواعظه بحجم المكان الذي بدأ فيه بمدرسة المخرمية ، ومازالوا يزدادون ومازال المكان يوسع يوماً بعد يوم حتى طار صيته في الآفاق ، وذاعت كلماته على الألسن واشتهرت مجالسه حتى صار يضرب بها المثل ، حتى كأنه أمة من الناس .. لشخصيته كداعية يطابق قوله عمله ويعطي القدوة من نفسه بهديه ودله وسمته ..وبنوعية المادة والعلم الذي يدرسه ومدى حاجة الناس اليه وتأثيره فيهم .. وبقوة الأداء التي تستحوذ على اهتمام الطالب والسامع حتى ليصغي إليه اصغاء المحب المستفيد ، ويسعى إليه الخاص والعام والمتعلم والأمي والعاقل والجاهل .

عصر الجيلاني

ازدحمت الأحداث في عصر الجيلاني إذ ـ كان القرن السادس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي من القرون الموارة بالأحداث الملتهبة والمتلاحقة وما يكاد يجف المداد من تسجيل واحد منها حتى يأتي حدث آخر تتلوه أحداث وأحداث وكأن الليالي بها حبالى .

في مشرق العالم الاسلامي أخذت الدولة السلجوقية في التفتت حتى انقرضت ٥٩٠ هـ ــ ١١٩٣ م ، وحاولت الدولة (الخوارزمية) أن تكون الوارث لها ولما يتم الميراث ، وانتهت في هذا القرن الدولة (الغزنوية) ٥٧٨ هـ ــ ١١٨٢ م . وقامت مكانها الدولة الغورية وبدأت قوية بابتداء سنة ٥٤٧ هـ ــ ١١٥٢ م ، ثم اتسع ملكها في الهند بما لم تبلغه دولة اسلامية قبلها ، هذا عن المشرق .

فاذا يممنا وجوهنا قبل المغرب وجدنا دولة (المرابطين) تلفظ أنفاسها الأخيرة مع سنة ٥٥٢ هـ ــ ١١٥٧ م لتخلفها في المغرب والأندلس معاً دولة الموحدين (دولة بني عبدالمؤمن) تلك الدولة التي أسسها (محمد بن تومرت) الملقب بالمهدي سنة ٥١٤ هـ ــ ١١٢٠ م .

وبين أحداث المغرب والمشرق كانت الأحداث الكبرى في مصر والشام ، اذ انتهت في هذا القرن دولة (الفاطميين) بمصر وبالتحديد سنة ٥٦٧ هـ ــ ١١٧١ م على يد صلاح الدين الأيوبي ، وقامت الدولة الأيوبية مكانها ، وكان صلاح الدين أول ملوكها ، وكان أول عهد أخذه على نفسه إخراج الصليبيين من الشام ، وكان صادقا مع نفسه ووفياً في عهده فانتهت على يديه تلك الحروب الصليبية المشئومة بانتصاره على الصليبية واستعادته بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ــ ١١٨٧ م والتأم على يديه هذا الجرح الدامي في جسم الأمة الاسلامية .

هكذا كان هذا القرن السادس مليئاً بالأحداث الجسام التي غيرت كثيراً من مجرى تاريخ الأمة الاسلامية . هذا عن السياسة وعروشها ودولها .

وعلى الجانب الآخر حيث دولة العلم ورجاله ، في حال شبيهة بمثيلاتها في الجانب السياسي

في المشرق كان قد بدأ العد التنازلي لبعض المجتمعات الاسلامية في فقد مكانتها العلمية بسبب ماكان بين المذاهب ورجالها على شتى تخصصاتهم من عقائدية وفلسفية وفقهية وصوفية ، من تناحر وعداء وحرب ضروس لايخبو لها أوار تركيها عصبيات وحميات ، هي أقرب في كثير منها إلى جاهلية منها إلى اسلام .

فالفلسفة بعد الهزيمة المنكرة التي ألحقها بها الغزالي في القرن الخامس في المشرق مازالت في دور خمودها . وقد تربع على عرش القيادة العلمية بعدها علم الكلام وعلم الفقه وكان لعلماء كل منهما السلطان القوي مع ماهم معروفون به من عداء شديد للفلسفة وعلومها . أما في المغرب فمازالت تلمع لها أضواء على يد دولة الموحدين وبخاصة (أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن) الذي كان لها مثلما كان (المأمون) لدولة بني العباس .

وبقدر ماكانت الدائرة على الفلسفة في القرن الماضي على يد الغزالي في المشرق بقدر ماكانت الدائرة لها في هذا القرن في المغرب الاسلامي على يد ابن رشد إذ كانت فلسفته في ميزان أهل الذكر فيها أرقى ماوصلت إليه الفلسفة الاسلامية بل يعدون لها من الفضل أكثر من غيرها في نهضة الفلسفة في أوربا .

كذلك احتل التصوف في هذا القرن مكانة فضفاضة مما بدا معها كثير من رجاله انهم لم يكونوا أهلاً لها ، فانتشرت الخانقاهات الصوفية وصارت مقصداً للزائرين والناذرين للأحياء والأموات وعلت قباب كثيرة ماكان لها أن تعلو للتبرك بأصحابها بل وطلب قضاء الحاجات منهم وعندهم ، للأسف !

وفي هذا المناخ كله ظهر الداعيةالشيخ « عبدالقادر الجيلاني » ظهوراً احتل فيه مكان (القطبية) التي افتتن بها كثير من الناس حينها وبعد حينها ولم يكن وحده في الميدان بل كان الميدان مزدحماً بالكثير ، اذ كان هو أحد الأقطاب الأربعة المتربعين على عرش القطبية آنذاك وهم (الجيلاني ، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي المتوفى ٥٧٠ هـ ــ ١١٧٤ م وينسب إلى قبيلة عربية تسمى بني رفاعة ، ثم البدوي ، والدسوقي) .

لكنه فاقهم وطار صيته ذائعاً عنهم إذ كان نسيجاً وحده جمع بين العلم والعبادة وخاطب الخاصة والعامة معاً بما يشبعهم ويقنعهم على سواء .

الوطن والمنشأ

ونبدأ رحلتنا وصحبتنا باسم الله مع الشيخ « عبدالقادر الجيلاني » من بلاد (الديلم) وبالتحديد من مسقط رأسه (أرض الجيل أو جيلان) تلك الولاية من أرض فارس التي طالما أخرجت نباتاً طيباً باذن ربها قبل الشيخ « عبدالقادر » وبعده ، فمنها خرج شيخ المفسرين (ابن جرير الطبري) ، وفيها ساد منهجه قبل « عبدالقادر » بقرون .

ومنها وفيها برز أعلام بعده يحملون هذه النسبة « الجيلي أو الجيلاني » .. منهم (الجيلي أحمد بن صالح توفى ٥٦٥ هـ) ، ومنهم (الجيلي عبدالكريم بن إبراهيم ٧٦٧ هـ ــ ١٣٦٥ م توفى ٨٢٦ هـ ــ ١٤٢٨ م) وينتهي نسبه إلى الشيخ « عبدالقادر » . ومنهم (الجيلاني محمد بن صالح ١٠٨٨ هـ) .

وعبر تاريخها ومن قبل الإسلام وبعده واسمها يتردد على سمع التاريخ بما يموج فيها من الاحداث السياسية والتيارات الفكرية والمذاهب في الأصول والفروع .

من هو (الجيلاني) ؟

لنتعرف اليه :

كنيته : أبو محمد ، ولقبه : (محيى الدين) ،

واسمه ونسبه : (عبدالقادر بن أبي صالح موسى بن عبدالله بن (جنكي دوست) بن أبي عبدالله بن عبدالله الجيلي ثم البغدادي الزاهد)

وقيل : ان نسبه ينتهي إلى (الحسن بن علي بن أبي طالب) رضي الله عنه ، كما ينسب كذلك إلى موطنه بنسب (الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي) ، وقالوا أيضاً : كان له جد لأمه يسمى (أبا عبدالله الصومعي) ويعرف بـ (جيلان) واليه نسب .

والتحقيق : أنه (الجيلاني) أبا ، وأما ، وأصلا ، نسبة إلى (جيلان) التي بها ولد عام ٤٧٠ هـ ١٠٧٨ م .



نشأته العلمية

وفد (عبدالقادر) في مقتبل شبابه على بغداد ، ولما يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وكان ذلك سنة ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م وهي السنة التي خرج فيها (أبوحامد الغزالي) من بغداد .

وكانت وفادته تلك في خلافة (المستظهر بالله العباسي) ، وما إن حل بها حتى تفرغ وتوفر تماماً على طلب العلم من كل فنونه وفروعه ، السائدة في عصره ، وعلى كبار الشيوخ في كل فن ، طلب حب ، وشغف ، واهتمام .

فسمع بها (الحديث) من : أبي غالب بن الباقلاني ، وجعفر السراج ، وأبي بكر بن سوسن ، وابن بيان ، وأبي طالب بن يوسف ، وابن خشيش ، وأبي الزيني .

وتفقه على : القاضي أبي سعيد المخرامي ، وأبي الخطاب الكلوذاني .

وقيل : انه قرأ أيضاً على : ابن عقيل ، والقاضي أبي الحسين ، وبرع في المذهب ، والخلاف ، والأصول ، وغير ذلك .

وقرأ (الأدب) على : زكريا التبريزي ، وصحب الشيخ (حماد الدباس) الزاهد . ... وهكذا أجاد وأتقن من العلوم الاسلامية ، معظمها حتى حصل منها ماينهاز ثلاثة عشر عاماً .

عالماً وفقيهاً

دروسه وتلاميذه : تصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ ، وكان يقرأ عليه تلاميذه طرفي النهار دروس : التفسير ، وعلوم الحديث ، والمذهب والخلاف ، والأصول والنحو ، وكان يقرأ القرآن لهم بالقراءات بعد الظهر ، وكان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع له وفيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر .

يقول ابن قدامة : دخلنا بغداد سنة ٥٦١ هـ فاذا الشيخ عبدالقادر ممن انتهت اليه الرئاسة بها علماً ، وعملاً ، واستفتاء .

وكان يدرس بمدرسة شيخه المخرمي والتى آل أمرها اليه فدرس بها ، وكانت كما يقول ابن الجوزي ، مدرسة لطيفة ففوضت إلى عبدالقادر .. حتى ضاقت بالناس فعمرت ووسعت وتعصبت في ذلك العوام ، وأقام بها حتى توفى ودفن بها .

من فتاواه

كان يفتي على مذهبي (الشافعي وأحمد) وكان العلماء في بغداد يعجبون بفتواه ، ومن أمثلة ذلك ما يحكيه ابنه عنه فيقول :

جاءت فتيا من العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العارفين فلم يتضح لأحد فيها جواب شاف ، وصورتها :

ما يقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث : أنه لابد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها ، فما يفعل من العبادات ؟

قال : فأتي بها إلى والدي فكتب عليها على الفور : يأتي مكة ، ويخلى له المطاف ويطوف أسبوعاً — يعني سبعة أشواط — وحده وتنحل يمينه ، قال : فما بات المستفتي ببغداد .

مؤلفاته

له عدة مؤلفات مطبوعة أكثرها في التصوف منها :

١ — الفتح الرباني والفيض الرحماني .
٢ — الفيوضات الربانية .
٣ — فتوح الغيب .
٤ — الغنية لطالب طريق الحق .

وفيها أشياء حسنة وفيها غير ذلك من أحاديث ضعيفة وموضوعة .

من معالم شخصيته

إن شعاره ومنهجه الذي التزمه في تدريسه ووعظه وصلته بالناس هو : معلم الخير لا تضجر لهذا قصة يرويها لنا أحمد بن مطيع الباجسرائي قول : كنت أجيء من مدرسة الوزير (ابن هبيرة) من باب البصرة إلى الشيخ (عبدالقادر) فجئت في بعض الأيام وهو كأنه ضجران ، فانتهرني ، وقال : قم ، فمضيت ، فبينما أنا في بعض الطريق ، أنفذ خلفي — من يعيدني إليه — فجئت ، فقال : لما حردت — غضبت — عليك ، ومشيت ، نمت ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنت معلم الخير لا تضجر ، أنت معلم الخير لا تضجر ، أنت معلم الخير لا تضجر ، — ثلاث مرات — قال : ثم أخذ علي وأقراني .

معالم العصر وأعلامه

اتسم عصر (الجيلاني) بنهضة علمية متدافعة وماج بتيارات فكرية وفلسفية وإصلاحية قوية ، وبرز فيه أئمة في كل فن ، منهم :

• حجة الاسلام أبو حامد الغزالي بجهاده العلمي الذي شغل به دوراً عظيماً في الاصلاح والتجديد الفكري والعلمي .

• ومنهم الامام الشيخ (عبدالقادر الجيلاني) بجهاده في الدعوة والتربية فشغل دوراً عظيماً في جميع طبقات الشعب بالاصلاح والتربية .

• وامتلأ كذلك المغرب الاسلامي بالمصلحين فكان (ابن يا سين) على رأس حركة المرابطين وكان القاضي عياض المالكي أستاذاً لعصره .

اتجاهات التصوف في هــذا العصر

وسط تيارات كثيرة ومن غبار المعركة التي قادها الغزالي بقوة ضد الفلسفة وانتصر فيها للتصوف طريقاً إلى الحقيقة .

ووسط التيارات الفكرية ، والفقهية ، والتربوية ، والكلامية ، وغيرها كان للتصوف عدة شعب ، ومسالك تشعب إليها .

منها النزعة الاستقلالية الذي كاد بها أن ينتهي إلى الانفصال عن الشريعة وأن يصبح مدرسة قائمة بنفسها .

ومنها : التطرف والمغالاة في مجالات الشطح التي اعتذر عنهم فيها بأنهم لا يقتدى بهم فيها ، ولم يسلم الشيخ (عبدالقادر) نفسه من المؤاخذة عن هذا .

ومنها ما شغلوا به المجتمع الاسلامي آنذاك ، بما لا يفيد من أحوالهم في دفع الخطر المحدق بالأمة الاسلامية ، فانصرف الناس التابعون إلى ما يدعونهم إليه من إهمال أمر الدنيا فتهيأ لأعدائهم الاستئثار بها دونهم وسهل على عدوهم أمر الاستيلاء على بلادهم في تلك الغفلة التي ضربها ذلك النوع من التصوف عليهم ، ومع هذا لم يتنبه أحد من المسلمين لخطر ذلك إلا قلة من أمثال (ابن الجوزي) الذي انبرى لهذا وشدد عليه النكير لما كان له من عظيم الخبرة بأحوال السلف والصدر الأول قل من كان في زمانه من يساويه في معرفة ذلك بل كان ل ٨لك بل كان له أيضاً حظ من ذوق أحوالهم وقسط من مشاركتهم في معارفهم ، فكان لا يعذر المشايخ المتأخرين في طرائقهم المخالفة لطرائق المتقدمين فيشتد إنكاره عليهم ، وقد قيل : إنه صنف كتاباً ينقم فيه على الشيخ عبدالقادر أشياء كثيرة .

ووسط هذه التيارات كلها وذيوع الفوضى بذلك في بعض زوايا الصوفية وتكتلاتهم وتجمعاتهم ، في هذا المناخ برز الشيخ « عبدالقادر » وسط هذه المحن كما يبرز المعدن الأصيل ملتزماً ، ومجدداً ، ومعارضاً لهذه التنوعات كلها بل وتصدى لها بمنهج قويم .

يقول الشعراني : (كانت طريقته التوحيد وصفاً ، وحكماً ، وحالاً ، وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً) .

وهو يقول لأصحابه : (اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تخالفوا) ، ويقول : (إن انخرم فيك شئ من الحدود فاعلم أنك مفتون قد لعب بك الشيطان فارجع إلى الشرع والزمه ، ودع عنك الهوى لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلة) .

ويقول : (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة

فهي زندقة ، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، ادخل عليه ، ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وسلم) .

ويقول : (ترك العبادات المفروضات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية لا تسقط الفرائض عن أحد وفي حال من الأحوال)

وقد آن أن نعرف كيف كانت النشأة الصوفية للجيلاني ، إنه قد سار شوطاً طويلاً ، مع مراحل من رياضة النفس وهضمها فقد أخذ نفسه في بدء أمره بالمجاهدات الشديدة لا يترك هولاً إلا ركبه ،

فكان يلبس جبة صوف ، ويضع على رأس خريقة ، ويمشي حافياً في الشوك وغيره .

يقول : كنت أقتات بخرنوب الشرك وقمامة البقل ، وورق الخض من جانب النهر والشط ، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت أياما لا أجد فيها طعاماً ، بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها ... فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري سبقني إليه ، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياً ...

نمط من أحواله

يقول الشيخ الجيلاني عن نفسه : وكنت أشتغل بالعلم فيطرقني الحال فأخرج إلى الصحاري ليلاً أو نهاراً فأصرخ ، وأهج على وجهي ، فصرخت ليلة فسمعني العيارون ففزعوا ، وجاءوا فعرفوني ، فقالوا : عبدالقادر ، المجنون .. أفزعتنا .. وكان ربما أغشى علي . فيغسلوني ، ويحسبون أني مت من الحال التي تطرقني ، وربما حاولت الخروج من بغداد فيقال لي : ارجع فان للناس فيك منفعة .

ويرجع وكان للناس فيه منفعة .

واتجه إلى التصوف حتى صار طابعه المعروف به بجانب ما كان يقوم به من تدريس ووعظ . وقد ذكر ابنه : (موسى بن عبدالقادر) يقول : سمعت والدي يقول : خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية ، ومكثت أياماً لا أجد ماء ، فاشتد بي العطش ، فأظلتني سحابة ، فنزل علي منها شئ يشبه الندى فترويت به ، ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق ، وبدت صورة ، ونوديت منها : يا عبدالقادر ، أنا ربك ، وقد أحللت لك المحرمات ، أو قال : أحللت لك ما حرمت على غيرك ، فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اخسأ يا لعين ، فاذا ذلك النور ظلام ، وتلك الصورة دخان ، فخاطبني وقال : يا عبدالقادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك ، وفقهك في أحوال منازلاتك فقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق .

قلت : لربي الفضل والمنة .

فقيل له : كيف علمت أنه شيطان ؟ قال : بقوله : وقد احللت لك المحرمات . وهكذا كان الجيلاني بعلمه وفقهه زاهداً صوفياً يقظاً راشداً ، فهو لم يكن من دعاة الرهبانية ، وتعذيب الجسد ، وانما كان يسعى ويعمل لصفاء الروح وتجديد التوبة والانابة إلى الله عز وجل على أصالة وفقه من الكتاب والسنة وعلى إخلاص في الاقبال على الله تعالى ، وكان مع هذا لا يرى بأساً بالتمتع المباح في الدنيا وطيباتها مع المعارضة الشديدة للعكوف على لذاتها ، وتعلق القلب بها .

مآخذ على الشيخ الجيلاني

لما بلغ التصوف ما بلغ في هذا القرن تهيب الناس الانكار على أصحابه ، وقد حكوا حكايات كثيرة عمن تجرأ على الانكار عليهم فكان لذلك أثره في تهيب الانكار عليهم من الناس وفي التغاضي عن كل ما يصدر منهم ولو بلغ في مخالفة الشرع ما بلغ .

أنه لما اشتهر (الجيلاني) في الآفاق والتف حوله القاصي والداني ، اجتمع مائة فقيه من أذكياء بغداد ، وذهبوا إليه ليمتحنوه في العلم ، وقد جمع كل واحد منهم مسائل ليمتحنه فيها ، فلما استقر بهم المجلس أطرق (الجيلاني) فظهرت من صدره بارقة من نور فمرت على صدورهم فمحت ما في قلوبهم فبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا أجسامهم ، ثم صعد (الجيلاني) على الكرسي فأجاب عما كان عندهم فاعترفوا بفضله ، ولا ندري أيهما المؤاخذ بمثل هذه الحكايات إن صحت : أهو الجيلاني ؟ أم الذين يحكونها عنه ؟

ومن ذلك ومع ما كان عليه من علم وفضل لم تمنعه كثرة العلوم التي حصلها وأجادها من التغالي في دعاوي التصوف والصوفية فكان مما أخذ عليه قوله :

عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذ بيده ، وأنا لكل من عثر مركوبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامه آخذ بيده ، يا هذا فرسي مسرج ، ورمحي منصوب الخ

ينكر على (الحلاج) دعواه فيما سبق ، وانما اخذ عليه عثرته بالجهر بها ويفسرها البعض بأنها هي : دعوى الحلول ، والاتحاد ، ووحدة الوجود ، الخ .

ثم الحكاية المعروفةعن الشيخ عبدالقادر وأنه قال : (قدمي هذه على رقبة كل ولي لله) وأحسن ما قيل في الاعتذار عنه عن هذا الكلام ما ذكره الشيخ أبو حفص السهروردي في معارفه : أنه من شطحات الشيوخ التي لا يقتدي بهم فيها ، ولا يقدح في مقاماتهم ومنازلهم ، فكل احد يؤخذ عليه من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ومن ساق الشيوخ المتأخرة مساق الصدر الأول ، وطالبهم بطرائقهم ، وأراد منهم ما كان عليه الحسن البصري ، وأصحابه مثلاً من العلم الكثير والعمل العظيم والورع القوي والزهد البالغ وكمال الخوف والخشية ، وإظهار الذل والحزن والانكسار والازدراء على النفس وكتمان الأحوال والمعارف والمحبة والشوق ونحو ذلك فلا ريب أنه يزدري المتأخرين ويمقتهم ويهضم حقهم ، فالأولى تنزيل الناس منازلهم ، وتوفيتهم حقوقهم ، ومعرفة مقاديرهم ، وإقامة قدرهم ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا ، ... وانما يلهج أهل هذا الزمان بأحوال المتأخرين ولا يميزون ما يصح عنهم من ذلك من غيره فصاروا يخبطون خبط عشواء في ظلماء .

وأقرب ما يعتذر به عن مثل هذا من بعض الصوفية الموسومين بالصدق أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم ، أو على غشاوة الخيال التي تخيم عليهم ولابد من الحذر في قبوله أو تلقيه .

الطريقة القادرية وانتشـارها

إليه تنسب فهو مؤسسها وإمامها وعلى يديه درجت في القرن الخامس الهجري ، ثم أخذت في الانتشار والذيوع في كل أرجاء العالم الاسلامي إلى يوم الناس هذا مع تفاوت في القوة والضعف والايجاب والسلب ، والقرب والبعد من منبعها ، ولها نظمها في تربية المنتسبين والمريدين مدونة في كتب القوم وجارية على ألسنتهم واجتماعاتهم .

ولعل من أعظم الجهات التي تنتشر فيها هي افريقيا وبخاصة في شمالها وغربها وكانت أظهر ما تكون في المغرب الأوسط (الجزائر) وفي (تونس) وكانت تشاركها في الانتشار هناك (الشاذلية) حتى كانت كل الطرق تنسب إلى إحدى هاتين الطريقتين ، ومن (الجزائر) امتدت القادرية إلى الصحراء الكبرى وواحاتها ، ومن أشهرها واحة (توات) ومنها نهض بها المهاجرون والدعاة إلى أفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر م فاتخذوا من (ولاته) أول مركز



لطريقتهم ، ثم اضطر أحفادهم للخروج منها ، فلجأوا إلى (تنبكتو) ومنها انتشروا في غرب افريقية كله وكان منهم العلماء والدعاة والمدرسون والتجار ممن حملوا راية الدعوة إلى الاسلام في تلك البلاد دعوة وتعليماً وجهاداً ، وكان من أبرزهم وأئمتهم الامام (محمد بن عبدالكريم المغيلي) إمام غرب إفريقية وداعيته ، والامام الشيخ (عثمان دان فوديو) مؤسس الفولانية هناك في القرن الثاني عشر هـ وكان ممن سلكوا طريقها وتتلمذوا على كتب مؤسسها وتأثروا به واقتدوا به في حاله ومقاله .

الدعوة إلى الله

من المعلوم أن مجال العمل في الدعوة إلى الله تعالى حقلان هما :

ـ أمة الاجابة : التي استجابت وتستجيب لله وللرسول اذا دعيت لما يحييها ، فهي في حاجة دائمة إلى التذكير والبيان تثبيتاً لها على الحق وتحصيناً لها من الفتن والزلازل (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) .

ـ أمة الدعوة : التي أمر المؤمنون أن يبلغوها دعوة الله ويسمعوها كلامه وينادوا فيها بالايمان والهدى ليستنقذوها من الكفر ومن عذاب الله في الدنيا والآخرة .

وفق الله (الشيخ عبدالقادر الجيلاني) في العمل في كلا الحقلين معاً وكان لغرسه ثمار فيهما فقد كان غيوراً على الدين واصلاح المتدينين لا يهدأ له بال في ذلك ، وفتح باب البيعة ودعا إلى التوبة ، وتداعى إلى ذلك المسلمون من كل ناحية يجددون العهد والميثاق للعودة إلى الله ويعاهدون على أن لا يشركوا ، ولا يكفروا ، ولا يفسقوا ، ولا يبتدعوا ، وقد دخل هذا الباب على يديه خلق لا يحصيهم إلا الله عز وجل ، وصلحت أحوالهم ، فأخذ يربيهم ويحاسبهم ويتعهدهم ويشرف على تقدمهم وتربطه بهم أوثق الروابط . ومن أجل ما أكرمه الله به أن أحيا على يديه موات النفوس بتجديد الايمان والتوبة وتذكير القلوب بربها ، حتى لهج الناس بالثناء عليه والثقة به .

دعوته للحكام

ولم يقتصر في دعوته على عامة الناس بل كان قائماً بالنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وخاصتهم صداعاً بالحق لا يخشى في الله لومة لائم يتناول الخلفاء بالنقد والتوجيه ، فكان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر هم والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة ويصدعهم بالحق على رءوس الأشهاد وأعواد المنابر في المحافل العامة ، وينكر على الظلمة ومن يوليهم ويواليهم ، حتى ضاق به كثير منهم ، وشكا منه الخليفة العباسي (المقتفي لأمر الله) بأنه يعرض به استخفافاً ، واضطر أن يكلف وزيره (ابن هبيرة) لينفذ إلى الشيخ فيبلغه في خلوة بأنه يحسن به أن لا يتعرض للخليفة أصلا وهو يعرف حرمة الخلافة ، وذهب اليه رسول الوزير ـ وكان هو الشيخ الفقيه أبا الحسن بن غريبة ـ فأخذ بمهابة الشيخ وما جرؤ على عتبه أو لومه وقال : قمت عنه وذهبت ـ ولم يكلمه فيما جاءه من أجله خشية منه ـ فقال لي الوزير هل بلغت ؟ فذكرت له حالي معه في المجلس وما كان من الشيخ ، فقال الوزير : لاشك في صلاح الشيخ عبدالقادر .

هكذا لهج الناس بالثناء عليه ورزقه الله الوجاهة والقبول والمهابة فكان يحضر في مجلسه أحياناً الخليفة والوزراء ويجلسون في تأدب وخشوع . كما كان له الأثر البعيد في نفس العامة ، والاستجابة لما يدعوهم إليه ، ومما يحكى في هذا الصدد ما يذكره أبو الحسين بن الفقيه البغدادي فيقول : إن مدرسة (عبدالقادر) كانت للقاضي (المخرمي) فلما آلت إلى (عبدالقادر) أراد أن يوسعها ، ويعمرها ، فكان الرجال والنساء يأتونه بشيء فشيء إلى أن عمرها ، واتفق أن امرأة مسكينة جاءت بزوجها ، وكان زوجها من الفعلة البسطاء رزقه كفاف ، وقالت لعبد القادر : هذا زوجي ، ولي عليه من المهر قدر عشرين ديناراً وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي ، وقد تراضينا على هذا ، وقبل الزوج ذلك ، وأحضرت المرأة (الخط) وسلمته إلى عبدالقادر ، فكان يستعمل الزوج في المدرسة ، وكان يعطيه يوماً الأجرة ، ويوماً لا يعطيه ـ لعلمه بأن الرجل محتاج فقير ولا يملك شيئاً ـ إلى أن علم أنه عمل بخمسة دنانير ، فأخرج عبدالقادر (الخط) ودفعه إلى الزوج ابراء لذمته من دينه ـ وقال : أنت في حل من الباقي .

ولا ندري بأيهما أنت أشد عجباً : من صنيع المرأة وبذلها في الخير أم بصنيع الشيخ وحسن تصرفه مع الرجل ومراعاة ظروفه ، أم بهما معاً ؟ . وهكذا كان فيه للناس خير .

وقد سادت بمواعظه ومجالسه في العالم الاسلامي موجة من الايمان والطهر والصلاح يقول الكيساني : (لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه تخلو ممن يسلم من (اليهود والنصارى) ، ولا ممن يتوب من قطاع الطريق ، وقاتلي النفس وغير ذلك من الفساق ، ولا ممن يرجع عن معتقد سيىء) .

وكان (الجيلاني) يحمد الله على ذلك ويقول : (أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق فانه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى ، وتاب على يدي من العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف ، وهذا خير كثير) ، والعيارون : النهبة قطاع الطرق ، والمسالحة : الجماعات المسلحة .

تربيته للدعاة

وكانت عينه على تلاميذه ناقدة فكان يختار منهم الناضج ويجيز كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والكفاءة على الدعوة والتربية فينتشرون في الآفاق شرقاً وغرباً يدعون ويصلحون ويربون ويحاربون الشرك والجاهلية والبدع ويقيمون الربط والزوايا في كل مكان يصلون إليه مراكز لدعوتهم وطريقتهم .

في مثواه الأخير

يقول ابن الجوزي : توفي الشيخ عبدالقادر ليلة السبت ثامن ـ وقال غيره : تاسع من ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة ـ ٥٦١ هـ ـ بعد المغرب ، ودفن من وقته بمدرسته ، وبلغ تسعين سنة ، وسمعت أنه كان يقول عند موته : رفقاً رفقاً ثم يقول : (وعليكم السلام ، وعليكم السلام ، أجيء إليكم ، أجيء إليكم) ، وسمعت من يحكي أنه قال عند موته : أنا شيخ كبير ، ما وعدنا بهذا ،

وقال غيره : صلى عليه ولده (عبد الوهاب) ، وقبره ظاهر بمدرسته ببغداد .

وفي دليل خارطة بغداد (١٧٨) : أن مشهده ـ أي موضع دفنه ـ يعد من المواقع المهمة التي كانت داخل سور بغداد الشرقية ، وذلك من الناحية الخططية لمدينة بغداد القديمة وهي من الأماكن القديمة القليلة التي لا تزال قائمة في مواضعها الأصلية إلى الآن ، وقد أنشئ عند قبره مسجد جامع واسع ، وعلى مصلاه قبة فخمة متقنة الهندسة ، مبنية بالحجر الكاشاني الملون بالأصباغ المختلفة مع النقش الجميل تحيط بها المآذن ، وحول المصلى رواق واسع عقد بأساطين من الرخام الأبيض ، ويعتبر من مشاهد المدينة .

وله بمدينة (لوديهانا) بالبنجاب مقام ينسب إليه رحمه الله ورحمنا جميعاً رحمة واسعة .

حسن عيسى عبدالظاهر

يواصل الكاتب الكبير أكرم زعيتر في هذا الفصل الجديد مذكراته وذكرياته الممتعة
مع الشاعر العربي الراحل بدوي الجبل في قصائده وتجاربه النضالية المختلفة

بدويّ الجبل.. وإخاء أربعين سنة



الشاعر الكبير بدوى الجبل مع كاتب المقال

رَقَّ الحديدُ وَمَا رَقُّوا لِبَلْوَانَا!

بقلم: أكرم زعيتر

● مظاهرة قومية رائعة من الشعر الرفيع

● عندما اجتمع أكبر شعراء الأمة العربية في بغداد

كان حفل أربعين الملك غازي مظاهرة قومية عربية بالغة الروعة ، فبعد أن رحب رئيس الوزراء العراقي بالأمة العربية ممثلة في وفودها التي تجتمع لتمجيد المثل القومي الأعلى الذى كان غازي يسعى إليه ، تليت برقية مصطفى النحاس وفيها تشارك مصر بكل قلبها شقيقها العراق في مصابه الأليم ، ثم أعلن لطفي الحفار رئيس وزراء سورية السابق أن القطر الشامى يحفظ العهد الذى قطعه لفيصل وتكلم حمد باشا الباسل بلسان « الأمة العربية والعشائر العربية القاطنة فيها معزياً العراق وممجداً موقف الحسين بن علي من قضية فلسطين » ووكد جمال الحسيني باسم اللجنة العربية العليا عهد الله وميثاقه بأن فلسطين باقية على بذل التضحيات الجسام لاعلاء كلمة العرب ، ثم جلجل صوت الشاعر المصرى العملاق على الجارم في قصيدة أربت على الستين بيتاً ، وقد ضجت القاعة بالهتاف وهو يشدو :

أتينا لنقضي للعروبة حقها
يسابق وفد في تلهفه وفداً
يحملنا النيل الوفى تحية
ويهدي من الآمال اكرم ما يهدى

وغازي :

فقدناه سيفاً هاشمياً اذا سطت
سيوف الليالي كان أرهفها حداً
حسام بكف الله كان حياله
فأصبحت الأرض الطهور له غمداً

وفيها :

حمامة وادى الرافدين ابعثي الهوى
حنيناً فما احلى الحنين وما أشدى
في النيل أرواح ترف خوافقاً
تقاسمك التاريخ والحب والودا
إخاء على الفصحى توثق عهده
وشدت على الايمان اطرافه شدا
لنا في صميم المجد خير أبوة
زهينا بها أصلاً وتاهت بنا ولدا

رَقَّ الحديدُ وما رقّوا لبلوانا!





محمد حسين هيكل

الشاعر في مقابلة تلفزيونية

علي الجارم

وتلا العلامة محمد بهجة الأثرى كلمة الدكتور محمد حسين هيكل وزير معارف مصر وفيها يقول : « ونحن أبناء العربية أفراد أسرة واحدة والراحل الكريم من صميم هذه الأسرة العربية حسباً ونسباً وهو من صميمها بما كان من ميوله وميول آبائه واجداده نحو مجد العربية ومن توثبهم لعظمتها » .

والقي الشيخ ابراهيم الجبالى كلمة الأزهر الشريف ممجداً الوحدة العربية . مؤكداً أن اتحاد المسلمين أعظم عامل لحفظ السلام العالمى وكانت كلمة لبنان بلسان نائبه الشيخ يوسف الخازن تنضح بالعروبة ، ونهض الدكتور عبد الوهاب عزام يبلغ رسالة الجامعة المصرية للأمة العربية في خطاب بليغ مؤثر : « وليكن من اجتماعنا على مصيبة الغازى اجتماع كلمتنا واستحكام اخوتنا . لتكن من هذه المصيبة الجامعة أخوة جامعة وكلمة جامعة » ثم تلا قصيدة رائعة من نظمه مطلعها :

بني قومنا تقسو الخطوب وَتَرْبَدُّ
ويشرق في اعقابها الصبر والمجد

وتلا أكرم زعيتر كلمة فلسطين الثائرة ، وتليت كلمة الزعيم السورى الدكتور عبد الرحمن شهبندر وكلمة محمد العشماوي وكيل وزارة المعارف المصرية وألقي « شاعر العربية الفتاة » محمد الشريقي قصيدته الطويلة البارعة وغازى فيها :

ترعرع مطبوعاً على حب قومه
فكان عراقياً وكان . شآمياً
وكان حجازياً ، بلى أرضُ يعرب
جميعاً له كانت حمى ومغانيا

ومجد شاعر لبنان شبلي ملاط الثورة الفلسطينية وثوارها :

وتفقدوا غازي فلم يجدوا الذي
قد كان معواناً لهم وعمادا

رائعة البدوي

ورمقت العيون بدوي الجبل وهو يعلو المنبر ليلق رائعته ، وقد جعل عنوانها : « مصرع الشمس في الضحى » وكان المطلع :

زهوة الفتح والشباب النجيد
من سقى الفجر من دماء الشهيد
خضت غرة الصباح فقد نمْ
عليها بالعطر والتوريد
قدر أنزل الكَميَّ عن السر
ج وألوى بالفارس المعدود
مصرع الشمس في الضحى هل
ينال الشمس في أفقها عثار الجدود
دم غازي يا حمرة الفجر فاسقي
وارشفي من ضيائه واستزيدي
عُرسَ في الجنان فالحور
يطفرن على ميعة الضياء البديد
وحنت فاطمُ تضم فتاها
لهفة الأم فوجئت بالوحيد

ومجد بغداد وحضاراتها ثم هتف :

ايه دنيا الرشيد تفني الحضارات
وتبقى كالدهر دنيا الرشيد

وتغني بدجلتها وبساتينها وأماسيها ونخيلها وأنغامها وقيانها وزورقها وملاحها :

رف مجدافه على الماء وانسا
ق بأحلى معاصم وزنود

وأشاد بسراياها ومواكب النصر وقادة فتوحاتها .

وتجلى غازي على روعة الدهر
وحيا بالطالع المسعود
وبيمناه راية الوحدة الكبرى
فميدي يارايـة الله ميدي

ورتل شعراً احلام بنت مروان ، دمشق ،



سعد الله الجابري ونبيه العظمة صديقا البدوي ١٩٤٥

وتطلعها إلى العراق وفجيعتها بمصرع الغازي .

من رأى النسر بادهته المنايا
فهوى وهو ممعن بالصعود

وناجى الملك الطفل بأروع ما تكون المناجاة ، وذكّره بجده فيصل الكبير ثم هتف به :

فيء الشآم باللواء ونضّر
شاطئيها بظلك الممدود

وانطلقت الأكف بالتصفيق ، رغم وقار المأتم وهو يشدو :

ليس بين العراق والشام حدٌّ
هدم الله مابنوا من حدود

واراده ان يردد قولة هارون للغمامة :

قل كما قال للغمامة هارون
وفي الجو زمزمات الرعود
قل لها : أيها الغمامة جودي
شاطىء الرافدين أو لاتجودي
حوّمي ما اردت شرقاً وغرباً
في نجوم الكون الفسيح المديد



الملك غازي سنة ١٩٣٩

سترفين محصباً من سفوحي
أو تُروِّين ظامئاً من نجودي
امطري اين شئت فالكون ملكي
وبنوه قبائلي وجنودي

واما الشآم :

لا تسلني عن الشآم فقد حز
بجيد الشآم عض الحديد
لوحوا بالقيود فابتدر الموت
أباة تنمروا للقيود

ووصف المظالم النازلة بها ثم أهاب به :

فتنمر واغضب لقومك وارجم
بالشهاب اللماح كل مريد
واغز بالجيش قبة الفلك
الدائر واقحم به عرين الأسود

ثم حرض العراق على الصهاينة في فلسطين التي ضاقت رحابها :

بقايا الدنيا على كل وجه
منهم سنة اللعين الطريد
أدّب القوم بالسياط ونزّه
سيف هارون عن دماء العبيد

سقوط باريس

واحتل الالمان باريس خريف سنة ١٩٤٠ وحدث أن قرر نادي المثنى ـ وكنت من مؤسسيه ـ الاحتفال بذكرى الثورة العربية في التاسع من شعبان ، تلك التي اطلق الحسين بن علي رصاصتها الأولى ، وقد تجمع في بغداد زعماء من احرار سورية وفلسطين ولبنان ومصر ، فاردناها تظاهرة عربية وحدوية ومناسبة لتجميع القوى القومية والدعوة الى مواجهة أحداث هذه الحرب بخطة محكمة وعزمة ماضية ، واقترحت على إدارة النادي أن يكون بدوي الجبل شاعر الاحتفال ، وقد أبلغته الرجاء فاعتذر ، فالححت في الرجاء فأصر على الاعتذار ، وحجته أن الشعر يواتيه من دون أن يستدعيه ، وان همومه جمة ، وقريحته ناضبة ، فهامست نفسي : لابد من اثارة عاطفية تحل عقدة من لسان الشاعر ، وانطلقت : الحدث : «يا بدوي ، يا أخي ، فرنسا التي نكلت بسورية ، فرطت في اسكندرون ، دمرت دمشق ، أنت هنا مشرد ترشف رزقك مدرساً وأبوك الشيخ الجليل يتحرق لوعة ألا يراك . اخوانك : يوسف العظمة ، رشيد طليع ، أحمد مريود ضحاياها . الجزائر . المغرب . تونس ما فعلت فيها . الله أكبر ، فرنسا التي قوضت استقلال سورية تغدو محتلة تذوق من الهوان ما أذاقتنا ! ! يالله هل كنا نحلم ان يمتد بنا العمر فنراها مقهورة كما قهرتنا ! وأبو الثورة الحسين بن علي انتهى به الغدر البريطاني الى ما تعلم مجحوداً وقبراً في جوار الأقصى ، اولى قصائدك قيلت فيه . وفي ذكرى الثورة أنت الذي تنصفه ميتاً كما أنصفته حياً ، ومن موجبات الوطنية ان ندعو إلى انتهاز فرصة سقوط باريس وتحرير سورية . . » . وعلى هذه الوتيرة استرسلت متحمساً متأثراً ، الى أن برقت عيناه ، وبريق عينيه صدى نبضات فؤاده ، ودمعت عيناه ودموع البدوي مطالع القصيدة أو هي كلماتها الثيرة ، ورشح جبينه بالعرق ، ومن دون استئذان انصرف بهمهم . وارق تلك الليلة ، وغاب يومين ، وفي اليوم الموعود ، وفي حشد من زعماء العرب والوحدويين من شبان العراق ، شخصت الأبصار إلى البدوي وأرهفت الآذان :

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا
رق الحديد وما رقوا لبلوانا
خل العتاب دموعاً لا غناء بها
وعاتب القوم أشلاء ونيرانا

وماج النادي حين هتف :

آمنت بالحقد يذكي من عزائمنا

رَقَّ الحديدُ وما رقّوا لبلوانا !

وأبعد الله إشفاقاً وتحنانـاً
ويل الشعوب التي لم تسق من دمها
ثاراتها الحمر أحقاداً وأضغاناً
تغضي على الذل غفراناً لظالمها
تأنق الذل حتي صـار غفرانـا

وتوجع لما ينزل في الشام ، وتحدث عن جراحها وثوراتها ، وذكر احباءه وقبور رصفائه ، وتمجد الشهيد ، وهات من يقول فيه قول البدوي :

يعطي الشهيد فلا والله ماشهدت
عيني كإحسانه في القوم احساناً
وغاية الجود أن يسقي الثرى دمه
عند الكفاح ويلقى الله ظمآنـا
والحق والسيف من طبع ومن نسب
كلاهما يتلقى الخطب عريانـا

وكادت الأكف تدمى حين جلجل :

إني لأشمت بالجبار يصرعـه
طاغ ويرهقه ظلماً وعدوانـاً
لعلـه تبعث الأحـزان رحمته
فيصبح الوحش في برديه انساناً

ونعى على الفرنسيين ما صنعوه في دمشق وتدميرهم قصورها ومسجدها وخاطب باريس :

عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة
من الأذى فتملّىْ حرفها الآنـا
ما للطواغيت في باريس قد مسخوا
على الأرائك خداماً واعوانـا
الله أكبر هذا الكون أجمعـه
لله لا لك تدبيراً وسلطانـا
ضغينة تتنزّى في جوانحنـا
ما كان أغنـاكم عنها واغنانا

وأشاد بالثورة العربية وقائدها وكتائبها وصحرائها :

وللجياد صهيـل في شكائمهـا
تكـاد تشربه الصحـراء ألحانا

وأبو الثورة :

لاث العمامة للجلّـى ولست ارى
إلا العمائم في الاسلام تيجانـا

وندد بخيانة الحلفاء ، وختم قصيدته بأبيات تنبأ فيها بالوحدة الكبرى وبقيام جيش عربي محرر ، وانطلقت الأكف بالتصدية وهو يشدو :

ما للسفينة لم ترفع مراسيها
ألم تهيء لها الأقدار ربانا
شقّي العواصف والظلماء جاريـة
باسم الجزيرة مجرانا ومرسانا
ضمّي الأعاريب من بدو ومن حضر
إني لألمح خلف الغيم طوفانا
يا من يُدِلُّ علينا في كتائبـه
نظارِ تطلعْ على الدنيا سرايانا

وقد رأيت الاستاذين ابراهيم عبد القادر المازني واسعد داغر يبادران إلى تحية الشاعر متأثرين بما سمعا .
واذكر انني رأيت في اليوم التالى على لوحة أحد صفوف دار المعلمين ببغداد هذا البيت :

جفضي على الذل غفراناً لظالمها
تأنق الذل حتي صار غفرانـا

وقال لي الطلاب : ان الدكتور عبد الرزاق محيي الدين ، أستاذ الأدب العربي (رئيس المجمع العلمي العراقي بعد ذلك) هو الذي كتب البيت على اللوحة منوهاً بجماله الشعرى حاثاً الطلاب على استظهار تلك القصيدة ..
وقد هربت القصيدة الى الأقطار العربية ، وتغلغلت في بلاد الشام . وقال لي البدوي بعد ربع قرن ان الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة اخبره حين لقيه أنه فوجيء وهو في الزنزانة في جزيرة الشيطان بافريقيا ، بهذه القصيدة تتسلل إلى السجن وقد استظهر بعض أبياتها ، وكانت مما أثبتت للبدوى عند الحبيب مقاماً كريماً .

دموع الشام

على أن أحداث سورية كانت تهز مشاعرنا ونحن في العراق الذى لاذ به زعماء سورية ، الجابرى ومردم بك والحفار وعادل العظمة والقاوقجى واركان عصبة العمل القومى وثوار فلسطين وعلى رأسهم الحاج أمين الحسيني ، وتتالت على البدوي أنباء عن العسف الفرنسي وسجن نبيه العظمة واخوانه واقلقه نبأ عن مرض والده الشيخ الجليل وقد حرم رؤيته ..

وذات صباح من ايار سنة ١٩٤٠ جاءني يحمل قصيدة موجهة إلى السيد رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء ـ وكان مرجواً لدور قومي كبير ـ وقد جعل عنوانها (دموع الشام) وأعطانيها (ولا أزال احتفظ بها بخط يده) .. فتلوتها متأثراً . وكان الرئيس الكيلاني يستقبل زائريه يوم الجمعة ، فيممنا بيته تلك الأصبوحة ، وأخبرته خبر القصيدة ، فرجا أن اتلوها فرقرقت عينيه والحضور واستعادني ابياتها التي أنافت على الخمسين وكان مطلعها :

حيّ الرئيـس اذا نزلت بساحه
رَحْباً تهلل للوفود فساحا
واقرأ له شعـرى تُرَنِّحْ عِطْفَه
غُرر البيان وَجَـوِّد الأمْداحا
واهتف اذا هـدأ النـديُّ ولـم
تجـد إلا الأحبة فيه والنُّصّاحا
ياشـارب الماء القراح : بجلّقٍ
لم يشـربوا إلا الدموع قَراحا
عرس الشـآم طغى عليه ظالم
فطوى البسـاط وحطم الاقداحا

وحيا الرئيس وناجاه واستثار حميته القومية وقال :

امـا لذاتك بالشآم فـإنهم
حملوا الإبـاء سلاسلاً وجراحا
نزلوا السجون فعطـروا ظلماتهـا
انفاً وعزاً كالضحى وجماحـا

وناجى اخوانه في سجونهم :

فإذا ذكرتكُمُ شـربتُ مدامعي
فكأنني ثمـلٌ يعب الراحـا
واخال ان البـدر يحمل منـكم
نبأ إليَّ إذا أطـل ولاحـا

ويذكر شيخ العروبة نبيه العظمة :

شيخ العـروبة في القيود إباؤه
يُخْفي السنين وعبئها الفضاحـا
عنُفَ الطغاة به ويسـخر كِبْرُهُ
بالشـامتين طـلاقة ومراحا
حمل القضية والسنين فبـالـه
من منكب زحـم الردى وازاحـا

وبعد أن يذكر نجيب الريس الكاتب الكبير ، وفائز الياس النائب الشهير ، يتذكر أباه الشيخ الذى نهكه المرض ، ويخاطب الرسول الذاهب الى اللاذقية حيث يقيم ابوه ، بأبيات ما تلوتها إلا ترجحت في المقلتين عبرات :

لا تعـد عنـد اللاذقية شاطئاً
غزلاً تضاحكـه الصبا ممراحاً
بالله إن كحلَتْ جفونـك موجَـةُ
ضُـمَّ الشـراع وقبِّـل الملاحـا
انزل على خيـر الأبـوة رحمـة
تسع الحياة وعفـة وصلاحـا
يشكو السقـام فإن هَتَفْتَ امامه

رسالتان من بدوي الجبل إلى الكاتب

باسمي تهلل وجهه وارتاحا
وأطِلْ حديثك يستعدهُ تعلُّلاً
بالذكر لا لتزيده ايضاحا
واذا ألح فللحنان عذوبة
في مقلتيه تحبب الإلحاحا
والثم أحبتي الصغار ورفها
غرراً نواعم كالورود صباحا
واحمل لإخوان الجهاد تحية
كالروض رفَّ عباهراً وأقاحا

ويصف الشاعر كيف هرب الى العراق قبل ساعات من مداهمة بيته :

فت العدو بمهجتي وتركتهم
حنقاً علي يقلبون الراحا
عزم فجأت به العدى لم استشر
نجماً عليه ولا أجلت قداحا
مالى اكافح بالبيان وإنه
جهد المقلِّ عزيمة وكفاحا
ومن الغضاضة أنني أرضى به
بعد الظماء المرهفات سلاحا
فلئن سلمت لأهتفن بغارة
شعواء أحكمها ظبى ورماحا
ولأشهدن بكل فج معقلاً
للظلم زعزعه القضاء فطاحا

ثم عاد فهز حمية الرئيس وصحبه واستنخى العراق الذي :

آسي الجراح الداميات حنانه
وهفا ورق طلاقة وسماحا

صهرت من الخطوب

زارني البدوى في مكتبي فرآني مكتئباً عابساً فاهمه امرى واستحكاني السبب .. فقلت : تبين لى أن شعوبيين يدسون الدسائس على حملة الفكرة الوحدوية .. وقد استدعاني مسؤول كبير وقال لي : بلغني ان مكاتبة تجري بينك وبين شكيب ارسلان فأين رسائله إليك ؟ قلت : نحن في حالة حرب والمكاتبة مستحيلة واذا جاءت منه رسائل فانها تمر على الرقابة . فهى تصل إليكم قبل أن تصل إلى . ثم أي ضير في مكاتبة الأمير شكيب الذى احترمه ؟ فقاطعني : « الظرف خطير .. انتبه عدني انك اذا تسلمت من شكيب (هكذا) رسالة أن تطلعني عليها » .

قلت : « مع علمي استحالة المكاتبة فأنا لا أعدك . ثم انصرفت واخشي أن يكون هناك أمر مبيت لي .. » قال : لا تهتم .. وسكت قليلاً ثم نهض الى مكتبي وتناول ورقة كتب عليها هذين البيتين مرتجلاً .

أأكرم ماتضوّعتْ الغوالي
بأعطر منك مأثرة وعرفا
صهرت من الخطوب فزدت قدراً
وتلك سجية الذهب المصفي
وبهذين البيتين بدد كآبتي !!

نبيهة ومشكورة

واذن لي الفرنسيون بعد وساطة والحاح من وزير الخارجية العراقية علي جودة بالشخوص الى لبنان لاجراء عملية جراحية في مستشفي صديقي الدكتور محمد خالد ببيروت وزودني صديقي وزير المعارف صادق البصام بتصريح رسمى يقضي بانتدابي لمهمة ثقافية في بيروت وأوصاني الزعماء السوريون بلقاء اخوانهم في سورية ولبنان ومذاكرتهم فيما يكون الموقف ازاء الأحداث .. وبينما كنت في المستشفي بعد اجراء العملية عادني السيد مصطفى فتح الله صاحب « الكشاف » وكان آتياً من بغداد ودس تحت مخدتي رسالة ، فلما انصرف الزائرون تبينت أنها من بدوي الجبل وفيها يقول :

« كنت ـ ونحن واياك في بغداد ـ ملء العين والسمع والقلب . وأنت الآن ـ وبيننا وبينك أميال وأميال ـ ملء القلب يتلفت إليك دوماً ويعمر بذكراك غائباً ويأنس بك بعيداً .. اما العيد فقد مر ، ونحن نتصورك على سرير المستشفي فيحول هذا التصور بيننا وبين هناءة العيد . سأقص عليك ما فعل أطفالى في صبيحة العيد لتعلم أية مكانة لك في تلك القلوب البريئة الطاهرة . فقد أفاقوا قبيل الشمس وتوضأوا وصلوا ثم دعوا لجدهم وأعمامهم ولعمهم أكرم .

وقسماً بالله لقد فعلوا هذا بصورة طبيعية دون تكليف مني أو تذكير فسررت لوفائهم لك وتقديرهم ـ على حداثتهم ـ لفضلك واخلاصك . سرني اجتماعك بالآنسة نبيهة كل السرور ولاريب أنك بلغتها ما أنا عليه من شوق واخلاص لها . ولا ريب أن الظروف في الاياب ستمكنك من الاجتماع بمشكورة هانم فتفضل بتبليغها شوقي واخلاصي واستعدادي للقيام وللآنسة نبيهة بكل خدمة . الاخوان كلهم لهفة وحنين إليك وترقب لقدومك ترقب متحفز ظمآن ، فعجل بالاياب معافي ثم عجل ثم عجل » . توقيع محمد سليمان أحمد .

أما نبيهة فهى الوطند الكبير نبيه العظمة وأما مشكورة فهى الزعيم شكرى القوتلي وقد اجتنب التصريح باسميها خشية وقوع الرسالة بيد الرقابة وما ينجم عن ذلك من مضاعفات والحرب ضارية لا ترحم !

وسمحت السلطات الفرنسية لى بالبقاء في بيروت شهراً آخر . فتلقيت من البدوى رسالة مع رسول يقول فيها :

« اين أضع قبلتي وهل ترك الاخوان والأخوات في بيروت ودمشق مكاناً لقبلة متواضعة كقبلتي ؟ انتهى الشهر ، ونحن نعد أيامه يوماً فيوماً . بل ساعة فساعة . وبينما نحن نهيء أنفسنا لاستقبالك وبل غليل أشواقنا بلقياك . اذا بنا نفاجأ بنبأ بقائك شهراً آخر فجزعنا لذلك واضطربنا . نسأل الله أن تكون ممتعاً بالصحة والعافية والسرور . وفكر دائماً وانت في بيروت أن أخوانك في بغداد يحنين إليك وقلق عليك فعجل ما استطعت بالرجوع . كيف الآنسة نبيهة وصحتها وراحتها . لقد أخذت منها رسالة واحدة .. أما السيدة مشكورة فلم اتلق منها شيئاً . قدم تحياتي واحتراماتي الخالصة لها » .

توقيع : بدوي الجبل

أكرم زعيتر

البقية في العدد القادم

حقوق الإنسان في الشريعة الإسلاميَّة

بقلم: أحمد فؤاد كامل

عندما شعر المجتمع الدولي بالحاجة إلى تنظيم حقوق الانسان المدنية والسياسية في المسائل الجنائية أصدر: ــ

• الاعلان العالمي لحقوق الانسان عام ١٩٤٨

• الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية ١٩٧٦

وقد تضمنت هذه المواثيق أهم المبادئ والأحكام التالية: ــ

• حقوق المتهم في مرحلة التحقيق:

(١) عدم اللجوء للتعذيب أو المعاملة غير الانسانية أو إجراء التجارب الطبية أو العلمية على أي فرد.

(٢) ضرورة اعلان المتهم بأسباب القبض عليه والتهم المنسوبة اليه.

(٣) وجوب اقتياد المتهم أمام القاضي واعطائه الحق في التعويض اذا كان القبض أو الايقاف قد تم بشكل غير قانوني.

• حقوق المتهم في مرحلة المحاكمة:

(١) حقوق المتهم في المساواة أمام القضاء. من ذلك:

ــ استقلال المحكمة في أحكامها.

ــ وجود المحكمة قبل المحاكمة قانوناً.

ــ المحاكمة العادلة.

ــ علنية الجلسات.

ــ حيدة المحكمة.

ــ اصدار الأحكام علانية.

(٢) قرينة البراءة:

ــ المتهم برئ حتى تثبت ادانته.

(٣) الحد الأدنى من الضمانات التي لابد من توافرها في المحاكمة وهي:

ــ ابلاغ المتهم فوراً وبالتفصيل في لغة مفهومة لديه بالتهمة المنسوبة اليه.

ــ تمكين المتهم من الدفاع عن نفسه والاتصال بمن يختاره من المحامين.

ــ إجراء المحاكمة دون تأخير زائد عن المعقول.

ــ حق المتهم في استدعاء شهود نفي.

ــ حقه أيضاً في استجواب شهود الخصم سواء بنفسه أو بالوساطة.

ــ توفير مترجم للمتهم غير القادر على فهم اللغة التي يحاكم بها.

ــ ألا يلزم المتهم بالشهادة ضد نفسه أو بالاعتراف بأنه مذنب.

(٤) الطعن في الأحكام:

ــ حق المحكوم عليه في الطعن باعادة النظر في الأحكام الصادرة ضده.

(٥) عدم جواز محاكمة الشخص عن الفعل مرتين.

• حماية الأقليات:

ــ الحق في الالتجاء إلى المحاكم.

ــ حق المتهم في أن يدافع عن نفسه أو بواسطة محام وحقه في مناقشة خصومه.

ــ أن يكون الحكم في القضية مبنياً على دليل يوضع تحت نظر الدعوى وأن يكون الدليل معروفاً للجميع.

ــ الحق في الاستئناف.

ــ حق المتهم في عدم اجباره على الاعتراف أو الشهادة ضد نفسه.

• • •

واذا كان الاعلان العالمي لحقوق الانسان يؤكد في مقدمته الاعتراف بكرامة الانسان، فان الاسلام قد كرم الانسان من قبل هذا الاعلان بأكثر من أربعة عشر قرناً.

يقول الحق تبارك وتعالى:

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا).

ويقول سبحانه وتعالى:

(وصوركم فاحسن صوركم واليه المصير).

ويقول تعالى:

● نشهد في إسلامي قاطع عن تعذيب المتهم أو ضربه
● الإسلام يفرض للمتهم راتباً شهرياً إن كان في حاجة إلى ذلك
● الاعتراف على النفس مرفوض - إسلامياً - إذا تم تحت تأثير الخوف أو الجوع

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

* * *

وقد حدد الاسلام اجراءات المحاكمة تحديداً دقيقاً حتى لا يعذب متهم أو يضرب محافظة على حق الأفراد في الأرض - ولا يبيح التضييق على المتهم لحمله على الاعتراف بل انه ليكاد يلتمس الأسباب لتبرئته .. وذلك تبعاً للمبدأ المقرر :

(إدرءوا الحدود بالشبهات) .

لذلك فان من المبادئ التي وضعها عمر بن الخطاب :

(عدم الأخذ باقرار الخائف) .

ومن المأثور عنه في هذا الخصوص قوله :

(ليس الرجل بمأمون على نفسه ان أجعته أو أخفته أو حبسته أن يعترف على نفسه) ذلك أن الاسلام ينهى عن التعذيب والمثلة حتى ولو كان ذلك في الكلب العقور فكيف الأمر إذا وقع ذلك على الانسان .

وقد بلغ من اهتمام الاسلام بالمتهمين في قضايا أنه يوجب أن يجري عليهم رواتب شهرية تدفع إلى المحتاجين منهم شهرياً سواء أكانوا من الرجال أو النساء وذلك فوق كسوتهم صيفاً وشتاء .

كما يوجب حسن معاملتهم وعدم تعذيبهم وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب في كتاب بعث به إلى ولاته :

(لا تدعن في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلي قائماً ، ولا تبيتن في قيد إلا رجلاً مطلوباً بدم ، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم) .

ومن نصائح الإمام الغزالي للولاة :

(ينبغي أن تقنع برفع يدك عن الظلم ولكي تهذب غلمانك وأصحابك وعمالك وندامك فلا ترض لهم الظلم فأنت تسأل عن ظلمهم كما تسأل عن ظلم نفسك) .

* * *

ان حماية الضرورات الاجتماعية تتطلب السير على طريق العدل عملاً بقوله تعالى :

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وقوله تعالى :

(وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ....) .

(... وأقسطوا ان الله يحب المقسطين) .

* * *

وإذا كان الفقه القانوني يرى في الخصومة القانونية هدفاً هو البحث عن الحقيقة واثبات الحق .

فان تعاليم القرآن الكريم تؤكد :

(وقل الحق من ربكم) .

(إن الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

على أن حق الانسان في الحرية الشخصية يقف عند حد الاعتداء على حق غيره أو الاعتداء على النظام العام والآداب العامة فاذا ما تعدى هذا الحق وقفت حريته عن اختيار أو عن اجبار .

ومثال الاعتداء على حق الغير ما يوضحه النبي بقوله :

(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم) .

فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا وان اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) .

فهنا يكون التدخل في حريتهم الشخصية ومنعهم من التصرف في نصيبهم واجباً درءاً للهلاك الذي يصيب الجماعة بتصرفهم .

ويعد عمر بن الخطاب أول قاض في الاسلام وأول من عين قضاة متخصصين في الخصومات بين الناس - وتعد رسالته إلى أبي موسى الأشعري وثيقة حقوق الانسان الاسلامية ونصها :

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي اليك وأنفذ إذا تبين لك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ به .

آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على المدعي واليمين على من أنكر - والصلح جائز بين المسلمين ومن أدعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهي اليه فان بينه أعطيته حقه وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية فان ذلك هو أبلغ للعذر وأجلى للعمى .

ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه وأرشدك أن تراجع فيه الحق ، فان الحق قديم لا يبطله شئ ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور أو مجلوداً في حد أو ظنياً في ولاء أو قرابة فان الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عنهم الحدود إلا بالبينات والأيمان .

ثم الفهم فيما أدلى اليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن أو سنة ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال التي أعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق .

وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة أو الخصوم فان القضاء في مواطن الحق ما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر .

فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس .

ومن تزين بما ليس في نفسه شانه الله فإن الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

كما جاء في كتاب عمر بن الخطاب الى شريح :

إذا وجدت شيئاً في كتاب الله فاقض به ولا تلتفت إلى غيره ، وان أتاك شئ ليس في كتاب الله فاقض بما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فان أتاك ما ليس في كتاب الله ولم يسنه رسول الله فاقض بما أجمع عليه الناس وان أتاك ما ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فان شئت أن تجتهد برأيك فتقدم ، وان شئت أن تتأخر فتأخر وما أرى التأخر إلا خيرا لك) .

بمناسبة أول فيلم عربي عن نابليون

وعد نابليون لليهود سبق وعد بلفور ب ١١٨ سنة

● متى ينتبه المثقفون العرب إلى حقائق التاريخ ؟!

بقلم : الدكتور السيد فهمي الشناوي



كان نابليون بونابرت أول من أعطى وعداً بوطن قومي لليهود في فلسطين . كان ذلك قبل وعد بلفور . وإذا كان اليهود المعاصرون قد نسوا بلفور وأنكروا عليه فضله ، فقد نسوا قبله نابليون وهو أول من مد إليهم يده . وسوف ينسون أيضاً كل من يقف موقف بلفور أو نابليون .

● كيف تحوّل الاستعمار من جيوش إلى بنوك ومعاهد بحث وشركات استثمارية ومشروعات ثقافية؟

● الاضطهاد النازي حجة مفتعلة، وأحلام اليهود أبعد بكثير من أيام هتلر

أعطى نابليون وعده عام ١٧٩٩ أثناء حصاره لمدينة عكا. لقد حاصر عكا شهرين كاملين وفشل في فتحها. وكان هذا أول فشل يصيب نابليون. فشل في عكا قبل أن يفشل في ووترلو، وصدم نابليون وتقلصت أحلامه وبدأ مرحلة السقوط وكأنما أصابته لعنة وعده لليهود.

وسرعان ما هرب متسللا من مصر ـ رقبة العالم ـ وبعد شهور اغتيل خليفته كليبر، وبعد شهور أخرى تزوج خليفته «جاك منو» مصرية من رشيد وأعلن اسلامه.

كان نابليون قد جاء إلى مصر ليقهرها، فقهرته، وقهرت رجله الثاني ثم رجله الثالث أيضاً.

نص الوعد المشئوم

«إن العناية الالهية (!) أرسلتني إلى هنا على رأس جيشي هذا وقد جعلت هذه العناية الالهية (!) نشر العدل وتحقيق مطلبي، وتكفلت بظفري المستمر وجعلت من القدس (!) مقري العام. وبعد قليل سوف تجعل مقري في دمشق وسوف أكون جاراً لبلد داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين (!!!):

إن الأمة العظيمة التي تنجب الرجال تناديكم الآن لا للعمل على اعادة احتلال وطنكم فحسب، ولا لاسترجاع ما فقد منكم (!) بل لأجل ضمان مؤازرة هذه الأمة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم ولكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين.

انهضوا وبرهنوا على أن القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئاً، ولم تثبط همة أبناء الأبطال أجدادكم. أجدادكم الذين كانت محالفتهم تشرف أسبرطة وروما».

هذا هو النص الحرفي لوعد نابليون، نهديه لبعض كتابنا المتأوربين المستغربين الذين يزعمون أن الحملة الفرنسية على مصر هي التي حركت اليقظة العربية. هؤلاء الكتاب الذين يهاجمون مثلاً جمال الدين الأفغاني، ويعزون النهضة إلى حملة نابليون التي لم تدم إلا ثلاث سنوات وجهت بثورتين، وهرب بطلها الأول واغتيل الثاني وأسلم الثالث!

هذه الحملة في نظرهم هي التي أوجدت النهضة، أما محمد علي الذي جاء بعدها مباشرة وبنى كل مشاريع الري والتعليم وقاد أكبر ثورة زراعية، وكون جيشاً منتصراً في أفريقيا وآسيا وأوربا فلا فضل له عندهم.

يلاحظ على وعد نابليون هذا أنه خاطب اليهود بأنهم ورثة فلسطين الشرعيين، وأنها فقدت منهم وسوف يسترجعها لهم، وأن هذا هو العدل، وأن العناية الالهية ضمنت له النصر. وكلها مزاعم كذبتها العناية الالهية في الحال، فقد هزم أمام عكا بعد هذا الوعد بأيام، وضرب جيشه بالطاعون، وفر هو هارباً في جنح الظلام، ونفي بعد ذلك وفقد أملاكه كلها. وأدهى من هذا كله أن نسيه تمام النسيان من أصدر هو لهم هذا الوعد وتبرأوا منه، وأنكروه.

كيف صدر هذا الوعد

قبل حملته على مصر كان نابليون قد عقد اجتماعاً سرياً (!!) مع بعض الشخصيات اليهودية الفرنسية في فرنسا.

وقبل هذا الاجتماع السري كان توماس كوربت اليهودي الايرلندي البارز قد أرسل رسالة إلى باراراس عضو حكومة الدركتوار (حكومة الادارة) ينصح فيها الفرنسيين باستعمار الشرق، وخلق وطن لليهود في فلسطين يكون ركيزة لفرنسا داخل هذا الوطن.

قالت هذه الرسالة حرفياً كلاماً يتضح لنا اليوم معناه: قالت «إن اليهود سوف يكونون لكم عنصراً استعمارياً ثابت الأركان يحل في آسيا محل الامبراطورية الآخذة الآن في الانحلال (يقصد الخلافة العثمانية) ـ امبراطورية العثمانيين. وسوف يقدم لكم هذا العنصر اليهودي أهم الضمانات لبث الفوضى وهدم الدين واشعال الأزمات وسوف يلين هذا العنصر التركي الصلد والمتعصب نتيجة الاحتكاك والاختلاط باليهود القادمين من مختلف البلدان حاملين مختلف النظريات والثقافات.

بل انني أعتقد أن الصين ذاتها ستتأثر باليهود».

وقد لقيت هذه الرسالة من هذا الايرلندي اليهودي إهتماماً بالغاً، عقد على اثره الاجتماع السري بين نابليون ويهود فرنسا. وتمت في هذا الاجتماع مساومة مكشوفة بين نابليون واليهود: يصرف اليهود على نابليون وحروبه، على أن يقتسم الطرفان المغانم، لنابليون السلطة والمجد ولليهود العائد المادي ونشأة اسرائيل!

بعد هذا الاجتماع التساومي التآمري السري أصدر اليهود البيان التالي:

نص البيان اليهودي

«إن عددنا ٦ مليون منتشرون في جميع أنحاء العالم. وفي حوزتنا ثروات وأموال وممتلكات طائلة. وعلينا أن نتذرع بكل قوتنا لاستعادة بلادنا (!) إن الفرصة سانحة ويجب أن نغتنمها.

يجب أن نعمل بالوسائل الآتية لتحقيق مشروعنا المقدس: يجب إقامة مجلس يهودي عالمي ينتخب من يهود ١٥ بلداً هي ايطاليا، سويسرا، المجر، بولندا، روسيا، شمال بريطانيا، اسبانيا، ويلز، السويد، تركيا، آسيا، أفريقيا.

هذه اللجنة اليهودية الدولية تكون قراراتها مقبولة لدى كل يهود العالم بحيث تصبح قانوناً مخضعاً ملزماً. واقتراحات هذا المجلس الدولي تبلغ إلى الحكومة الفرنسية إذا اقتضى الحال ذلك. أما البلاد التي تنوي قبولها مع فرنسا فهي: اقليم الوجه البحري من مصر إلى عكا والبحر الميت إلى البحر الأحمر. هذا المكان من العالم هو الأكثر ملاءمة من أي بقعة في العالم. ونحن فيه نصبح قابضين على تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الجنوبية والشمالية. ولن تتأخر أثيوبيا عن إقامة علاقات تجارية معنا بمليء رضاها، فهي البلاد التي قدمت للملك سليمان الذهب والعاج والجواهر الكريمة!

ثم ان مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا. وموقع بلدنا هذا على البحر الأبيض المتوسط يمكننا من إقامة مواصلات سهلة مع فرنسا وايطاليا وأسبانيا وسائر أوربا.

إن هذا المكان المتوسط موقعاً من العالم سوف يصبح وكأنه مستودع لجميع الحاصلات التي تنتجها الأرض الغنية حوله.

أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى باقتراحاتنا للباب العالي، فلا تنشر علناً. وسوف نضطر لابقائها منوطة بحسن ادارة الأمة الفرنسية». انتهى البيان اليهودي!

تحليل الأطماع اليهودية

اذا كان التغريبيون العرب يقولون إن الحملة الفرنسية هي سبب النهضة العربية الحديثة، فها هي نوايا الحملة تتضح، فاليهود هم الذين صرفوا ومولوا نابليون، وأعطاهم نابليون بالمقابل وعداً بالوطن القومي وأرض داود.

وعد نابليون لليهود سبق وعد بلفور بـ ١١٨ سنة



وليست هذه المطامع اليهودية مجرد استنتاجات ولا تخوفات ولا ظنون وافتراءات ، بل هم اليهود أنفسهم الذين ينادون بها ويساومون نابليون عليها .

إنهم يطمعون فيما بين البحر الأبيض إلى البحر الأحمر إلى دلتا مصر .

إنهم يطمعون في أن تكون « فلسطين » مستودعاً للثروات لكل المنطقة ، حتى الثروات الزراعية .

إنهم يطمعون في تليين العنصر التركي والعنصر الصيني وترويضهما .

إنهم يقررون أن نشاطهم المادي يجب أن يسيطر على تجارة الشرق الأقصى والعرب وأفريقيا . ومن اللافت للنظر أنهم عندما أصدروا بيانهم هذا قبل الغزوة الفرنسية لمصر ـ وحتى الآن ـ لم يحددوا حدوداً جغرافية فاصلة لهذا الوطن المطلوب . فهم يقولون من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر إلى دلتا مصر ، مع نفوذ ممتد على آسيا وأفريقيا .

ومن المقلق حقاً أن يطمعوا في دلتا النيل ، ومنذ غزوة نابليون وحتى اليوم : فإلى جانب ما ورد في بيانهم السابق ، كانت جولدا مائير تكرر أن حلمها أن تسوق سيارتها إلى القاهرة لتتسوق فيها ثم تعود إلى القدس . وركب بيجن الطائرة فوق الأهرام وقال إن أجداده بنوها وقال عيزر وايزمان وهو يصافح رجل أعمال كبيراً : كم أتمنى أن أشاركك نشاطك المالي !

إن هذه الطموحات كلها ليست موجهة إلى قطعة من الأرض مثل باقي الأرض . لا . إن معنى هذه الطموحات هو السيطرة على العالم والتحكم في أوربا والامساك بزمام التاريخ .

فهذه البقعة هي التي قال عنها عمرو بن العاص : « هي لمن غلب » ، وقال عنها ايزنهاور « هي رقبة العالم ، من أمسكها خنق العالم وأمسك بانفاسه » ، وقال نابليون : لو لم أخرج من مصر ما نفيت ولا هزمت . وقال كرومر : إنها أخطر منطقة في العالم .

وليس من الضروري السيطرة عليها سيطرة مباشرة بالجيوش . فقد تغيرت الجيوش الآن الى بنوك والى معاهد بحث والى شركات استثمار ومشاريع ثقافية وفنية ومذهبية وتحول الاستعمار إلى سيطرة ومديونية ، وإلى قوانين محلية .

مؤتمر بال

عقد مؤتمر بال في ١٨٩٧/٨/٢٩ في سويسرا برئاسة هرتزل ، وحضور ٢٠٤ عضوا ، منتخبين من يهود العالم ، ليعلنوا المطالبة العلنية الأولى بوطن قومي بعد أن كانوا يتفاوضون سراً مع نابليون قبل ذلك بمائة عام !

وقد دام هذا المؤتمر ثلاثة أيام ، أعلن بعدها مولد الحركة الصهيونية العالمية وهدفها إقامة دولة يهودية في فلسطين . وهذا هو نص القرارات :

« إن غرض الصهيونية هو تأسيس شعب يهودي في فلسطين يضمنه القانون العام ؛ ولتحقيق هذا الهدف نقترح الآتي :(١) ترقية فلسطين على يد عمال زراعيين وصناعيين يهود .(٢) تنظيم وجمع شتات يهود العالم بواسطة المؤسسات المحلية والدولية طبقاً لقوانين كل دولة . (٣) تنمية شعور اليهود بالوطن (٤) الحصول على موافقة الحكومات كلما دعت الضرورة إلى هدف صهيوني ».

لقد درج المؤرخون على أن يعتبروا مؤتمر بال هو مولد الحركة الصهيونية . ربما كان السبب هو ظهور كلمة الصهيونية لأول مرة في هذا المؤتمر . ولكن من استعراض ما نقول يتضح ان هذه الحركة نحو وطن قومي بدأت قبل مؤتمر بال بقرن كامل ، وبدأها نابليون ، وإن كان أعطى وعده لليهود عامة ، ولم يخصص كلمة الصهيونية . وربما كان هناك سبب آخر لهذا الأهمال ، هو محاولة الحركة اليهودية ألا تربط نفسها بنابليون بعد أن هزم ونفي وأفل نجمه ، وصعد نجم خصمه بريطانيا التي أراد اليهود أن يربطوا دراجتهم في سيارتها الصاعدة .وهو نفس الاسلوب الذي استخدموه بعد ذلك عندما أفل نجم بريطانيا وسطع نجم أمريكا ، فجلدوا الضباط البريطانيين على جذوع الشجر ووجهوا وجههم نحو أمريكا .

إذا كان اليهود قد بدأوا المطالبة بالوطن القومي منذ أيام نابليون واذا كانوا قد أعلنوا مذهب الصهيونية علناً منذ أيام مؤتمر بال ، فما بال الحجج التي تذرع بها روزفلت في لقائه مع الملك عبد العزيز في البحيرات المرة بمصر ثم في الفيوم بمصر أيضاً من أن اليهود تعرضوا للطرد والابادة على يد هتلر ، مما يستدعي إجلاءهم بفلسطين ؟ وظلت أبواق الغرب تكرر هذه الحجة المصطنعة حتى رسخت في الأذهان . هذا في الوقت الذي كان وعد بلفور قد سبقه وصول هتلر إلى الحكم بسبعة عشر عاماً ، وكان مؤتمر بال قد سبق وصول هتلر بستة وثلاثين عاماً وكان وعد نابليون لهم قد سبق بمائة وخمسة وثلاثين عاماً . هل يكذب الكبار وكبار الكبار ؟

بل الأدهى من كذب الكبار هذا أن يخفي الكبار ـ سواء انجلو سكسون أو ألمان ـ أن نفس حكومة هتلر هذه عقدت مع الصهيونية العالمية معاهدة سرية تعرف بمعاهدة هنفارا بغرض تهجيرهم إلى فلسطين (مقالنا عن المانيا وفلسطين) .أم أن الكبار كبار في أكاذيبهم .

موقف نابليون

هل كان نابليون أيضاً من المستكبرين ؟ . لقد جاء إلى مصر وهو يعلن أنه انما يقصد قطع الطريق البريطاني إلى الهند فاذا وطأت قدمه أرض مصر ـ بل وهو ما زال على سطح البحر ـ يعد منشوراً يعتبر ميثاقاً يدعي فيه أنه انما جاء لتخليص العرب من « ظلم » المماليك والترك ! وبناء عليه لا يحاربه إلا المماليك والترك ! وينهزمون ! وهو المطلوب . فاذا حقق هذا الانتصار لا يتجه إلى الهند ، ولكنه يتجه شمالاً عبر الشام نحو اسطنبول . وهو أمام عكا ، من أعمال فلسطين ، يصدر فجأة وعده التاريخي لليهود بوطن قومي . ويتضح انه حتى من قبل أن يجهز جيشه ، وقبل أن يقود « جيش الشرق » عبر البحر الأبيض قد اجتمع إلى اليهودية العالمية وساومها وساومته ، وعاهدها وتعاهد معها .

بل يتضح ما هو أكثر من ذلك ، وما يتفق مع أطماع نابليون العالمية الواسعة . يتضح وبلفظ صريح وقاطع من بيان اليهودية العالمية أن اليهودية العالمية كانت تطمع في وراثة الامبراطورية العثمانية بكل أملاكها . وقد أثبتت مسيرة اليهودية العالمية بعد ذلك وأكدت هذه الأطماع الواضحة ، بل ان الفترة المعاصرة التي نعيشها الآن قد شهدت صراع اليهودية العالمية في طرد فرنسا وانجلترا من نفس أملاك الدولة العثمانية ، ونشر هيمنة اسرائيلية مكانها !

بل الأدهى من ذلك كله أن ينص البيان اليهودي العالمي الصادر منذ نحو قرنين ! ـ على أنهم ينوون تليين العنصر التركي والعنصر الصيني أيضاً باعتبارهما من العناصر البشرية الصلدة التي يصعب ابتلاعها ، وأن أداة هذا التليين أو الاذابة هي خلط ثقافتيهما بثقافات متنوعة يحملها إليهم اليهود .

ما بال مؤرخينا يسهون عن ذلك ويكتمون الشهادة ؟! بل ان الأمر قد وصل بمؤرخينا إلى الاستهواء الغربي أو التأورب أو التغريب إلى أن يصوغوا لنا عقيدة تاريخية وعقدة نفسية ومركباً ذهنياً بأن النهضة المعاصرة هي من صنع الحملة الفرنسية ، وأنها هي التي فتحت نافذة دخل منها ضوء الحضارة وأنها هي التي اطلقت شرارة التفكير في الذهن العربي .

هل يعقل أن الحملة الفرنسية التى لم تدم إلا ثلاث سنوات فقط، تخللتها ثورتان شعبيتان عنيفتان لدرجة أن دخلت الخيل الأزهر ودكت منازل المدينة من المقطم ، ثلاث سنوات ، تنتهى بأن يهرب القائد الأول نابليون ، ويغتال القائد الثاني كليبر ، ويسلم القائد الثالث مينو لاجئاً إلى احضان امرأة عربية من رشيد ، ثم يقال بعد هذا ان هذه هى الحملة التى أضاءت الظلام ونشرت العدل وحققت المدنية بعد ظلم واظلام وضلال ؟

ثم كيف تكون هذه السنوات الثلاث الحافلة بالثورة والغضب الشعبى هى منطلق الحضارة والتفكير ، ولا يكون عهد محمد على التالى لها مباشرة والذى دام عشرات السنين وحقق انشاء كليات قبل ٩٠٪ من كليات أوربا ، وجيشا تفوق على جيوش أوربا ، ونظام زراعة كان هو ثورة عالمية في الزراعة .. كيف لا يكون هذا العهد هو بداية الصحوة ؟

هل يا ترى يخضع مؤرخونا لإسرائيليات ؟ أم ياترى هناك حلف استعمارى خلفهم ؟

ألا نلاحظ أن نابليون عندما زعم أنه جاء إلى مصر ليحرر العرب من ظلم الترك ثم لم يلبث غير شهور قبل أن يذهب إلى عكا ويعلن قيام الوطن اليهودى ... ان نابليون هذا بهذا الخطو الثابت قد تكرر بعد ذلك تماما عندما قاد لورنس ، تحركه المخابرات البريطانية ، ثورة عرب ضد ترك خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم ما لبث بعدها بشهور معدودة أن أصدر بلفور ، تحركه أيضا المخابرات البريطانية ، وعد بلفور الشهير ، ألم يكن نابليون عندما اتجه صوب اسطنبول يريد اسقاط الخلافة الاسلامية شبيها تماما بعد ذلك باللورد اللنبى عندما دخل القدس وقال اليوم انتهت الحروب الصليبية ؟ الخطوة الأولى ضرب العرب بالترك والخطوة الثانية وطن قومى لليهود والخطوة الثالثة هدم الخلافة ! !



لقد انتقلت العدوى من مؤرخينا إلى مثقفينا أنصار الحملة الفرنسية وأعداء العثمانية وجمال الدين الأفغانى وأعداء العربية وأنصار العامية . بث هؤلاء المثقفون سما ثقافيا لتأكيد دعوى باطلة بأن الحملة الفرنسية هى بدء النهضة .. ادعوا أن اصطحاب نابليون لمطبعة معه واصطحابه لفريق من العلماء الزراعيين والكيماويين والجيولوجيين الذين مسحوا مصر ووصفوها هو ثورة ثقافية حديثة .

ان هذا الذى فعله نابليون من استخدام المطبعة والعلماء فعله الانجليز فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، وهتلر فى حربه وغزوه لكل بقعة دخلها بجيوشه . وقبله الروس فى غزوهم لأوربا الشرقية . أن كل أجهزة المخابرات الحديثة تصطحب معها المطبعة والعلماء وتستخدم الاذاعة والإشاعة وحرب الاعصاب . وتستخدم المخابرات الدولية أبرز الأمخاخ . سومرست موم كان فى المخابرات البريطانية . كذا اغاخان . بل أن المستشرق ارنولد والمؤرخ الصهيونى مرجليوث وهما اصحاب نظرية ان لا دولة ولا خلافة في الاسلام وانه مجرد عبادة ... كل هؤلاء كانوا من المخابرات البريطانية .

فلماذا نعتبر مطبعـة نابليون وعلماء نابليون من بناة الحضـارة ، ولا نعتبر المخـابرات البريطانيةوالنازية والأمريكية والاسرائيلية من بناة الحضارة .. لماذا ؟

لقد حمل نابليون معه إلى مصر ـ المطبعة والعلماء ـ حمل نساء كان بعضهن يلبس ملابس الجنود ! وحمل معه الخمارات وموائد القمار وألاعيب الحواة وكان هو نفسه يلبس ملابس الشيوخ فى الاحتفالات الدينية . فهل كل هذا كان من عناصر « التنوير » التى يزعمها سادتنا المثقفون أنصار العامية وأعداء جمال الدين ؟

هل هؤلاء السادة المثقفون مضللون (بالفتح) أم مضللون (بالكسر) أم حدث لهم استهواء لأوروبا أم حدث لهم تأورب كامل أم حدث لهم تغريب كامل . أم هم كارهون لعقائدنا ؟

لقد صحب نابليون معه المطبعة وصحب معه العلماء لأنه يعلم أنه قادم إلى بلد ذى عقيدة ، أو ما نسميه الآن ايديولوجية . كانت عقيدتهم هى ما تبقى من ارث عن أجدادهم . وكانت عقيدة أجدادهم الأولى قد تكونت من الاسلام وكتابه القرآن . وكان نابليون يعلم هذا وأراد نابليون أن يحاجج هذه العقيدة بعقيدة أوربا الوضعية فحشد كل أدوات العقيدة الوضعية : احضر الكيماويين وكانت الكيمياء علما حديثا أشبه بعلم الذرة الآن ، وأحضر المهندسين والزراعيين وسائر العلماء ليساندوه فى مواجهة عقيدة غلبت التاريخ .. ونابليون عندما شكل مجلساً من مشايخ الدين ، وكان يحضر بنفسه اجتماعاته ويعلق على صدورهم النياشين وهو لابس ملابسهم ، إنما كان يحاول استهواء هؤلاء الشيوخ عن بقايا عقيدتهم . وكان رفض المشايخ لهذه النياشين . والقاؤها فى وجهه إنما هو تعبير عن رفضهم لمحاولته اخراجهم من عقيدتهم .

ولاشك فى أن نابليون كان ينوى تنصير هؤلاء المشايخ بالكامل لو كان أمكنه ، وبعد أن يئس منهم وجد الأمندوحة من أن يحمل السيف ضد عقيدتهم ويدخل أزهرهم بخيله ، ويدوس القرآن بحوافر جنوده ! ثم وجد ألا مندوحة من أن يقف أمام عكا ويعلن اعلانه التاريخى قائلا : ياأصحاب فلسطين الشرعيين ! وهكذا كشف النقاب عن تجنيد اليهودية العالمية له . ثم يقول انها أرض داود ويقول انه سينقل عاصمته إلى دمشق ليكون جارا لعاصمتهم فى القدس !

هذا هو نابليون ـ وهو فى الشرق ـ وهذه هى حملة نابليون « لتنوير » الشرق العربى . نابليون الذى استكبر أن يتوجه البابا لم يستكبر أن يسير فى ركب اليهودية العالمية . وكان جزاؤه هو جزاء أمثاله ـ فيما بعد ـ فما أن اصدر هذا التصريح حتى هزم ـ لأول مرة ـ أمام عكا على يد الجزار باشا ثم ضربه الطاعون . ثم هرب ليلا عبر البحر فى زى امرأة . ثم تدهور وانتهى . وبعد ذلك كله لم يذكره اليهود ولا شكروه وتبرأوا منه .

موقف العرب

لقد استطاع مثقفو العرب من الذين حدث لهم استهواء أو تأورب أن يخفوا عن قومهم حقيقة نابليون الصهيونية والمناوئة للاسلام ، وان يجعلوه فى مخيلتهم من رواد التنوير ، وخانوا بذلك أمانة العلم وأمانة القيادة لهذه الأمة ... وبالمناسبة فقد ظهر فى الأيام الأخيرة أول فيلم عربى عن نابليون فى مصر وهو فيلم يتجاهل كل هذه الحقائق الساطعة .

ولما كانت الثقافة هى التى تسبق وتقود السياسة فقد ضل من بعدهم أيضا كثير من السـاسـة وتكرر ما فعله نابليون على يد الانجليز وغير الانجليز .

ولازالت الأطماع اليهودية قائمة بغير حدود جغرافية ، وتشمل من دلتا مصر إلى البحر الأبيض وإلى البحر الأحمر مع خلق مستودع لكل الثروة المادية للمنطقة فى فلسطين ومع تطويع العنصر التركى والصينى .

ان على المثقفين العرب أن يتطهروا .

السيد فهمى الشناوى

هامش : ______

نص النداء اليهودى ونص وعد نابليون موجودان فى كتاب القضية الفلسطينية لمؤلفه عودة بطرس عوده المطبعة الفنية الحديثة بمصر .

قصة حياة مجلة عربية مظلومة

روضة المدارس

بقلم: الدكتور أحمد حسين الصاوي



رفاعة رافع الطهطاوي

درج الباحثون في التاريخ الحديث على القول بأن مجلة « روضة المدارس » كانت « صحيفة مدرسية » تصدر عن « ديوان المدارس » وتوزع فقط على « التلاميذ » وتشجع المجدين منهم على الكتابة فيها ... الخ . ونشأنا ونشأت بعدنا أجيال ، وضمن ما حصلناه من معلومات هذه المقولة التي تحصر المجلة في نطاق « مدرسي » محدود ، على أنها قضية مسلمة . حتى الباحثون الذين درسوا تاريخ الصحافة المصرية لم يخصوا « روضة المدارس » بأكثر من سطور قليلة لا تجلو حقيقة دورها ومكانتها .

ثم أتيح لبعض الباحثين في السنوات الأخيرة أن يتناولوا موضوع هذه المجلة ضمن ما تناولوه من ثمرات الرائد العظيم رفاعة الطهطاوي ، بل إن بعضهم جعلها دون غيرها محور بحثه . فاذا بالمقولة القديمة تهتز وتتهاوى والحقيقة تتكشف وتبين . واذا هذه المجلة بكل المقاييس دورية ثقافية على أعلى مستوى سمح به عصرها . بل إن هذه المجلة المظلومة انفردت بمميزات وخصائص من حق تاريخ الصحافة العربية أن تسجل لها .

صحيح أن « الروضة » صدرت عن « ديوان المدارس » ، وصحيح أن معظم قرائها كانوا من الطلبة ، ولكنها لم تكن أبداً صحيفة مدرسية محدودة المستوى . وإنما كانت « روضة المدارس » منبراً للتثقيف والتنوير . ولم يقلل من قيمتها أو ينقص من قدرها أنها صدرت عن « ديوان المدارس » أو أن غالبية قرائها من الطلبة . فقد كانت نشأتها في كنف الدولة ضرورة مرحلية ، اذ لم تكن ظروف الأفراد أو الجماعات في مصر في ذلك الوقت تسمح بأن تصدر مثل هذه الدورية خارج النطاق الحكومي ، ومن ناحية أخرى فقد كان ناشئة الأمة يمثلون الكتلة الرئيسية للقطاع المتعلم الذى يستطيع أن يقرأ ويستوعب المادة التى تقدمها دورية ثقافية . وهؤلاء الناشئة هم الجيل المرجو في النهضة التي كانت آخذة بأسبابها .

ولم يكن توزيع المجلة يقتصر على الطلبة وحدهم ، فقد كان يقرؤها كذلك معلموهم وكثير غيرهم من المتعلمين الذين يشغلون مختلف المواقع داخل الحكومة وخارجها . وكل هؤلاء وأولئك كانوا بيئة خصبة ، صالحة لتلقي كل ما يثري المعرفة ويمتع العقل ويذكي الوجدان .

فما هي قصة هذه المجلة ؟ وما هي صورتها الحقيقية التي تحدد تحديداً دقيقاً مكانها من تاريخ الصحافة العربية بعامة ، ومن تاريخ الدوريات الثقافية بوجه خاص ؟ ..

كان رفاعة الطهطاوي قد نفي إلى السودان ثم عاد إلى أرض الوطن بعد فترة اغتراب قاسية امتدت طيلة الشطر الأكبر من عهد الوالي عباس الأول . وكان ألم رفاعة لهذا النفي الجائر كبيراً ، ولكنه أخذ يشغل فراغ وقته في السودان بالترجمة .

واستأنف الرجل نشاطه في عهد سعيد ، فتولى إدارة بعض المدارس ، كما أعاد انشاء قلم الترجمة ثم اتجه إلى إحياء التراث العربي القديم ، لرغبته في نشر العلوم بسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ، ، فسعى حتى صدر الأمر ، بطبع جملة كتب عربية ... عم الانتفاع بها في الأزهر وغيره .

غير أن رفاعة واجه التعطل مرة ثانية في أواخر عهد سعيد ، ثم بدأ المرحلة الأخيرة المثمرة من حياته في عهد اسماعيل .

ولا جدال في أن اسماعيل كان حاكماً مستنيراً مصلحاً ، وأنه حقق لبلاده الكثير من أسباب النهضة والتقدم . ولولا اسرافه وعدم تبصره أحياناً ، ولولا مطامع الدول الأوربية ، لكانت مصر قد احتلت مكانتها الجديرة بها في موكب الدول العصرية الناهضة .

ولقد كانت الحياة في مصر أيام اسماعيل خصبة أشد الخصب ، تفيض جوانبها المختلفة بالنشاط والعمل والبناء .

وشهدت الحياة الثقافية بالذات نهضة



الخديوي اسماعيل





اسماعيل صبري



علي باشا مبارك

● كانت جزءاً من نهضة ثقافية شاملة ، وأول مجلة ثقافية عامة في العالم العربي

ملحوظة ، فأعيد تنظيم مجلس المعارف ، وأنشىء عدد كبير من المدارس ، وأعيد إرسال البعثات العلمية لأوربا ، وأسست دار الكتب والمتحف المصري ، وأنشئت الجمعية الجغرافية والمجمع العلمي المصري .

وصاحب هذا كله اهتمام ملحوظ باللغة العربية ، سواء من حيث مستوى تعليمها بالمدارس أو استخدامها في مكاتبات « الدواوين » .

أما الحياة الصحفية فقد واكبت الحياة الثقافية ، وشهدت بدورها انطلاقة كبيرة ، بدأت بها الصحافة المصرية مرحلة جديدة مشرقة في تاريخها المجيد .

في عهد اسماعيل ظهرت أول صحف أهلية . وأسهم السوريون في الحقل الصحفي بجهود كبيرة ، بعد أن لجأوا إلى مصر ، يحتمون بها وبما يظللها من أمن وحرية نسبية لما عانوه من الاضطهاد العثماني في بلادهم . وتفاعلت الصحف مع براعم النهضة الثقافية التي بدأت تتفتح ، ومع الحياة السياسية الناشئة ، وانفعلت بالأحداث الخارجية الكبرى . وقيض الله لها ملهماً فذاً هو الداعية المناضل جمال الدين الأفغاني ، فستها حرارة دعوته ، ورددت شعاراته ونادت بأفكاره .

أما الصحافة الحكومية فكانت تمر بأمجد أيامها وآخرها ، قبل أن تتم رسالتها وتطوي كتابها ، وتخلي الميدان للصحافة الأهلية . وقد عكست في وضوح ملامح الدولة الجديدة بكل أنشطتها وتطلعاتها .

في عام ١٨٦٥ التفت اسماعيل الى « الوقائع » فأيقظها من خمودها ، ووفر لها من الامكانات ما جعلها كما أراد لها « في عداد الجرائد المعتبرة » إدارة وتحريراً . وأصبحت تصدر بانتظام مرتين كل اسبوع ، في طبعة عربية حافلة بالمواد المتنوعة ، ولها ترجمة تركية تصدر في طبعة منفصلة ولكنها لم تعمر طويلاً . وقد عين لتحرير « الوقائع » عندئذ أحد معاوني رفاعة ، وهو « بلديه » الشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوي ، الذي سبق أن عمل تحت اشرافه في التدريس والتصحيح وتحرير الأعمال المترجمة بالمدرسة التجهيزية ومدرسة الألسن .

وفي العام نفسه أصدرت حكومة الخديوي الطموح صحيفتين ، أولهما هي مجلة « يعسوب الطب » الشهرية ، وكانت صدى للنهضة التعليمية الطبية التي أشرفت عليها نخبة من أعلام المصريين والأجانب . وقد حرر هذه المجلة محمد علي باشا الحكيم كبير الأطباء المصريين وأحد أعضاء البعثات التعليمية في عهد محمد علي ، واشترك معه نخبة من نوابغ الأطباء . وكانت تعالج الموضوعات الطبية والصحية في أسلوب علمي مبسط ، ولغة سليمة منقحة . وهي أول دورية متخصصة من نوعها تصدر بالعربية .

أما الصحيفة الثانية ، فهي « الجريدة العسكرية المصرية » ، التي كانت كذلك صدى للتقدم العسكري الكبير في عهد اسماعيل . وتختلف هذه الصحيفة عن سميتها التي صدرت في عهد محمد علي ، اذ كانت الأولى للجرائم العسكرية وحدها ، أما هذه « فليست جريدة ضيقة المعنى محدودة الغرض ، وهي ليست مقصورة على الشئون العسكرية ، بل يندرج فيها ايضاً فوائد جليلة من المعارف النافعة والفنون المتنوعة ..

هكذا صدرت المجلة

وفي عام ١٨٧٠ صدرت مجلة « روضة المدارس » ، التي كانت جزءاً من نهضة أخرى هي النهضة الثقافية الشاملة ، والتي قدر لرفاعة أن يكون اسهامه فيها ختام جهاده العظيم في قيادة التحول الحضاري لمصر الحديثة .

ولم يكن لرفاعة علاقة ما بمجلة « يعسوب الطب » . أما « الجريدة العسكرية المصرية » ، فكانت معظم مقالاتها يكتبها ضباط البعثة الفرنسية بالجيش المصري ، ثم يترجمها بعض العاملين في قلم الترجمة باشراف رفاعه ، وعلى رأسهم تلميذاه عبدالله ابو السعود ومحمد قدري .

وليس صحيحاً ما قيل في هذا الصدد ، من أن رفاعة كان « مشرفاً على تحرير المجلة العسكرية بالفرنسية والعربية » . أو أنه « أشرف على ترجمة بعض أعداد المجلة العسكرية المصرية » فلم توجد للجريدة العسكرية المصرية أية طبعة فرنسية بذلك الاسم أو بغيره .

كان رفاعة قد تولى منذ بداية عهد اسماعيل بعض المهام الاشرافية في حقل التعليم ، وأبرزها عضويته في « قومسيون ديوان المدارس » ، وهو أشبه بمجلس أعلى يخطط لسياسة التعليم ويشرف على تنفيذها وتطويرها . هذا فضلاً عن « نظارته » التقليدية لقلم الترجمة . وكان يتولى ديوان المدارس (وزارة التعليم) في ذلك الوقت علم آخر من أعلام نهضتنا الفكرية الحديثة وأحد نوابغ بعثات محمد علي ، هو الأديب المؤرخ المهندس علي مبارك .

وقد فكر ديوان المدارس في اصدار مجلة « روضة المدارس » ، لتكمل رسالة التثقيف التي تنوعت أعباؤها وتشعبت بين معاهد التعليم العامة والمتخصصة ، وغيرها من الأجهزة التي أنشأتها الدولة . وكان وراء هذه الفكرة علي مبارك الذي حمل أمانة المسئولية « الرسمية » للنهضة التعليمية وقتذاك ، ورفاعة الطهطاوي الأب الروحي لها .

وكان منطقيا أن يختار الديوان رفاعة « ناظراً » للمجلة الجديدة ، يشرف عليها ويوجهها ويرعى نشاطها . وقد نوه « الوزير » بهذا الاختيار في كلمة نشرها بالمجلة ، قال فيها : « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار اليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان ، ناسب أن تجعل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين ، وينشر علمها فيتلقاه محب المعارف باليمين » .

كانت « الروضة » أول مجلة ثقافية عامة في العالم العربي . وقد اتخذت شعاراً لها بيتين من الشعر أكدت فيهما وظيفتها « التربوية » ، وهما :

تعلم العلم واقرأ ... تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى ... خذ الكتاب بقوة

وقد صدرت المجلة نصف شهرية في حجم الكتاب المتوسط ، وعين لرئاسة تحريرها علي فهمي رفاعة ، نجل رفاعة الطهطاوي . ولم يكن في هذا الاختيار أية مجاملة للرائد الكبير ، وانما كان رئيس التحرير – كما أجمع مؤرخوه – شخصية ممتازة ، ويشهد سجله بالتفوق في كل عمل تولاه .

العدد الأول

وقد ظهر العدد الأول من « روضة المدارس » تتصدره افتتاحية طويلة رسمت منهج المجلة وحددت أهدافها ، وجمعت بحروف ثقيلة لتأكيد أهميتها .

وقد اختلف الباحثون في تحديد شخصية كاتب هذه الافتتاحية . فبينما يسلم بعضهم بأنها بقلم رفاعة ، فإن بعضهم الآخر ينسبها إلى ولده علي فهمي ، بالرغم من أن فهرس المجلد الأول من المجلة قد أوضح انها بقلم والده .

وأيا ماكان الرأي حول من كتب هذه الافتتاحية أو صاغ عباراتها ، فالذي لا شك فيه أن ما تضمنته من أفكار حول رسالة المجلة يعكس في وضوح شخصية رفاعة ، ويصور في دقة آراءه ووجهات نظره ، ويطابق المنهج الذي التزمه طيلة سنوات جهاده .

حقيقة أن أسلوب الافتتاحية متأنق ، وتزين عباراته ألوان من البيان والبديع ، ولكن هذا الأسلوب ذاته ليس غريباً على رفاعة . فقد كان لكتابته عدة أنماط تختلف باختلاف طبيعة ما يكتب . وقد يكون رأى أن افتتاحية العدد الأول من مجلة ثقافية مثل « الروضة » يناسبها أسلوب الترسل الأدبي على طريقة معاصريه ، فاستخدمه في كتابتها . وقد يكون كذلك قد حدد معالم المقال ودون أهم نقاطه ، ثم عهد به الى رئيس التحرير فصاغه بهذا الأسلوب .

وعلى أية حال ، لقد بدأت الافتتاحية بتمجيد مصر والاشادة بنهضتها ، والتنويه باقبال بنيها على « اكتساب العلوم والفنون » . وهذا المدخل يذكرنا بمقدمات رفاعة في كثير مما كتب ، وبخاصة في أعماله الخالدة : « تخليص الابريز » و « مناهج الألباب » ، و « المرشد الأمين » .

وبعد أن أثنى الكاتب على الخديوي اسماعيل ، وامتدح انجازات حكومته في حقل التعليم ، أشار إلى الغاية من صدور المجلة عن « ديوان المدارس » ، وهي أن تسهم في تحقيق رسالته « في تعميم العلوم وتتميم المعارف ، وانتشار الفنون واكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن ، وتسويتهم في الورود على مستعذب هذا الشرع الحسن ، وابراز الوسائل المعينة على جلب قطافها بدون كبير مشقة ... » ولا مراء في أن هذه هي الغاية التي عاش رفاعة عمره يعمل جاهدا من أجلها ، والتي عانى ما عانى من جرائها .

ورسم الكاتب بعد ذلك ملامح « الروضة » ، فقال : إنها سوف تخصص لنشر « أي مادة علمية من المواد النفائس ، بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتنوعة ، أقرب تناولاً للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد » .

وتطبيقاً لسياسة المجلة في تقريب مادتها إلى أذهان قرائها « بدون كبير مشقة » فقد أكد الكاتب أن كل ما ينشر فيها سوف يكون « بقلم سهل العبارة واضح الاشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب » . وذلك حتى « تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترتفع حجبها المستورة » .

وانتقل الكاتب الى الحديث عن قراء المجلة الذين سوف تقدم لهم زادها ، وخص بالذكر منهم طلاب المدارس الذين أنشئت أساساً من أجلهم ، فقال إن هذه المجلة « تتكفل ... بانتشار أنواع العرفان بين كل محب لاقتباس العلوم من أبناء الأوطان ... وعلى الخصوص بين أبناء المدارس ... فإنها تكون بالنسبة لهم ولغيرهم أعم نفعاً وأعظم وقعاً بما انطوت عليه من نشر الفوائد العلمية الفائقة ... حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم ... » .

وتناول الكاتب في ختام مقاله تحرير المجلة ، فقال إن « ديوان المدارس » قد عين لها نخبة من الكتاب المتخصصين ليمدوها « برسائل مؤلفة جديدة ... من فنون وعلوم مختلفة ، ومسامرات من مستحسن الحكايات والاخبار ... وبعض تراجم من لغات أجنبية ... » وان كلا منهم قد صار « برسم عضو تأسيس » .

و« العلماء الأساتذة والفضلاء الجهابذة » الذين تكونت منهم هيئة تحرير المجلة كان يتصدرهم اسم « سعادة مدير المدارس » ، أي علي مبارك نفسه ، الذي « تفضل ... عليها بمسائل في وصف البحار العمومية وذكر متعلقاتها وأحوالها الكلية والجزئية » . وبعده تأتي أسماء :

— عبدالله فكري بك : لعلوم العربية والفنون الأدبية .

— بروكش باشا : للتاريخ القديم

— اسماعيل بك الفلكي : لعلوم الفلك

— محمد أفندي قدري : للجغرافيا والأخلاق والمعاملات .

— محمد بدر افندي : للطب و علم الأبدان

— أحمد افندي ندا : لعلم النبات

— الشيخ عثمان مدوخ : لغرائب النوادر المضحكات والألغاز والأحاجي والنكات .

وذكرت الافتتاحية كذلك أن « مباشرتحرير المجلة » ، أي علي فهمي رفاعة ، قد أحيل عليه « الكلام على محروسة مصر القاهرة وذكر أخطاطها وشوارعها وحاراتها وميادينها ومتنزهاتها ... » كما ذكرت أن العلوم الرياضية « أحيلت ... على خوجات (مدرسي) المدارس الملكية (المدنية) ، وما يرد منهم في القابل يذكر باسم صاحبه حتى لا يضيع عمل عامل » .

وقد انضم إلى أسرة تحرير المجلة بعد ذلك أكثر من كاتب متخصص . وكانت المجلة تعلن عن انضمام كل منهم في مقدمة أول مقال ينشره . فمن العدد الثاني مثلاً انضم السيد صالح مجدي بك . ومن العدد العاشر انضم كذلك الشيخ حسونة النواوي .

على أن هذا التحديد لم يكن معناه أن أولئك الأعلام سوف يكونون هم وحدهم كتاب المجلة ، بل إن الطريق كان مفتوحاً أمام من يستطيع المشاركة في تحرير المجلة ، حتى اذا كان ما يزال طالباً بالمدارس .

بين الأصالة والمعاصرة

ومضت المجلة ، ملتزمة بخطتها التي بسطتها في افتتاحية العدد الأول ، تقدم لقرائها زاداً طيباً مختلفاً ألوانه ، تتنوع فيه الموضوعات بين اللغة والأدب من ناحية ، وشتى فروع المعرفة والعلوم من ناحية أخرى . ويتوزع فيه اهتمام التحرير بين العربي القديم والغربي المستحدث . وفي هذا التنوع والتوزع مايعكس صورة صادقة لاتساع ثقافة رفاعة وشمول نظرته ، ومنهجه التعادلي الذي يقيم فيه توازناً متسقاً بين الماضي والحاضر ، وبين التراث الروحي والمنجزات العلمية ، وبين الأصالة والمعاصرة .

نشرت « الروضة » مقالات في التاريخ بمختلف عصوره ، وفي الجغرافيا والفلك ، والتراجم والسير ، والفلسفة وعلم النفس ، والأخلاق والاجتماع ، كما نشرت قصائد كثيرة . وكذلك أفسحت صفحاتها لمقالات في الطب والصحة والطبيعة والكيمياء والصناعة والرياضيات والهندسة .

ولم تكتف المجلة بنشر المقالات ، وانما استنت كذلك منذ العدد الثالث أن تنشر فصولاً من بعض الكتب . ولم يكد يخلو عدد من أعدادها من أجزاء منجمة (ملازم) من كتاب أو أكثر . وكلها كتب قيمة كتب معظمها خصيصاً « برسم روضة المدارس » ، ثم نشرت بعد ذلك في طبعات مستقلة . ولا نتردد في أن نرجع اهتمام المجلة بنشر تلك الكتب إلى عناية رفاعة الشخصية وتوجيهه المباشر . فقد كانت حياته العريضة نموذجاً رائعاً على ايمانه بقيمة الكتاب ومدى ما يمكن أن يسهم به في نهضة البلاد ، سواء بما قدم هو نفسه من المؤلفات والمترجمات ، أو بما شجع على اصداره أو أشرف على نشره من كتب .

وأثرت المجلة مادتها بنقل بعض الموضوعات الجيدة عن غيرها من الدوريات ، سواء أكانت أوربية أم عربية . فنقلت عن مجلة الدراسات الآسيوية المعروفة التي كانت تصدر في فرنسا ، كما نقلت عن « الجنان » و « الجوائب » و « ثمرات الفنون » فضلاً عن الوقائع المصرية و « روضة الاخبار » .

وإلى جانب المواد الدسمة ، فقد اعتادت المجلة أن تنشر بين حين وآخر بعض مواد التسلية والامتاع التي تناسب مستواها الرفيع ، كالنوادر الأدبية والألغاز المنظومة والملح الطريفة . وكذلك اهتمت بنشر أخبار حقل التعليم كنتائج الامتحانات ، وأسماء الموفدين في بعثات ، وترقيات المدرسين وتنقلاتهم ، وبعض التقارير الرسمية . ولم تغفل كذلك نشر إعلانات عن الكتب التي تصدرها الهيئات الحكومية والجمعيات الثقافية .

● أسهم في تحريرها عدد من أعلام العصر ونوابغه في مرحلة النهضة العربية الحديثة

● ثلاثة كتب كانت أهم ما نشرته المجلة لرفاعة الطهطاوي

ولقد ضم سجل كتاب « الروضة » الذين أسهموا في تحريرها بمقالاتهم ورسائلهم وفصول كتبهم ، إلى جانب من مر ذكره من أعضاء هيئة تحريرها ، عدداً من أعلام العصر ونوابغه الذين يمثلون بحق صفوة المثقفين وخيرة شباب العلماء المتخصصين ، في مرحلة البعث الحضاري لمصر القرن التاسع عشر . ومن هؤلاء مثلاً : الطبيب حسن محمود ، الذي ألف وترجم عدة كتب ، ووصل في سلك المناصب الى نظارة مدرسة الطب ، والشيخ حسين المرصفي الناقد الأديب المجدد ، الذي كان له أعمق الأثر في أعلام الأدب العربي ورواد الدراسات الأدبية في العصر الحديث ، وتادرس وهبي بك المترجم الأديب ورجل التعليم الكبير .

ويستوقف نظر الباحث من كتاب روضة المدارس كذلك ثلاثة أسماء يجمع بين أصحابها أنهم ، الى جانب نشاطهم في عدة مجالات ثقافية ، فقد مارسوا العمل الصحفي في غير « الروضة » ، وكان لكل منهم في هذا الحقل محاولات رائدة ، وهم :

ــ عبدالله أبو السعود : من نوابغ « الطبقة الأولى » من تلاميذ رفاعة بمدرسة الألسن ، كما أسلفنا القول ، ثم اصدر عام ١٨٦٧ أول صحيفة مصرية أهلية ، هي « وادي النيل » التي ظلت تصدر بانتظام حتى اغلقتها الحكومة عام ١٨٧٢ ، فتابع ولده محمد أنسي اصدارها باسم « روضة الأخبار » ، واستمر هو يواليها بمقالاته السياسية . وقد أسهم في تحرير « روضة المدارس » منذ عامها الأول .

ــ محمد عثمان جلال : أبرز خريجي « الطبقة الثالثة » من تلاميذ رفاعة بمدرسة الألسن . اقتحم بشجاعة واقتدار ميدان الترجمة الأدبية ، فنقل عن الفرنسية عدداً من روائع القصص والمسرحيات ، كما اشتهر بتعريبه لكوميديات موليير وأمثال لا فونتين ، غير ما عربه من كتب عسكرية بحكم عمله في « ديوان الجهادية » . هذا عدا انتاجه الشعري وجهوده في مجال الأدب الشعبي . أسهم مع أبي السعود في تحرير « الجريدة العسكرية المصرية » ، كما ذكرنا . وفي عام ١٨٦٩ أصدر مع ابراهيم المويلحي صحيفة « نزهة الافكار » . ولكنهما توسعا في تطبيق مبدأ حرية الصحافة إلى الحد الذي رأت معه حكومة اسماعيل أن تغلق الصحيفة بعد عددها الثاني .

ويجب أن يسجل لروضة المدارس أنها نشرت لهذا الأديب أولى مسرحية مصرية مصرية على الأطلاق . فقد ألحق بالعدد الثالث من السنة الثانية الجزء الأول من كتاب له بعنوان « كتاب النكات وباب التياترات .. » ويبدأ الكتاب بمقدمة جد قصيرة ، تحدث فيها الكاتب عن المسرح بعامة والمسرح الكوميدي بوجه خاص . ثم اتبعها بنص مسرحية مصرية كوميدية بعنوان « الفخ المنصوب للحكيم المغصوب » ، كتب حوارها بالعامية . وقد نشرت فصول المسرحية منجمة على أكثر من عدد ، ولكن لم يتبعها شيء من باقي أجزاء الكتاب . ويبدو أنه كان يتضمن نصوص عدد آخر من المسرحيات التي ألفها الكاتب أو عربها ، غير أن المجلة عدلت عن نشر مواد أخرى بالعامية .

ــ ميخائيل عبدالسيد : من أكبر مثقفي الأقباط في القرن التاسع عشر . أتقن اللغة الانجليزية وكان على علم وافر بالعربية وعلومها وآدابها ، وقد تلقى بعض دروسها على عدد من شيوخ الأزهر المعروفين . كان جم النشاط في « روضة المدارس » ، ثم أنشأ عام ١٨٧٧ صحيفة « الوطن » وتولى تحريرها أكثر من عشرين عاماً . ولهذه الصحيفة سجل حافل في تاريخ الصحافة المصرية .

أما طلائع المثقفين من طلبة المدارس المخصوصة (العليا) الذين أسهموا في تحرير الروضة ببعض الطرائف والشعر والموضوعات المترجمة ، فلعل أبرزهم هو الشاعر الشاب اسماعيل صبري الطالب بمدرسة الادارة ، الذي نشرت له المجلة عدداً من القصائد .

ويلاحظ الدارس الأدبي وضوح تطور انتاج هذا الشاب الموهوب على صفحات « الروضة » ، من النظم التقليدي في المدح وغيره ، إلى الشعر الوجداني الرصين . ولا شك أن اتاحة فرصة النشر له في حد ذاته كانت من العوامل التي ساعدت على صقل موهبته ونضج شاعريته . فما أقوى الأثر الذي يحدثه « نشر » بواكير الانتاج لشباب الكتاب والأدباء ، وبخاصة للموهوبين منهم . ثم أن هذه المجلة بالذات ، التي شجعت صبري بنشر انتاجه مع إنتاج أعلام الأدب والفكر ، كانت بالنسبة له « مدرسة مجيدة ... بعثت المقاييس الأدبية (الصحيحة) وأعادت للأذهان نهضة الشعر في عصور إزدهاره الأولى ... » وكان يقرأ في الروضة أبحاث المرصفي ودراساته وأبحاث ودراسات نجا الابياري وجميعي ومحمد سعيد وغيرهم من الذين قامت على أكتافهم حركة البحث الأدبي في القرن التاسع عشر .

على أن أهم ما نشرته المجلة لرفاعة كان ثلاثة كتب :

١ ــ « القول السديد في الاجتهاد والتجديد » ، وهو كتيب يضم بحثاً فقهياً خالصاً يدل على تمكن رفاعة من العلوم الدينية التي تلقاها في صدر شبابه بالأزهر . وفيه يفسر الحديث النبوي القائل « يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » تفسيراً يوسع به مفهوم « الاجتهاد » . فهو يرى أن « التجديد » ليس مقصوراً على « الاجتهاد » وحده ، وانما يشمل كذلك التقرير والتأييد للدين ، وأنه « يهم حملة العلم من كل طائفة وكل صنف من أصناف العلماء محدثين وفقهاء ونحاة ولغويين » . وقد نشر هذا البحث بأكمله ملحقاً للعدد السادس من السنة الأولى ، وجاء في تقديمه أن كاتبه « ألفه برسم روضة المدارس » .

٢ ــ « نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز » .

وهو الجزء الثاني من سفر ضخم أراد رفاعة أن يؤرخ به لمصر منذ عصورها القديمة حتى الوقت الذي عاش فيه ، وعنوانه « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق اسماعيل » . وكان الجزء الأول قد ظهر بهذا العنوان بالفعل ، وهو يتضمن تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الفتح العربي . ثم اقترح علي مبارك على رفاعة أن ينشر الجزء الثاني في « الروضة » قبل أن يطبع في مجلد مستقل .

ولقد نال التاريخ دائما عناية خاصة من رفاعة ، فقد كان بدراسته شغوفاً وفيه كتب عدداً من أفضل بحوثه وأبقاها . واليه يرجع الفضل في الاعتراف بالتاريخ مادة أساسية من مواد الدراسة في مدرسة الألسن ثم في المدارس « التجهيزية » بعد ذلك ، وفي الاهتمام بتزويد المكتبة العربية بالكتب التاريخية التي قام تلاميذه بترجمتها وتولى هو مراجعتها . وأبرز ما تتجلى وطنية رفاعة وايمانه ببلاده واعتزازه بامجادها في كتاباته التاريخية . ويلاحظ كذلك فيما كتب رفاعة من الموضوعات السياسية والاجتماعية وغيرها أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى التاريخ يستمد منه الأمثلة والشواهد يستخدم حقائقه في المقارنة والتحليل واستنباط النتائج .

وفي « نهاية الايجاز » لم يتوقف رفاعة عند التأريخ لحياة الرسول الكريم ، وانما ختم السيرة العطرة بفصل عن الحكومة الاسلامية في حياة الرسول ونظمها السياسية والمالية والاجتماعية .

والحديث عن « نهاية الايجاز » يحتاج إلى صفحات وصفحات . غير أن مجمل القول فيه إنه ينفرد دون سائر كتب السيرة النبوية بخاصيتين واضحتين :

ــ أنه أول كتاب مصري « حديث » في هذا الموضوع ، بعد انقطاع عن الكتابة فيه أكثر من أربعة قرون . وقد سبق به رفاعة بنحو ستين عاماً أعلامنا المعاصرين الذين طرقوا هذا الموضوع ، مثل هيكل والعقاد .

ــ أنه أول كتاب في السيرة يجمع فيه كاتبه بين الايمان الوجداني بالرسالة المحمدية وبين المنهج العلمي العقلاني . فهو لا يكتفي بالمسلمات والسرد التاريخي للوقائع والأحداث ، وانما

يستخدم التحليل والاستدلال ، ويربط الدعوة الاسلامية بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية .

والكتاب بعد هذا من أوضح النماذج على ذلك المزيج الثقافي المتجانس الذي جسدته شخصية رفاعة ، بين الأصالة الاسلامية التي لم يفسدها الاحتكاك بالغرب ، وبين الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة فكراً وعلماً ومنهجاً . فرفاعة ــ كما وصفه مؤرخ سيرته بحق ــ هو أول من جمع ، بين نسبة الأزهر الحقيقية واكتساب العلوم الأجنبية اللتين بانضمامهما إلى بعضهما صار هذا الشريف الجليل نافعاً لأوطانه رافعاً ألوية العلم في زمانه .

وقد بدأ نشر هذا الكتاب في السنة الثالثة من « الروضة » . وعلى الرغم من انتقال رفاعة الى الرفيق الأعلى في أثناء السنة الرابعة ، فقد واصلت المجلة نشر باقي أجزاء الكتاب في السنتين الرابعة والخامسة ، بعد أن قام ولده بقراءة مسوداته وتصحيحها .

٣ ــ « المرشد الأمين للبنات والبنين » . ونحن نعرف أنه من أكبر أعمال رفاعة وأخلدها وقد بدأ نشر فصوله بعد وفاة كاتبه بأكثر من عام . والنظرة الفاحصة لطريقة نشر الكتاب بالمجلة تثبت حقيقة تاريخية أخطأها من تعرضوا لمؤلفات رفاعة من الباحثين .

فالصفحة الأولى منه ــ كما نشرتها المجلة ــ تتضمن مع العنوان واسم المؤلف ووظيفته (ناظر قلم الترجمة وأعضاء ــ كذا ــ قومسيون ديوان المعارف) عبارة « الطبعة الأولى ــ بمطبعة المدارس الملكية ــ ١٢٨٩ هـ » . فاذا أضفنا إلى هذا أن طريقة جمع مادة الكتاب تختلف عن طريقة جمع سائر مواد المجلة ، فعدد سطور الصفحة أقل ، وطول السطور أقصر لكي تتيح نشر العناوين الفرعية بالهوامش الجانبية للصفحات ، خلصنا من ذلك إلى نتيجتين :

أولا : أن الكتاب سبق أن نشر في طبعة مستقلة عام ١٢٨٩ هـ ، أي قبل نشره في المجلة بنحو عامين ، وقبل وفاة مؤلفه .

ثانياً : أن المجلة حرصت على نشر صورة « طبق الأصل » من الكتاب ويحتمل أن المطبعة ، وهي نفسها التي طبعت المجلة ، كانت ما تزال تحتفظ بصفحات الكتاب الرصاصية تمهيداً لإعادة طبعه . ويحتمل كذلك أنه كان قد بقي بالمطبعة فائض من « ملازم » الكتاب دون تجليد بعد صدور الطبعة الأولى .

ومن المستبعد بالقطع أن يكون الكتاب قد طبع ــ كما أثبتت صفحة عنوانه ــ عام ١٢٨٩ ولكنه بقي حبيس المطبعة دون أن يخرج إلى النور ، حتى بدأت المجلة في نشره بعد وفاة صاحبه . ومن المستبعد كذلك أن تكون المطبعة قد « بدأت » طبع الكتاب عام ١٢٨٩ ولكنها لم تتمه لأن كاتبه توفي (عام ١٢٩٠) قبل أن يكمل كتابة فصوله ، إذ أن صفحة العنوان التي تحدد سنة الطبع هي آخر ما يجمع من صفحات الكتاب .

وعلى هذا فليس صحيحاً ما ذكره أولئك الباحثون ، من أن الكتاب نشر أولا منجماً في « الروضة » بعد وفاة صاحبه ، ثم ظهر في طبعة مستقلة بعد ذلك باشراف ولده في عام ١٢٩٢ .

وكان رفاعة قد دون هذا الكتاب ــ كما قرر في « التمهيد » ــ بناء على طلب ديوان المدارس ، لكي « يصلح لتعليم البنات والبنين » . ويرتبط ذلك أساساً باتجاه تعليمي بالغ الأهمية لحكومة اسماعيل ، هو فتح أبواب العلم أمام المرأة والمساواة بينها وبين الرجل في فرص اكتساب المعارف . وينوه المؤلف في المقدمة بهذا الاتجاه في اعزاز كبير . فالخديوي قد « سوى في كتاب المعارف بين الفريقين (البنات والبنين) ولم يجعل العلم كالارث للذكر مثل حظ الأنثيين . فبهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت وطريق العوارف للجنسين استقامت ، وليل جهل النساء جلاه فجر المعارف ... فقد أحيا في طباعهن نجاح الآمال ونشر لهن أعلام المقال والفعال وخصهن بمدارس كالصبيان يخرجن بها من حيز العدم إلى الوجدان ... » .

ولا يتصور أن يكون ديوان المدارس قد قرر هذا الكتاب الكبير لدروس « المطالعة » التقليدية بالمدارس ، فمستواه لا يصلح إلا للكبار . ثم أنه لا يشبه الكتب التي تخصص عادة لمثل هذه الدروس ، وتحتوي على موضوعات متفرقة لا تنظمها فكرة معينة ، فهو كتاب يضم موضوعات مترابطة تدور حول فكرة واحدة . ومن غير المعقول ، فضلاً عن ذلك ، أن يتقرر كتاب لدروس المطالعة ، فيحصل عليه الطلبة في مرحلة ما من مراحل دراستهم ثم تنشر فصوله ملحقة بمجلة غالبية قرائها من الطلبة . والأقرب إلى المنطق أن يكون الديوان قد زود به المدارس لاطلاع المعلمين وللمطالعة الحرة التي يشجع عليها الطلبة في الصفوف المتقدمة وبخاصة أولئك الذين يتخصصون في التدريس بعد تخرجهم .

أما مادة الكتاب الضخم وما تضمنه من آراء وأفكار ، فمن العسير أن نلم بها ــ مهما أوجزنا ــ في عجالة ، إذ أن ذلك يحتاج إلى أن تفرد له دراسات عميقة مستفيضة .

وهكذا شاءت المقادير أن يواصل الرائد العظيم رعايته لمجلة « روضة المدارس » واسهامه في تحريرها حتى بعد وفاته . وقد تأكد هذا المعنى عندما استمرت المجلة ، حتى توقفها . تظهر وفي صدر صفحاتها الأولى هذه العبارة :

تحت ادارة ناظر قلم الروضة ومطبوعات المعارف علي بك فهمي « نجل رفاعة بك » .

وبعد . فلقد كانت « روضة المدارس » التي غرس نبتها ورعاها رفاعة الطهطاوي ، مدرسة جامعة أسهمت بقسط كبير في حركة التنوير ، وإذا كان اعلام المثقفين وتلاميذ رفاعة وقتئذ قد قدموا باشرافه إلى قرائها ذلك الزاد الذي يثرى معرفتهم ويضيء أذهانهم وأرواحهم ، فقد تجاوز رفاعة ذلك النطاق إلى ما هو أعمق وأخطر . إلى ايقاظ العقول وشحنها بمعطيات الفكر الانساني المتحضر ، وإلى ترقية النفوس وتهذيبها بكل رفيع من القيم والعواطف ، وإلى تكوين الشخصية السوية المتعادلة لمواطن مصر الحديثة الناهضة ، الذي يأخذ بأسباب التحضر والمعاصرة ، ويتمسك في الوقت نفسه بتراثه وأصالته .

لقد كانت رسالة رفاعة وحدة متكاملة الأجزاء . فقد دعا فيما نشرته له « روضة المدارس » إلى حرية الفكر ، وبذر بذور القومية ، وتغنى بالوطنية وأبرز مفهوم المواطنة ، ورفع شعار سيادة القانون ، وميز بين الحقوق والواجبات ، وطالب بتحرير المرأة .

وكانت المجلة تحت اشراف رفاعة مدرسة صحفية كبرى ، تمرس فيها الكتاب والمحررون بكتابة المقال ، ذلك اللون الجديد من ألوان النثر العربي الذي كان للصحافة الحكومية فضل تقديمه . ولقد شهدت هذه المدارس عدة محاولات لتطوير أسلوب الكتابة وتخليصه من أثقال المحسنات والزينة التي ترسبت في النثر العربي عبر عدة قرون ، ونجحت هذه المحاولات إلى حد كبير ، وبخاصة في المقالات العلمية والتاريخية وما إليها .

وأدى ذلك إلى سيادة الاسلوب المرسل الذي أرست الصحافة دعائمه ، وانتقل به النثر العربي إلى طور جديد .

وكانت « الروضة » كذلك مهدا لتجربة من أهم التجارب اللغوية ، هي ترجمة المصطلحات المختلفة إلى اللغة العربية . وقد كان لرفاعة نفسه ولمحرري المجلة من تلاميذه خريجي مدرسة الالسن بخبرتهم الطويلة جهود مضنية في هذا الصدد . وصحيح أن بعض ما حفلت به صفحات « الروضة » من ألفاظ مترجمة لم يقدر له أن يعيش بعدها : وأن ألفاظاً أخرى قد تعدلت صياغتها فيما بعد . ولكن تلك التجربة الضخمة ، مع ما قبلها من تجارب كان لرفاعة ومدرسته فيها أكبر الأثر ، مهدت الطويل أمام الصحافة المصرية لتسهم بدور لا ينكر في إثراء اللغة العربية بعدد كبير من المصطلحات المترجمة التي غدت ألفاظاً ثابتة في قاموس استخداماتنا اليومية .

واحتجبت « روضة المدارس » بعد وفاة راعيها بنحو أربعة أعوام فانطوت بذلك صفحة مشرقة . وكان عهد الصحافة الحكومية في مصر يؤذن كله بزوال ، بعد أن شبت الصحافة الاهلية عن الطوق ، وغدت مؤهلة لحمل الرسالة وأداء الأمانة .

أحمد حسين الصاوي



شعر: راضي صدوق

عديني بأنّكِ لنْ تَذهبي   وأنك شَمْسي ولنْ تَغربي
بلغتُ بكِ الآنَ آخرَ كأسي   ولستُ أريدكِ أنْ تشربي

تَرفّعتُ أنْ أشْرِكَ الفارهينَ   على شَظفِ العَيْشِ، من مَشْربي
ليَ السّمُّ وحدي.. وللآخرينَ (م)   السُّلافةُ من قلبيَ الطيّب
تَميّزتُ في النّاسِ حتى الذُّرى   ومَنْ ذا يُزاحمُني مَلْعَبي؟
أنا الحبُّ صِرْفاً، وكأسي دِهاقٌ   ولكنّ دَهْري الخؤونُ الغَبي
تفنّنَ في الزّيْفِ حتّى الهوان   وأسرَفَ في الذُّلِّ حتى صَبي
يَجورُ على المُبدعينَ الحياة   ويُرخي الذُّؤابــةَ للثعلب..
ويرفعُ كلَّ ذليلِ الجبينِ   ويَخفضُ من هامةِ الكوْكبِ

• • • • •

عديني بأنكِ ما زلْتِ لي   وأنّ حنانكِ لم يَنْضب..
وانكِ لن تلغي في دمي   ولن تنكريني في مغربي
لقد أنكرتْني ليالي الحصادِ   وكم رَوَيْتُ من دمي المُخضّب
وأنكَرَ خِلّي.. وأنكرَ أهلي   وأسرَفَ في النُّكْرِ حتى أبي!
وغادَرَني الجائعونَ العُراةُ   وليس لهمْ بعدُ من مأرَبِ
وكمْ من أخٍ جُعْتُ من أجْلِهِ   نَما في الرِّجالِ ولم يُنْجِبِ
وعادَ إليَّ مع النّائباتِ   وفي طيّهِ شَوْلةُ العقْربِ
تَصاغَرَ حتّى انطَوى ظِلُّه   وغَلْغَلَ كالجُرحِ في غَيْهبي
طَويْتُ عليهِ الأسى والدّموعَ   مُشيحاً على ألمٍ مُغْضَبِ

• • • • •

لقد بَلَغَ المُرتقى اللاعبونَ   فكيفَ الوصولُ ولم تَلْعبِ؟!
وما بِعْتَ في سوقِهِمْ سِلْعةً   ولسْتَ أجيراً لِذي مخْلبِ؟
ولا خُنْتَ عهْدَ الثّرى والدّماء   لتنْعَمَ بالمالِ والمنْصِبِ..
ولم تَتلَبّسْ قَميصَ النّضالِ   وتَرْقَ السماءَ على مَنْكبِ
تَباركْتَ من صائمٍ لا يَجوعُ   ولا يَشْتهي رَنَقَ المَشْربِ
حياتُكَ أمثولةٌ في الكفاحِ   مُسطّرةٌ بالصُّمودِ الأبي
أناتَكَ.. إنّ الطّريقَ التّوى   وَرانَ القُنوطُ على المَوْكِبِ
وخَفَّ الرِّفاقُ لغاياتِهِمْ   يَدورونَ في حَوْمةِ المكْسبِ
هنيئاً لهمْ ما تَعافُ الكِرام   ونِعْمَ الفريسةُ للثّعْلبِ!

قاسم حداد

من الخطابة والسذاجة إلى الرمز والعذوبة

بقلم: أحمد محمد عطية

قاسم حداد ، شاعر مجدد ، من أبرز وجوه الحركة الشعرية الجديدة فى البحرين . وهو شاعر صاحب قضية ، وقضيته هى الوطن : البحرين والوطن العربى . فالوطن هو حبه الأثير والوحيد ، وحوله تدور معظم قصائده ودواوينه ،وتعد بمثابة تنويعات على لحن هذا الحب العظيم والجارف . وتنعكس فى شعره ملامح تطور رؤاه نحو الوطن ، من التأثر بالشعراء العرب المحدثين إلى إبداع لغته الخاصة وقاموسه المنفرد وصوره المتجددة ، ومن الغضب والثورة والخطابية والمباشرة إلى الرمز البديع الشفاف والعذوبة والرقة والتجديد في استخدام الكلمات والتكثيف الشعرى الخلاق ، فى سيمفونية من الألوان واللوحات التشكيلية وطبيعة البحرين الساحرة ، واتساع آفاق الرؤى نحو الشمولية والكونية والمزج بين وضع الإنسان فى الكون ووضعه الاجتماعي والسياسى ، مع إحياء التراث وبعث الشخصيات التراثية وتوظيفها فى تقديم رؤى معاصرة تضيء الحاضر وتثرى قضيته الأثيرة : الوطن .

وقاسم حداد شاعر غزير الإنتاج ، فقد أصدر حتى الآن ثمانية دواوين شعرية هى : « البشارة » (١٩٧٠) ، « خروج رأس الحسين من المدن الخائنة » (١٩٧٢) ، « الدم الثاني » (١٩٧٥) ، « قلب الحب » (١٩٨٠) ، « القيامة » (١٩٨٠) ، « انتماءات » (١٩٨٢) ، « شظايا » (١٩٨٣) ، « يمشى مخفوراً بالوعول » (١٩٨٤) . كما يؤدى قاسم حداد دوراً قيادياً فى الحياة الثقافية بالبحرين ، فهو يشارك فى إدارة نشاط أسرة الأدباء والكتاب ، فى الندوات والأمسيات والكتابات وفى المسرح والنقد ، وله كتاب عن « المسرح البحرينى ـــ التجربة والأفق » (١٩٨٠) ، ومقالات ودراسات نقدية متعددة ، وذلك بالاضافة إلى إسهامه فى الحركة الأدبية العربية ، المؤتمرات الأدبية والمهرجانات الشعرية العربية ، وهذا ما حقق له الشهرة والانتشار على امتداد الوطن العربى ، فهو أشهر شعراء البحرين المحدثين فى هذا المضمار .

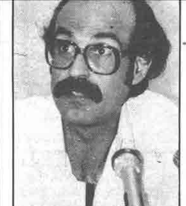
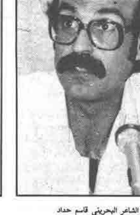
وقاسم حداد شاعر جاد يستوعب التراث والتاريخ ، ويبدع شعره بإصرار كقضية حياته الوحيدة ، وكأسلوب كفاح ونضال من أجل التقدم بالوطن . فهو يرى أن الشعر هو هواء الزمان . الشعر هو بوصلة الوقت . وكل شعر لا يصوغ وقته ولا يبتكر مناخه ، يتخلف عن حركة التاريخ ، والشعر لا يهتم كثيراً بالذين يرغبون فى الاسترخاء . الذى يسترخى سيتركه الزمن . ومن يرغب فى الاسترخاء عليه أن يبتعد عن الشعر . فالشعر ضد الاسترخاء بشتى أشكاله » . (مجلة « كلمات » الفصلية البحرينية العدد الأول خريف ١٩٨٣) .

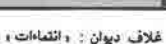
لحظات الابداع

كما عبر الشاعر قاسم حداد عن تجربته الشعرية ورؤاه ولحظات إبداعه للشعر فى ديوانه الرابع « قلب الحب » . فهو مهندس يصوغ الكلمات والجمل والموضوعات وينتقيها من لغات كثيرة ويستعد لهذا اللقاء مع الشعر ، كما لو أنه فى امتحان صعب ، لأن قاسم حداد معني كل العناية بالتجديد فى الكلمة والقالب والشكل وإبداع قصيدة جديدة :

.. وأقف كالمذهول .. هكذا
أستعد للقائك كما لو أنه امتحان صعب
أهندس جملا وموضوعات
وأردد كلمات مصاغة من لغات كثيرة
(قصيدة « لماذا » ص ٧٥)

وهو يهيم وحده فى غابات الليل ، لا يهدأ ولا ينام ولا يهجع بين الحروف والكلمات والخيالات ، يمتزج لديه الألم والفرح والفردوس والجحيم ، الكل ينام ولكنه يقظ لا يهدأ ويظل يهدر ، كالموجة المجنونة المتأرجحة فى قدم مارد




الشاعر البحريني قاسم حداد

غلاف ديوان : « انتماءات »

غلاف ديوان : « شظـــايا »

طائش » ، ويصاب جسده بالمرض حتى يلد قصيدته الحية « النشيطة » ، وهو يعنون قصيدته « الجحيم الحميم » تعبيراً عن عذاب الشاعر فى لحظات الابداع :

لا أهجع
حروف وكلمات وشظايا
خيالات وومض فوق الوسادة
الرفاق ينتقلون من حلم لم ينته
إلى حلم لم يبدأ
وأنا لا أهجع
كالموجة المجنونة المتأرجحة ..
فى قدم مارد طائش
ولا أهجع
يختلط الفردوس بالجحيم فى لهج صريخى
ولا أهجع
وفى الصباح
حين يستيقظ الرفاق
يجدون فى فراشي جسداً مريضاً
وقصيدة نشيطة (ص ١١٨)

كما يصور قاسم حداد فى قصيدته « بحرية أكثر » أثر تجربة الشاعر ومعاناته فى تطور شعره من المباشرة إلى إعادة صياغة الواقع وتركيب كلماته وصوره تركيبا جديداً . وهو يخاطب الوطن فى هذه القصيدة ،فبعد أن كان يقيم علاقات مباشرة مع الـكلمات ويتصل بالوطن ، اضطر للبحث عن طرق جديدة لابداع الشعر بحرية أكثر ، فصارشعره على ألسنة الناس ، واتسعت مجالات الإبداع ، فيكفيه حب الوطن وشوقه الثابت فى القلب كى يستمر فى قول الشعر :

صارت قلوب رفاقى
دفاتر تقرأ وتحضن
وبحرية أكثر
صرت أقيم علاقات مع الأفق
وحين أكون فى البحر أو فى الصحراء
فى الغابة الحجرية
أو فى الغيبوبة
لا يفارقنى الشعر
لا يحتاج الشاعر سوى لشوق
فى القلب
من أجل أن يتدفق
وأنا لست فى حاجة لشيء سواك
فأنت شوقى المتأجج
كالألق فى كلماتى (ص ٤٦ و٤٧)

ويهتم قاسم حداد بالتجديد فى الكلمات واللغة ، كما فى قصيدته « الحبيب » ، فهو يعيد تشكيلها وتركيبها وفكها ، ليغزلها من جديد ، كى يصوغ فيها أحلامه وسهر لياليه ومدنه وأشواقه وطموحاته لقصيدة جديدة قادرة على التوصيل والبقاء :

يهيىء لها كلمات جديدة
جديدة جداً أحياناً
كأنه يتعلم اللغة لأول مرة
انه يستعد ، ليحمل لها كل عمره
وكلما استعد أكثر للقاء
اتصل أكثر بالبقاء . (ص٦٦)

تأثر ومباشرة

بدأ قاسم حداد تجربته الشعرية بالتأثر بالشعراء العرب المحدثين ، بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور وأدونيس ، وبشعر الخمسينات الحماسى المباشر ، كما اتفق على ذلك نقاده . فـكتب الناقد العراقى طراد الـكبيسى ، فى دراسته « الحركة الشعرية الجديدة فى البحرين وموقعها من حركة الشعر العربى الحديث » ، قائلا عن ديوانى قاسم حداد « البشارة » و« خروج رأس الحسين .. » : « إن قاسم أسير تأثيرات مباشرة لشعراء آخرين ، البياتى والسياب بشكل خاص . لا يبدو هذا فى بناء الجملة ، واللغة ذات الطابع الوثائقى والتشكيل الإيقاعى وحسب ، بل وفى الأفكار والاستعارات وهذا التشكيل والأفكار والاستعارات ، استعارات من البياتى واضحة ، وخاصة فى شعر البياتى الخمسيني كما هو فى (اباريق مهشمة) مثلا . كما نجد تأثير صلاح عبد الصبور ،وخاصة فى ديوانه (الناس فى بلادى) واضحاً على رؤية قاسم للمدينة فى قصيدته (يا أيها الإنسان) .. » وأضاف الـكبيسى قائلا : وبدلا من أن نجد آثار الشعر الخمسينى العراقى والمصرى خاصة فى شعر قاسم ــ كما فى (البشارة) ــ نجد أثر أدونيس يبدأ بالظهور هنا (فى ديوان خروج رأس الحسين ..) وخاصة قصيدته « هذا هو اسمى » ، نلاحظ ذلك فى بعض التعابير ، وفى بناء القصيدة واستخدام الفوارز (/) فى محاولة لمسرحة القصيدة كما هو بارز فى قصيدة قاسم (صلاة الخوف) . » (مجلة الأقلام ، مايو ١٩٨٠ ، عدد خاص عن الأدب العربى فى البحرين) .

الـــوطن

يحتل الوطن مكانة أثيرة فى قلوب أهل البحرين وشعرائها وأدبائها بوجه عام ، « فإن الوعى الوطنى والإحساس بقضية الوطن والأمة قد ارتبطا منذ أول نشأتهما بالتجربة الأدبية التى غذى رجالها بقصائدهم وخطبهم ومقالاتهم الصحفية ذلك الشعور وغرسوه فى المجتمع من حولهم ، كما استمدوا منه جذور تجربتهم الأدبية وبخاصة فى مراحل الغليان الشعبى ، مما أثر سلبياً فى المراحل الأولى ــ الخمسينات مثلا ــ على المستوى الفنى للتجربة الشعرية فطبع معظم القصائد بطابع الخطابية والتقريرية والصراخ . » كما كتب الشاعر والباحث البحريني علوى الهاشمي فى كتابه « ما قالته النخلة للبحر ، الشعر المعاصر فى البحرين » (ص ٢٦ و ٢٧) .

لذا ظلت قضية الوطن المجال الأثير الممتد عبر دواوين قاسم حداد الشعرية ، التى بدأت بالسذاجة فى الرؤية والمباشرة والحماسة

قاسم حداد

من الخطابة والسذاجة إلى الرمز والعذوبة

والتقريرية . فقد «كانت الرؤية في (البشارة) رومانسية شفافة تتماشى وطفولة المرحلة الشعرية وبراءتها .. وفي (البشارة) ظل المنطلق الفكري ساذجاً .. » كما ذكر الناقد البحريني أحمد المناعي في تعريفه بالحركة الأدبية في البحرين . (مجلة الأقلام — عدد ابريل ١٩٧٥) .

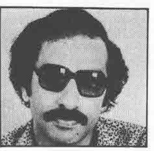
ولكن حرص قاسم حداد على تجاوز تجاربه الشعرية الأولى ، واقتران التزامه بقضية الوطن بالتجديد في إبداعه الشعري ، يتضح في رحلته الشعرية ابتداء من ديوانه الثالث «الدم الثاني» ، فمع أن الصوت العالي بالغضب والثورة استمر في طرح التقريرية والحماسة في هذا الديوان ، الا أن الصور الشعرية والوعي الفكري والتراكيب المكثفة أخذت تغزو بدورها قصائده في محاولة واضحة لتجاوز بداياته الشعرية الأولى . فظهرت الصور المركبة من الألوان ومن طبيعة البحرين ، وقلت العبارات المسكوكة والكليشيهية ، وقل التفاؤل الساذج ، وتقاطر الحزن العميق في كلمات القصائد . ها هو ذا الشاعر يخاطب الوطن في قصيدة «الدم الثاني» التي منحت عنوانها لديوانه الثالث :

يا وطني المراق
كنت نهراً وشمس
تصعد فوق الهمس
كيف استحال صوتك الراعد كالهجوم
بحيرة يغرقها الوجوم
ولست وحدي . انها النجوم
والشجر الناعس فوق صدرها والعوسج السموم
(ص ٢٣) .

هكذا يبدو الوطن الحزين في رؤية الشاعر ، لذا فهو يصرخ :

غيروا شكل أسمائكم
غيروا الشعر والخبز والعشب ولكن
دعوني أغني دمي . مرة قبل موتي
دعوني أوقع تاريخي المستهام ارتعاشاً
بصوتي (ص ٣٥)

أما الوطن العربي فهو «أغنية في الرماد» ، كما في قصيدته «غنفرينا . وأول الماء حلم» . لذا يرى الشاعر المدن تجسد الخجل والحزن ، «في كل أرض لي الآن عاصمة للخجل ، وعاصمة للبكا ، و خليج من الثوم» . وهنا يعلو الصوت الخطابي المباشر قائلاً : «وطن !؟ هذا انتظار مجرم ، هل يخرج التمثال من أحجاره السوداء» . وهكذا فالغضب والحماسة هما أبرز ما في قصائد ديوان قاسم حداد الثالث «الدم الثاني» . وحتى طرفة بن العبد ، الشاعر الجاهلي ابن البحرين ، يستدعيه الشاعر قاسم حداد ويضمن قصة حياته ومأساته



الشاعر الناقد البحريني علوي الهاشمي

هموم الوطن والشاعر المعاصرة ، في قصيدته «تحولات طرفة بن الوردة» ، فيقول وردة :

هذه بلاد ستخلع أبناءها واحداً واحداً
في الخفاء
ومازلت أعشق هذه البلاد التي قتلتني
مازلت أحملها كوكباً في قميصي (ص ٥٩)

ومع ذلك فإن الشاعر يتمسك بالوطن الذي قتله ويقدم له الهدايا ، لأنه يستمد وجوده من هذا الوطن ، فبعد أن يضمن القصيدة قصة الرسالة التي حملها طرفة بن العبد لوالي البحرين والتي أوصت بقتله ، يعلق عليها قائلاً :

هكذا أخبرتني بلادي التي اسمها في القصيدة
وأعطتني صوتي وألوان حبري
ولكنها شردتني
وحين التقينا قبلت جميع اعتذاراتها
وقلت احمليني يدا للهدايا الجديدة (ص ٧٠)

هكذا يتقنى قاسم حداد شخصية شاعر عربي عظيم ويحيي سيرته ويمزجها برؤيته وهمومه المعاصرة ، هذا الشاعر الجاهلي ، الذي أنكرته عشيرته ففارقها ولجأ مع خاله الشاعر الملتمس إلى ملك الحيرة ، ترددت حول مصرعه روايات متعددة . فيقول كرم البستاني ، في مقدمة ديوان طرفة ، انه كان يتيماً مسرفاً ماجناً ، وكان أيضاً شاعراً مبدعاً جميل العبارة والصورة ، وانه لما أنفق كل ما يملكه من ابل ، اتجه ، هو وخاله الشاعر الملتمس ، إلى عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، الذي كان يقصده الشعراء وينشدونه الشعر ، فأعجب ملك الحيرة بشعر طرفة وضمه إلى مجلسه ، غير أن طرفة لم يلبث أن استخدم شعره في التشبيب بأخت الملك وفي السخرية منه ومن زوجها . فدبر الملك لقتله هو وخاله الملتمس ، وبعث مع كل منهما برسالة إلى أبو كرب بن الحرث والي البحرين وطلب منه قتلهما . ويقال أن الملتمس قرأ رسالته بالطريق وطوح بها في النهر وغير طريقه إلى الشام . أما طرفة فإنه أصر على توصيل رسالته إلى والي البحرين ، ورفض أيضاً عرض والي البحرين بالهرب وصمم على البقاء بالسجن لأنه بريء

فرفض والي البحرين بدوره أن ينفذ أمر الملك بقتله وطلب من الملك إيفاد رجل آخر ينفذه ، فعين ملك الحيرة واليا آخر على البحرين يدعى عبد هند ، نفذ أمر القتل في طرفة وفي الوالي السابق أيضاً . وثمة روايات أخرى عن مقتل طرفة بن العبد ، تختلف في التفاصيل وتتفق في مصرع طرفة بن العبد ويرى د . طه حسين ، في كتابه «في الأدب الجاهلي» ، أن قضية مصرع طرفة أسطورة ترددت في «طبقات ابن سلام» ، و«أغاني الأصفهاني» . (ص ٢٢٦) ، وقد حظي طرفة ابن العبد بمكانة في شعر قاسم حداد وسواه من شعراء البحرين المعاصرين .

ويظهر استخدام الألوان في قصيدته «زهرة الحزن» ، حيث يوجه الشاعر الأسئلة حول صورة الوطن المتغيرة : «وطني هذا أم العزبة أم قائمة البحر؟!» ، «وطني هذا أم الدهشة في خارطة البحر استوت رملا ، لماذا ، ؟!» ويضيف :

هذا وطن لا يخجل الآن
من الألوان والصورة بالأسود والأبيض
هل يذكر ؟ هل تختلط الألوان
في عين بلادي ، هل أقول ؟ (ص ١٠٨)

قلب الحب

اذا كانت المباشرة والتأثر والخطابية قد تجاوزت مع الصور الشعرية واستخدام الطبيعة والألوان والتراث في ديوان الشاعر الثالث «الدم الثاني» ، فإنه قد استكمل تطوره الفني في ديوانه الرابع «قلب الحب» ، في هذا الديوان تكامت رؤيا الشاعر وظهرت لغته الخاصة ، وجاورت سيمفونية الألوان واللوحات التشكيلية العذوبة والرقة والتجديد في استخدام الكلمات . كما انفرد هذا الديوان بقصائد يعبر فيها الشاعر عن تجربته الشعرية ولحظات إبداعه الشعري وعن رؤاه أيضاً ، وقد تناولناها في السطور السابقة من هذه الدراسة ، فقصائد الديوان بالغة القصر والتكثيف والايحاء والرقة والعذوبة والجمال . والوطن هو الحب والحبيبة ، وهو الموسيقى «السابحة في حليب أطفالنا ، والتي ننام ونصحو وهي ساهرة تحرس أيامنا» . (ص ١٦٠) والوطن في قصيدته «الهنا والهناك» حبيبة والحبيب هو الشاعر ، وهما لا يفترقان بالرغم من براعة الصور التي يستخدمها الشاعر لتصوير المفارقات بين وضع الحبيب وحالة الحبيبة ، ومع ذلك فإن الحب يجمعهما :

والليل الذي يجلد لياليهما واحد
سرير الحبيب ثلجة في صقيع الشتاء
وفراش الحبيب جمرة في تنور الصيف
هي هنا
وهو هناك
تعذبها انتظارات لا تحصى
وتلعب به هواجس وهموم كثيرة

لا يشكيان
لا يسأمان
لا يتعبان
فقط يواصلان الحب
هى هنا
وهو هناك (ص ١٠٦)

ولعل أعظم تصوير لرؤية الشاعر لوضعه ازاء الوطن وذكرياته وأوضاعه ، هو تصويره لنفسه فى زمرة العصافير الصغيرة ، ولكنها القوية والمبشرة . فبعد أن يسرد بكلمات مباشرة وواضحة الأشكال والأجهزة والعلاقات والجسور والقوى الكبيرة والكثيرة التى تفصل بينه وبين الوطن ، والمفارقة بين قوة التحديات وضخامتها وضآلة الشعراء ، العصافير الصغيرة ، يقول فى قصيدة « القمر الشتوى » ، مستخدماً الرمز البسيط الشفاف والعبارات الرقيقة الواضحة :

ونحن لسنا أكثر من عصافير صغيرة
صغيرة جداً
ولكن كلما ازدهر القمر الشتائى فى حدائقه
كلما صارت العصافير الصغيرة جداً
أكثر قوة من العنف والعسف
المتراكمين
ويواصل القمر فى الهطول . (ص ١٠١)

تطور رؤية الوطن

وتتطور رؤية الشاعر قاسم حداد للوطن مع تزايد دواوينه وثراء ثقافته ومعرفته وتجاربه ، فتكثر الأصوات السياسية والرؤى الاجتماعية ، وتقطر القصائد حكمة ولكنها تزداد تكثيفاً مع استخدام رموز الألوان والطبيعة والأطفال فى صوره الشعرية ، فهو فى قصيدته « مرآة لؤلؤة الوقت » ، يكشف الوطن فى صور الذين يعملون ويهزون الكون من الجذور ويخلقون الجمال ويضيئون الظلام الأسود ، إن هؤلاء العاملين على الأرض هم الذين يهزون :

جذور
الكون
الميت
يبنون جمال الكون الحى
أريك التوق الأحلى
الشوق الأعلى
فى الخطوة مندهش مرتعش أصغى وأجىء
أخذت بيدى
هذا الأسود عتم الأيام يضىء (القيامة ص ٣٦)

وفى قصيدته « مرآة الجسد » ، يصور الشاعر الوطن الميت وهو يحمله ويسير بحثاً عن رأسه التى يمكن أن ينهض معها ويغير الكون . ويستخدم الشاعر الخيال الفانتازيا فى تركيب صوره من مفردات الواقع والفكر :

هذا وطنى
أحمله وأسير وأبحث عن رأس أحمله
والرأس هناك هناك
فخذنى
هات الرأس أقوم وأقلب قاعات الكون
تقلص حتى كاد يصير قديداً
الفضة تحرسنى والريش الناعم يلمسنى
فأصير قوياً
والتابوت يلح
تعال تعال
فهذا التابوت سيحمل حياً وميتاً ويدور به
ويموت به
فالجسد الحى الميت وحش البشر الجائل فى
ليل الناس (القيامة ص ٤٩)

وفى قصيدته « اشراقات طرفة بن الوردة » ، من ديوانه السادس « انتماءات » ، يقدم رؤية مأساوية جميلة للوطن بلسان طرفة ، بعد أن يتغزل فى الوطن بأعذب الكلمات وأرقها ؛ فالوطن « حبيبة قلبى » ، وهو « أرض أجمل من كل الجنات » . ولكنه يذكر رحيله العاصف ذات مساء ووطنه « مختبىء فى الجسد المرضوض » ، يبحث عن الدفء ، فلم يجده سوى فى « ثقب صغير » سعى نحوه بكل آماله وطموحاته ، غير أنه وجد فيه المفاجأة الصادمة إذ كان ثقب بندقيته ؟!

وطنى فى اللهث
فى الخطوة نحو الثقب
كان الثقب باب الكون فى عينى
فألقيت بكل التعب الدهرى فى الركض
رأيت الثقب ماء
يا حبيبى
ما الذى يفعله العاشق مقتولا
سوى الرقص مع الموت المؤدى للحياة
واقتربت
الثقب فى عينى
ووحدى فى عيون الثقب
وحدى للحياة
ياحبيبى خلته ...
لكنه كان عيون البندقية
... وتناسيت البقية (انتماءات ص ٥٣)

شـــظايا

هكذا تقدم توظيف التراث وإحياء وبعث الشخصيات التراثية واستخدامها فى تقديم رؤى معاصرة تضىء الحاضر ، كما فعل قاسم حداد مع طرفة بن العبد فى ديوانه « انتماءات » . وفى ديوانه السابع « شظايا » تمكن الشاعر من ابداعه الخاص ، وأخذ يثق بقدراته وطريقه ورؤاه ، فتجنب الإطالة والسرد واتجهت قصائده إلى التركيز والقصر والتكثيف الشعرى الموحى ، ومضت نحو الكشف الجديد والخلق والبوح بأقل عدد من الكلمات ، حتى لا تتعدى بعض قصائد هذا الديوان كلمات معدودة ولكنها ثرية الأبعاد والايحاءات .

وتستمر فى هذا الديوان ، « شظايا » ، الرؤية المأساوية للوطن ، فالشاعر يظل يتساءل بألم « النوارس المذبوحة » فى قلبه عن وطنه . ويصور الشاعر دم النوارس يصبغ ثيابه فى قصيدة جميلة ومؤثرة تحمل اسم « النوارس » ، ولكنها تتساءل مع الشاعر عن ماهية الوطن وهويته بمفردات تمتزج فيها الطبيعة والألوان بالرؤيا :

هل أنت وطنى ؟
لست فى ريبة ولا فى ثقة
ولكن النوارس المذبوحة فى قلبى
لا تقدر أن تنام
تظل مرعوشة تنتفض وترهش
فتصبغ ثيابى بأرجوانها
لا تخجل النوارس من ذبحها
لم تكن فى ريبة ولا فى ثقة
ولكنها كانت تسأل
هل أنت وطنى ؟
تلك النوارس المذبوحة فى قلبى
والتى لا تنام
ماذا أقول لها لكى تهدأ فى الذبح؟
(شظايا ص ٢٤ و ٢٥)

ومع ذلك فإن الشاعر لا يكف عن عشق الوطن ، لأنه يمده بماء الحياة وصلابة النخل ودفء الانتماء ، وذلك فى أحدث قصائده وأطولها ، « يمشى مخفوراً بالوعول » ، إذ يقول :

اطمئنى انه وطنى
سينسى غدره اليومى يوماً
قلت : لا تستعجلى موتى فهذا النخل يعرفنى
عقدت بكاحليه الخيل يوماً
كنت مضطربا طريدا شارداً
والماء ينقصنى
فأعطانى عباءته وكوخاً دافئاً

وبعد ، هذا هو قاسم حداد ، شاعر البحرين الذى يعشق الوطن ، وتشكل كتاباته ودواوينه تنويعات على لحن الوطن والتزامه بقضايا الحرية والعدالة والقومية ، ولا يتسع المجال للتناول النقدى والموضوعى لأعمال الشاعر كلها لغزارتها وغناها المشحون بالايحاءات والدلالات ، حسبى أن أشرت إلى تطوره الفنى والموضوعى وإلى قضيته المحورية وعشقه الأثير ومفتاح فهمه : الوطن ، إذ تستهدف هذه الدراسات كشف مناطق مجهولة فى الأدب العربى المعاصر والتعريف بمبدعيه .

أحمد محمد عطية

عرب ١٩٤٨ في إسرائيل قنبلة موقوتة

بقلم: عصام شريح

« الإناء ينضح بما فيه » هكذا يقول المثل العربي ، وهذا هو بالضبط واقع الحال بالنسبة للصهيونية ، فهذه العقيدة التي تبدو العنصرية أحد أهم سماتها ، لا تكف عن إفراز الظواهر العنصرية المختلفة ، سواء على صعيد الفكر والتنظير ، أو الفعل والممارسة ، ولعل المدهش في هذه الظواهر ، أنها لا تقتصر على الحاخامات رجال الدين ، الفئة الأكثر تحجراً في الحركة الصهيونية فحسب وإنما تشمل جميع قطاعات وفئات الاسرائيليين ، وبصورة خاصة قطاع المثقفين ، الذين يستخدمون ثقافتهم ، لتغذية العنصرية الصهيونية ، وتعميمها على « المجتمع » اليهودي .

وفي هـــذا النطـاق ، يبرز أمامنـا البروفسور « أرنون سوفير » ، كأحد هؤلاء المثقفين ، الذين ينظرون للعنصرية الحاقدة على العرب ، والمنادية بتصفية عرب فلسطين (١٩٤٨) بشكل أو بآخر ، بدعوى التخلص من خطر كامن يهدد مستقبل الـكيان الصهيوني .

قنبلة موقوتة

يحاول البروفسور أرنون سوفير ، وهو « مستشرق » ، أن يضفي على دعوته العنصرية المكشوفة ، سمة البحث العلمي ، بالاعتماد على الاحصاءات الاسرائيلية الرسمية ، والاحصاءات المقارنة في البلدان مثل الصين ومصر ، لاخفاء الحل « الهمجي » الذي يخلص اليه من دراسته لأوضاع عرب فلسطين (١٩٤٨) ، ويبادر سوفير أولاً إلى دق ناقوس الخطر ، محذراً مما يصفه بالقنبلة الموقوتة داخل « اسرائيل » ، ويحدد مكونات هذه القنبلة المزعومة ، بأنها : التكاثر الطبيعي المذهل لعرب ١٩٤٨ ، والمساحة الجغرافية الواسعة التي يحتلونها ، ثم إرتفاع معدل الثقافة والتعليم بينهم ، اضافة إلى حالة الاحباط التي يعيشها العرب ، والناجمة عن تمسكهم الشديد بقوميتهم العربية ، واعتبار فلسطين وطنهم الخالد .

وكعادة جميع العنصريين الصهاينة الذين كتبوا حول موضوع عرب عام ١٩٤٨ ، فان سوفير يلجأ إلى التنبيه والتحذير من الأخطار التي يحملها المستقبل في طياته بسبب تنامي عدد العرب وتزايد قوتهم ، ويقول إن عرب عام ١٩٤٨ ، يحتلون المكانة الأولى في العالم ، في مجال التكاثر الطبيعي ، حيث تبلغ نسبة الولادات بينهم أربعة ونصفا بالمئة ، وترتفع إلى خمسة بالمئة بين البدو ، أي بمعدل ٤٥ حالة ولادة لكل ألف نسمة .

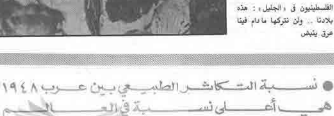
ولاضفاء السمة العلمية والموضوعية على حديثه ، كما قلنا ، فان البروفسير سوفير يلجأ إلى الاحصاءات المقارنة ، التي توضح كما يقول ، أن نسبة التكاثر الطبيعي في الصين ، تبلغ ٢ بالمئة ، وفي مصر ٢,٥ بالمئة ، وفي « اسرائيل » ١,٥ بالمئة ، وهذا يعني أن هذه النسبة بين الفلسطينيين تبلغ ضعف النسبة في كل من مصر والصين ، وأكثر من ذلك بكثير من نسبتها بين الاسرائيليين . ويضيف إلى هذا ، أن نسبة الوفيات بين اليهود أكبر منها بين الفلسطينيين ، حيث تبلغ هذه النسبة بين الاسرائيليين سبعة بالألف ، فيما هي بين الفلسطينيين أربعة بالألف فقط . ويستنتج سوفير من هذه الاحصاءات المقارنة ، أن نسبة الولادة بين عرب ١٩٤٨ أكبر من نسبة الوفيات ، مما يعني أن العرب يتمتعون بنسبة تكاثر طبيعي لا مثيل لها في العالم .

ولا ينسى سوفير أن يضيف إلى تحذيراته « ! ! » ظاهرة أخرى تزيد من خطورة المشكلة ، وتتمثل في نسبة الصبيان والصبايا والشبان والشابات ، المرتفعة جداً بين العرب ، ويقول في تحليل هذه الظاهرة ، إن نسبة الأولاد حتى سن الرابعة عشرة في المجتمعات البشرية في عالمنا المعاصر تبلغ ٣٠ بالمئة تقريباً ، بيد أنها بين عرب ١٩٤٨ ، تبلغ ٥١ بالمئة « فاذا أضفنا إلى هؤلاء الأولاد ، الشبان بين سن الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، فان هذه النسبة بين الفلسطينيين ، تصل إلى ٦٠ بالمئة ، وهذا يعني أن ثلثي عرب ١٩٤٨ ، هم من الصبيان والصبايا والشبان



المستشرق الصهيوني : آرنون سوفير

الفلسطينيون في «الجليل» : هذه بلادنا .. ولن نتركها ما دام فينا عرق ينبض



والشابات .

ويضرب المستشرق الصهيوني مثلاً على ذلك : فيقول ان في قرية «سخنين» بمنطقة الجليل ، والبالغ عدد سكانها ١٥ ألف نسمة ، ٧٥٠٠ طفل وصبي حتى سن الرابعة عشر ، وهذا يعني أن نصف سكان هذه القرية موجودون في مؤسسات التعليم المختلفة ، من رياض الأطفال إلى المدارس الثانوية ، وهذه حالة فريدة من نوعها في العالم ، ومع أن سوفير لا يستبعد انخفاض نسبة التكاثر الطبيعي بين العرب في المستقبل ، بحيث يؤدي ذلك إلى خفض نسبة العرب إلى الاسرائيليين إلى ١ ـ ٦ بدلا من ١ ـ ٥ ، فانه يوضح ، مستعيناً بتقديرات مكتب الاحصاء المركزي الاسرائيلي ، أن عدد العرب في فلسطين المحتلة (عرب ١٩٤٨) ، سيقفز في عام ١٩٩٨ إلى مليون ومئتي ألف نسمة ، بالمقارنة مع ٧٣٠ ألف نسمة حالياً ، وقال إن العرب يتضاعفون مرة كل ١٥ ـ ١٦ سنة ، فقد كان عددهم في عام ١٩٤٨ حوالي ١٦٠ ألف نسمة ، وفي عام ١٩٦٦ ، قفز العدد إلى ٣٠٠ ألف نسمة ، وفي عام ١٩٧٨ ، تضاعف العدد ليبلغ ٦٠٠ ألف نسمة ، (أما آخر احصاء في عام ١٩٨٠ ، فقد أظهر أن عدد العرب في فلسطين المحتلة قد بلغ ٧٣٠ ألف نسمة) .

القرى العربية

ويحذر البروفسور سوفير كذلك من نمو القرى العربية وتزايد عددها واتساع نطاقها وتحول البعض منها إلى مدن كبيرة ، ويقول ، إن مراكز التكاثر الطبيعي الكبرى للعرب ، تكمن في القرى ، التي تضم ألوف السكان ، ويضرب مثلاً بقرية «سخنين» ، مشيراً إلى أن عدد الولادات السنوي في هذه القرية يبلغ خمسمئة طفل ، وهكذا ارتفع عدد سكان هذه القرية من ٢٥٠٠ نسمة في عام ١٩٤٨ عندما اغتصبت فلسطين ، إلى ١٥ ألف نسمة حالياً ، أما قرية ترشيحا (معلوت بالعبرية) ، فتضم حالياً ستة آلاف نسمة ، وهي تعتبر قرية عربية متوسطة من حيث نسبة السكان ، في حين أن عدد سكان قريتي «تمرة» و «سخنين» أكبر من عدد سكان مدينة «صَفَد» . ويشير البروفسور سوفير إلى مدينة «الناصرة العليا» «نتسريت عليت» ، المجاورة لمدينة الناصرة العربية ، والتي أقيمت في عهد دافيد بن غوريون أول رئيس للوزراء في الكيان الصهيوني ، أي في الخمسينات ، فيقول بأن «الناصرة العليا» التي أنشئت لتكون مدينة يهودية صرفة ، قد أصبحت اليوم مدينة محاصرة ومخنوقة بالانتشار السكاني العربي فيها ، والناجم بشكل أساسي عن التكاثر الطبيعي للعرب ، ويضيف أن ثمانين الف عربي انتقلوا للسكن في الناصرة العليا منذ انشائها . أما قرية «كفر كنا» ، فان عدد سكانها يبلغ اليوم حوالي ١٠٠ ألف نسمة ، ويقول سوفير «كفر كنا» المكتظة بالفلل والكراجات وأماكن الصناعات المختلفة ، ليست قرية ، وانما هي مدينة كبيرة ، بل وأكثر من ذلك فانها تبدو وكأنها عاصمة عربية في منطقة الجليل .

ومما يثير حفيظة سوفير وحقده على عرب الجليل ، التماسك السائد بينهم ، ولذلك فهو يقول أن التماسك العربي البارز في خارطة منطقة الجليل ، يجب أن يثير قلق كل مراقب في «اسرائيل» ، «فكل قافلة يهودية ، تضطر للسير من «الخضيرة» نحو الشمال (منطقة الجليل) ، عن طريق قرية «أم الفحم» وضواحيها ، والتي يبلغ عدد سكانها ٦٠ ألف نسمة ، ستضطر للمرور عبر سلسلة من المدن والقرى العربية ، تبدأ من كيبوتس بركائي ، وتنتهي بالقرب من كيبوتس مجدو» .

دور البدو

ويشير آرنون سوفير ، إلى أن للبدو الفلسطينيين دوراً كبيراً في عملية الانتشار السكاني العربي ، حيث يوجد في منطقة الجليل وحدها حوالي ثلاثين ألف بدوي ، يسيطرون على نصف منطقة الجليل الأدنى ، كما يشير بتهكم إلى وجود قرية عربية اسمها «بيت زرزير» ، بالقرب من قبر موشي دايان ، تبلغ مساحتها نفس مساحة مدينة نهاريا .

وما يقال عن انتشار البدو الفلسطينيين في منطقة الجليل يقال أيضاً في نظر المستشرق الصهيوني ، عن الانتشار البدوي في منطقة النقب ، التي يحتلون معظم أجزائها حسب قوله ، في المنطقة الواقعة بين «عراد» و «بئر السبع» ، وحتى المنطقة الواقعة إلى الشمال من مستوطنة «مشمار هانيغف» ، يعيش حوالي خمسين ألف عربي من البدو ، ويسكنون منطقة توازي بمساحتها نصف مساحة منطقة الجليل .

المستوطنات والمدن أيضا !!

وتكاد مخاوف البروفسور سوفير من التكاثر الطبيعي لعرب عام ١٩٤٨ وانتشارهم في أنحاء بلادهم ، لا تتوقف ، فمن مخاوفه من الانتشار العربي في القرى ، إلى انتشار البدو الفلسطينيين



يتنقل إلى التحذير من انتشار العرب أيضاً في المدن والمستوطنات التي يسكنها اليهود ، وقد أشرنا إلى تحذيراته من الانتشار العربي في مدينة الناصرة العليا ، ويضيف اليها أيضاً مدينة عكا ، لكنه يقول إن هاتين المدينتين ليستا المكانين الوحيدين اللذين يسكن فيهما العرب إلى جانب اليهود ، فهناك حوالي مئة مدينة ومستوطنة يهودية ، تضم أقليات عربية ، من ضمنها مدينة صفد ، ومستوطنات « يعره » ، وَ « بتيح تكفا » ، وَ « ريشيون ليسيون » ، ويعرب سوفير عن اعتقاده ، بأن العرب سيكونون في نهاية القرن الحالي ، متواجدين في جميع المستوطنات اليهودية ، باستثناء الكيبوتسات (المزارع الجماعية) .

أما في القدس ، فيقول أرنون سوفير إن هناك مشكلة ضخمة تثير الخوف فعلاً ، حيث يجري تسابق بين العرب واليهود في مجال التكاثر الطبيعي ، مشيراً إلى أن العرب في القدس كانوا بعد عام ١٩٤٨ ، حوالي تسعين ألف نسمة ، أما الآن فان عددهم يربو على نصف مليون نسمة ، وبالطبع فان تكاثر العرب يمنحهم شعوراً بالقوة والثقة بالنفس ، يضيف سوفير إلى ذلك عنصراً آخر لصالح العرب ، هو انتشارهم في مساحة من الأرض كبيرة نسبياً ، ويستدل على ذلك بسيطرة العرب على معظم أراضي منطقة الجليل ، وهذه السيطرة ستفرض تلقائياً ، ضغوطاً من العرب من أجل الحصول على الحكم الإداري الذاتي ، أو على الاستقلال .. وهذا التطور في رأي سوفير غير مستبعد .

البركان العربي

ويحذر البروفسور أرنون سوفير أخيراً من أن التكاثر الطبيعي لعرب ١٩٤٨ ، والذي يتم أمام نظر الاسرائيليين وسمعهم ، والذي يواجه بالاهمال على حد زعمه ، انما ينطوي على قوة هائلة للعرب تشبه قوة البركان ، خاصة وأن وضع العرب التعليمي والثقافي سيكون مساوياً لوضع اليهود في هذا المجال بعد جيل واحد ، وما يسميه سوفير ، ببراكين الأقليات » ، موجود في أكثر من مئة دولة ، لكنه يحذر من أن وضع الأقلية العربية في « اسرائيل » خطير ، لأن هذه الأقلية تتمتع بثقافة وروح قومية متميزتين ، ووضع عرب ١٩٤٨ شبيه بوضع الأقليات الموجودة في ايرلندا ولبنان ويوغوسلافيا ودول أخرى ، ويقول : « اننا نشهد الآن الكفاح الذي تقوم به هذه الأقليات من أجل الحصول على تأكيد هويتها واستقلالها » .

الحل !!

وبعد أن ينتهي سوفير من عرض مشكلة « القنبلة الزمنية العربية » ، يعود ليطرح الحل من وجهة نظره ، لنزع فتيل هذه القنبلة ، فيدعي أنه لا يرمي من وراء كلامه عن هذه « القنبلة » ، إثارة الاسرائيليين ودفعهم إلى القيام بعمل عنيف لطرد العرب من « اسرائيل » ، وانما ايجاد حل مقبول للمشكلة ، ويستعرض سوفير عدة حلول قبل أن يخلص إلى الحل الذي يبدو ممكناً من وجهة نظره .

وهذه الحلول تتلخص في حل ينادي بابادة وطرد العرب ، وحل آخر يدعو إلى اجبار العرب على الاندماج بشكل كامل في الكيان الصهيوني ، وحل ثالث يدعو إلى فرض « سياسة القبضة الحديدية » ضد الأقلية العربية ، (هذه السياسة مفروضة منذ اغتصاب فلسطين في عام ١٩٤٨ وحتى اليوم) ، ويعرب سوفير بأن هذه الحلول الثلاثة غير عملية ، ولا يمكن تطبيقها على الأرض ، فبالنسبة لطرد العرب أو تصفيتهم جسدياً ، فان هذه العملية يجب أن تتم بشكل كامل والا فلا !! ، ويقول انه حتى لو شاء الاسرائيليون تصفية عرب ١٩٤٨ جسدياً ، فان ذلك يبدو حلاً غير عملي وغير ممكن ، لأن اسرائيل مدينة بملايين الدولارات للولايات المتحدة (الأصح بمليارات الدولارات) ، ولدول أخرى ، ولا أعتقد بأن هذه الدول ستوافق على خطة الطرد أو الإبادة ، كما أنه يمكن استخدام العديد من الوسائل ضدنا ، اضافة إلى أنه لا يجوز للاسرائيليين أن ينسوا ردود الفعل التي صاحبت مذابح صبرا وشاتيلا في عام ١٩٨٢ » !!

أما بالنسبة للحل الثاني « عملية الدمج » في « المجتمع اليهودي » ، فيعرب البروفسور سوفير عن اعتقاده بأنها غير عملية اطلاقاً ، ولا مجال للغوص فيها . وبخصوص سياسة « اليد القوية » أو سياسة العصا والجزرة ، فان هذه السياسة قد جرى تجريبها لمدة طويلة ، كما يقول البروفسور » ، وقد أثبتت عدم جدواها .

ويشير إلى ما يطالب به البعض « الحاخام كهانا مثلاً » ، من ضرورة ممارسة ضغط على عرب ١٩٤٨ ، حتى يرحلوا مختارين من فلسطين ويقول أن العكس هو ما يحدث ، حيث « نشهد باستمرار ومنذ عام ١٩٤٨ ، هجرة الشبان اليهود الذين ولدوا في « اسرائيل » ، إلى نيويورك ، ليعملوا هناك سائقي أجرة في حين أن العرب صامدون ، واذا غادر البعض منهم ، فان ذلك يكون للدراسة في دول أوروبا الشرقية ، حيث يرسل حزب « راكح » المئات منهم إلى تلك الدول ، ثم يعودون ثانية » .

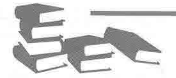
وبعد هذا التفنيد اليائس من جدوى هذه الحلول ، يطرح البروفسور سوفير الحل الذي يراه ، وهو يتلخص في التعايش بين اليهود وعرب ١٩٤٨ « بسلام كامل » ، ومن أجل أن يحدث هذا ، يقول انه يتعين على الاسرائيليين أن يكونوا أقوياء جداً من الناحية العسكرية ، كما يتوجب جعل « اسرائيل » نموذجاً لما يصفه بالحياة اليهودية » ، لكي تتمكن من اجتذاب يهود الشتات اليها ، كما يقترح العمل على تحسين المستوى الاقتصادي للعرب ، والحفاظ على مستوى حياة مرتفع لهم ، « حتى نزرع فيهم الاحساس بوجود ما يمكن أن يخسروه » ويطالب بمنح العرب كذلك الشعور بأن اليهود ، لا ينوون اجتثاثهم » .

بيد أن هذا الحل ، الذي يحاول فيه البروفسور سوفير إخفاء الحل الحقيقي الذي رمى اليه من وراء وصف العرب بالقنبلة الزمنية والبركان الذي سينفجر في « اسرائيل » كما انفجر في بلدان ذات أقليات متميزة كايرلندا وقبرص وغيرها .. سرعان ما يتهاوى ، عندما طالب بتهويد منطقة الجليل ، وبذل مساع جديدة في هذا السبيل بعد أن فشلت جهود مماثلة خلال السنوات الثلاثين الماضية ، وعندما طالب بتهويد منطقة غور الأردن ، واسكان أعداد كبيرة من اليهود في هذه المنطقة ، حيث سيساهم استيطان هذه المنطقة من مستوطنة « المطلة » شمالاً إلى ميناء « إيلات » جنوباً ، في رفع الكفاءة « الدفاعية » عن « اسرائيل » ، وتخفيف الازدحام في منطقة الشريط الساحلي ، وتقليص الاحتكاك مع عرب ١٩٤٨ » .

واقعية سوفير الكاذبة

أخيراً لابد لنا من القول ان هذا الصهيوني الذي يحاول التمسح بالعلم والمنطق ، والحلول الوسط ، انما يدعو في الواقع إلى تصفية عرب ١٩٤٨ ، ولكن من ضمن منهج مدروس ، ومخطط يأخذ في اعتباره الفرص المناسبة لذلك . وما يفضح هذا التوجه العدواني والعنصري لدى أرنون سوفير ، هو دعوته لجعل « اسرائيل » نموذجاً للحياة اليهودية ، من أجل اجتذاب يهود الشتات ، ودعوته كذلك إلى تكثيف الاستيطان في منطقة الغور ، والعمل بشكل جاد لتهويد الجليل ، فمثل هذه السياسة ، أي اجتذاب يهود الشتات ، وعملية التهويد ، من شأنها مصادرة أراضي العرب ، وتضييق مجالات الحياة أمامهم ، ودفعهم بالتالي إلى النزوح عن وطنهم ، أما مسألة التعايش السلمي التي يبشر بها البروفسور بعد كل تلك المقدمات العنصرية عن القنبلة الزمنية التي يشكلها عرب ١٩٤٨ في جسم « اسرائيل » ، فحديث خرافة يا أم عمرو .

عصام شريح



دائرة المعارف القرآنية

بقلم: الدكتور محمد البهي

سبيل الله

إن المتتبع لآيات الله فى كتابه الكريم ، فيما عبرت به هذه الآيات : عن « سبيل الله » .. يجد : أن الكفر بالله وعدم الايمان به ابتعاد عن سبيل الله . « أم تريدون أن تسألوا رسولكم ، كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » (١) .. فالآية قد جعلت تحدى الماديين الوثنيين بمكة على عهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لرسالته ، وكفرهم بوحدانية الله ، ضلالاً وانحرافاً عن سواء السبيل . وسواء السبيل ــ أو السبيل السوى المستقيم ــ هو سبيل الله .. ويجد أيضاً : أن اتباع هوى النفس وشهوتها ضلال وبعد أيضاً عن سواء السبيل . ففى نداء الله لداود عليه السلام بقوله : « ياداود : انا جعلناك خليفة على الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢) .. ففى نداء الله هذا : يربط بين اتباع الهوى والضلال عن سبيل الله .. أى يربط بين السلوك الأنانى ، والانحراف عن الخط المستقيم الذى هو سبيل الله .

... ويجد كذلك : أن الشرك بالله وجعل أنداد له ، ابتعاد عن سبيل الله : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار .. الى أن يقول : وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ، قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار » (٣) .

.. ويجد أيضاً : أن اتباع الظن والكذب فى السلوك والمواقف ، انحراف عن سبيل الله « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون الا الظن ، وان هم الا يخرصون » (٤) .. فإذ ينهى الرسول عليه السلام عن مخالفة كتاب الله الى رأى اتباع الناس مهما كثر عددهم ، فإنما يربط بين رأيهم ، واتباع الظن أو الكذب فيه . واتباع الظن أو الكذب هو تجنب للصراط السوى ، وهو صراط الله .



وهكذا : الكفر بالله ، واتباع الهوى والانانية .. والشرك بالله .. واتباع الظن أو الكذب : انحراف وابتعاد عن سبيل الله وسبيل الله إذن هو : سبيل الهداية ، وسبيل الايمان ، وسبيل التضحية من أجل الايمان ، وسبيل المصلحة العامة .

سبيل الله هو السبيل الانسانى المهذب الذى يرتفع فيه الانسان فى معاملة الآخرين عن : النفاق والانتهازية ، وعن الأنانية والاستغراق فى الشهوات والمتع المادية ، وعن التخمين والتصورات التى قد لا تصيب الواقع . والذى يسلك سبيل الله هو : من يحب غيره كما يحب نفسه .. وهو من يصارح غيره ويكون مرآة له يرى فيها عيوبه .. وهو من يتبع العلم واليقين فى مواقفه من الآخرين .. وهو ــ قبل ذلك كله ــ من يؤمن بالله وحده ، دون أن يشرك معه أحداً سواه : فى الاحترام ، والتقديس ، والعبادة . اذ من يؤمن بالله وحده لا ينافق انساناً آخر معه ، ولا يخدعه ، ولا يؤثر ذاته بالحب وحدها ، دون الآخرين فى محيط وجوده .

سبيل الله هو : هداية الله التى سجلها فى كتابه الكريم ، وأوحى به الى رسوله محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .. هو رسالة الإسلام ، الذى هو السلام بين الناس على هذه الأرض .

هوامش :

(١) البقرة : ١٠٨ .
(٢) ص : ٢٦ .
(٣) ابراهيم : ٢٨ ــ ٣٠ .
(٤) الانعام : ١١٥ ــ ١١٦ .

كثيراً ما نظـرت إلى المرآة ، وحسبت أنني أرى فيهـــا أخى

توائم متطابقة وتوائم بالجملة

بقلم : د . عبد المحسن صالح

فى استهلال الحديث عن التوائم المتشابهة والمتطابقة تماماً ، قد لا نجد ما هو أصدق مما عبر به توأم عن شقيقه التوأم بقوله « كثيراً ما نظرت الى المرآة ، وحسبت أننى أرى فيها أخى » .. وهو ــ فى الواقع ــ تعبير دقيق قد لا يدركه الا العلماء الذين يعرفون الأصول الوراثيـــة التى جاء على أساسها مثل هؤلاء التـــوائم ، حتى كأنما هى طبعات متقنة ومشتقة من أصول واحدة ، فلا يختلف فيها حرف ، ولا تتفاوت بينها كلمـــة أو جملة أو فقرة ، أى كأنما التوأمان ــ باختصار شديد ــ اثنان فى واحد ، أو واحـــد فى اثنين .. وبحيث يصعب التمييز بينهما ظاهراً وباطناً ، والظاهر هو ما يراه الناس ، والباطن هو ما يراه العلماء على مستوى الشفرات الوراثية ، والجزيئات البروتينية ، والأنسجة الأساسية ، والطباع والمزاج والذاكرة والصوت .. الى آخر هذه الصفات التى درسها العلماء دراسة وافية ، ووصلوا فيها الى حقائق غريبة ، سوف نتناولها فى هذا المقال .

ان قائل العبارة السابقة هو الكاتب الشهير مصطفى أمين فى ذكرى مرور تسع سنوات على وفاة أخيه التوأم على أمين ، وهما من مشاهير التوائم المتطابقة التى أربكت الناس ، وأحدثت مفارقات مثيرة ، لصعوبة التمييز بين الاثنين ، ولهذا يذهب مصطفى أمين الى وصف ذلك بقوله : « كان من الصعب على غير المقربين منا أن يفرقوا بيننا ، بل كانت أمنا لا تستطيع أن تفرق بين أصواتنا ، وفى بعض الأحيان كنا نجلس صامتين ، ومع ذلك كانت عيوننا تتكلم ، ويجرى بيننا حوار بلا صوت .. ودرس فى انجلترا ، ودرست فى أمريكا ، ومع ذلك كانت أفكارنا واحدة ، لا نختلف فى أدق التفاصيل ، وكنت أذهب وحدى الى الترزى وأختار القماش لبذلتى ، ويذهب هو وحده ويختار القماش الذى يعجبه ، فاذا بنا نختار نفس القماش ونفس اللون ، وكان هذا الاتفاق العجيب يسبب لنا حرجاً ، ويحدث أن نذهب الى مكان واحد ونحن نرتدى نفس البذلة ، وكان هذا يثير ضحك الناس .. وكان المحررون يدخلون مكتبى



شكل (١) أشهر توأمين متطابقين أو متماثلين فى عالمنا العربى : الكاتبان الصحفيان مصطفى وعلى أمين ، فلقد بلغ من دقة التشابه بينهما صعوبة التعرف عليهما ، إلا من المقربين منهما.





شكل (٢) يظهر الاختلاف واضحا بين هذين التوامين فى الصورة العليا ، لأن بداية كل منهما كانت بويضة مستقلة وتلقحت بذاتها ، فاختلفت فى مضمونها الوراثى عن الخلية الأخرى ، لكنهما تحملان ــ بطبيعة الحال ــ صفات الأبوين (نصفها من الأب ، ونصفها من الأم) ، وفى الصورة الثانية تشابه التوأمان تماما فى كل الصفات ، لأنهما نشأتا من بويضة واحدة أى من أصل واحد !



كلما اتجهت من البلاد الباردة إلى البلاد الدافئة ينقص احتمال ولادة التوائم !

ويسألوننى رأيى ، ثم يذهبون الى أخى ويسألونه رأيه ، فاذا كل واحد منا يجيب نفس الاجابة ، ويصدر نفس القرار .. وكانت بيننا صلة روحية غريبة . كان هو تلميذاً فى فصل وكنت تلميذاً فى فصل آخر . واذا ضربنى المدرس بكى أخى ، وهكذا كنا نتخاطب من قارتين مختلفتين ، وكأننا نجلس معاً فى نفس الغرفة .. كان على أمين هو نصفى الثانى بل نصفى الأول » ! (شكل ١) .

وقد يبدو أن هذا الوصف مبالغ فيه ، إذ قد يصعب على العقل أن يتقبل أن التطابق فى التكوين الخلقي قد يتأسس عليه أيضاً تطابق فى الشعور والوجدان والأفكار ، ومع ذلك فلا يجب أن نتسرع فى الحكم ، لأن الدراسات التى أجراها العلماء على مثل هذه الحالات توضح ظواهر غريبة ، بل أغرب مما كنا نتصور .

أصول التوائم المتشابهة وغير المتشـــــابهة

وقبل أن نعرض تلك الظواهر ، كان من الأوفق أن نسرد شيئاً عن الأصول التى اشتقت منها التوائم ، فلاشك أن ذلك سوف يساعدنا على تقبل أنماط التطابق أو التماثل بين الشكل والمضمون فى حالة التوائم المتشابهة تماماً ، ويعنى ذلك أن هناك أنماطاً من التوائم التى تأتى غير متشابهة فى الشكل أو الجنس ، كأن يأتى أحدهما ذكراً ، والآخر أنثى ، ولهذا يختلفان بقدر ما يختلف الأخوة والأخوات فى العائلة الواحدة ، ومن ثم يمكن التمييز بينهم .. لكن مما لاشك فيه أن الفرق بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة يتحدد بدايةفى عمليات الاخصاب .

فبداية التوائم غير المتماثلة تنشأ من إفراز بويضتين أو أكثر فى نفس الشهر ، ولنفس الأنثى ، ولهذا اذا حدث الاخصاب ، فان كل بويضة تستقبل حيواناً منوياً ، ويؤدى ذلك الى « سبيكة » وراثية تختلف فى تفاصيلها عن أية سبيكة وراثية أخرى ، فينتج عنها أجنة مختلفة كذلك ، ومن الميسور التمييز بينها ظاهراً (شكل ٢) وباطناً ــ أى على مستوى البروتينات وفصائل الدم ، وزراعة الأعضاء ، هذا بخلاف التوائم المتماثلة التى تنشأ من بويضة واحدة ملقحة بحيوان منوى واحد ، وعندما تنقسم هذه البويضة الملقحة ، يحدث ــ لأسباب غير معروفة تماماً ونعبر عنها بأنها صدفة ــ أن تنفصل خليتان أو مجموعتان من الخلايا القليلة ، وتصبح إحداهما مستقلة عن الأخرى ، ويؤدى ذلك الى تكوين جنينين متماثلين يتغذيان من مشيمة واحدة ، وكأنما هما طبعتان متقنتان من نسخة واحدة أصلية ــ هى الخلية الملقحة التى اختلطت فيها صفات الأبوين وتناسقت ، فاذا حدث وانشقت الى بداية جنينين ، فان هذا التناسق المتقن يصبح « مبرمجاً » فيهما ، وعندئذ يترجم الى صفات وراثية متماثلة ، وكأن التوأمين

توائم متطابقة وتوائم بالجملة

كيان واحد ، أو كأصل وصورته أمام مرآة (شكل ٢ ب) .

هذا .. ومعدل وفود التوائم عموماً الى الحياة (أى التوائم المتشابهة وغير المتشابهة) يقع تقريباً في حدود حالة بين كل مائة حالة ولادة ، (وفي قول آخر حالة بين ٨٠) أى حوالى عشرة من بين كل ألف .. ثلثاها توائم غير متشابهة ، والثلث متشابهة في كل الصفات ، بداية من الشكل العام ، ونهاية بالصفات الدقيقة التي تظهر على بصمات الأصابع (شكل ٣) ورائحة العرق ذاته ، لدرجة أن الكلب البوليسي المدرب على اقتفاء الأثر يرتبك في التمييز بين توأم وشقيقه التماثل ، فلا يستطيع الفصل بينهما ، وهذا ينبئك أن العمليات الفسيولوجية والكيميائية فيهما واحدة .. ومما يؤكد ذلك أيضاً أنه يمكن نقل نسيج أو عضو من أحد التوأمين ، وزراعته في التوأم الآخر ، وعندئذ يتقبله الجسم ولا يلفظه ، وكأنما الدم دمه ، واللحم لحمه ، والبروتين بروتينه ، وهو بالفعل كذلك ، لأن الأصول الوراثية واحدة !

وهناك ــ بطبيعة الحال ــ حالات ولادة لأكثر من توأمين ، لكنها أكثر ندرة ، فمجيء ثلاثة توائم يقع في حدود مرة واحدة بين كل عشرة آلاف حالة ولادة ، وأربعة بين كل مليون ولادة ، وخمسة بين كل مائة مليون ، وستة في كل ١٠ بليون ولادة .. وفي مثل هذه الحالات ، تتعدد وتتباين الاحتمالات ، فلو أن سيدة وضعت ثلاثة توائم ، فمن المحتمل أن تكون الثلاثة غير متماثلة ، لأنها نشأت من ثلاث بويضات ملقحة ، أو قد يأتي الثلاثة من بويضتين ، وهنا تنشق احداهما ، وتعطى جنينين ، ولابد ــ والحال كذلك ــ ان يكونا متماثلين ومتطابقين (لأن أصلهما واحد) ، وتعطى البويضة الثانية جنيناً أو توأماً مختلفاً عن الاثنين ، أو قد يأتي الثلاثة من بويضة واحدة ملقحة ، وعندما تنقسم ، تنفصل خلاياها الى ثلاث بدايات ، كل بداية منها تعطى جنيناً ، ولابد أيضاً أن تكون التوائم الثلاثة متشابهة تماماً ، لأن الأصول الوراثية مشتقة من « نسخة » أصلية واحـــدة تؤدى الى ثلاث طبعـــات متماثلة (شكل ٤) .

عوامل تؤثر في ولادة التوائم

الاحصائيات الكثيرة التي جمعها العلماء من مواليد الدول التي تهتم بمثل هذه الأمور توضح معدلات مجيء التوائم مثنى وثلاث ورباع أو ما هو أكثر من ذلك ، ففي الولايات المتحدة يتبين من تلك الاحصائيات أن من بين كل التوائم التي تضعها السلالة البيضاء ، يأتي منها حوالى ٣٤٪ توائم متماثلة تماماً ، والباقى (أى ٦٦٪) توائم غير متماثلة ، لكن نسبة التوائم المتماثلة تنخفض الى حوالى ٢٩٪ بين الملونين الأمريكيين ، ونفس هذه النسب تقريباً توجد في الشعب الألماني ، وان كانت معدلات التوائم المتماثلة أكبر بين سكان المدن عن سكان الريف .

وتشير الدراسات التي أجريت على الشعوب المختلفة ، الى أن للمناخ أثراً في ولادة التوائم ، اذ كلما كان المناخ أكثر برودة ، كانت معدلات ولادة التوائم أكثر احتمالاً .. فمن بين كل ألف حالة ولادة في دول اسكندينافيا توجد ١٤ حالة توأمية ، يقابلها ١١ حالة في كل من فرنسا وايطاليا ، لكنها تنخفض الى ٨ حالات فقط في اليونان ، ثم تنخفض مرة أخرى الى أربع حالات في الأرجنتين .. أى كلما اتجهت من البلاد الباردة الى البلاد الدافئة نسبياً أو الحارة ، ينقص احتمال ولادة التوائم تبعاً لذلك .

ومع ذلك فهناك أيضاً اختلاف واضح في انتاج التوائم بين سلالة وسلالة أخرى ، فنساء قبائل « اليوروبا » السود بنيجيريا هن أكثر البشر انجاباً للتوائم ، اذ يصل معدلها الى ٤٠ حالة بين كل ألف ولادة ، وهي في زنوج القارة الأفريقية عموماً تصل الى ٢٠ حالة في المتوسط لكل ألف .

كذلك يتضح أن ولادة التوائم قد تتأثر بعوامل وراثية موجودة في عائلات دون أخرى ، (شكل ٥) أى أنها تنتقل من الأمهات الى بناتهن وحفيداتهن ، ويقال إن العمر دخلا أيضاً ، فالزوجات الأمريكيات الصغيرات لديهن القدرة على انجاب التوائم بمعدل ولادة واحدة بين كل مائتى ولادة ، في حين أن المعدل يرتفع أربع مرات في السيدات اللاتي تزيد أعمارهن عن ٣٥ عاماً ، وتعليل ذلك غير معروف تماماً ، وان كان بعض العلماء يرجعه الى اضطراب افراز الهرمونات كلما تقدم بهن العمر ، إذ قد يحدث ألا تفرز بويضة في شهر ، وفي الشهر الذي يليه تفرز المرأة بويضتين يؤديان الى ولادة توأمين .

لكن هناك حالات نادرة ومشهورة في انتاج التوائم على غير العادة ، وفيها لا يأتي المواليد فرادى على الاطلاق ، بل على هيئة مثنى وثلاث ورباع ، ومن أشهر هذه الحالات حالة فلاحة روسية تدعى مدام فيودور فاسيليت التي رزقت بتسعة وستين مولوداً بيانها كالآتي : ١٦ ولادة أنجبت فيها ٣٢ طفلا (بمعدل توأمين في كل ولادة) ، وثلاثة توائم في سبع حالات ولادة (٢١ مولوداً) ، وأربع مرات ولدت في كل منها أربعة توائم ، ولقد عاش معظم هؤلاء التوائم ، ليكونوا أكبر عائلة من أم واحدة ، هي بلاشك أخصب السيدات وأوفرهن في انتاج البويضات .

وليست هذه هي الحالة الوحيدة ، بل هناك حالات أخرى أقل كفاءة في انتاج ذرية من التوائم ، منها ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ حالة سيدة حملت ووضعت ٣٢ مولوداً في ١١ مرة ، منها ثلاث مرات بتوأمين في كل مرة ، وست مرات بثلاثة توائم لكل ولادة ، ومرتان وضعت في كل أربعة توائم ، ورزقت سيدة أخرى بأربعة وأربعين مولوداً توأماً في ٣٣ عاماً ، ففي ١٣ ولادة وضعت ٢٦ توأماً ، و١٨ توأماً في ست مرات .. هذا ومعظم التوائم في مثل تلك الحالات من التوائم غير المتشابهة ، وهو يرجع الى خصوبة المرأة ، أو



شكل (٣) بصمتان متطابقتان تماما لتوأمين متماثلين ، لدرجة أن أحد خبراء البصمات لا يستطيع التمييز بينهما ، فيعتبرهما لشخص واحد !

اسرافها فى افراز البويضات. فأربعة توائم فى ولادة واحدة يعنى — فى أغلب الأحيان — افراز أربع بويضات تخصب جميعاً ، وهذا يختلف عن معظم حالات السيدات ، فلكل شهر بويضة واحدة ، فاذا زادت الأمور عن هذا المعدل ، دل على زيادة الخصوبة !

والواقع أن ولادة أربعة توائم ليس هو الحد الأقصى فى مثل هذه الحالات ، بل قد يرتفع العدد الى ضعف ذلك ، أو ربما أكثر ، فهناك حالات نادرة وصل فيها الحمل الى عشرة توائم دفعة واحدة (ويرجع ذلك الى استعمال عقاقير الاخصاب) ، لكن التوائم كانت تجهض تلقائياً ، وتختصر الطريق الى الدار الآخرة ، اذ ليس من المعقول أن تحمل اناث البشر كل هذا العدد من الأجنة . فتتساوى بذلك مع الحيوانات الثديية الأخرى كالأرانب والفئران وما شابه ذلك ، بل إن حدودها لا تتعدى طفلا أو طفلين أو ثلاثة . لكن فى أحيان نادرة قد تصل الى خمسة وربما الى ستة ، وقد تولد جميعاً أحياء ، ويواصل بعضها النمو ، كما حدث مثلا فى حالات جد قليلة ومسجلة فى بلاد مثل مصر (حالة واحدة فى أسيوط بمصر ، حيث وصل عدد المواليد الى ستة منذ بضع سنوات مضت) وكولومبو وايران وايطاليا وبريطانيا وجنوب أفريقيا ، وكانت التوائم خليطاً من ذكور واناث ، أو اناث صرف ، وكلما زاد عدد التوائم ، نقص وزن المواليد ، وجاءت الولادة قبل موعدها ، فوزن مولود واحد عادى يتراوح ما بين ٣,٢ — ٣,٥ كيلوجرامات ، فى حين أن الوزن الكلى لستة توائم قد يبلغ فى بعض الحالات ١١ كيلوجراماً — أى بواقع ١,٨ كيلوجرام للتوأم الواحد ، ثم يزيد وزن التوأم تدريجياً ، كلما نقص عدد التوائم ، لكن ذلك لا يمنع من ولادة توأمين أحياء بوزن وصل الى ١٢,٩ كيلوجراماً ، وهى حالة نادرة حدثت عام ١٩٢٤ لسيدة تدعى جين هاسكين من ولاية اركانساس الأمريكية !

التوائم بين نظرتين مختلفتين

ولاشك أن موضوع معدلات مجيء التوائم وتباينها موضوع طويل ومتشعب ومثير ، لكن فيما قدمنا الكفاية ، حتى نستطيع أن نتعرض للموضوع من زاوية أخرى مختلفة ، فرغم أن العلم قد فسر لنا أصول نشأة التوائم المتشابهة وغير المتشابهة ، إلا أن بعض المجتمعات البدائية القديمة قد نظرت الى مجيء التوائم نظرة أخرى مختلفة ، فمنها ما كانت تكرمها وتعتبرها بشرى طيبة ، فى حين أن بعضها الآخر كان يعتبرها بمثابة نذير شؤم ونحس ، ولهذا لم تتورع عن قتلها أو ذبحها ، كذلك كان عدد التوائم ذاته مدعاة للتفاؤل أو التشاؤم ، فان جاء العدد زوجيا ، فالتوائم شر ، وان جاء فردياً فهى خير ، ولهذا يقص علينا فليجو طراليس احتضان امبراطور طروادة لخمسة توائم ورعايته لهم ، وتنشئتهم على حسابه الخاص ، كما يذكر ديونيسيوس أن الدولة كانت دائماً ترعى التوائم الثلاثية ، وتغدق عليهم وهم فى حضانة ذويهم ، وعلى العكس من ذلك كانت التوائم ذات الأعداد الزوجية ، فقدومها يعنى النحس ، اذ تحدث بلينى عن ولادة أربعة توائم ، فكان أن حلت المجاعة بالناس ، كما أن موت الامبراطور كلوديوس قد أرجعوه الى مولد توأمين ملتصقين — على حد اعتقاد العامة ، وهناك حكايات أسطورية تتحدث عن ولادة التوأمين روميولوس وريموس ، فاعتبرا نذير شر ، ومن ثم فقد أحرقا مع أمهما ، وألقيت رفاتهم فى النهر ، لكن التوأمين عادا الى الحياة ، وقذفت بهما المياه الى الشاطىء ، حيث أرضعتهما أنثى ذئب ، وعندما بلغا مبلغ الرجال ذبحا أموليوس الذى اغتصب أحقيتهما فى العرش .. الى آخر هذه الاعتقادات الخاطئة التى لا تقوم على أساس !

لكن التوائم — خاصة المتشابهة منها — كانت دائماً ذات أهمية خاصة للعلماء ، اذ وجدوا فيها ضالتهم التى تساعد على توضيح مسألة هامة ثار حولها الجدل زمناً طويلا ، فكثيراً ما تساءلوا : هل بعض الصفات والطباع والذكاء والسلوك نتيجة عوامل وراثية ، أم هى مكتسبة من التنشئة أو البيئة الاجتماعية أو من الاثنين معاً ؟ .. ان مثل هذا التساؤل يهم — فى المقام الأول — علماء النفس والتربية والاجتماع والوراثة ، لكن هناك سؤالا آخر يهم الأطباء : هل بعض الأمراض الغامضة تنشأ نتيجة عوامل وراثية ، أم هى أمر عارض وناشيء من البيئة ؟ .. وهل طول العمر والصحة والمرض وراثى أم مكتسب ؟ .. الخ .

الواقع أن مثل هذه الأسئلة يصعب الاجابة عليها إجابات مقنعة ، مالم تكن مدعمة ببحوث علمية تتمخض عنها نتائج واضحة ، لكن من الممكن الاجابة عليها من خلال التوائم المتشابهة ، لأن أصولها الوراثية تنعكس على صفات الانسان الظاهرة مثل الملامح أو الشكل العام ، وبعض الأمراض الوراثية ، وما شابه ذلك .

من أجل هذا وجد العلماء — كل فى تخصصه — أن دراسة التوائم المتطابقة هى المخرج الوحيد من الشكوك التى كانت تسيطر عليهم منذ فترات طويلة ، اذ تكمن فى تلك التوائم ضالتهم المنشودة ، ولهذا يدرسونها دراسة وافية وعميقة من كل الوجوه ، ويتبين لنا ذلك من التفاصيل التى قام بها العلماء لدراسة خمسة توائم اناث متشابهة تماماً ، وهى التى تعرف فى المراجع العلمية باسم خماسى توائم دايون التى ولدت ونشأت فى كندا ، فعن دراسة هؤلاء التوائم الخمسة يذكر مرجع « لاروس فى علم الحياة » وصفاً مختصراً بقوله « لقد أثارت ولادة هذه التوائم انتباه العلماء وشغفهم بمثل هذه الحالة التى نادراً ما تتكرر ، فمنذ لحظة ولادتهن أحاطت بهن مجموعة من العلماء البيولوجيين وعلماء علم النفس ، وبدأوا يسجلون كل شاردة وواردة عن كل توأم من التوائم الخمسة المتطابقة ، بما فى ذلك سرعة النمو والقدرة على الاستجابة والتفاعل بما يحدث حولهن ، وكيف ينمن ويستيقظن ، ويبكين ويرضعن ويمرحن ، بل وكيف يتخلصن من فضلاتهن الصلبة والسائلة ، وكلما مرت الشهور ، وزاد نموهن وعرفن كيف يجلسن ويمشين ويتكلمن ويبتسمن ويتصرفن ، كانت التسجيلات بالصوت والصورة تدون لكل واحدة منهن ، مهما كان التصرف الصادر تافهاً ، حتى ولو كان ذلك ايماءة أو لمحة أو صوتاً غير



شكل (٤) حالة نادرة لثلاثة توائم متشابهة تماما ، لأنها نشأت جميعا من بويضة واحدة ملقحة ، وعندما انقسمت ، انفصلت خلاياها الأولى الى ثلاثة مخزونها الوراثى واحد ، فأدت الى ، طبعات ، متماثلة .

توائم متطابقة وتوائم بالجملة

شكل (٥) فى خمس ولادات وصل معدل انجاب التوائم فى هذه العائلة أربع مرات ، وفى كل مرة تضع الأم توأمين غير متماثلين ، اما ولدا وبنتا ، أو ولدين ، والشقيقان فى أعلى الصورة ولدا على فترتين يفصل بينهما عام واحد .

مفهوم أو حركة عابرة ، ولقد تسلطت عليهن الأضواء أكثر مما تتسلط على أشهر ممثلات هوليوود ، وكن يعاملن كأنهن أميرات ، لكنهن فى الوقت نفسه كن أشبه بحيوانات التجارب ، اذ ظللن سنوات تحت اختبارات طبية ونفسية وسلوكية لا عدد لها ولا حصر ، وأخيراً أطلق سراحهن بعد أن ضقن بالعيون الكثيرة المسلطة عليهن ليل نهار ، ولكن بعد أن جمع العلماء معلومات هائلة دونوها فى مجلدات ضخمة تحتوى على ثروة زاخرة من الصور والأرقام والجداول والرسوم البيانية والأشكال التوضيحية ، وبحيث يمكن القول بأن أحداً فى التاريخ القديم أو الحديث لم يحظ بمثل ما حظى به هذا الخماسى المتماثل من كل الوجوه » (شكل ٦) .

وطبيعى أننا لا نستطيع أن نعرض شيئاً من هذه النتائج الضخمة لضيق المجال ، ثم انها ليست الدراسة الوحيدة التى أجريت على التوائم ، فقد تبعتها دراسات أخرى كثيرة أعظم تطوراً ، نتيجة لتطور الفكر وأجهزة البحث ، لكن أهم هذه البحوث التى أجريت فى هذا المجال كانت فى المانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، ففى جامعة شيكاغو تعاون ثلاثة علماء . نويمان أستاذ البيولوجى ، وفريمان أستاذ علم النفس ، وهولزينجر عالم التحليل الاحصائى ، مع الاستعانة بفريق آخر من العلماء ، ولقد درس هذا الفريق ٥٠ زوجاً من التوائم المتماثلة و ٥٠ زوجاً من التوائم غير المتماثلة من نفس الجنس (أى ذكور صرف أو إناث صرف) ، وفى المانيا درست حالات ٨٠ زوجاً من التوائم المتماثلة و ١٢٥ زوجاً من غير المتماثلة ، ولكل دراسة نتائجها المثيرة التى سوف نتعرض لبعضها فيما بعد ، يضاف الى ذلك أحدث دراسة بدأت منذ خمس سنوات فى جامعة مينيسوتا الأمريكية تحت اشراف عالم النفس توماس بوكارد ، واشترك فيها ١٧ آخرون ، من بينهم ستة من علماء النفس ، واثنان من الأطباء النفسانيين ، وتسعة من الأطباء ذوى التخصصات المختلفة ، بما فى ذلك متخصصون فى التحليل الاحصائى الطبى ، ومن المقدر أن تنتهى تلك الدراسة فى نهاية هذا العام . ويقال ان تحليل الكم الهائل من المعلومات التى حصلوا عليها من ٣٣ زوجاً من التوائم المتماثلة سوف يستغرق عامين أو ثلاثة ، ومع ذلك فقد نشر بوكارد بعض نتائجه الأولية فى المجلد السنوى للعلم والمستقبل الذى صدر عام ١٩٨٣ .

توائم فى المرآة

فمن البحوث الكثيرة التى تمت فى السنوات الماضية ، أمكن استخلاص نتائج مثيرة من التوائم المتماثلة . وبحيث تبدو لنا الأمور وكأنما التوأمان بمثابة أصل وصورته فى المرآة ، لكن الصورة هذه المرة حقيقية ومجسدة وقائمة ، ويعنى ذلك أن التطابق بينهما متقن الى درجة مذهلة .. فعالم البصمات بيرتيلون يذكر أن هناك حوالى مائة نمط أو خاصية مميزة يمكن بها تحديد الاختلاف بين بصمات انسان وانسان آخر ، وأن احتمال تطابق ١٦ خاصية فقط من بين المائة لا يمكن أن تتكرر الا فى حالة واحدة بين كل ٤,٢٩٤,٩٦٧,٢٩٦ حالة ،

قاطع أو ناب أو ضرس بارز أو حائد عن موقعه فى أحدهما ، ظهر العيب نفسه فى الآخر ، كذلك قد يكون الحال فى ظاهرة الشرم أو انشقاق الشفة العليا (أو ما يطلق عليه اسم الشفة الأرنبية أو الأشرم) ، فاذا ظهرت فى أحدهما ، ظهرت فى الآخر .. الخ .

لكن التطابق الأغرب الذى يدعم ظاهرة الأصل والصورة فى المرآة يتجلى بوضوح فى حالة توأم يستخدم ذراعه الأيسر بكفاءة ، فيجيء الآخر ليستخدم يمينه بكفاءة (وهما فى هذه الحالة يمثلان انساناً وصورته فى المرآة) .. واذ جاء شعر رأس هذا عند قمة منبته لينمو فى اتجاه عقرب الساعة ، فان شعر التوأم الآخر يكون فى عكس هذا الاتجاه ، واذا كانت خصلة شعر جبين هذا تتجه يميناً ، فانها فى الآخر تتجه يساراً ، حتى النمش أو الوحمة أو العلامات المميزة على بشرة الجهة اليمنى للوجه فى أحد التوأمين ، يظهر لها مثيل على بشرة الجهة اليسرى لوجه الآخر ، وفى بعض حالات التوائم المتشابهة يظهر القلب فى موضعه جهة اليسار ، والكبد جهة اليمين ، وهو أمر طبيعى ، لكن الشيء الغريب أن يأتى القلب فى بعض التوائم جهة اليمين ، ويأتى الكبد جهة اليسار ، ولقد كانت التوأمتان مارى وايميلى (ضمن مجموعة توائم دايون الخماسية التى سبق الاشارة إليها) من ذلك الطراز الغريب .. أو قد تكون بصمات الأصابع فى التوأمين كأصل وصورة فى المرآة ، لكن هذه التكوينات الانعكاسية ــ كما يطلق عليها ــ نادرة بين التوائم المتماثلة .

ومع ذلك فليس حتماً أن تتطابق التوائم المتماثلة فى كل الأحوال ، فقد تظهر بينها بعض فروق قليلة ، كأن يكون أحدها أكثر بدانة من الآخر ، أو يكون أقصر نتيجة لاصابته بمرض (شكل ٧) .. الى آخر هذه الأمور العارضة ، ومع ذلك فلا زالت الملامح واحدة ، والصفات الوراثية متطابقة .

ذلك اذن سرد سريع لما ينطوى عليـــه عالم التوائم من حقائق ومفارقات ، وبقدر ما يسمح المجال ، لكن يبقى الجانب الأهم والأكثر اثارة ، وهو ما يختص بأنماط من السلوك البشرى ، الذى يرجعه البعض الى أصول وراثية ، ويعتبره البعض الآخر نتيجة مكتسبة من البيئة التى يتربى فيها الانسان وينشأ ، فهل العدوانية أو ظهور العبقرية ، أو الميل الى دراسة فن من الفنون ، أو حب الموسيقى ، أو الرياضيات ، أو تفضيل ألوان على أخرى .. هل هذا وغيره موروث أو مكتسب ؟

الواقع أن الاجابات قد تختلف ، ومع ذلك فالدراسات التى أجراها العلماء على التوائم المتماثلة ، والتى نشأت فى بيئات مختلفة أو متماثلة ، توضح لنا الكثير من الغموض الذى خيم على العقول ، لكن ذلك موضوع آخر طويل ومثير ، وسوف نفرد له دراسة مستقلة ، ليتبين الغث من السمين .

عبد المحسن صالح



شكل (٦) خماسى توائم دايون المتماثلة والتى عاشت جميعا ، وحظيت بدراسة مكثفة من علماء الوراثة والبيولوجى والطب والنفس .. الخ .



شكل (٧) توأمان متماثلان تماما ، لكن قصر أحدهما عن الآخر يرجع إلى إصابة القصير بمرض عاق نموه ، وهو ــ على أية حال ــ شيء عارض .

ومع ذلك فان بصمات التوأمين تتطابق فى أكثر من ٣٠ خاصية ، ولا يمكن أن يأتى هذا التطابق الفريد بين أى عدد من البشر منذ أن ظهروا على هذا الكوكب ، والى أن يرث الله الأرض بمن عليها ، اللهم فقط فى حالة التوائم المتماثلة !

كذلك تتطابق نبضات القلوب ، وكما يظهرها رسام القلب الكهربى ، وأيضاً الموجات التى تصدر من مخى التوأمين ، وكما سجلها رسام موجات المخ الكهربى ، واذا ظهر الصلع فى أحد التوأمين ، ظهر الصلع فى التوأم الآخر بنفس الدرجة وفى نفس العمر (انظر شكل ١) ثم يذهب التطابق الى أبعد من ذلك فى حالة الأمور الشاذة أو التشوهات التى قد تظهر فى كل من التوأمين ، من ذلك مثلا أن يولد أحد التوأمين بأصبعين أو أكثر ملتصقين ، فيجيء التوأم الآخر على نفس النمط تماماً ، أو قد يولد هذا بستة أصابع ، فيولد الآخر بنفس العدد من الأصابع ، وعلى نفس اليدين أو القدمين ، واذا جاء





بقلم: الدكتور يحيى الجمل

في هذه الحلقة الثالثة يواصل الكاتب الكبير الدكتور يحيى الجمل رواية « قصة حياة عادية » بعد ما قدمه في الفصلين السابقين « الدوحة مايو ويونيو ١٩٨٥ » من حديث ممتع عن حياة القرية والمدينة الصغيرة في الثلاثينات.

مازال يذكر أول يوم رأى فيه القاهرة.

وكان دخوله إليها لأول مرة من ناحية شبرا وكان يركب أحد تلك « الأوتوبيسات » التي تأتي من مدن الدلتا لكي تصب ركابها وما يحملون في القاهرة قرب جامع « الخازندار ».

ورغم أنه لم يكن صغيرا إلا أنه فوجئ إذ رأى « الترام » يجري على قضبان مثبتة في الأرض وكان خياله كله يوحي إليه أن الترام معلق بسلك في الهواء. ولا يدري على وجه اليقين من أين جاءت له هذه الصورة: ولكنه يرجعها في الغالب إلى صورة رآها في كتاب من كتب المطالعة في إحدى سنوات الدراسة الابتدائية في طنطا ولم تظهر قضبان الترام في تلك الصورة: وإنما ظهر الترام وكأنه معلق من « السنجة » في سلك يمتد في الهواء.

وانطبعت تلك الصورة في ذهنه ولم يحاول أن يفهمها على غير ذلك النحو إلى أن كان ذلك اليوم الذي رأى فيه الترام يسير على الأرض فوق قضبان من حديد كما تسير تلك القطارات التي كان يراها أحيانا في محطة « طنطا ».

ومازال يذكر حتى الآن كيف كانت « مفاجأته » وهو يرى الترام يسير علي الأرض وكيف أن القاهرة في لحظة المواجهة الأولى بينه وبينها قد أخلفت ظنونه.

وكانت القاهرة مختلفة تماما منذ اللحظة الأولى عن كل ما رآه من قبل. شارع شبرا واسع لا يقاس بما كان في طنطا من شوارع وهذا الترام المعلق في الهواء والذي يسعى على الأرض وهذه السيارات الكثيرة وهؤلاء الناس يمشون بسرعة أكبر وأعداد أكثر. يبدو أن الحياة في القاهرة تختلف عنها في غيرها من المدن اختلافا كبيراً.

وكان المنزل الذي يقطنون فيه قريبا من جامع الخازندار يقع في شارع فرعي صغير ومازال يذكر أنه كان هناك على رأس ذلك الشارع بقال صغير يبدو أنه من المهاجرين الأولين من قريتهم إلى المدينة وقد سمع فيما بعد أنه قريب بعيد لأمه. أما « الشقة » التي استأجرها أبوه لهم فقد كانت شقة صغيرة لا يكاد يذكر شيئا واضحا عن هندستها ولكن الذي يذكره أن أخاه كان يستقل بحجرة.

وكان لتلك الحجرة باب مستقل يؤدي إلى سلالم البيت وباب يفتح على حجرة أخرى وكان هو وبعض إخوته يقيمون فيها. وكان في تلك الحجرة سرير كبير ولكنه لم يكن ينام على ذلك السرير وحده بل إنه مازال يذكر أياما كثيرة كان ينام فيها على الأرض ويترك السرير لأولئك الأضياف الذين يلمون من القرية بين الحين والحين.

وكانت الحرب العالمية الثانية توشك أن تختم فصولها. كانت إيطاليا قد خرجت من الحرب مهزومة مكسورة مدحورة. وكان الايطاليون قد علقوا الدكتاتور موسوليني من رجليه في جذع شجرة. وكانت جيوش هتلر تخرج من انكسار إلى انكسار ومن هزيمة الى أخرى.

ومازال يعلق في ذهن الفتى من تلك الأيام أن « الشاي » كان يباع بالبطاقات وأن الفلاحين في القرى لم يكن يكفيهم ما يوزع عليهم وأن ذلك كله أدى إلى تجارة واسعة في السوق السوداء للشاي. ولاشك أن السوق السوداء كانت أكثر اتساعا من أن تقتصر على هذه السلعة « الشاي » ولكنه يذكر هذه السلعة دون غيرها لأن أحد أقاربه ممن كانوا يأتون من القرية وينزلون عندهم ويحتلون مكانه على السرير كان يتاجر في الشاي. يشتريه من السوق السوداء في القاهرة. ويبيعه إلى بعض التجار في القرية ويحقق عن طريق ذلك ربحا غير قليل.

ولا يذكر الفتى كيف أتيح له أن يتعرف على شابين من الصعيد كانا يسكنان قريبا من منزلهم. ورغم أن هذين الشابين كانا يسكنان في حجرة واحدة، إلا أن أمرهما كان مختلفاً جداً.

أما أحدهما فكان يقرأ كتبا لم يسمع عنها الفتى من قبل وكان يحتفظ بمجلات يبدو أن قليلين كانوا يسمعون عنها وكان يردد أسماء وعبارات لم يألف فتانا سماعها قط وعلاوة على ذلك كله فقد كان أول أزهري يعرفه الفتى يلبس اللباس « الافرنجي » إذ كان يلبس بدلة كما يلبس تلاميذ المدارس والجامعات ولايلبس العمامة والقفطان كما يلبس الأزهريون.

وأما الشاب الآخر فكان طرازا آخر من الناس . كان مفتول العضلات حاد النظرات فى وجهه قسوة . وكان لايلبس الزى الأزهرى ولا يلبس الزى الافرنجى وإنما يلبس جلبابا مما يلبسه أعيان الريف ولكنه ـ على عكسهم ـ لا يضع على رأسه شيئا ويمسك دائما عصا فى يده يهزها هزا . ويبدو أن صلته بالعلم كانت ضعيفة .

وأدرك الأزهرى المثقف أن الفتى يحب القراءة ويقبل عليها إقبالا شديدا فشجعه ذلك على أن يعطيه بعض المجلات يقرأها ولكنه لم يكن يسمح له بأن يأخذها معه . ويذكر الفتى اسم واحدة من تلك المجلات . كان اسمها « الفجر الجديد » ومازال الفتى يذكر أنه قرأ فى تلك المجلة قصائد من الشعر لشاعر لم يكن قد سمع اسمه من قبل اسمه « محمد عبد الحليم » بل ومازال يذكر بيتا من أبيات واحدة من تلك القصائد كان يقول :

تنعم الكلاب لدى القوم
ونشقى فيا لها مضحكات

أما الشاب الآخر فكان يتاجر فى مواد التموين فى السوق السوداء . وكان الشاى بين ما يتاجر فيه .

وروى الفتى أمام قريبه ذلك الذى كان يجئ من القرية وينزل عندهم وينام على سريره أمر ذلك الشاب وطلب منه ذلك القريب أن يعرفه به ولم يجد الفتى حرجا فى أن يفعل شيئا من ذلك .

ويبدو أن الرجلين تفاهما على صفقة من الشاى . ويبدو أن الثمن كان « مرتاحا » لأنه لاحظ أن قريبه كان سعيدا بإتمام الصفقة .

ولم يمض غير يومين اثنين حتى عاد ذلك القريب من القرية غاضبا حانقا ثائرا يريد أن يعصف بذلك الشاب « الغشاش » عصفا . فقد كان الشاى المباع خليطا من أوراق الشاى وحبات الفحم وأشياء أخرى لا تمت إلى الشاى بصلة . وأحس الفتى بحرج شديد فقد كان هو واسطة اللقاء بين الرجلين . وأخذ قريبه وذهب به إلى حيث يسكن ذلك الشاب ولكنه لم يجده وضرب له قريبه موعدا وذهب إليه فيه ولكنه لم يجده أيضا . وأصبح واضحا أن ذلك الشاب اللعين لا يريد ملاقاته . ولما لجأ الفتى ومعه قريبه إلى الشاب الآخر « المثقف » أبدى أنه لايعرف عن صاحبه الآخر شيئا وأنه لا يربطه به غير التواجد فى مكان واحد يتقاسمان دفع أجرته وانهما جاءا من قرية واحدة من قرى الصعيد .

ولم يشأ قريبه أن يعود إلى القرية قبل أن يلقى ذلك « النصاب » وترصده يوما كاملا إلى أن عثر فيه . وكانت دهشة قريبه بالغة عندما أنكر صاحبه كل صلة له بصفقة الشاى المغشوش . وهم ذلك القروى أن يضربه بعصاه على أم رأسه ولكن الشاب تفادى الضربة بمهارة ، بل وطال قريبه بضربة موجعة ثم لاذ بالفرار .

وأحس الفتى احساسا شديدا بالذنب ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا .

* * *

كان الفتى يخشى أن تمتد يد أبيه أو يد أخيه إلى تلك الصور المثيرة التى كان يحتفظ بها لبعض الممثلات والتى كان يشترى بعضها من كشك قريب من البيت وكان يرى بعضها الآخر فى بعض المجلات . ولا يزال الفتى يذكر صورة لممثلة اسمها « ديانا دربن » .

كانت تنطق بخفة الدم والحيوية والجمال جميعا .

ويبدو أن فتانا كان فى وضع أفضل من غيره ممن هم فى مثل سنه فقد كان يحب القراءة وكان حريصا على تحصيل دروسه والتفوق فيها بل إنه إلى جوار ذلك اشترك فى فريق كرة السلة فى المدرسة . ولكنه لا يذكر أنه برز فى ذلك الفريق أبدا . وبعد مباراة من تلك المباريات التى كانت تجرى بين مدرسته وبين بعض المدارس الأخرى أصابه برد شديد تحول بعد أيام إلى التهاب فى الرئة . وانزعج والده انزعاجا شديدا وذهب به إلى الأطباء الذين قرروا أن الفتى أصيب بالتهاب بلورى فى صدره وأن رئته اليمنى بها « ماء » وأن هذا الماء يجب أن يبذل ونصح طبيب المدرسة أن يدخل الفتى مستشفى القصر العينى الجديد . وقد كان بالفعل جديدا آنذاك .

وأدخل الفتى إلى المستشفى ، وصاحبه إلى هناك أبوه وأمه وأخوه ، وجلسوا معه بعض الوقت ثم تركوه فى رعاية الأطباء والمرضين والمرضات .

وكان من نصيب الفتى أن يقيم فى حجرة فيها سريران فقط لا أن يقيم فى عنبر من عنابر المستشفى التى تمتلئ بالمرضى من الجانبين .

وكان فتانا آنذاك فى السنة الرابعة الابتدائية .

ومازال الفتى يذكر والده ذلك الحنون وهو يأتى لزيارته كل يوم وفى يده شئ من طعام أو شئ من فاكهة ولا يترك المستشفى إلا وقد سأل كل من استطاع أن يصل إليه عن حالة ابنه ومدى تحسنها ومتى يخرج من المستشفى .

وبذل الماء من صدر الفتى مرة ومرة ومرة .

وأخذت صحته تتحسن فى بطء ووالده يستعجل يوم خروجه من المستشفى خاصة وأن امتحان الشهادة الابتدائية كان على الأبواب . ويبدو أن الأطباء كانوا يطمئنون ذلك الرجل الطيب عندما كان يلح عليهم فى السؤال ولكنهم فيما يبدو كانوا يدركون أن خروج الفتى من المستشفى مازال أمامه وقت قد يطول .

ومازال الفتى يذكر بوضوح الممرضتين اللتين كانتا تتناوبان الإشراف على العنبر الذى يعالج فى إحدى حجراته .

كانت واحدة منهما بيضاء قصيرة ممتلئة اسمها « أميرة » . وكانت الأخرى سمراء فارعة اسمها « جوزفين » . ولم تكن جوزفين هذه مصرية ولم تكن تتكلم من اللغة العربية إلا بضع كلمات . وكان أنفها أفطس ووجهها مما لا يمكن وصف تقاطيعه بالجمال ومع ذلك فقد كانت صاحبة روح جميلة بحق وكان المرضى يحبونها وكان فتانا يرتاح إليها كلما رآها ويتبادل معها بعض الحديث باللغة الانجليزية .

وكان الفتى ينتظر ساعة مرورها بشوق وترقب . ويبدو أن « جوزفين » أدركت أن الفتى يوشك أن يتعلق بها ويبدو أنها لم تكره ذلك أو يبدو أنها اعتادت مثل ذلك من مرضاها الذين كانت تهتم بهم اهتماما حقيقيا وكانوا لا يجدون ما يبادلونها به إلا تلك المشاعر التى يختلط فيها الحب بالتقدير برجاء الشفاء .

وعندما بدأ الفتى يقترب من الشفاء وسمح له أن يتحرك قليلا فى المستشفى لاحظ أن « العنبر » الذى كان فيه توجد به حجرة ليس فيها إلا سرير واحد .

وكان معنى قبول أحد المرضى فى تلك الحجرة أنه صاحب حظوة ومكان كبير . وحرص الفتى أن يعرف من يحتل تلك الحجرة وحده وماذا يعانيه من مرض . وعرف الفتى أن رجلا أجنبيا ـ انجليزيا على الأرجح ـ طاعنا فى السن هو الذى خصصت له تلك الحجرة . ويبدو أن الفتى لم يرض عن تلك المحاباة لهذا الانجليزى العجوز وكانت هناك أمام حجرة ذلك المريض سبورة على حامل يبدو وأنها كانت تستعمل للأغراض التعليمية وأخذ الفتى قطعة من الطباشير ثم كتب على السبورة بضع عبارات باللغة الانجليزية تنتقد تخصيص تلك الحجرة لهذا الرجل الفانى « الذى لم يعد يصلح لشيء Good for nothing » مازال الفتى يذكر هذه العبارة تحديدا بين عبارات أخرى كتبها على تلك السبورة ثم تركها بغير توقيع وذهب إلى حيث يوجد سريره .

وقرأت جوزفين ما كتبه صاحبنا وقرأه بعض الأطباء ولم يجد الفتى استنكارا شديدا لما فعل بل إنه سمع من أحد الأطباء أنه لم يصدق أن طالبا فى الابتدائية يكتب مثل هذه العبارات باللغة الانجليزية .

وأدرك الفتى من يومها أن الاحتجاج بالكلمات أمر قليل الجدوى .

* * *

ويبدو أن والده كان يلح فى خروجه من المستشفى ويتعجل ذلك اليوم وقد وافق الأطباء أخيرا على خروجه على أن يظل تحت رقابة طبية فى المنزل وأن يأخذ « حقنا » معينة كان يأخذها فى المستشفى وأن يلزم السرير لا يبرحه إلا قليلا .

وكانت الصاعقة أن الأطباء قرروا أنه لن يدخل امتحان الشهادة الابتدائية فى الدور الأول بحال .

ودخل الفتى امتحان الدور الثانى ولما كان غيابه عن الدور الأول بعذر مقبول فقد أعطى درجاته كاملة وكان ترتيبه « الأول » فى منطقة القاهرة .

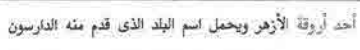
ودخل مدرسة شبرا الثانوية حاصلا على مجانية التفوق . وبدأت مرحلة جديدة من حياته .

« إلى اللقاء فى العدد القادم »



الأزهر بشموخه وتاريخه العظيم الملء بالأحداث الهامة لأكثر من ألف سنة





أحد أروقة الأزهر ويحمل اسم البلد الذى قدم منه الدارسون



الأزهر..

أول جامعات الدنيا.. وألف سنة من الأحداث والرجال

بقلم: فاروق أباظة

يستمد الأزهر شموخه وجلاله من تاريخ عميق الجذور يمتد لأكثر من ألف سنة شهد فيها صحنه ومحرابه ومآذنه أجل الأحداث وأخطرها وخلال عمره الطويل مرت عليه المحن فأغلقت أبوابه وضربت جدرانه بالقنابل وسقط في رحابه المئات من الشهداء ولكنه تجاوز العثرات وأصبح أشد وهجا وتألقا وإيمانا برسالته من أجل مجد وعزة الإسلام فمن أبوابه خرج الثوار المسلمون يحملون مشاعل الهدى والنور، وفي أروقته عاش ألمع الرجال من المفكرين والمجتهدين في كل علم وفن، وتخرج فيه أقطاب الشريعة والمحاماة والسياسة، وتطور الأزهر في الستينات ليصبح جامعة كبرى تضم آلاف الطلبة والطالبات لا تقوم فقط بتدريس علوم الفقه والشريعة والتفسير والنحو والصرف والعروض وإنما أيضا علوم الطب والأجنة والهندسة والحاسب الآلى والرياضيات والزراعة تمشيا مع احتياجات العصر مع الاحتفاظ بأصالة الإسلام وشريعته السمحاء.



جانب من حى الأزهر الذى يعتبر من أعرق الأحياء الشعبية

- ليس مجرّد جدران ومآذن ومحراب .. ولكنه موطن أحداث الأمّة الإسلامية
- مَنْ هُم الذين قادوا حركة تجديد الفكر داخل ساحة الأزهر؟
- فوق منبره انطلق النداء لِصَدّ التتار والصليبيّين ومقاومة الفرنسيين
- أول أزهري مُعَمَّم شاهد أوبرا "لاسكالا" وسافر إلى إيطاليا وموسكو سنة ١٨٤٠

والأزهر الشريف ليس مجرد مبنى ومآذن ومحراب ولكنه جماع أحداث وأحداث سطرها المؤرخون الأفذاذ من عرب وعجم وظل الأزهر إبان الحقب والعصور المتواليه هو السجل الحى لما كان يعترى الأمة الإسلامية من قوة وضعف وغفوة وصحوة ... أكثر من ألف عام بقيت فيه مآذنه السامقه لتحكى هذا التاريخ بأمجاده الفكرية فقد كان الناس ينظرون إلى الأزهر منذ القديم نظرة قائمة على الاحساس العميق برسالته وخطير مكانته .. لقد كان من بين شيوخه رواد نجحوا فى هذا الصرح العملاق كى يتخلص من شوائب الجمود وتمثل ذلك في إنبهار المؤرخ الأزهرى الكبير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بتجارب الفيزياء والكيمياء التى كان يقوم بها العلماء الفرنسيون فى القاهرة إبان الحملة الفرنسية ومن بينهم « مونج » « ومونتيه » « وكافاريللى » وكان يتردد على معملهم التجريبى فى حارة الكاشف بحى السيدة زينب ليشاهد ما يقومون بتجربته من أعاجيب علمية . ومن بعده جاء رائد التجديد الفكرى فى الأزهر الشيخ حسن العطار الذى تولى مشيخة الأزهر عام ١٢٤٦ وأخذ يهز الأزهر هزا عنيفا قويا : إنه يقول فى كتابه « جمع الجوامع » : قد عربت كتب فى زماننا من كتب الفرنجه ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال رقيقة أطلعنا على بعضها وأستخرجت تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية . وفى هذه الكتب تكلم القوم فى الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولا حتى صار ذلك علما مستقلا ذا فروع كثيره ومن سَمَت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ... »

وللتأثير الكبير للأزهر داخل العالم الإسلامى منذ قيامه حتى اليوم فقد تناوله العديد من المؤرخين الأجانب عند تسجيلهم للفترة التى قضوها برحاب القاهرة وعلى رأس هؤلاء « كارستن نيبور » الدانماركى « وأندريه ريمون » الفرنسى « وادوارد وليم لين » الانجليزى والذى يسرد واقعة

الأزهر..

أول جامعات الدنيا.. وألف سنة من الأحداث والرجال



بعض الطلبة الأفارقة الذين يدرسون في جامعة الأزهر

دخوله لأول مرة إلى صحن الأزهر فيقول : « مررت في طريقي إلى مسجد الحسين بداخل الجامع الأزهر وكان الكثيرون يحملون معهم الخبز وغيره من المأكولات إلى الفناء الكبير وأماكن الصلاة لبيعه إلى المجاورين (أى الطلبة) وغيرهم من المترددين على الجامع والجامعة . وكان الفناء لبرودة الجو يزدحم بجماعات من الطلبة والمتبطلين يتكاسلون ويتشمسون . وكان يشغل بعض الفناء الأساتذة في صحبة النشء من طلبتهم ، ويعرض الجامع الأزهر دائما منظرا يستحق الاعتبار بالنسبة لى على الأقل لأنه المركز الرئيسى الذى يجذب المريدين من رجال الدين والأدب والعلم من أنحاء العالم الاسلامى » ...

حكايته وتاريخه

وقد شيد الأزهر القائد جوهر الفاطمى في الجنوب الشرقى من مدينة القاهرة وعلى مقربة من القصر الكبير الذى أقيم حينذاك بين حى الديلم في الشمال وحى الترك في الجنوب ، وقد تم وضع أساس الجامع في ١٤ من رمضان عام ٣٥٩ هـ وأستغرق بناؤه سنتين وأقيمت فيه أول صلاة في السابع من رمضان عام ٣٦١ هـ.

وكان من عادة المسلمين حينما يشرعون في إنشاء مدينة جديدة أن يبنوا مسجدها في وسط الساحة المعدة للبناء ثم يجرى بعد ذلك تخطيط الشوارع بحيث تؤدى جميعها إلى المسجد تيسيرا على المسلمين كى يهرعوا عند كل آذان إلى الصلاة وكذلك سهولة الالتقاء بالحاكم عند طرح أمر من الأمور الهامة .

وأزهر اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الأصل بل هو حصيلة من الاضافات الأثرية ضمت إليه في حقبات متتابعة وذلك خلال العصر الفاطمى والمملوكى العثمانى ثم القرن التاسع عشر والعصر الحديث .

يقول على مبارك المؤرخ المصرى الكبير في كتابه « الخطط التوفيقية » : وتضاعفت شهرته في الآفاق ، وهرع إليه طلاب العلم من جميع بلاد الإسلام لتعلم العلوم الشرعيه والفعلية والنقلية من دروسه الدائمه المتصدر في إقرائها جهابذة العلماء والمحدثين ما بين مؤلف ومدرس فنجد فيه من المجاورين الألوف المؤلفة من الطوائف المختلفة كأهل الحجاز واليمن والسند والهند والسودان والجاوة وبغداد والمغرب والشام والسليمانية والأتراك والأكراد خلاف الحجم الغفير من البلاد المصرية كالصعيد والبحيرة والفيوم والشرقية والغربية ولكل طائفة من طوائفه رواق يخصها وهو الجامع الجامع والأزهر الأزهر والمدرسة الكبرى والبقعة النافعة ، به يزول الجهل وتخلد حياة العلم وتتأدب النفوس وتتسع القرائح وتتنبه الفطن وتروق الأفكار وتتفنن الآداب وتظهر الأسرار ويكتسب الشرف العظيم ويعظم القدر فكم بزغت فيه شموس وأقمار وغردت فيه بلابل المعلمين والمتعلمين في العشى والابكار والأسحار .

وللجامع الازهر ثمانية أبواب أشهرها وأكبرها باب المزينين حيث كان يجلس المزينون لحلق رؤوس المجاورين ، ومقصورته الكبيرة أقامها القائد جوهر وتمتد من باب الشوام إلى رواق أهل الشرقية وتحتوى على ست وسبعين أسطوانة من الرخام الأبيض أما المقصورة الجديدة فهى أصغر من القديمة وبها محرابان والصحن متسع مكشوف ويجلس فيه المجاورون للمطالعة في أيام الشتاء ويبيتون به في ليالى الصيف ، وللأزهر ست منارات يؤذن عليها في الأوقات الخمس وفى الأسحار وبه سبع مزاول ، في صحنه أربع لمعرفة وقت الظهر ، ثلاث لمعرفة العصر . وألحقت بالأزهر مدارس أشهرها المدرسة « الطيبرسية » أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش وجعلها مسجدا لله بالاضافة إلى الجامع الأزهر وقرر بها درسا لفقهاء الشافعية ، والمدرسة الجوهريه وبها قبلة صغيرة وكان يجلس بها بعض المؤدبين لتعلم الأطفال وبداخلها مدفن منشئها جوهر القنقبائى .

وقد كثرت أوقاف الخلفاء والأمراء على الأزهر ومن أشهر الأوقاف التى خصصت له وقفية الحاكم بأمر الله الفاطمى ... ويقول المؤرخ المقريزى إنه وقف للخطيب أربعة وثمانين دينارا وللحصر المضفورة مائة وثمانية دنانير ، واثنى عشر دينارا ثمن البخور الذى يستخدم خلال شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وسبعة دنانير ثمن نصف قنطار شمع ومائتى مكنسة لكنس الجامع وسبعة وثلاثين دينارا ونصف دينار لزيت الوقود ولكل مؤذن ديناران في الشهر ، ومن مرتبات الجراية التى وقفها الأمير محمد أبو سلطان ثلاثمائة وعشرون رغيفا كل يوم يصرف منها لمائة واثنين من الطلبة لكل طالب رغيفان ويصرف لستة وعشرين من المدرسين لكل واحد ثلاثة أرغفة وللناظر الحسبى وهو شيخ الجامع كل يوم عشرون رغيفا ولشيخ الرواق سبعة أرغفة . وأشهر أروقة الأزهر : « الحرمان ، والشوام والسليمانية والمغاربة والأتراك والسنارية والجبرتيه واليمنية والأكراد والهنود والبغدادية والبحيرة والفيومية والحنفية والغشنية والبرابرة والشرقاوية والحنابلة » .

وتشكلت مكتبة الأزهر التاريخية والتى تحوى آلاف المجلدات القيمة في الشريعة والتفسير وعلوم اللغة العربية عندما أمر الحاكم بأمر الله بنقل نصف كتب دار الحكمة إلى الأزهر وعددها يناهز الآلاف فقد ذكر المقريزى أن عدد كتب دار الحكمة بلغ مليونا وستمائة ألف كتاب .

وقد كان الأزهر مزارا وملاذا علميا للعديد من فقهاء وعلماء المسلمين الذى شدوا رحالهم إلى رحابه للتزود من مناهله ومن بينهم الحسن بن الهيثم ويعده الباحثون مؤسسا لعلم البصريات وقد أقام داخل قبة على باب الأزهر . والمؤرخ مؤسس علم الاجتماع « ابن خلدون » الذى نزح إلى مصر عام ٧٨٤ هـ واختلط بعلماء الأزهر ومارس التدريس فيه

● أربعة وثمانون دينارًا للحُصُر المضفورة واثنا عشر للبخور ونصف لقنطار شمع
● أبو العلاء الجديد ضاق به شيوخه لكثرة ما يُلقي عليهم من أسئلة

والطبيب «ابن النفيس» مؤسس علم التشريح ووظائف الأعضاء.

قلعة لصد المعتدين

وللأزهر صفحاته المشرقة الخالدة فى التصدى للظلم وتحقيق حـــرية الإنسان التى كفلهـا الإسلام ومحاربة كل معتد يعمد إلى غزو الأرض الإسلامية فمن ساحته انتقلت الدعوى إلى صد التتار فى عين جالوت بقيادة السلطان قطز من أجل أن تبقى راية الإسلام سامقة شامخة فى الأعالى وعلى منبره أيضا نودى على المسلمين كى يسهموا فى الجهاد لدحر جيوش الملك الصليبى لويس التاسع الذى جاء يغزو مصر باسم الصليب فدحرته جيوش الاسلام ووقع أسيرا فى قبضتها.

.. وفى داخل الأزهر أيضا انطلقت شرارة الجهاد ضد غزوة الفرنسيس لمصر كما سجل الجبرتى فى كتابه والذى جاء فيه ما يؤكد تأصيل دور الأزهر في الكفاح المسلح ضد الغزاة إنه يقول فى الجزء الثالث منه ما يلى:

«لما ظهرت غلبة الفرنساويين فى القرن الثالث عشر الهجرى على مصر وملكوا قلاعها أرسل كبيرهم إلى مشايخ الأزهر مراسله فلم يجيبوه فعند ذلك ضربوا بالمدافع على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والبنادق وعلى ما جاوره من الأماكن كالغورية والفحامين فضج أهل تلك الجهة ونادوا «ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف».

وفى مارس عام ١٨٠٠ م كانت ثورة مصر الأولى التى إندلعت من داخل الأزهر وما أثبتته للغزاة الفرنسيين من تعذر استقرارهم فى مصر ومن قبلها ثورة أكتوبر عام ١٧٩٨ التى كتب عنها المركيز «دى لاجونكيير» وهو من الضباط الفرنسيين القلائل الذين عادوا سالمين إلى ديارهم بعد الغزو الفرنسى لمصر «كانت الدعوة إلى الثورة تختلط جهارا بآذان المؤذنين وكان الجامع الأزهر مقر قيادتها وأخذ علماء الأزهر يبثون الدعوة إلى الثورة بواسطة شيوخ المساجد يحثون عليها فى عظاتهم وخطبهم وبواسطة المؤذنين يدعون إليها خمس مرات فى اليوم مع كل صلاة.. ويضيف المؤرخ الانجليزى لحملة نابليون على مصر «كريستوفر هيرولد» كان الأزهريون هم قادة الوطنية والفداء وتزعم الثورة يوم نشوبها عالم أزهرى شاب هو الشيخ بدر المقدسى فقد نزل إلى الشارع وخطب فى جمع غفير من الناس داعيا كل مؤمن بالله أن يذهب إلى الجامع الأزهر (لأن اليوم يوم غزو المؤمنين للكافرين) وتكاثر المعممون كما يقول الجبرتى يخطبون الجماهير، وتطايرت أنباء الثورة وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى بالقاهرة وظهرت الأسلحة والرماح والأسهم فى الأيدى مع الحجارة والعصى والفئوس وما إليها وتجمع فى الأزهر عدد قدر بأربعين ألفا من الثائرين وبلغت أنباء التجمهر فى الأزهر إلى الجنرال الفرنسى تيبوى حاكم القاهرة فركب الخيل وحاول إجتياز المتاريس وهنا برز له أحد الثائرين وطعنه برمح فأرداه قتيلا.. ويسجل الجبرتى ما حدث للأزهر فى أعقاب هذه الثورة فيقول: «دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومروا فى الأزقة والشوارع كأنهم الشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا فى صحنه ومقصورته وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة المجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والوداع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم داسوها وأحدثوا فيها وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوا بصحنه ونواحيه، وتحزبت نصارى الأروام واغتنموا الفرصة فى المسلمين وأظهروا ما فى قلوبهم كمين وكأنهم شاركوا الافرنج فى النوائب!!

ويظل الأزهر القلعة التى ينطلق منها الثوار ضد الظلم والجور والاستعباد فعندما يحتل الانجليز مصر ولا يجد أهلها طريقا للخلاص غير ثورة مارس عام ١٩١٩ تنطلق شرارتها الأولى من الجامع الأزهر.. يقول الاستعمارى الانجليزى جنرال اللنبى فى وثيقة سرية يرسلها إلى وزير خارجية انجلترا فى ٤ إبريل عام ١٩١٩ مايلى:

«إن الحركة الوطنية التى كانت فى بادىء الأمر حركة سياسية بحتة بدأت الآن تتخذ طابعا دينيا وجامع الأزهر هو مركز الاضطرابات الدينية حيث تلقى فيه الخطب المثيرة والنارية ليل نهار وبالنظر إلى الطبيعة المقدسة للجامع الأزهر والمعترف بها فى كافة أنحاء العالم الإسلامى فإن من غير الممكن كبح جماح من يرتادونه بالقوة. وهناك من الشواهد ما يشير إلى أن الحركة بدأت تؤثر فى سوريا وفلسطين بالإضافة إلى تأثيرها فى مصر والخطر خطر حقيقى وجاد جدا وقد استطعت أن أقمع بقوة السلاح معظم المظاهرات ولكن أسباب القلق لا تزال على ما كانت عليه من قوة».

وفى يوم ١٣ من مارس ظهر الأزهريون فى قيادة مظاهرة المسجد الحسينى بعد صلاة الجمعة وكان طلبة الأزهر هم أول من تعرضوا لرصاص الإنجليز وسقط من بين صفوفهم أول الشهداء.

رواد الثورة الفكرية

وقد استطاع الأزهر خلال تاريخه الطويل أن ينجب للعالم العربى والاسلامى روادا تقدموا صفوف الجماهير في انتفاضاتها ضد القهر والتسلط والغزو الاستعمارى ومصلحين قادوا حركة الفكر والتجديد وكان لهؤلاء الرواد تأثيرهم على حركات التحرير داخل البلاد الاسلامية والعربية ومن بين هؤلاء عمر مكرم الذى التحق بالأزهر وأنهى دراسته فيه ثم تقلد منصب نقيب الأشراف ورفض أن يكون عونا للاحتلال الانجليزى لأنه كان مسلما فى عقيدته أزهريا فى ثقافته. وحين تعرضت مصر لغزو الحملة البريطانية عام ١٨٠٧ م قام عمر مكرم بإستنفار الشعب وأمر بإيقاف الدراسة بالأزهر حتى ينصرف علماؤه ومجاوروه إلى صد العدوان وأخفق العدوان البريطاني وعادت فلول الحملة تجر أذيال الخيبة، ومن أبناء الأزهر الذين حاربوا الجمود وتنبهوا إلى ضرورة التجديد وتخليص الفكر الاسلامى من سذاجة العصور المظلمة وخرافاتها وإحياء وتطوير العقلانية الإسلامية الشيخ رفاعه الطهطاوى الذى ولد عام ١٢١٦ هـ فى طهطا بصعيد مصر وتخرج فى الأزهر، واشتغل بالتدريس فيه ثم سافر إلى فرنسا ليؤم طلاب البعثة العلمية فى أمور الدين فتعلم الفرنسية ورصد ما شاهده هناك من نهضة علمية ولما عاد جاهد من أجل تطوير الأزهر الذى كان يقصر اجتهاده على علوم الشريعة ويخاصم بقية علوم الحضارة.. قال الطهطاوى: «لاتتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس فإسم العلماء يطلق على من له معرفة بالعلوم العقلية وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها وأن الأزهر وجامع بنى أميه بالشام وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس كلها زاخرة بالعلوم النقلية أما علوم المقاصد والغايات فيجب تعلمها لأنها إسلامية الاصل».

ويجيء بعد الطهطاوى من رواد التجديد الفكرى فى الأزهر الإمام محمد عبده الذى واصل الدعوة لتحرير العقل الاسلامى من أجل النهوض بالأمة وبناء مستقبلها..

ولا ننسى فى مقام التعرض لرواد الاصلاح الدينى والسياسى من رجالات الأزهر الزعيم أحمد عرابى الذى تثقف بالعلوم الأزهرية وحارب التدخل الأجنبى فى بلاده والزعيم سعد زغلول

الأزهر..

أول جامعات الدنيا.. وألف سنة من الأحداث والرجال



فناء الأزهر الفسيح الذى إنطلقت من داخله شرارة الجهاد ضد غزوة الفرنسيين لمصر



باعة الكتب الثقافية ينتشرون بجوار الأزهر الذى استطاع خلال تاريخه الطويل أن ينجب أهم العلماء فى العالم العربى والاسلامى

الذى تلقى ثقافته الأزهرية وهو شاب وناضل من أجل الحرية والقضاء على الاستعمار...

وهناك قصة طريفة لأول عالم أزهرى دعاه قيصر روسيا ليقوم بتعليم العربية وآدابها فى القسم التعليمى التابع لوزارة الخارجية الروسية كما عمل استاذا لتاريخ الشرق بجامعة موسكو وهو الشيخ محمد عياد طنطاوى وكان ممن يمثلون الحركة الفكرية الجديدة فى الأزهر.. وقد تعلم الشيخ طنطاوى اللغة الروسية وسافر إلى روسيا عام ١٨٤٠ فكان انتقاله حدثا خطيرا فى تاريخ الأزهر وقد وضع المستشرق الروسى «أغناطيوس كراتشوفسكى» كتابا عن حياة الشيخ محمد عياد ويقول فيه :

«كان قدوم الطنطاوى إلى روسيا حدثا كبيرا ليس فى حياته فقط بل وفى الاستشراق الروسى أيضا» وكتب العالم الأثرى الروسى «سافيليف» رسالة إلى احد أصدقائه يصور فيها أثر زيارة الشيخ طنطاوى لروسيا فيقول «أنت تسألنى عن هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى وعمامة بيضاء وله لحية سوداء كجناح الغراب وعلى وجهه سمة الذكاء.. لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع «نفسكى» فلفت نظرى ونظر زائرى هذا الشارع.

ومما يدل على روح التجديد عند الشيخ الطنطاوى إنه فى طريقه إلى روسيا عرج على إيطاليا ولم يتردد وهو الشيخ المعمم أن يزور دار الأوبرا مرتين ليشاهد فى المرة الأولى رواية السلطان محمد وفى المرة الثانية رواية المحبين ويذكر الطنطاوى إنه لم يكن هناك بين المشاهدين معمم سواه.. ولولا الأزهر ما كان لنا أبو العلاء الجديد.. الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى المعاصر.. الصبى الضرير الذى اجتاز أبواب الأزهر ليغترف من علومه ما يسد نهم معرفته التى لا تشبع ويصور الدكتور طه حسين حياته إبان التحاقه بالازهر فى درته الرائعة «الايام» وكيف كان يلح على شيوخه بالأسئلة والاستفسارات حتى يضجوا من جرأته ويأمرونه بمغادرة حلقة الدرس.. يقول الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام وهو يسرد قصة الصبى الأزهرى الكفيف طه حسين : وقد سمع الصبى درس النحو ففهمه من غير جهد وطال عليه إلحاح الشيخ من الإعادة والتفسير ثم إنفض الدرس وتفرق الطلاب وظل الصبى فى مكانه حتى يعود أخوه فيجذبه في غير كلام وفى غير رفق ويمضى به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يقطع به الطريق التى قطعها به فى الصباح والضحى، وحتى يلقيه فى مكانه من الغرفه على ذلك البساط القديم قد بسط على حصير بال عتيق ومنذ ذلك الوقت يتهيأ الصبى لاستقبال حظه من العذاب»... ولا ننسى عندما نتحدث عن الأزهر أن نذكر دوره فى تجديد حركة الشعر العربى وتبنى البعض من أبنائه للمدارس الشعريه الحديثة وكيف تخرج فيه أيضا رواد فى الغناء العربى ومن بينهم الشيخ عبده الحامولى والشيخ سلامه حجازى والشيخ زكريا أحمد والشيخ محمد القصبجى والشيخ سيد درويش وإن كان لم يدخل الأزهر ولكنه تعلم فى الكتاتيب التى كانت تتولى إعداد التلاميذ للإلتحاق به..

إن الأزهر بحق هو الدرة المتوهجة بالمعرفة والضياء على جبين العالم الإسلامى وتاريخه العريق يسجل أمجاد أمة مازالت بدينها الحنيف صامدة قوية لأنها إتخذت من الإسلام درعا وعقيدة..

فاروق أباظة

دور الأمم المتحدة في تسوية المنازعات بالطرق السلمية

بقلم : الدكتور محيي الدين علي عشماوي

شهدت ولا تزال الساحة الدولية بصفة عامة والساحة الخليجية بصفة خاصة نشاطاً بارزاً للأمم المتحدة من أجل السعي لحل النزاع المسلح العراقي ــ الايراني بالطرق الودية وذلك من أجل انهاء هذه الحرب المدمرة التى لن يكون فيها منتصر أو مهزوم ، بل ستعود بالوبال الخطير على شعبى البلدين ومواردهما وامكانياتهما الاقتصادية والبشرية والاجتماعية والحضارية ، بل وستمتد آثارها إلى أبعد من حاضر ومستقبل البلدين المتحاربين لتشمل حاضر ومستقبل ، وكفاح ونضال ، وأمن وسلامة واستقرار ، الأمة العربية والاسلامية .

وإذا كان نشاط الأمم المتحدة ــ منذ قيام هذه الحرب ــ قد بدا أقل مما يجب أن يكون عليه ، واعتبرت الأمم المتحدة عاجزة عن القيام بدورها بشكل فعال فى التدخل لتسوية هذا النزاع بموجب اختصاصها الأصيل فى حفظ السلم والأمن الدولى والذى يهدده اشتعال هذه الحرب واستمرارها فى هذه المنطقة الاستراتيجية التى تقع فى محور الالتقاء بين الشرق والغرب وبين الكتلتين المتصارعتين على تثبيت نفوذها وفرض سيطرتها وهيمنتهما على دول المنطقة تحقيقاً لصالحها الاستراتيجية العليا فى زمن السلم وزمن الحرب على حد سواء ، إلا أن الفترة الماضية قد شهدت تحركاً ايجابياً وفعالاً من جانب الأمم المتحدة . وقد تمثل هذا التحرك فى مبادرة السكرتير العام للأمم المتحدة بزيارة المنطقة وزيارة طهران وبغداد والالتقاء بزعماء وقادة البلدين والاستماع منهما ــ على الطبيعة وفى مواقع النزاع ــ للآراء ووجهات النظر المتباينة والخاصة بإمكانية ايقاف اطلاق النار وعقد هدنة مؤقتة وايقاف الهجوم على المدن والأهداف المدنية والبحرية والجوية ، وتمهيداً لتهدئة الجو ، والسعى لايجاد تسوية سلمية لهذا النزاع بالطرق الودية .

وإذا كانت الأنباء ــ وقتها ــ قد طالعتنا بما صرح به السكرتير العام للأمم المتحدة بعد زيارته هذه ، بأنه قد وجد أن الفجوة كبيرة بين آراء ووجهات نظر الطرفين ، وأنه مع ذلك على استعداد للعودة لمباشرة مهمته سعياً لايجاد تسوية فى اطار الأمم المتحدة ، وبذلك يكون الباب مازال مفتوحاً لقيام السكرتير العام وأجهزة الأمم المتحدة بما فيها الجمعية العامة ومجلس الأمن بعمل جاد ومخلص وسريع لمحاولة ايقاف القتال وايجاد الوسائل اللازمة لحل هذا النزاع بالطرق الودية .

وهذا يدعونا أن تلقى نظرة على دور الأمم المتحدة فى تسوية المنازعات الدولية المسلحة بالطرق الودية ، وعلى الامكانيات المتاحة والاختصاصات التى تتمتع بها الأمم المتحدة فى مجال تسوية المنازعات المسلحة من أجل حفظ السلم والأمن الدولى ، وذلك من واقع ميثاق هذه المنظمة العالمية التى قامت فى اعقاب الحرب العالمية الثانية التى دمرت ما دمرت ، وأفنت ما أفنت ، وقاست منها البشرية ويلات كثيرة ، فجاءت هذه المنظمة لتنقذ العالم من الحروب القادمة ولتبنى السلام والرخاء والرفاهية لكافة سكان المعمورة بلا تمييز .

فنجد أولا . وفى ديباجة ميثاق الأمم المتحدة ، النص التالى :

« نحن شعوب الأمم المتحدة .

وقد آلينا على أنفسنا :

أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى فى خلال جيل واحد جلبت على الانسانية مرتين أحزاناً يعجز عنها الوصف .

وأن نؤكد من جديد ايماننا بالحقوق الاساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية .

ونبين الأحوال التى يمكن فى ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولى .

وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدماً ، وأن نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .

وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا :

أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معاً فى سلام وحسن جوار .

وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدولى .

وأن نكفل بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ألا تستخدم القوات المسلحة فى غير

دور الأمم المتحدة في تسوية المنازعات بالطرق السلمية

المصلحة المشتركة .

وأن نستخدم الأداة الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها » .

ثم نجد ثانياً أن ميثاق الأمم المتحدة قد حدد مقاصد الهيئة والتى قامت لتحقيقها ، فجعل مقصدها الأول وغايتها الأسمى – وذلك طبقاً لنص المادة الأولى الفقرة الأولى من الميثاق – هو حفظ السلم والأمن الدولى ، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم ولازالتها ، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم ، وتتذرع بالوسائل السلمية ، وفقاً لمبادىء العدل والقانون الدولى ، لحل المنازعات الدولية التى قد تؤدى إلى الاخلال بالسلم أو لتسويتها .

وبالمثل نجد أن المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة قد حددت المبادىء الخاصة بتسوية المنازعات المسلحة بالطرق الودية حفظاً للسلم والأمن الدولى حيث نصت على ما يلى :

« يفض جميع أعضاء الهيئة منازعاتهم الدولية بالوسائل السلمية على وجه لا يجعل السلم والأمن والعدل الدولى عرضة « للخطر » .

« يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً فى علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة » .

« يقدم جميع الأعضاء كل ما فى وسعهم من عون إلى (الأمم المتحدة) فى أى عمل تتخذه وفق هذا الميثاق ، كما يمتنعون عن مساعدة أية دولة تتخذ الأمم المتحدة إزاءها عملا من أعمال المنع أو القمع » .

« تعمل الهيئة على أن تسير الدول غير الأعضاء فيها على هذه المبادىء بقدر ما تقتضيه ضرورة حفظ السلم والأمن الدولى » .

وعن تعريف وتحديد الطرق الودية والوسائل السلمية التى يتم عن طريقها وبواسطتها حل المنازعات الدولية ، نشير إلى ما أوردته المادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة والتى تنص على ما يلى :

« يجب على أطراف أى نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدولى للخطر أن يلتمسوا حله بادىء ذى بدء بطريق المفاوضة ، والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، أو أن يلجأوا إلى الوكالات والتنظيمات الاقليمية ، أو غيرها من الوسائل السلمية التى يقع عليها اختيارهم » .

ومن هذا النص يتضح لنا أن هناك عدة طرق وعدة وسائل سلمية لحل المنازعات الدولية ، نوجز فى مايلى شرحاً لكل منها :

أولا : حل المنازعات عن طريق المفاوضة

والمفاوضة هى إحدى الطرق السلمية التى يلجأ إليها لحل المنازعات الدولية ، وتتم المفاوضة عن طريق تبادل الآراء بين الأطراف المتنازعة لمحاولة تقريب وجهات النظر بين هذه الأطراف بقصد الوصول إلى تسوية للنزاع القائم بينهم .

وتتم المفاوضة عادة بالطريق الدبلوماسي وعن طريق المبعوثين الدبلوماسيين التابعين لأطراف النزاع ، ويتم التفاوض إما شفاهة أو بواسطة مذكرات مكتوبة يتبادلها الطرفان أو ممثلوهما عند إجراء المفاوضات وعن طريق ذلك يتعرف كل طرف على رأى الطرف الآخر فى حل هذا النزاع ، وتظل المفاوضات جارية حتى يصل الطرفان إلى حل وسط يرضى به كل منهما كاتفاق ودى لحل النزاع القائم بينهما .

وقد تتم المفاوضة بطريق مباشر بين أطراف النزاع أو عن طريق مؤتمر دولى يضم الأطراف المتنازعة والأطراف المتصلة بهذا النزاع وذات المصلحة الخاصة لتسويته .

وغالباً ما تشارك الأمم المتحدة بممثل عنها فى مثل هذا المؤتمر وتشارك فى هذه المفاوضات لضمان وجود طرف حيادى لا مصلحة له فى النزاع وهو فى نفس الوقت حريص على فض النزاع بالطريق الودى حفاظاً على السلم والأمن الدولى وتحقيقاً لهذا المقصد الهام من مقاصد الأمم المتحدة .

ويعتمد أسلوب المفاوضة على حسن نية الأطراف ورغبتهم الأكيدة فى حل النزاع القائم بينهم ، فإذا صدقت النية نجحت هذه المفاوضات وتوصلت الأطراف إلى تسوية سلمية تنهى النزاع وتحقق مصلحة الأطراف .

وقد يشتمل أسلوب المفاوضة على إجراء تحقيق عن أسباب النزاع وموضوعه والمتسبب فيه وجميع عناصره ومكوناته ، وقد يتم هذا التحقيق بواسطة لجان فنية متخصصة فى موضوع النزاع تقوم بالبحث والتحقيق والاستدلال والوصول إلى الأدلة والبراهين واقتراح الحلول المناسبة لحل النزاع ، ولعل أبرز مثل لذلك هو نزاع الحدود بين دولتين متجاورتين والنزاع على أراض ومناطق تدعى كل دولة حق السيادة والتملك والسيطرة والاستقلال عليها ، فى هذه الحالة تشكل لجنة حدود فنية تضم أعضاء فنيين متخصصين من فنيين وسياسيين وعسكريين وغيرهم ، وتكون هذه اللجنة مشتركة من الجانبين المتنازعين ، وتضع تقريرها وإفادتها ، للعرض على المتفاوضين الرئيسيين ، للاسترشاد والتعرف على الحلول المناسبة لحل النزاع القائم .

وقد تتولى الأمم المتحدة تقديم خدماتها الودية للأطراف المتنازعة بالاتصال بهم ودعوتهم لإجراء المفاوضات واتخاذها طريقاً سلمياً لحل المنازعات القائمة بينهما . كما قد تقوم دولة معينة لها علاقات صداقة مع طرفى النزاع بالاتصال بطرفى النزاع وعرض تقديم خدماتها الودية لهما بالتقريب بينهما ودعوتهما للدخول فى مفاوضات دون اشتراكها فى هذه المفاوضات ، والتى تتم مباشرة بين ممثلى طرفى النزاع بغرض التوصل إلى تسوية سلمية لحل النزاع وانهائه دون تدخل طرف ثالث من غير أطراف النزاع .

ثانياً : حل المنازعات عن طريق الوساطة

تعنى الوساطة قيام دولة ليست طرفاً فى النزاع بعرض وساطتها على الأطراف المتنازعة والاشتراك فى المفاوضات التى قد تجرى بينهم لتسوية أوجه الخلاف القائم بين هذه الأطراف بطريق ودى .

وغالباً ما تساهم الدولة الوسيطة فى البحث عن الحلول التى تؤدى إلى تسوية النزاع القائم تسوية سلمية ، وتعرض هذه الحلول على الأطراف المتنازعة وتحاول التوفيق بين وجهات النظر المختلفة والآراء المتباينة لأطراف النزاع .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن تنجح الدولة الوسيطة فى وساطتها إلا إذا كانت هذه الوساطة مقبولة من أطراف النزاع ، ولذلك فغالباً ما تكون الدولة الوسيطة على صداقة وعلاقات طيبة مع كل طرف من أطراف النزاع ، ويكون لها من الثقل السياسى والتقدير الدولى ما يؤهلها للقيام بمثل هذه الوساطة والتوفيق بين أطراف النزاع للوصول إلى حل نهائى لتسوية النزاع القائم بينهم بالطريق الودى .

وقد عرف نظام الوساطة كطريق ودى لحل المنازعات الدولية منذ أن وضعت إتفاقية لاهاى عام ١٩٠٧ وهى الإتفاقية الخاصة بتسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية ، كما عرف هذا النظام فى عهد عصبة الأمم ، كما شمله أيضاً ميثاق الأمم المتحدة .

ثالثاً : حل المنازعات عن طريق التوفيق

يعتبر التوفيق طريقاً من الطرق الودية التى يلجأ إليها المتنازعون لتسوية النزاع القائم بينهم تسوية سلمية ، ففى الحالات التى لا تستطيع فيها المفاوضات أو الوساطة التوصل إلى حل مقبول من أطراف النزاع يؤدى إلى انهائه ، فان الدول المتنازعة قد تلجأ إلى أسلوب التوفيق وذلك عن طريق انشاء لجنة تسمى لجنة التوفيق وتشبه فى مهمتها هيئة التحكيم ، وتعد طريقاً وسطاً بين الوساطة والتحكيم .

وتتكون لجنة التوفيق من خمسة أعضاء ، يعين كل طرف واحداً من أعضائها ، ويعين الثلاثة

الآخرون باتفاق الطرفين ويتم اختيارهم من رعايا دولة ليست طرفاً فى النزاع . وتقوم اللجنة بمهمتها بموافقة طرفى النزاع وتحاول التوصل إلى حل يرضي أطراف النزاع ويسوى النزاع بينهم تسوية سلمية وقد ورد بيان الأحكام الخاصة بأسلوب التوفيق كطريق ودى لحل النزاع منذ أن وضع ميثاق جنيف العام سنة ١٩٢٨ فى عهد عصبة الأمم . كما ورد النص على التوفيق فى ميثاق الأمم المتحدة ضمن الطرق الودية لحل المنازعات الدولية .

رابعاً : حل المنازعات عن طريق التحكيم

والتحكيم هو أحد الطرق الودية التى تلجأ إليه الدول لتسوية المنازعات التى تنشأ بينها . ويكون عرض النزاع على التحكيم بناء على اتفاق الأطراف المتنازعة . ويتم التحكم عن طريق لجنة تحكيم خاصة تختارها الدول المتنازعة أو عن طريق محكمة التحكيم الدولى الدائمة فى لاهاى . وقرار التحكيم ملزم لأطراف النزاع وعليها تنفيذه وذلك استناداً إلى قبولها المسبق لعرض النزاع على التحكيم وهذا هو ما يميز طريق التحكيم عن طريق الوساطة والتوفيق غير الملزم للدول المتنازعة إلا بقبولها له .

خامساً : حل المنازعات عن طريق التسوية القضائية

يقصد بالتسوية القضائية قيام الدول المتنازعة بعرض النزاع على القضاء الدولى والمتمثل فى محكمة العدل الدولية والتى تعرض عليها المنازعات القانونية وفقاً لأحكام النظام الأساسى لهذه المحكمة .

ومحكمة العدل الدولية هى الأداة القضائية الرئيسية لهيئة الأمم المتحدة ، وأعضاء المحكمة تنتخبهم الجمعية العامة ومجلس الأمن ، ومقرها مدينة لاهاى ، وتفصل المحكمة فى المنازعات التى ترفع إليها وفقاً لأحكام القانون الدولى .

سادساً : حل النزاع عن طريق المنظمات الدولية أو الاقليمية

إذا لم تنجح الطرق الودية السابق الاشارة إليها ، فإن أطراف النزاع قد تلجأ إلى الأمم المتحدة أو المنظمات الاقليمية لحل النزاع القائم بينها .

وقد نص ميثاق الأمم المتحدة على حق هذه المنظمة الدولية فى حل النزاع الدولى الذى يعرض السلم والأمن الدولى للخطر وذلك بالطرق الودية التى نص عليها الميثاق .

فقد بين الفصل السادس من الميثاق والخاص بحل المنازعات حلا سلمياً الطرق الودية الخاصة بحل المنازعات الدولية ، وحق مجلس الأمن فى أن يدعو أطراف النزاع إلى أن يسووا ما بينهم من النزاع بتلك الطرق .

كما نصت المادة الرابعة والثلاثون من الميثاق على أن لمجلس الأمن أن يفحص أى نزاع أو أى موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعاً لكي يقرر ما إذاكان استمرار هذا النزاع أو الموقف من شأنه أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولى .

كما تنص المادة الخامسة والثلاثون على أن لكل عضو من الأمم المتحدة أن ينبه مجلس الأمن أو الجمعية العامة إلى أى نزاع أو موقف من النوع المشار إليه فى المادة الرابعة والثلاثين .

وطبقاً لنص المادة السادسة والثلاثين فإن لمجلس الأمن الحق فى أية مرحلة من مراحل النزاع أن يوصي بما يراه ملائماً من الإجراءات وطرق التسوية .

وأيضاً ــ وطبقاً لنص المادة الثامنة والثلاثين ــ فإن لمجلس الأمن ــ إذا طلب إليه جميع المتنازعين ذلك ــ أن يقدم إليهم توصياته بقصد حل النزاع حلاً سلمياً

المفـــاوضــات
الوســـاطـــة
التـــحكيـــم
التسوية القضائية
المنظمات الدوليـة
المنظمات الإقليمية

هــذه هــى وسـائل الأمم المتحــدة فى تســوية المنـــازعات الدوليـــة

كما حدد ميثاق الأمم المتحدة للأمين العام للأمم المتحدة دوراً فى حل المنازعات الدولية بالطرق الودية ، وفى تدخل الأمم المتحدة فى هذه المنازعات . فالمادة التاسعة والتسعون تنص على أن للأمين العام أن ينبه مجلس الأمن إلى أية مسألة يرى أنها قد تهدد حفظ السلم والأمن الدولى .

كما أن للجمعية العامة ومجلس الأمن الحق فى تكليف الأمين العام للأمم المتحدة بمتابعة تنفيذ القرارات والتوصيات التى تصدر بشأن حل المنازعات الدولية بالطرق الودية ، وكذلك القيام بأعمال الوساطة بين أطراف النزاع بغرض البحث عن تسوية سلمية للنزاعات القائمة والتى تهدد السلم والأمن الدولى ، ودعوة هذه الأطراف لمائدة المفاوضات أو الوساطة أو التحكيم لانهاء النزاع بينها .

جهود الأمين العام للأمـــم المتحـــدة

ومن هذا المنطلق وتنفيذاً لمواد ميثاق الأمم المتحدة الخاصة بتسوية المنازعات الدولية بالطرق الودية ، والسابق الاشارة إليها ، كان تحرك الأمين العام للأمم المتحدة وزيارته للمنطقة ولكل من طهران وبغداد لمحاولة البحث عن الوسائل السلمية الممكنة لحل النزاع بين الدولتين المتحاربتين .

وأيضاً ــ وتنفيذاً للميثاق ــ كان الدور الذى قام به مجلس الأمن لمحاولة حل النزاع العراقى ــ الايرانى منذ بدايته وذلك عن طريق القرارات التى تدعو طرفى النزاع إلى إيقاف إطلاق النار واللجوء إلى حل النزاع بالطرق الودية التى نص عليها الميثاق ، واحترام حرية الملاحة فى مياه الخليج ، وعدم التعرض للأهداف المدنية والبحرية .

وبالرغم من ذلك ، فإنه من المؤكد أن الأمم المتحدة ــ وبصفة خاصة مجلس الأمن ــ يستطيع القيام بدور أكثر فعالية لحل هذا النزاع ، وذلك إذا ما اتفقت الدول الكبرى ذات العضوية الدائمة فى مجلس الأمن على التصدى بجدية وبرغبة أكيدة فى حل هذا النزاع ، وباشرت جهودها المستمرة فى هذا الشأن بحسن نية ، وتنفيذاً لدورها الأصيل والخاص بحفظ السلم والأمن الدولى وحل وإيقاف المنازعات التى قد تهدده وتعصف به .

ومن جانبها تبذل كل من جامعة الدول العربية ومجموعة دول عدم الانحياز والمؤتمر الاسلامى ودول مجلس التعاون لدول الخليج العربية مساعيها الحميدة ووساطتها لحل هذا النزاع بالطرق الودية ، وتدعو طرفى النزاع إلى إيقاف اطلاق النار والسعى لايجاد تسوية سلمية فى ضوء أحكام ميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولى .

محيى الدين علي عشماوى

الأصحاء لا يشربون القهوة :

الكافيين

فيه منافع قليلة.. ولكن ضرره أكبر



بقلم : الدكتور عبدالله الباكر

الإقبال على شرب القهوة والشاى مسألة شائعة الانتشار في العالم ، ولا يكاد منزل على وجه هذه الأرض يخلو منهما ، فهما رمز للعلاقات الاجتماعية والكرم ، وبينما يتمتع الشرق بحب الشاى فإنه يقال إن نصف القهوة العالمى يشربه الامريكان ، أما من ناحية نسبة تناول الأفراد لهما فإن الدول الاسكندنافية تعتبر من أكثر الدول التى تقبل عليهما بصورة ملحوظة .

والقهوة ــ كما نعرف ــ أصلها من البلاد العربية ، ويقال إن منشأها الحبشة واليمن ثم انتقلت إلى بلدان أخرى وكانت معروفة فى البلاد العربية قبل أن تعرف فى أمريكا ، ويروى أن سبب معرفتها أن أحد الرعاة من الجزيرة العربية قد تعرف عليها عندما كانت غنمه تأكلها من شجرة تجعلها منتبهة ونشطة ، وعندما جرب الراعي ذلك النبات بعد عناء اليوم ظل مستيقظاً ونشطاً طوال الليل !

وبعد أن عرفت القهوة وانتقلت إلى مناطق أخرى ، أصبحت فى أوروبا وفى بلدان أخرى رمزاً للقاءات ، وتكونت من أجلها أماكن سميت مقاهى ، ويقال إن أول مقهى أفتتح فى مدينة القسطنطينية كان فى عهد السلطان سليمان الثانى ، وانتقلت الفكرة بعد ذلك إلى لندن وباريس وخاصة شارع الشانزليزيه ، وكانت تلك المقاهى ــ ولا يزال بعضها فى الشرق والغرب ــ ملتقى للأدباء والفلاسفة والسياسيين والعلماء ، حتى أنه قد اطلق عليها سابقاً « مدارس العلماء » .

وظلت القهوة تحتل الصدارة فى المشروبات الإجتماعية حتى برزت أخيراً بعض الدراسات العلمية التى تضع المحاذير وعلامات الاستفهام حول الافراط فى شربها .

أين يوجد الكافيين ؟

وإذا ما تساءلنا : هل يوجد الكافيين فى القهوة وحدهــا .. فإن الإجــابة ستكون بالنفى .. لأن الكافيين موجود فى هذه المصادر :

* أولا : مصادر التغذية والتسلية :
  - القهوة والشيكولاته والكاكاو (انظر جدول ١) .
  - المياه الغازية (جدول ٢) .
  - مصادر الطعام الأخرى .

وتعتبر القهوة أهم مصدر للكافيين فى الغرب ، بينما يعد الشاى أهم مصادره فى الشرق .. وكما نعرف فإن العالم كله يشترك فى استهلاك الشيكولاته والكاكاو ، وجميع هذه المواد بها مادة المثيل ذينثين (Mythyle Xanthine) .. فإلى جانب الكافيين فى القهوة ، يوجد الثنوفللين فى الشاى ، ويحتوى الكاكاو على الثيوردمين ، والمادتان بهما خواص مدرة للبول أكثر من



يعتبر تحضير وتقديم القهوة العربية أحد مظاهر الحياة الاجتماعية في بلادنا ، ويتبارى الناس في إقتناء أدوات صنع القهوة التي تكون في الغالب محلاة بالنقوش والزخارف الجمالية

الكافيين ، وهذا إضافة إلى وجود حامض التنيك Tannic Acid في الشاي .

وتحتوى المياه الغازية على نسب مختلفة من الكافيين ، الذى يأتى إما من خلال مستخرج جوز الكولا الذى يعطى ١٠ في المائة من كمية الكافيين فيها ، وإما من إضافة مادة الكافيين إليها ، فهناك مليونا رطل من الكافيين تضاف إلى أنواع المشروبات الغازية سنوياً في أمريكا .

أما المواد الغذائية الأخرى ، فيوجد بها الكافيين كمادة إضافية لإعطائها النكهة ، ومن ضمنها المواد المخبوزة والحلويات والبودنج والجلاتين ، والكمية في هذه المواد ـ بالطبع ـ قليلة .

• ثانياً : الأدوية :

يستعمل الكافيين في كثير من الأدوية ، ويباع بدون إذن صرف في المنبهات أو مسكنات الألم منذ سنين ، اذ أن وجوده يزيد من قوة التسكين ، ويستعمل أيضاً في مانعات الشهية مثل فنيل بروبنولين Phenyl Propanolamine

ما هى القهوة ؟

تنبت القهوة من شجرة دائمة الاخضرار طوال فصول السنة ، وتحتاج هذه الشجرة إلى مناخ حار ذى أمطار استوائية غزيرة ونأخذ منها بذور القهوة التي تحتوى على مادة الكافيين كعنصر مهم وأساسي ، وهو المسئول عن التأثير على أجهزة الجسم ، وبها أيضاً بعض المعادن كالفوسفور والبوتاسيوم والكالسيوم وآثار بسيطة من الفيتامينات .

وأنواع القهوة المزروعة :

١ ـ روبستا Robusta ، وتشكل ثلث القهوة في العالم ، ومصدره غالباً أفريقيا ، وهى أقل جودة من النوع الآخر لأن طعمها لاذع ، لذلك فهى تباع للمستهلك بنصف سعر القهوة الجيدة ، وقد تخلط بعض الأحيان مع النوع الجيد لتباع بسعر رخيص .

٢ ـ Arabica « العربية » وهى أجود الأنواع ، وعلى الرغم أن اسمها عربية الا أنها النوع الذى يزرع في أمريكا اليوم ، وهذا النوع يقسم إلى صنفين حسب الجودة . وتعتبر كولومبيا أحسن مصدر للصنف الجيد ، وتأتي بعدها البرازيل مع أن غالبية ما تنتجه البرازيل هو من الصنف الثاني ، ونسبة الكافيين فيها تعتمد على نوع القهوة فهو بنسبة ١٪ في اربيكا و ٢٪ في روبستا ، وتعتمد أيضاً على طريقة التحضير في الأشكال المختلفة منها .

وأنواع القهوة التى تباع في الأسواق هى :

١ ـ القهوة العادية : الحبوب العادية المحمصة المطحونة وهى تحتوى على ٨٣ ملجم من الكافيين في كل كوب سعة ٦ أونسات ، وكثرة استعمالها لها تأثير كبير .

٢ ـ القهوة المصفاة Instant Coffee :
هذه القهوة أقل تركيزاً للكافيين (٦٠ ملجم من الكافيين في كل كوب ست أونسات) ويتم تحضيرها بطريقة ترشيح القهوة ثم تجفيفها مرة أخرى في شكل مسحوق اما بطريقة الرش أو التجليد ، والطريقة الأخيرة أفضل لأنها تبقى على خصائص وطعم القهوة ، وهى أغلى سعراً ، وتستعمل من قبل كثير من الناس الذين يودون تخفيف نسبة الكافيين في قهوتهم .

٣ ـ القهوة المسحوب منها الكافيين Decaffeinated Coffee : فيها ٣ ملجم من الكافيين فقط ، لكننا ننصح بعدم تناولها لأن المحلول الأساسي الذى يستعمل كمذيب للقهوة يترك ترسبات أثناء عملية التصنيع ، وقد تأكد أن واحداً منها يؤدى إلى السرطان في الحيوانات المخبرية ، لذلك منع استعماله أخيراً ، ومادة هذا المحلول تسمى (Decaffeinated Coffee) واستبدلت بمادة أخرى تسمى ميثيلين كلوريد ، وبالرغم من الادعاء أنها ليست خطرة الا أن الطب ينبه إلى خطورتها ، وحتى يثبت عكس ذلك فهى مادة كيميائية ولابد أن تكون لها آثار قد تظهر في المستقبل .

وهناك نوع من هذه القهوة بدأ تحضيره أخيراً بطريقة التفريغ ولكنه ليس شائع الاستعمال ولا غبار على هذا النوع .

وهناك أنواع أخرى بدائل ، ولا أعتقد أنها ضرورية مادام الانسان قادراً على أن يستعمل القهوة بشكل معقول وبلا افراط .

أما القهوة العربية « الخليجية » ، فإن كمية الكافيين بها قليلة ، بالاضافة إلى وجود الهيل أو « الحبهان » الذى يقوم بدوره كملطف ذى رائحة طيبة ، ويقال إنه يساعد على الهضم ، والجدول رقم « ٣ » يبين دراسة مقارنة من مختبرات وزارة الصحة العامة في دولة قطر .

بدائل القهوة والشاي

هناك أنواع أخرى ليست قهوة في حد ذاتها ولكنها تستعمل بدائل للقهوة والشاي حسب عادات ورغبة أهالي كل بلد ، وقد برز أخيراً في أمريكا وأوربا ما يسمى بالشاي العشبي (Herbal Tea) على مختلف الأشكال ، ولكن جميع الأطباء لما صادفوه من مضاعفات في مرضاهم ينصحون بالابتعاد عنه وعدم تعاطيه ، لأن بعضه يحمل بعض السموم ، فقد وجدوا أن هذه الأعشاب يستخرج منها أكثر من ٥٠٪ من

الأدوية لذلك هي غير مضمونة ، لأن المعيار للكمية الدوائية بها غير مضبوط ، ولذلك يقال بأن الشاي العشبي مادة دوائية وليست غذاء .

ولقد عددت النشرات الطبية المضاعفات الخطرة لهذه الأعشاب وحصرتها في :الاسهال ، الحساسية لدرجة الصدمة ، السرطان ، الجفاف نتيجة لادرار البول ، التسمم ، سموم الجهاز العصبي .

طريقة تحضير وتخزين القهوة

إن طريقة طحن وطهي وتخزين القهوة لها أثر على مذاق ونكهة القهوة ، لذلك تفضل القهوة المطحونة والمحمصة حديثاً ، وإذا ذهبنا أكثر فان آلات الطحن لها ميزات على بعضها البعض أيضاً حسب نشرات المستهلكين في أمريكا ، أما بالنسبة للتحضير فيفضل أن يكون الاناء من الزجاج أو الصيني المطلي المقاوم للحرارة بدلا من النحاس والمعدن اللذين قد يتفاعلان مع المواد الموجودة عند ارتفاع الحرارة ، ويجب أن تطهى القهوة على نار هادئة .. أما التخزين فيجب أن يحفظ البن في أوان زجاجية قاتمة ويوضع في الثلاجة لأن البن يحتوي على مواد وزيوت تتأكسد بتعرضها للأوكسجين .. وهذا الكلام ينطبق على المطحون وغير المطحون .

ماذا يحدث بعد شرب القهوة ؟

أوضحت الدراسات أنه بعد شرب القهوة فان نسبة الكافيين في الدم تصل إلى ذروتها خلال ساعة ، وتقدر بـ ٥,٣ مجم في اللتر لكل كوبين من القهوة .. وتحتاج من ٢ ــ ٣ ساعات حتى تصل بنسبة عالية في اللعاب .. والتخلص من الكافيين يأخذ وقتاً أطول عند المرأة الحامل ، لذا يجب أن تتجنب شرب القهوة حتى لا تؤثر على أعصابها أو أعضائها أو على الجنين . وقد اتضح أن الكافيين أو مخلفاته يظهر في حليب الأم بعد ربع ساعة تقريباً ، ولكن حتى الآن لم تظهر أية دراسات تبين آثار ذلك على الرضيع . كما يظهر ــ كذلك ــ في السائل المنوي .. أما ناتج التمثيل فيخرج على هيئة مخلفات « Dimethyle Xanthine » عن طريق البول .

استعمال الكافيين الدوائي

في السنوات الأخيرة بدأ يتضاءل ذلك التفاؤل الذي صاحب استعمال الكافيين الدوائي ، حيث أثبتت الدراسات أن تأثيره ضئيل .

وقد استخدم في الحالات التالية :

• التلقيح الصناعي : استعمل الكافيين كمقو للحيوانات المنوية الضعيفة لزيادة حركتها واتجاهها إلى الأمام ولزيادة قدرتها على النفاذ خلال المادة المخاطية في عنق الرحم . إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً ، حيث وجد أن تأثيره لفترة قصيرة ، ولم يعد يقوي هذه الحيوانات ، رغم أن الكمية المستعملة كبيرة .

• حالات الاضطرابات العقلية في الأطفال باعطائهم كوبين من القهوة يومياً أو ٣٠٠ ملجم ، ولكن معظم الدراسات فشلت في تأكيد دور الكافيين في هذه الأمراض .

• استعماله في علاج السرطان كمقو لتأثير الأدوية المضادة للسرطان ، وهذا الاستخدام ــ حتى يومنا هذا ــ لم يعرف مداه على الانسان .

• استعمل الكافيين أيضاً في مرض « باركنسون » ولكن نتائجه مشكوك في نجاحها ، وقد كانت الكمية المستعملة كبيرة .

• علاج الأمراض الجلدية : استخدم الكافيين في علاج مجموعة مختلفة من الأمراض الجلدية ، وقد استخدم في شكل « كريم » بنسبة ٣٠٪ من قبل الدكتور « كابلان » ومجموعته ، وهذه النسبة في الحقيقة مرتفعة وهي النسبة ذات الأثر .

الكافيين والصحة

إتضح أن الكافيين له دور في اسراع التمثيل الغذائي ، وقد أكدت مجموعة من الدراسات ــ وخاصة دراسة ميللر ومجموعته ١٩٧٤ ــ بأن أخذ الكافيين بمقدار ٤ مجم لكل كيلوجرام من الجسم يعتبر عاملاً حرارياً يزيد من استعمال السعرات الحرارية وله دور في تخفيف الوزن ، لكن الموقف لم يتضح حتى الآن بالنسبة لدور القهوة المشروبة على المدى البعيد ، وإن كانت الغالبية تنصح في حالة انقاص الوزن بشرب القهوة سادة وبدون سكر .

وقد وجد أن الكافيين في القهوة أو الشاي يرفع من نسبة سكر الجلوكوز في الدم ، فهو يرفع نسبه الأحماض الدهنية في الدم وخاصة في حالات الاستعمال الدائم للقهوة . أما الكولسترول فان الدراسات الأولية قالت إنه يرتفع بنسبة ضئيلة ، ولكن الدراسات الأخيرة التي أجريت في النرويج على مجموعة كبيرة من البشر يستهلكون من ٦ إلى ٩ أكواب قهوة يومياً ، أوضحت أن هذه الكمية تؤدي إلى رفع كمية الكولسترول في الدم بصورة ملحوظة .

الكافيين وجهاز التنفس

اتضح من الدراسات الحديثة بالذات في كندا أن الكافيين يزيد سرعة التنفس بنسبة تشبعه في بلازما الدم ، وأنه أيضاً يزيد التهوية في الحويصلات الهوائية الصغيرة في أمراض انسداد الجهاز التنفسي .

ولقد استعمل الكافيين في علاج ضيق النفس أو اللانفس « Apnea » في الأجنة والأطفال حديثي الولادة وذوي النقص في الوزن ، وكان له دور كبير

الجدول رقم (١)

بعض المشروبات والحلويات	الكمية (حجم أو وزن)	كمية الكافيين بالملجرام
الشاي المغلي	١٨٠سم٣	٤١,٤ ملجرام
الشاي الحاضر	«	٢٩,٣ ملجرام
القهوة المغلية	«	٨٨,٠٠ ملجرام
القهوة الجاهزة	«	٧٠,٧ ملجرام
الكعك بالشيكولاته	٩٢ جم	١٣,٨ ملجرام
الشيكولاته	٢٨ جم	٧,٧ ملجرام
الحلويات المغطاة بالشيكولاتة	٢٨ جم	٢,٨ ملجرام
ايس كريم بالشيكولاتة	٨٩ جم	٤,٥ ملجرام
الحليب بالشيكولاتة	٢٤٠ سم٣	٧,٥ ملجرام
فطاير بالشيكولاتة	١٤٨ جم	٥,٥ ملجرام

في منع حدوث التلف في أدمغتهم ، وللكافيين مستقبل في علاج « ظاهرة موت الأجنة المفاجئ » « SIDS » .

وهناك أيضاً أدلة واضحة على أن الكافيين يوسع القصبات الهوائية ، الأمر الذي له أهمية في حالات مرضى الربو ، حيث وجد أن ثلاثة أكواب من القهوة تحدث أثراً يساوي الأثر الذي يحدثه ٢٠٠ مجم من دواء الثيوفلين ، وعلى الرغم من أهمية الكافيين بالنسبة لمرضى الربو إلا أنه يجب الحذر عند تناوله مع دواء الثيوفلين حيث أن الناتج الغذائي للكافيين هو الثيوفلين ، الأمر الذي قد يؤدي إلى حدوث آثار جانبية في حالة زيادته في الجسم .

علاقة القهوة بالقلب

هناك تناقض في نتائج تأثير الكافيين على القلب ، والسبب هو عدم القدرة على التمييز بين المتعودين على الاستهلاك وغيرهم ، وقد توصلت بعض الدراسات إلى أن الكافيين يقلل ولا يغير سرعة ضربات القلب ، والبعض الآخر وجد أنه يزيد ضربات القلب ، كذلك الأمر بالنسبة للضغط ، أما بالنسبة لعلاقة الكافيين بأمراض القلب كالاحتشاء القلبي أو الضربات البطينية المبكرة VPBS فقد كانت موضع نقاش والتباس ، وبعد الدراسات التي خرجت في أوائل الستينات من (Paul O. Etal 1963)

ومن مجموعة بوسطن في أوائل السبعينات لا يزال أمر تقريرها محيراً ، حيث بينت أن هناك علاقة بين هذه الأمراض وبين الكافيين وبالذات الاحتشاء القلبي ،إلا أن الدراسات الحديثة جميعها وبالذات دراسة برمنجهام الأمريكية ، لم تبين أي علاقة مهمة تذكر بين هذه الأمراض والكافيين ، بل وهذه الدراسات لا تجد عذرا لمنع القهوة النهائي عن مرضى القلب ، وأن بعض الذين تزداد عندهم الضربات البطينية المبكرة يحتاجون إلى أقل من ٩ أكواب قهوة في اليوم ، أما الأشخاص الذين لديهم حساسية للكافيين فهم معرضون إلى اللانظمية Arrythmias

المهم في الأمر أن الاعتدال في شرب القهوة ليس له علاقة بأي من أمراض القلب المذكورة إلا في الأشخاص الحساسين ، ولا يعتبر الكافيين بعد تلك الدراسات له علاقة مباشرة في إحداث أو استمرار تقدم أمراض القلب والشرايين ، ولكن التدخين مع القهوة يدخل في هذه العلاقة ..

القهوة والضغط

ما زالت الدراسات التي جرت حول علاقة القهوة بالضغط متناقضة ، فهناك دراسات بينت أنها تؤدي إلى ارتفاع الضغط ، ودراسات أخرى قالت تؤدي إلى انخفاض الضغط ، وجاءت ثالثة لتقول لا يوجد تغير في الضغط مع تناول الكافيين . ولكن الدراسات الأخيرة وبالذات دراسة « روبرتسون ــ ١٩٨٤ » قالت بأنه لا توجد علاقة بين استمرار شرب القهوة وارتفاع الضغط أو الارتفاع في نسبة مادة (Catetholamide) أو نسبة « الرنين » في الدم في المرضى المصابين بارتفاع طفيف في الضغط ، لذلك لا داعي لمنع مرضى الضغط من تناول المواد التي بها الكافيين وبكمية معتدلة ، بشرط الامتناع عن التدخين والكحول .

الكافيين والجهاز الهضمي

أكثر الأعراض حدوثاً بعد شرب القهوة هو حرقان في فم المعدة ، ومن المحتمل أن يكون ذلك بسبب إثارة القهوة للغشاء المخاطي للمرئ أو بسبب زيادة انتاج الأحماض في المعدة وتأثيرها المثير على المرئ بسبب رجوعها إليه .

وكان الباحثون في السابق يعتقدون أن القهوة لها دور في احداث القرحة أو في تفاعلها ، لذلك كان منع القهوة عن مرضى القرحة إحدى وسائل العلاج ، إلا أن هذه العلاقة حتى إن وجدت ليست مؤكدة علمياً ولا يوجد دليل علمي يؤكد أن منع القهوة سيؤدي إلى علاج القرحة ، لكن الزيادة منها لاشك ترفع من درجة الحموضة ، ودورها يصبح مضاعفاً مع السيجارة التي تأكدعلمياً أنها تؤخر شفاء المرضى بالقرحة أثناء علاجهم .

ولا شك أن القهوة بأنواعها ــ حتى القليلة الكافيين منها تؤدي إلى زيادة في إفراز المعدة وأحماضها .

العيوب الخلقية ونتائج الحمل

في السنوات الأخيرة ظهر القلق في الأوساط الصحية من استعمال المواد التي بها الكافيين في فترة الحمل ، الأمر الذي قد يؤدي إلى تشوهات في الأجنة والتأثير في نتائج الحمل كحدوث الاجهاض والولادة المبكرة أو توفي الجنين أو الولادة بأقل من الوزن المعتاد .

ولقد ظهر هذا في التجارب على الحيوانات المختبرية وفي خمس دراسات أخرى على البشر ، أهمها دراسة « ماو ومجموعته ١٩٧٤ » ودراسة « بورلي ومجموعته ١٩٧٨ » ودراسة « نوربي ومجموعته ١٩٧٩ » .

لكن دراسات ظهرت أخيراً وعلى مجموعات كبيرة لم تؤكد هذه العلاقة بالشكل القاطع ، وأهمها دراسة لين . ودراسة روزنبرج من بوسطن .

ويزداد غموض الموقف عندما نعلم أن الادارة الأمريكية للأغذية والعقاقير FDA اعتبرت الكافيين على أنه من المواد التي تعتبر مأمونة عموماً G.R.A.S. عام ١٩٧٧ ، ثم عادت عام ١٩٨٠ وأصدرت تحذيراً للناس عن احتمال وجود علاقة بين استعمال الكافيين أثناء الحمل والتشوهات ، ونصحت على أساس ذلك الحوامل بتحذير استعمالهن للمواد الحاوية على الكافيين .

أمراض الثدى الحميدة

ربطت بعض الدراسات بين استهلاك المواد التي بها الكافيين وبعض هذه الأورام بالذات في النساء في مرحلة سن اليأس ، وكانت لدراسة « منترن ١٩٨١ من جامعة أوهايو دور كبير في ذلك ، حيث بين في دراسته أن ٨٢٪ من النساء اللاتي امتنعن عن استعمال أي مادة بها الكافيين قد

الجدول رقم (٢)

كمية الكافيين في بعض أنواع الطعام والمشروبات

بعض المرطبات	الكمية (حجم أو وزن)	كمية الكافيين بالملجرام
الكوكاكولا	٣٦٠سم٣	٤٥ ملجرام
دكتور بيبر	»	٣٩,٦ ملجرام
د. بيبر الخالي من السكر	»	٣٩,٦ ملجرام
Mello Yellow	»	٥٢,٥ ملجرام
Mr. Pibb	»	٤٠,٥ ملجرام
بيبسي كولا	»	٣٨,٤ ملجرام
بيبسي كولا ريجيم	»	٣٦ ملجرام
Tab	»	٤٦,٥ ملجرام

الكافيين

فيه منافع قليلة.. ولكن ضرره أكبر

أدى ذلك إلى اختفاء الأورام بهن أما الباقى فقد تحسن وضعهن وقل حجم الورم .

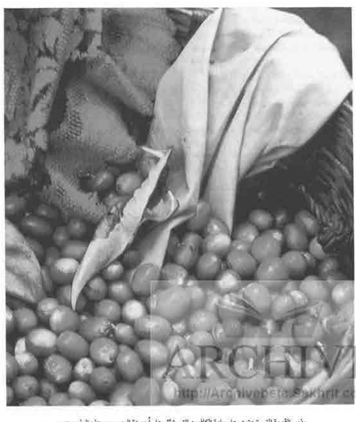
وجاءت بعد ذلك الدراسات بين مؤيدة ومعارضة والأخيرة بالذات لم تثبت بالاشعة أى تغير ذكره منترن .

إلا أن الدراسات حتى الآن قليلة فى هذا المضمار ، وبما أن هذا النوع من المرض وبالذات مرض الكيس الليفى Fibrocystic Disease له أوجه مختلفة ، وهو أحد الأمراض التى تحمل خطر التحول إلى سرطان ، وبما أن بعض النساء لديهن بعض الحساسية فى هذه السن لمادة الكافيين فإنه من الأسلم التقليل منها والامتناع عنها فى حالة حدوث الورم .

الكافيين والسرطان

العلاقة بين السرطان والكافيين علاقة غير واضحة تماماً ، ولا يوجد معيار معين للاعتماد عليه ، ويعتقد البعض أن العلاقة إن وجدت قد تكون بسبب عامل آخر غير الكافيين فى القهوة أو فى البيئة . لكن المحير أن دراسات كثيرة ربطت بين الكافيين والسرطان ، فواحـدة من هذه الدراســات التى اجراها ستوك Stock وهى دراســة وبائية شملت ٢٠ بلداً ربطت بين الشـاي وسرطان الحنجرة والرئة والثـدي لدى النســاء ، وبين القهوة وسرطان البنكرياس والبروســتاتا عند الرجال وسرطان المبيض عند النساء وسرطان الدم عند الجنسين . هذا وأتت دراسات بعد ذلك أيضاً أوائل الثمانينات تبين أن لسرطان البنكرياس علاقة بشرب القهوة حيث وجد (Mac Mahon Etal) أن الذين يشربون كوبين من القهوة فإن عامل الخطورة للإصابة فيهم ١,٨ بينما الذين يشربون ٣ ، ٤ ، ٥ أكواب فى اليوم فإن عامل الخطورة فيهم ٢,١ ، ٢,٨ ، ٣,٢ على التوالي . وهناك أيضاً دراسات عن وجود علاقة بين سرطان المثانة واستهلاك القهوة ، وأن إحدى هذه الدراسات المهمة كانت تدرس دور السجائر والوظيفة على سرطان المثانة ، فوجدت أن القهوة أيضاً لها دور .

وهناك دراسة أخيرة نشرت عام ١٩٨٤ ، وأجريت على ٢٣٩١٢ شخصاً من بين مجموعة دينية منذ عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٨٠ ..



بذور القهوة التى تحتوى على مادة الكافيين التى تؤثر على أجهزة الجسم ، وهذه البذور هى نتاج شجرة دائمة الأخضرار طول السنة ، وتحتاج دائماً لمناخ حار

الجدول رقم (٣)

محتويات القهوة من الكافيين

القهوة القطرية	٦,٦٨ ملجرام	لكل ١٠٠ سم٣
النسكافيه ، حبيبات ،	٤٥١٥,١٥ ملجرام	لكل ١٠٠ سم
النسكافيه الخفيفة الريتكيز	٥٤,١٨ ملجرام	لكل ١٠٠ سم ٣
النسكافيه القوية	١٠٨,٣٧ ملجرام	لكل ١٠٠ سم ٣

مع العلم بأن :
ملعقة صغيرة من حبيبات النسكافيه تزن ١,٨ جم
فنجان القهوة يسع حوالي ١٥٠ سم ٣ من القهوة السائلة .

● الكافيين قد يؤذي القلب ويؤدي إلى ضغط الدم والسكر
● أخطار على الجنين إذا أكثرت الحامل من شرب القهوة

وهم « جماعة اليوم السابع » . والمعروف عنهم أنهم لا يستعملون القهوة ، لكن الذين استعملوها منهم كان خطر الإصابة بسرطان القولون أكثر لديهم ، إلا أن الدراسة لم تبين أى علاقة مع أنواع السرطان الأخرى ..

أمام ذلك كله يمكننا أن نقول إن الدلائل والدراسات الوبائية أوضحت أن هناك نوعاً من العلاقة بين الكافيين وبعض أنواع السرطان ، ولكنها لا تستطيع أن تجزم بوجود علاقة مباشرة بينهما أو الكمية المحددة لحدوث العلاقة ، ورغم ذلك فإننا ندعو إلى الحذر الزائد من استخدام المواد التى تحتوى على الكافيين وخاصة بالنسبة للمدخنين أو الذين يعيشون معهم فى أماكن رديئة التهوية .

الكافيين والكلية

استعمال الكافيين كدواء أو أخذه فى المواد التى تحتوى عليه بكمية كبيرة يؤدي إلى زيادة كمية البول ، الذى يعتقد أنه يتم عن طريق التدخل في عملية امتصاص الماء والصوديوم في الكلية .

الكافيين والجهاز العصبى

للكافيين تأثيرات مختلفة على الجهاز العصبى وهو فِي الأساس المادة الشعبية المنبهة والمنشطة النفسية فى دول الغرب وامريكا ، حيث وجد فى أمريكا الشمالية أن هناك ٩ من ١٠ أشخاص يشربون المشروبات التى تحتويه ، وأن كل ١ من ٤ أشخاص يشربون بين ٤ ــ ٥ أكواب من القهوة أو الشاى أو كليهما .

فالكافيين يرفع القدرة على الحذر واليقظة ويزيد من سرعة الاستجابة بالنسبة للإثارة السمعية والبصرية فى الشخص العادي ، ولكنه عكس ما يقال عنه بين العامة فى أوربا بأنه يعكس الكآبة الناتجة من تأثير الكحول .

ويؤثر الكافيين على النوم فى مختلف مراحله ويؤدى إلى الأرق إذ أن تناول القهوة مثلا قبل الذهاب إلى السرير بـ ٣٠ ــ ٦٠ دقيقة يؤدي إلى الزيادة فى زمن ما قبل النوم ، ويقلل فترة النوم ، ويزيد من فترة النوم الخفيف الأمر الذى يؤكد الاعتقاد الشعبى « بأن الكافيين يؤثر على النوم » ، طبعاً هذا الأمر لا ينطبق على كل الناس وبالذات الذين يتناولونه بكثرة وتطبعوا عليه .

كذلك يؤثر الكفايين بشكل ظاهر على المزاج إذ أن مجموعة من المتطوعين وصفوا احساسهم بالاستعداد الكامل والبعض بالقلق . هذا التأثير أيضاً يعتمد على تغيرات وحساسية الأفراد للكافيين .

كذلك هناك تغير سلوكي مصاحب لاستعمال الكافيين حيث أنه يشبه السيجارة والمواد الأخرى من حيث التعود والاحتمال وظهور علامات السحب التى بالامكان ملاحظتها فى الناس المتعودين على الشاى أو القهوة صباحاً عندما يتأخرون عن شربها إذ يصابون بصداع واضطرابات فى الحركة وقد تكون فى البعض شديدة تؤدى إلى الغثيان .

مما تقدم يتضح أن القهوة أو الشاى بكميات مقبولة تزيد من القدرة الذهنية وتزيد الانتباه وتجعل تواصل الأفكار مستمراً والانفعال الحسي بالحدث سريعاً ودقيقاً . فلقد وجد أنه بعد كوبين من القهوة تزداد مهارة السائق وتزداد سرعة ودقة الطابعين على الآلة الكاتبة .

الكافيين والمرضى النفسانيون

يعتبر الكافيين من المواد المنافسة لعقار الديازبام ، حيث أنه ينافسه على مكان استقباله فى خلايا المخ « المستقبل » فيمنع استقباله وبالتالى تأثيره الدوائى لذلك يجب أن لا يعطى أو يؤخذ الكافيين مع هذه الأدوية . « الفاليوم كمثل معروف لهذه الأدوية » .

ومن بين المرضى النفسانيين في المستشفى يتضح أن الكافيين يؤدى إلى كثرة الاضطرابات ، وحيث تبين ذلك في الفحص بالنسبة للقلق أو الكآبة . أما بالنسبة لمريض انفصام الشخصية فإن حالته تسوء باستعمال المزيد من الكافيين ، أما الحبوب المنومة فإن مفعولها يقل كثيراً إذا أخذ الكافيين معها فلقد بين Forrest Etal أن مفعولها مع الكافيين يساوى مفعول العقار المموه Placebo لذلك ينصح بعدم بدء علاج المصابين بالأرق قبل المعرفة الدقيقة عن تعاملهم مع الكافيين . فى هذا المجال يتحمل الأطباء والمستشفى الذى يعالج فيه هؤلاء المرضى مسئولية تنظيم عملية تناول الكافيين .

التسمم بالكافيين Caffeinism

هذه الظاهرة هي حالة من التسمم الحاد أو المزمن الناتج من تناول جرعات كبيرة من الكافيين « تقريباً أكثر من ٩ أكواب من الشاي أو أكثر من ٧ أكواب من القهوة » . هذه الحالة تبين أن حدوثها أكثر من المتوقع لذلك فإنها كظاهرة مرضية وضعت فى كتاب التشخيص السنوي لجمعية الأطباء النفسانيين الأمريكية ، إن أعراض هذه الظاهرة كثيرة وتختلف نسبة ظهورها بنسبة ارتفاع كمية الكفايين فى بلازما الدم . « ١٠ ــ ٢٠ مجم/لتر فى الأطفال والرضع ، ٣٠/ لتراً فى البالغين » تؤدى إلى ظهور أعراض التسمم والتى تشمل الاستياء ، القلق ، التوتر ، الهياج ، والارتعاش العضلى ، الأرق ، الصداع ، مجموعة من التأثرات الحسية كالطنين فى الأذن ومجموعة من التأثيرات على الأجهزة المختلفة . قد يصل التسمم بالكافيين فى بعض الحالات إلى الوفاة وسجلت حالات انتحار بكميات كبيرة من القهوة تصل إلى (١٠ جم) فى بعض الأحيان .

إن المواد التى تحتوى على الكافيين تدخل فى كل شيء فى حياتنا منذ طفولتنا حتى شيخوختنا ولا يكاد على وجه هذه الأرض يخلو بيت منها لكن استعمالنا لها فاق في كثير من الأحيان وتخطى مكانها كشيء من التسالي الاجتماعية فنحن ربما نتناولها يومياً على شكل ٣ أكواب من الشاى أو القهوة وحبتين من المسكنات للصداع التى بها الكافيين وزجاجة أو علبة من الكولا وقطعة من الشيكولاته وبعض الأحيان كيك بالقهوة .

هذا فى المعدل ولكن بعض الناس بناءً على اعتقادات وممارسات خاطئة يتناولون أكثر من ذلك الأمر الذى أدى إلى قلق السلطات الصحية فى جميع الأقطار فتوجهت لدراسة هذه الظاهرة التعودية « الادمانية » فى المجتمع ووصلت غالبيتها بالمتاح لديها للاعتقاد أن الكافيين مادة كيميائية تؤدى إلى الاعتماد والاحتمال وأعراض سحب المادة ، لذلك يرجى فيها الاعتدال وللذين يعانون من سمومها يرجى الامتناع كلياً !

عبد الله الباكر

في ذكرى احراق المسجد الأقصى



يا قدس..

شعر: محمود الشاهد



القدس في قلبي وفي وجداني ... هي أولٌ والغير حبٌّ ثاني
القلب يُدميه الحنين تولُّهاً ... قد أقلقته مرارة الحرمان
وأهيم في الذكرى وأنّى يكتفي ... قلب المحبّ بصورة وأماني
وتدفّقُ العبرات لا يُغني الفتى ... عن سالف الايام والأزمان
يوم الصبا المفتون في ريعانه ... أكرم بذاك العمر والريحان
يوم الأماني الخضر تجمع شملنا ... في كل زاوية وكل مكان
ونشمّ أنسام الحياة رقيقة ... ممزوجة بنسائم الايمان
من كل ركن قد تعطّر بالتقى ... من حول مسجدها عظيم الشان
القبلة الأولى وثالث مسجد ... للمسلمين قصيّهم والداني
شُدّوا الرحال له وتلك وصيّة ... أوصى الرسول بها لكل زمان

* * *

يا قدس أبواب السماء تفتّحت ... وتطلّعت في لهفةٍ وحنان
والنور يغمر والملائك حُوّمٌ ... يسعون حول العرش دون تواني
سبحان من أسرى بطه عبدِهِ ... في ليلة ضاءت على الأكوان
أسرى به الروح الأمين برحلة ... فيها تجلّت قدرة الديّان
للمسجد الأقصى أهَلَّ بركبه ... من مكّةٍ فتعانق الحرَمان
الله شرّفه وبارك حوله ... في محكم التنزيل في القرآن
من فوق صخرته تسامى للعلى ... طويت مسافات ببضع ثواني
ولجنّةِ المأوى تناهى وارتقى ... يا هوله ما تبصر العينان
فلقد رأى الآيات يعجز وصفها ... ما نالها بشرٌ من الانسان
وهب الإله لنا عظيم صلاتنا ... صلة تشدّ العبد للرحمن

* * *

القدس والذكرى تطوف بخاطري ... وتقلب الأيام والحدثان
والعادل الفاروق يفتح بابها ... بمفاتح الانصاف والإحسان

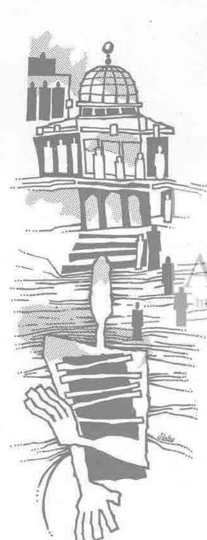
ويخطُّ في سفر الخلود وثيقةً ... كانت لكل الناس عهد أمان
فيحلّ في الأرض السلام وشرعُه ... ويقوم عدل راسخ البنيان
هل سجّل التاريخ في صفحاته ... عهدا يساوي الكلّ في الميزان
لكنما التمزيق ينخر صفنا ... وتُذيقنا البغضاء طعم هوان
وتدوس أقدام الغزاة ترابنا ... وتدين أرض القدس للعدوان
حتى يتيح الله جمع شتاتنا ... ويعود قلب الحبّ للخفقان
يأتي صلاح الدين يصنع وحدةً ... للعرب يبنيها على الايمان
فيدكُّ صرح البغي من أركانه ... ويزيل عهد الظلم والطغيان
في ليلة الإسراء عادت قدسنا ... والمسجد الأقصى وصوت أذان

* * *



يا قدس قد عاد الظلامُ وليلهُ ... أرخى عليك ستوره من ثاني
وجحافل الصهيون تسحق شعبنا ... بالغدر والتشريد والحرمان
في كل ركن من حماك مهانة ... قد دنّسوا بالغصب كلّ مُصان
المسجد الأقصى ومسرى المصطفى ... وكرامة الاسلام والانسان
يا قدس هل نشكو الزمان وَصَرْفه ... وبنا البلاءُ المرُّ كلّ زمان
عَمِيَتْ قلوب القوم فهي كليلة ... ما غرّكم أن تبصر العينان
وتفرّقوا شيعا تُناحر بعضها ... والحرب بينهم بكل عيان
هُنّا على الأعداء رغم جموعنا ... وكأننا زبدٌ جُفاء فاني
ولقد تنامى الحقد في جنباتنا ... ودماؤنا هدرت من الأخوان
إنّا نسينا الله في أفعالنا ... فالله أنسانا هوى الأوطان
لن ترجع الأوطان دون جهادنا ... بالنفس نبدأه مع الأبدان
واذا أراد الله نصر شعوبنا ... نقّى نفوسهم من الأدران
وقضى بوحدتهم وجمع شتاتهم ... ووقوفهم صفّا بوجه الجاني

* * *



يا قدس يا حبّ السماء تحيّة ... من قلب صَبٍّ مُولع ولهان
مبروكة الأرجاء أرقي الجوى ... والبعد عن تلك الربى أضناني
لهفي على تلك الربوع وأهلها ... هُمْ للصمود فرائدٌ ومعاني
هلّا أطلّ الفجر بعد غيابه ... بعد الليالي السود والأشجان
وتعود للشعب المشرّد أرضه ... فكفاه ما لاقى من الأحزان
وكفاه ما سُكبت دماه رخيصة ... يا ليتها بَلّتْ ثرى الأوطان
لابد من رُجعى وإن طال المدى ... أو طال ليل القهر والحرمان
لابد من يومٍ لنا من دهرنا ... فالدهر في شرع القضا يومان
هذا نداء الحق يقرع سمعنا ... ما زال رجع صداه في الآذان
هيّا اعملوا وتكاتفوا وتوحّدوا ... وتعاونوا في السرّ والاعلان
فالله بشّرنا بِعَوْدِ أحْمَدٍ ... في سورة الإسراء في القرآن



يخرج الصلب من خلال عمليات فنية دقيقة هذه هي احداها

كيف دخلت قطر مرحلة تصنيع الحديد والصلب؟

القصة الكاملة لأول مصنع صلب متكامل في منطقة الخليج

تحقيق: السيد حجازي • عدسة: أمين بدوي

كان ذلك منذ سبع سنوات تقريباً ..

واذا شئنا التحديد الدقيق فقد كان اليوم هو السادس والعشرون من ابريل عام ١٩٧٨ ..

في هذا اليوم التاريخي شهدت دولة قطر حدثاً لا يستهان به ..

فقد خرجت الى الوجود صناعة جديدة رائدة على المستوى القطرى ، ودخلت قطر مرحلة من المراحل الصناعية الهامة هى مرحلة تصنيع الحديد والصلب ..

وهى خطوة كانت تعنى ولا تزال أن قطر بدأت تعرف طريق المستقبل الصحيح الذى يكمن فى قوة الصناعة ، والتسلح بأهم أسلحة العصر الحديث ..

فى هذا اليوم المشهود قام حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى بحضور المناسبة التى وضعت البلاد على مشارف الخطوة الجديدة ، وتفضل سموه بقص الشريط ايذاناً بافتتاح شركة قطر للحديد والصلب ..

وبدأت المسيرة المباركة ..



● الإنتاج فاق طاقته التقديرية في أول سنة بعد التشغيل

● المصنع ساهم في التطوير السريع لقطاع الإنشاءات محليًا وخليجيًا

يقف مصنع الحديد والصلب فى قطر شامخاً كدليل على الارادة التى لا تلين

وهى فعلا كذلك بكل المقاييس ..

فمنذ ذلك التاريخ انطلق العمل والانتاج فى هذا المجال الحيوى والهام بخطوات ثابتة ، وواثقة ..

وبعد عامين فقط من التشغيل الكامل أثبتت هذه الشركة أنها من أكثر شركات الحديد والصلب كفاءة فى العالم ..

واستمرت مسيرتها تؤكد هذا المعنى وتثبته ، وأخذ انتاج قطر من الحديد والصلب ينافس فى الأسواق العالمية ، ويعرف بتميزه ، ومواصفاته الخاصة ..

والحكاية .. حكاية الحديد والصلب القطرى ، منذ أن بدأت ، وحتى وصلت الى ما وصلت إليه ، تستحق أن نقلب صفحاتها ، ونستمتع بفصولها التى تعكس الاصرار على التقدم ، والارادة التى تفعل المستحيل ..

وهناك فى الواقع معالم وتواريخ لا تنسى فى حياة هذه الشركة الرائدة ..

ففى مايو ١٩٧٣ بدأ المركز الفنى للتنمية الصناعية فى العمل على اخراج مشروع مصنع الحديد والصلب الى حيز التنفيذ ..

وفى يوليه ١٩٧٤ أبرمت الاتفاقية بانشاء شركة قطر للحديد والصلب المحدودة بين حكومة دولة قطر وكل من شركة كوبى ستيل وطوكيو بوكى اليابانيتين ..

وأخذت الأحداث تتوالى ..

بدأت أعمال الهندسة المدنية بعد ذلك . ثم وصلت الى أم سعيد السفينة الأولى المحملة بالخردة اللازمة لتشغيل المصنع ، واكتملت التركيبات والانشاءات فى معظم أجزاء المصنع ..

وفى ٢٦ ابريل عام ١٩٧٨ أفتتح المصانع رسمياً وبدأ الانتاج التجارى ، ووصلت الى ميناء أم سعيد فى مايو من ذلك العام السفينة الأولى المحملة بخام الحديد . وغادرت الميناء أول بارجة محملة بمنتجات الشركة ..

رقم قياسى

وبدأ تشغيل فرن الاختزال المباشر ..

ثم بدأت المبيعات للسوق المحلية ، وحققت وحدة الأفران الكهربائية مع وحدة الصب المستمر رقماً قياسياً فى الانتاج بلغ مليون طن ..

وسجلت وحدة الدرفلة المليون الأول فى الانتاج ، كما سجل قسم تسليم الانتاج المليون الأول من التسليم ، وفى الوقت نفسه سجل مصنع الاختزال المباشر المليون الأول من الانتاج ..

وتضم الشركة كما يقول المهندس محمد سعيد السحال مدير المركز الفنى للتنمية الصناعية ورئيس مجلس إدارة الحديد والصلب ، أول مصنع صلب متكامل فى منطقة الخليج ..

فهو يشمل كافة مراحل الانتاج اعتباراً من اختزال خام الحديد الى مرحلة الدرفلة النهائية لانتاج قضبان التسليح ..

ويضيف المهندس السحال أن المصنع يعمل بطريقة مستمرة ومنتظمة حتى فاق انتاجه طاقته التقديرية ، ومما يدعو للتقدير والاعجاب هنا ما قرره البنك الدولى من اعتبار هذه الشركة مثلا يحتذى به للدول النامية عند إقامة مشروع ما فى مجال الصناعات الثقيلة ..

ولقد تجاوزت الشركة طاقتها التقديرية فى أول سنة كاملة بعد بدء تشغيلها .. فقد كانت الطاقة التقديرية لها ٣٣٠ ألف طن سنوياً من قضبان التسليح ، بينما بلغ الانتاج الفعلى فى عام ١٩٧٩ كمية قدرها ٣٧٨٥٤٤ طن ..

انجاز مميز

وهذا فى الواقع كما يقول المهندس السحال يعتبر انجازاً مميزاً على المستوى العالمى ..

فشركات الصلب المتكاملة تحتاج الى فترة تتراوح بين ٣ و ٥ سنوات للوصول إلى طاقتها حتى فى الدول الصناعية ..

ولقد بلغ الانتاج الفعلى عام ١٩٨٠ على سبيل المثال كمية قدرها ٤٥٠٣٤٠ طن بزيادة بلغت ٣٦٪ كما زاد الانتاج فى عام ١٩٨١ حتى وصل إلى ٤٥٤٣٦ طن . وتجاوز انتاج الشركة المليون طن الأولى من الحديد الاسفنجى فى مايو ١٩٨١ ، ومن كتل الصلب فى يناير من نفس العام ، ومن قضبان التسليح فى فبراير من العام نفسه أيضاً ..

ويضيف المهندس أحمد السبيعى نائب رئيس مجلس إدارة الشركة الى ذلك قوله : إن انتاج

القصة الكاملة لأول مصنع صلب متكامل في منطقة الخليج

المصانع من حديد التسليح قد ساهم مساهمة فعالة فى التطور السريع لقطاع الانشاءات على مستوى دولة قطر ، وعلى مستوى دول الخليج العربى الشقيقة .. وكانت ولا تزال أكثر الدول استيراداً لانتاج الشركة هى دول الخليج ، وفى مقدمتها السعودية ، تليها الامارات ، ثم الكويت وعمان ..

كما ساهم هذا الانتاج أيضاً فى مشروعات وقطاعات متعددة منها على سبيل المثال لا الحصر محطات توليد الكهرباء والمنشآت الحيوية والمشروعات الصناعية والفنادق والمساكن ..

عشرات من الأجهزة داخل قسم التخزين المباشر والذى تبدأ منه رحلة الحديد

العمل الجاد

ولقد تمكنت الشركة كما يقول المهندس السبيعى من تحقيق هذه النتائج المميزة بالعمل الجاد ، والمثابرة ، والتصميم ، كما تمكنت من تحقيق نتائج جديدة فى مجال تدريب وتطوير العمالة الادارية والفنية القطرية بالشركة ..

وهكذا أصبحت المصانع تضم أقساماً كثيرة يرأسها قطريون من بينها قسم الأفراد ، والمشتريات ، والسلامة ، والاختزال المباشر والصب المستمر ، والدرفلة ، وغيرها .. وقد أثبتوا هم وغيرهم من العاملين فى كافة المجالات قدرتهم على العطاء ، والوصول بالانتاج الى الجودة المطلوبة والمميزة ..

ولقد تأسست شركة قطر للحديد والصلب (قاسكو) فى ١٤ أكتوبر ١٩٧٤ شركة مساهمة بين حكومة دولة قطر وكل من الشركتين اليابانيتين كوبى ستيل المحدودة وطوكيو بوكى المحدودة ، وذلك ضمن خطة التصنيع لدولة قطر والتى اعتمدها حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى ..

وكان رأس المال الخاص بالشركة هو ثلاثمائة مليون ريال قطرى ، أى خمسة وسبعون مليون دولار أمريكى تقريباً ، وتملك حكومة دولة قطر سبعين فى المائة من الأسهم ، بينما تملك الشركة اليابانية الأولى عشرين فى المائة والثانية عشرة فى المائة ..

وينتج هذا المصنع أسياخ الحديد العادية والمجدولة ، وكتل الصلب المربعة المقطع ، والحديد الاسفنجي ، ويقع على مساحة تبلغ سبعمائة وسبعين ألف متر مربع ، ويضم حوالى ١٢٠٠ فنى وموظف وعامل ..

الانتاج يتصاعد

والصورة تبدو أكثر واقعية وأكثر اشراقاً داخل المصنع نفسه ..

فمنذ بدء التشغيل التجارى لشركة قطر للحديد والصلب فى ابريل ١٩٧٨ وانتاجها يتصاعد بطريقة مستمرة ، ويحقق سنوياً أرقاماً قياسية فى الانتاج فى كافة مراحله ابتداء بمرحلة الحديد الاسفنجي ، ثم كتل الصلب ، وانتهاء بمرحلة قضبان التسليح ..

والأرقام التى يقدمها المسئولون هنا عديدة ، وهى مبهجة تعطى الانطباع بأن المسيرة فى تقدم والانتاج فى تصاعد وتميز ..

- ان طول الميناء الذى يستقبل الخامات يزيد على الألف متر ، وبعمق أكثر من خمسة عشر متراً ، وله خمسة أرصفة ، وبه عدد من الأوناش والسيور والساحات والوحدات ..
- تبلغ الطاقة الانتاجية لوحدة الاختزال المباشر أربعمائة ألف طن مترى من الحديد الاسفنجي فى السنة ..
- الأفران الكهربائية ذات قدرات عالية جداً ، بطاقة انتاجية تقترب من الخمسمائة طن مترى فى السنة ، وتبلغ طاقة الشحن الواحدة سبعين طناً مترياً ..
- الطاقة الانتاجية لوحدة الصب المستمر تزيد على الخمسمائة طن مترى فى السنة ، بينما تبلغ طاقة وحدة الدرفلة أكثر من ثلاثمائة طن مترى من أسياخ حديد التسليح ..

ومع الأرقام والمعلومات عشنا التجربة على الطبيعة بالكامل ، ورأينا كيف يتم انتاج الحديد والصلب منذ البداية حتى النهاية ..

وكخطوة أولى تفرغ الخامات المستوردة بواسطة الأوناش الموجودة على رصيف الميناء الخاص بالشركة ، ويمكن لهذا الميناء أن يستقبل سفن الخامات بحمولة تصل الى مائة ألف طن ..

بعد التفريغ تبدأ عملية نقل خام الحديد من الميناء بواسطة السيور الناقلة لتخزينه فى الساحة الخاصة ..

وهنا يتم تخزين خام الحديد بطريقة خاصة حتى يصل الى الاختزال المباشر ..

أما الحديد الخردة فيتم تحميله بواسطة الرافعة المغناطيسية ونقله بالشاحنات لتغذية الأفران الكهربائية ..

وفى وحدة الاختزال المباشر رأينا كيف تشحن مكورات أكسيد الحديد من أعلى الفرن ويتم اختزالها بواسطة غازات الاختزال الساخنة والتى تتكون أساساً من غازى الايدروجين وأول أكسيد الكربون ..

وبذلك يتم انتاج الحديد الاسفنجى الذى يتم تبريده فى الجزء الأسفل من الفرن بواسطة غازات التبريد ، بحيث لا تزيد درجة حرارته عن ٦٥ درجة مئوية عند خروجه من أسفل الفرن ، وذلك لتفادى أكسدته مرة أخرى ..

نظام متكامل

وفى وحدة الصهر أو الفرن الكهربائى يوجد فرنان من الأفران الكهربائية ذات القدرات العالية جداً ، وقد استخدم فى هذه الوحدة نظام متكامل من السيور الناقلة ومعدات الرفع الكهربائية ، لنقل



أحمد موسى




محمد صالح





عيسى المالكي



عبد الجواد جودة

- ٣٠٠ مليون ريال رأس مال الشركة و١٢٠٠ فني وموظف وعامل في المصنع
- سبعون في المائة من القطريين يحتلون مراكز قيادية
- ماذا يقول العاملون في المصنع .. وكيف تمضي صورة إنتاج الحديد خطوة بخطوة من خلال الواقع ؟

المواد الخام ، وتزويد الأفران بها لتقليل مشكلات نقل المواد ..

والفرن في هذه الوحدة يعمل بنظرية القوس الكهربائي ..

اذ يتم توصيل الكهرباء الى الأقطاب الثلاثة لتحدث الشرارة الكهربائية التى تتحول الى طاقة حرارية تصهر الخردة ..

وبعد صهر الخردة يتم شحن الفرن بالحديد الاسفنجى والمواد اللازمة لاعطاء الصلب المواصفات المطلوبة ..

وأثناء التشغيل ، كما رأينا ، يغذى الفرن بالطاقة الكهربائية اللازمة وباستمرار ، ويتم ارسال عينات من الحديد المنصهر لمركز مراقبة الجودة ، للتأكد من نسبة الكربون والكبريت والفوسفور والمنجنيز ، والسيليكون ، وبعض العناصر الأخرى ..

وبعد اجراء تحاليل التركيب الكيميائى للصلب وقياس درجة الحرارة والتى تصل الى ١٦٦٠ درجة مئوية تقريباً ، يصب الحديد المنصهر فى بوتقة خاصة لنقله لوحدة الصب المستمر ..

وفى هذه الوحدة الأخيرة رأينا كيف يستقبل الصلب المنصهر من فرن الكهرباء فى بوتقة خاصة ، يتم نقلها الى ماكينة الصب المستمر بواسطة ونش علوى (١٢٠ طناً) ..

ومن فتحة النزول المنزلقة ينساب الصلب المنصهر الى البوتقة الوسيطة ومنها يتم توزيعه الى قوالب الصب الأربعة ، حيث تأخذ كتل الصلب شكلها المطلوب مع تبريدها جزئياً ، لتمر بعد ذلك من خلال غرفة التبريد الثانوى ، ويكتمل تبريدها نهائياً ..

ولقد لاحظت أن أشعة جاما (بواسطة الكوبالت ٦٠) تستخدم فى التحكم الأوتوماتيكى لسرعة الصب ، عن طريق وحدة درافيل السحب ، والتى تقوم بسحب كتل الصلب المتجمدة خارج الماكينة ..

بعد ذلك تقطع كتل الصلب المستمرة بواسطة مقص هيدروليكى ، وتنقل بعد تبريدها الى قسم الدرفلة بواسطة الونش المغناطيسى ..

وفى وحدة الدرفلة يشحن فرن التسخين بكتل الصلب ، لتمر بثلاث مراحل ، بعد الانتهاء منها تبرد أسياخ التسليح المنتجة وتقطع آلياً ، وتنقل الى ماكينة الربط لربطها فى حزم ، ويتم ثنى حزم الأسياخ العادية والتى يبلغ طولها اثنى عشر متراً بواسطة ماكينة الثنى الموجودة فى القسم حسب طلب العميل ..

الصورة والواقع

هذه الصورة التى عشناها على الطبيعة داخل أقسام المصنع ، وشاهدنا من خلالها كيف يتم تصنيع الحديد ، لا تكفى فى وصفها هذه الكلمات السابقة ..

فهى بكل المقاييس أكبر من أن توصف .

فالمشاهدة من خلال الواقع أروع وأكثر مدعاة للفخر والأعجاب والاطمئنان ..

ويزيد من روعة الصورة أن يكون حديث العاملين فى المصنع مؤكداً لكل هذه المعانى ، ومعطياً أبعاداً جديدة أكثر اضاءة للصورة داخل هذا المصنع العملاق ..

ان أحمد عبد الرحمن موسى رئيس شئون الموظفين والحاصل على ماجستير إدارة أعمال من أمريكا ، يتحدث عن الجانب البشرى والانسانى داخل شركة قطر للحديد والصلب ..

يقول إن هناك فى القسم معه أربعة قطريين ، وفى المصنع يصل عدد العاملين القطريين الى سبعة وسبعين ، ما بين عامل وفنى .. وهناك من بينهم ستة وعشرون يرأسون أقساماً بالمصنع ..

ويضيف أن الشركة تقدم العديد من الخدمات والتسهيلات والضمانات الاجتماعية ، مثل مساعدة الزواج التى تتمثل فى سلفة قدرها عشرون ألف ريال ، والسكن المجانى ، وسلفة السيارة ..

أما بالنسبة للرواتب فتحددها طبيعة العمل نفسه ..

والدوام يبدأ من السابعة صباحاً حتى الثالثة والنصف بعد الظهر ، ويتخلل ذلك الوقت فترة راحة لمدة خمس وأربعين دقيقة ..

وهناك الى جانب ذلك خدمات أخرى كالأكل ، والسكن الخاص بالعزاب ، والأنشطة الرياضية السنوية ، والنادى الخاص بكبار الموظفين ، ونادى الوظائف المتوسطة الذى يجرى انشاؤه ، والعيادة الخاصة بالموظفين ، والمواصلات من السكن الى السوق ثلاث مرات فى الأسبوع ، وتذاكر السفر السنوية ، والوجبات الأربع فى اليوم الواحد ..

الكفاءة أولاً

ويضيف أحمد عبدالرحمن موسى إن الترقي داخل المصنع يعتمد أولاً وأخيراً على عنصر الكفاءة ..



هكذا يتم نقل الحديد والصلب وتحميله بآلات خاصة وبجهود العمال الفنيين



كل شيء في المصنع يتم بنظام التحكم الآلي وفق أحدث الأساليب العلمية

ويدلل على هذه الحقيقة بقصة ١١ شاباً كانوا يدرسون في مركز التدريب ، ثم عملوا في الشركة ، وانتقلوا للدراسة في اليابان لمدة ثمانية عشر شهراً ، وعادوا للعمل لمدة معينة ..

انهم حالياً رؤساء أقسام بالمصنع ..

ويواصل الحديث محمد صالح المسئول الإداري بشئون الأفراد ..

انه خريج جامعة قطر عام ١٩٨٤ ، وحاصل على بكالوريوس العلوم ، لكنه أحب العمل في مجال الإدارة ..

ولذلك داوم على عدة دورات تدريبية ، وأخذ يعمل في المصنع منذ اليوم الأول بهمة ونشاط ، وهو يؤكد ألا مشاكل تذكر في العمل ..

ويضيف أن من بين العاملين (١٢٠٠) توجد ست عشرة جنسية ، والغالبية من الهنود ، والمصريين ، ثم يأتي بعد ذلك البنجلاديشيون والقطريون والجنسيات الأخرى ..

أما بالنسبة لليابانيين فهم يتركزون في ادارة المصنع . ويحتل سبعون في المائة من القطريين مناصب قيادية ..

وألتقي ببعض الإخوة العاملين في المصنع ..

راجي ني (هندي) رئيس عمال في دائرة الشحن ومناولة المواد ، يؤدي عمله منذ ثماني سنوات ، خميس مال الله (إيراني) سائق أضخم رافعة في الشركة يعمل منذ سبع سنوات ، ماثير ماثيا (هندي) سائق رافعة منذ سبع سنوات ، محمد علي طلبة (مصري) مشغل أجهزة بادارة الاختزال المباشر يعمل منذ سنة ونصف السنة ..

هؤلاء والآخرون الذين لقيناهم راضون عن أعمالهم ، ويقدرون الجهود المبذولة من أجلهم ، ويعيشون حياة الأسرة الواحدة مع الجميع بلا استثناء ، ويحصلون على كل حقوقهم ، وتحل كل مشاكلهم إن وجدت ..

العمالة جيدة

إلى جانبهم التقيت ببعض العناصر العاملة الأخرى ..

الياباني مينور اوديس مدير الصيانة الذي سألته عن رأيه في العمالة الموجودة بالمصنع ، فقال انها جيدة ، لكن لابد في البداية من التدريب المستمر على العمل لمدة لا تقل عن ثلاثة شهور ، لاختلاف الظروف من مصنع لآخر . وأضاف أن اللغة هي المشكلة التي تعوق التفاهم ، لكن الأمور تحل على كل حال ..

وقال مينور اوديس إن الانتاج الخارج من المصنع هو انتاج جيد بكل المقاييس ، وإن تميزه وصموده يعتمدان على التسويق . وهو للعلم كما قال لنا يعمل في المصنع منذ سنة واحدة ، ومبعوث من شركة كوبي ستيل اليابانية ..

أما كفاح مصطفى محمد رئيس قسم المشتريات ، خريج جامعة قطر كلية العلوم الانسانية والحاصل على ماجستير في إدارة الأعمال من أمريكا ، فهو يرى أن على الشباب الجديد أن يشعر بالاحساس بالمسئولية ، وضرورة التطور مع الزمن ، وأن يكون الانتاج هو الأساس الذي يعتمد عليه ..

وهو يلخص عمل القسم الذي يرأسه بأنه مثل « القناة » التي تصل عن طريقها كل احتياجات المصنع ، من قطع غيار وزيوت وخامات ، وغيرها من الطلبات التي تطلبها جميع الأقسام . ويضيف أن معظم الاحتياجات تأتي من اليابان وأمريكا والدانمارك والبرازيل والسويد ..

ويتحدث عيسى علي أحمد المالكي وهو قطري يعمل في وظيفة فني كهربائي في القسم التابع للأفران والصب المستمر ، وهو خريج التدريب المهني بالدوحة ، وتلقى عدة دورات تدريبية ..

يقول إن الراتب لا بأس به ، ولكن الإضافي هو الذي يساعد بالطبع . ويضيف أنه من الطبيعي أن تثور بعض المشاكل بين الزملاء أو بين فني ورئيس قسم ، وهي كلها مشاكل تتعلق بالرغبة في الترقي ، واتاحة الفرصة لتولي المناصب القيادية ، ولكن في





لوحة تذكارية تتصدر مدخل المصنع مسجلة ذكرى افتتاح سمو أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني لهذا العمل الكبير .. ثم لقطة تمثل كمية من أسياخ الحديد التي ينتجها المصنع في انتظار تصديرها للخارج

النهاية تحل بود ومحبة ، ويعود الصفاء بين الجميع ..

القيادة مسئولية

والتقي أيضاً ببعض رؤساء الأقسام القطريين : محمد طاهر علي رئيس قسم الاختزال المباشر ، راشد الكواري رئيس قسم الأفران والصب المستمر ، حسين عبدالله يحيى رئيس قسم الأمن والسلامة ، علي حسن المريخي رئيس قسم بشئون الموظفين ، ناصر صالح الفضالة رئيس قسم الخدمات العامة ، جواد عبدالله رئيس قسم الطاقة ، محمد علي الشيبة رئيس قسم الكهرباء ، محمد جاسم المالكي رئيس قسم الصيانة ، يعقوب همام رئيس قسم ضبط الجودة ، محمد سعيد أبو شرباك رئيس قسم المواد الخام ، خالد عبدالحميد صديقي رئيس قسم النقل ..

انهم جميعاً يعتقدون أن القيادة مسئولية وواجب وقدرة على التحمل ، وأن ما وصلوا اليه لم يكن سهلاً ، وانما تطلب جهداً وعرقاً ، وتدريباً . وهم لا يزالون يواصلون التدريب والتعليم ، فلا حركة لساكن ، ولا تحقيق لطموح دون عمل متواصل ..

أما اللقاء الأخير فكان مع الأخ عبد الجواد جودة الذي بدأ العمل في المصنع منذ عام ١٩٧٩ ، كمهندس مدني تخرج في جامعة الأزهر ، وهو الآن يؤدي دوره في العلاقات العامة بكل همة ونشاط ..

انه مثل طيب على الأداء الجاد والسلس ، وهو يستقبل زوار المصنع بكل ود ، ويشرح لهم كل صغيرة وكبيرة دون ان يشعرهم بأي تعب أو ملل ..

صورة أخيرة

وليس أبلغ من هذه الصورة الأخيرة نختتم بها هذا الحديث من قلب مصنع الحديد والصلب في دولة قطر ..

إن هذه الصورة تتضمنها رسالة من المدير العام للمصنع هيروشي هاسيماوا إلى كل العاملين به ، في بداية هذا العام ..

ماذا تقول الرسالة ؟

هذه هي كلماتها :

« خيمت سحابة من الفتور والخمول الشديدين على سوق الصلب بمنطقة الخليج اعتباراً من مطلع العام المنصرم ، وباستثناء فترة قصيرة نسبيا صاحبت بداية الربع الثاني من نفس العام . وعلى ذلك تصبح أية محاولة للتنبؤ بحركة السوق المستقبلية من واقع الظروف الراهنة ضرباً من التخمين العشوائي ..

على أنه مما يثلج الصدر نجاح قاسكو برغم الظروف المذكورة في إنجاز موازنتها للنصف الأول من العام .

وعلى الرغم من قتامة النصف الثاني من عام ١٩٨٤ إلا أنني أعتقد أن الشركة بامكانها تحقيق أهدافها من خلال الجد والمثابرة ..

.. وغني عن القول إن هذه المنجزات أمكن تحقيقها من خلال معدلات الانتاج والتشغيل العالية مع ضغط الاستهلاك وهي أمور يرجع الفضل في انجازها للمثابرة والاقتراحات البناءة وجهود دوائر التحكم بالجودة بالاضافة للتعاون الصادق بين جميع العاملين ..

.. وفي هذا الصدد لا يفوتني أن أعبر عن امتناني لكم جميعاً لجهودكم المخلصة . على أننا لا ينبغي أن ندخر جهداً في سبيل ضغط الانفاق والنهوض بمستوى ورشنا الانتاجية وتأمين سلامتها كأسلوب لتجاوز المحنة الحالية ..

.. لذلك أناشدكم التعاون الصادق لتحقيق ذلك .. »

انتهت رسالة المدير العام ..

وتحققت الخطة ، وما زالت تتحقق ..

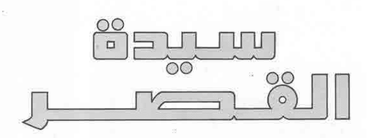
وحاضر المصنع الآن كما رأيتم مبهج ، ومبشر ، ويحمل الكثير من الآمال واطموحات ، ومستقبله سيكون أكثر بهجة ، وأكثر انطلاقاً ، وطموحاً ..

هذا هو ما أحسسته ، وأحسه ، ولاشك أنكم معي جميعاً في هذا الاحساس ،بعد هذه الزيارة الميدانية لمصنع الحديد والصلب في دولة قطر ..

السيد حجازي

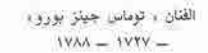


بقلم: جمال قطب



سيدة القصر





الفنان «توماس جينز بورو» ١٧٢٧ — ١٧٨٨

ولد توماس جينز بورو Thomas Gainsborough في ١٤ مايو عام ١٧٢٧ ببلدة صدبوري، وهو الابن الخامس لأحد تجار المنسوجات الموسرين، وعندما تفتحت موهبته في طفولته المبكرة، أرسله والده إلى لندن عام ١٧٤٠ ليدرس الفن وهو لم يزل طفلا في الثالثة عشرة من عمره. وظل بالعاصمة البريطانية حتى عام ١٧٤٨، حيث قضى ثماني سنوات متنقلا بين مراسم الفنانين والمتاحف ومكتبات الفن الشهيرة. وكما نعلم، فقد كان القرن الثامن عشر عصر ازدهار فني في أنحاء كثيرة من أوروبا، ولا سيما فرنسا التي تألق فيها فن الروكوكو ذو الملامح الارستقراطية في أحضان القصور المترفة.. وبهر فناننا الشاب وهو في العاصمة البريطانية بفن الروكوكو الفرنسي، وحياة البذخ، ومثالية الفن (وهي نزعة رومانسية سار على نهجها معظم الفنانين في ذلك العصر).

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى ما استعرضناه سويا على هذه الصفحات من قبل عندما تناولنا مدارس الفن البريطاني وأقطابه العالميين، وجدنا أن هذا الفن قد عني باتجاهين: تصوير الشخصيات المرموقة في المجتمع الارستقراطي وفاتناته من ربات الجمال الشهيرات، والاهتمام برسم المناظر الطبيعية في خلفية اللوحات.. لا كمدرسة في ذاتها كما نهج فنانو الشمال الأوربي في هولندة مثلا، ولكن، كعامل مساعد للاهتمام الأساسي عند الانجليز.. وهو الصور الشخصية Portraits. وهكذا وجدنا جينز بورو يهيم بالمناظر الطبيعية.. ويفرد لها الجزء الأكبر من مسطحات لوحاته. وشيئاً فشيئاً، رأيناه وقد أضفى على الطبيعة غلالة شاعرية وجعلها اهتماما مستقلا كمنظر متكامل في بعض لوحاته،

وحدث أن خصصت إحدى المستشفيات المركزية في يوم افتتاحها في ١١ مايو عام ١٧٤٨ قاعة كبرى لإحدى لوحات جينز بورو وكانت منظرا طبيعيا خالصا.. ولذلك اعتبرت هذه اللوحة بمثابة تحول تاريخي لمسيرة الفن البريطاني آنذاك. إذ كان من المستحيل على أي فنان من معاصريه أن يرسم لوحة ليس فيها إلا المناظر الطبيعية وحدها!

• وعاد الفنان إلى بلدته بعد ما حصله من خبرة وشهرة وتألق اسمه حتى ملأ الأسماع والأبصار في بريطانيا، فرحل من مسقط رأسه إلى مدينة أكبر هي إبسويتش Ipswich .. ومكث بها بضع سنوات حتى رحل عام ١٧٥٩ إلى مدينة بات Bath ذات النشاطات الفنية المرموقة وموطن العائلات الموسرة وتألق اسمه، وطارت شهرته كرسام لفاتنات المجتمع البريطاني ونبلائه ووجهائه وسيدات القصور العريقة! ويذكر التاريخ أن فناننا أخذ يرفع من أجره حتى وصل إلى ستين جنيها لرسم صورة صغيرة.. (وستون جنيها من نقود تلك الأيام كانت ثروة طائلة كافية لشراء بيت بريطاني جميل)!

وتحول جينز بورو من رسم الصور النصفية إلى رسم الأشخاص بكامل أطوالها، وبرع أكثر وأكثر في رسم المناظر الطبيعية.. وعاما بعد عام أصبح فنان بريطانيا بلا منازع.

وكان من غير المعقول ان يظل خارج العاصمة.. ولا سيما بعد أن أصبح عضوا مؤسسا في الأكاديمية الملكية التي افتتحت أبوابها في لندن عام ١٧٦٨، وكان الفنان الوحيد الذي وقع عليه الاختيار بإجماع الآراء.. من خارج العاصمة! وفي عام ١٧٧٤ استقر توماس جينزبورو في لندن، حيث توالت روائعه ومعارضه الخاصة، واحتضنه

البلاط الملكي، فرسم الملك جورج الثالث والملكة شارلوت وأفراد العائلة المالكة والحاشية.. وصارت لوحاته لفاتنات القصور تحفاً تأخذ طريقها إلى المتاحف وقاعات الأكاديمية الملكية أولا بأول.. وفي عام ١٧٨٤ فكر الفنان الكبير في إقامة متحف خاص لأعماله، فاستعاد بعضها من الأكاديمية ومن القصور الملكية.. وأقام لها معرضاً دائما في مسكنه بحي بالمول Pall Mall الشهير. وظل يدعم متحفه بإبداعاته حتى مات في اليوم الثاني من أغسطس عام ١٧٨٨.

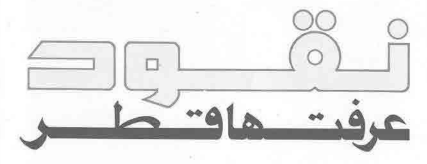
واللوحة التي نراها على الصفحة المقابلة، رسمها جينز بورو فيما بين عامي ١٧٧٥ — ١٧٧٧، وهي واحدة من أجمل وأشهر لوحاته التي تمثل طابع أزياء العصر ومسحته الارستقراطية. وتوجد اللوحة حاليا ضمن مقتنيات المتحف الوطني الاسكتلندي بأدنبره. وتمثل سيدة من أبرز سيدات القصور الارستقراطية في بريطانيا آنذاك هي (مسز توماس جراهام)

فلنتأمل هذه الرائعة.. لنرى كيف استطاع الفنان أن يحدث تناغماً موسيقيا مثيرا، وتوازنا خلابا بين عناصر الطبيعة ذات الخلفية الرومانسية الداكنة، وصورة سيدة القصر الحسناء التي جعلها في دائرة الضوء وكأنها اليقظة وسط أطياف الأحلام المبهمة.. وبذلك صارت الصورة الشخصية محورا لجذب الانتباه، وبرزت تفاصيلها في غنى لوني وتناغم ضوئي متلألىء.. نراها.. وكأننا نسبح في أطيافها الملهمة بين ترف القصور وسحر الطبيعة وروح الشاعرية التي اتسم بها ذلك العصر الفني الحالم الجميل.



سيدة القصر (مسز توماس جراهام) رسمها الفنان بين عامى ١٧٧٥ و ١٧٧٧ ، وهى من مقتنيات المتحف الوطنى بأدنبره

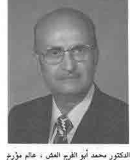
على طريق النهضة في قطر



نقود عرفتها قطر

بقلم: درويش مصطفى الفار

على صعيد النشر العلمي المتقدم ، أصدرت وزارة الإعلام في قطر سنة ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) سفرا ضخما تزيد صفحاته على ستمائة ، وضعه العلامة المرحوم الاستاذ الدكتور محمد ابو الفرج العش ، طيب الله ثراه ، درس فيه زهاء ألفين وثلاثمائة من المسكوكات المحفوظة بمتحف قطر الوطني ، دراهم وَرِق فضية ودنانير عينا من ذهب ، دراسة مستوفاة غير مسبوقة ، وقدم لهذا الجزء الأول معالي الاستاذ عيسى غانم الكواري وزير الاعلام القطري بقوله : يسرني أن أقدم إلى قراء العربية هذه الدراسة العلمية المتخصصة في جانب لم تلق عليه في عالمنا العربي الأضواء الكافية بعد ، بالقدر الذي يتفق مع أهميته الحضارية ، ألا وهو النقود ، والمسكوكات الأثرية . إن حاجتنا إلى معرفة تراثنا الماضي ، هي حاجة الشجرة لجذورها ، فهي التي توفر لها عوامل الاتصال والديمومة بالأرض ، فتحول دون جفافها ، وتزودها بما يحفظ شخصيتها وما من أمة تتيه في شعاب الضياع طالما ظلت على صلة بجذورها . وانطلاقا من هذه الحقيقة ، تفضل حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر المفدى فأمر بالبدء في إعداد الدراسات اللازمة لإنشاء « معهد الدوحة لدراسة المسكوكات الاسلامية » والذى سيصبح عند اكتماله المعهد العلمي الأول في نوعه في العالم .


الدكتور محمد أبو الفرج العش ، عالم مؤرخ عربي ، كان لايعترف بالحدود القائمة بين الأقطار العربية ، لقي ربه وهو يكتب ويبحث ويؤلف حتى آخر لحظة من حياته

ورب سائل يقول :

« كل هذه الأهمية تعيرونها للنقود القديمة ؟ »

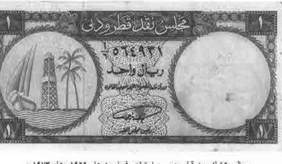
وردا على ذلك ينبغي الايضاح بأن النقود نوع من أفضل أنواع الوثائق التاريخية الحسية ، فهي تحمل سمات التطور التاريخي ومدى ارتقاء النظم المالية والسياسية ، وتكرس أسماء الخلفاء والحكام والولاة وصانعي القرارات ، على إمتداد رقعة العالم ، وهي مثلا ، تثبت أو تنفي مقولات تاريخية ببيان قاطع . ولعلماء النقد وسائلهم في المنهج العلمي الذى يستخدمونه ، فهبوط أصناف الخليط المعدني في عملة عصر من العصور أو سلالة من الملوك ، يثبت أنه عصر ضعف وسلالة تدهور ، كما أن زوال آثار التقليد في مأثورات ونقوش النقد ، دليل على زوال الأثر الاجنبي بل ان النقود أحيانا تتحدى المؤرخين وتكشف عن قصورهم ، فبين أيدينا قطع نقود من عصور مختلفة ، تحمل أسماء رجالات سكوا تلك النقود أو أمروا بسكها ، ولكننا لا نجد لهم ذكرا في التصانيف التاريخية التى وصلت إلينا ، وحين نجد الغش في النقود قد توقف بعد ظهور الإسلام وسيادة الدينار الاسلامي ، فإننا نضيف برهانا حسيا آخر على العظمة الإنسانية للدين الذى شرفنا الله تعالى بحمل رسالته إلى العالم . ومرة أخرى ، فإنني لأشعر بسعادة حين أقدم إلى القارىء العربي هذه الدراسة القيمة عن مجموعة من المسكوكات الإسلامية الفريدة التى يضمها متحف قطر الوطني ، والتى أعدها واحد من أبرز علمائنا المتخصصين في هذا الميدان ، وهو الدكتور محمد ابو الفرج العش الاستاذ بجامعة قطر ، راجيا المولى عز وجل أن يجعل من هذا البلد منارة علم ومركز نهضة حضارية واشعاع ثقافى في ظل القيادة الحكيمة لحضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر المفدى وسمو ولي عهده الأمين الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني . والله ولي التوفيق .

وكان المؤلف (رحمة الله عليه) قد كتب في مقدمة هذا المرجع العلمي الراقي ما يلي :

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين . من نعم الله أن تتطلع الشعوب



ريال يتداوله الناس اليوم فى قطر بعد أن صدر فى عيد الفطر (١٤٠٥ هـ)

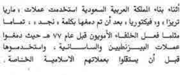


ريال مشترك بين قطر ودبى ، استخدم فيما بين عام ١٩٦٦ وعام ١٩٧٣ م



(ريال الفرنسة) عليه صورة ماريا تريزا (١٧١٧ ـ ١٧٨٠) ملكة النمسا والمجر وبوهيميا .. كانت من أقوى الشخصيات السياسية فى أوربا .. وقد استخدمت هذه العملة فى كل أرجاء الجزيرة العربية .



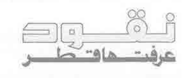


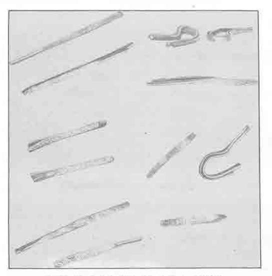
أثناء بناء المملكة العربية السعودية استخدمت عملات ، ماريا تريزا ، و، فيكتوريا ، بعد أن تم دمغها بكلمة ، نجد ، ، تماما مثلما فعل الخلفاء الأمويون قبل عام ٧٧ هـ حيث دمغوا عملات البيزنطيين والساسانية ، واستخدموها قبل أن يستقلوا بعملاتهم الاسلامية الخاصة .

العربية والاسلامية لاحياء تراثها التليد ، ويعتبر هذا الاتجاه الخطوة الأولى لمسايرة ركب الحضارة ، لأنه لا حضارة بدون تراث ، ودون التعرف على هذا التراث ، ودون فهمه والتمكن منه . فإذا نجح الإنسان العربى والمسلم ، فى ادراك أهمية تراثه ، فإنه بالتالى يتعرف على نفسه ويحدد مستواه ، فلا هو يخدع نفسه ولا يكون عرضة لأن يخدع . فالحضارة العربية الإسلامية أضاءت العالم بدين يوازن بين الدنيا والآخرة ، وخلق يجعل الإنسان سعيدا فى داره ومجتمعه ، وعلم يصقل العقل ، وفن يهذب النفس والعاطفة . كل ذلك خلق الأمة العربية الإسلامية الرصينة ، والدولة العادلة الحكيمة . هذه الحضارة خبت بسبب البعد عن روح الدين وأهدافه ، فعاد الناس وزعماؤهم إلى الجاهلية المتناحرة ، فتمزق الشمل ، وانفرط العقد وبات العرب والمسلمون متفرقين تائهين ، تتقاذفهم التيارات من كل جانب وتتجاذبهم الأطماع ، ولا يهتدون إلى سبيل الخلاص ، فمضت علينا حقبة ونحن نتخبط فى دياجير الظلام ، وكنا لا نعرف أنفسنا ، بينما يعرف عنا الطامعون بنا كل شيء . درس الأجنبى تاريخنا ، ونقب عن آثارنا ، ونهب وثائق عزتنا وحضارتنا ، لأننا كنا غافلين . وأخيرا فتحنا عيوننا ، فرأينا أنفسنا مقصرين ، فأخذنا نتلمس الطريق الصحيح ، ونتجاوز العقبات وليس لنا إلا أن نسأل الله أن يسدد خطانا فى طريق التقدم ، .

ولقد أحدث صدور هذا الكتاب النادر ، عن وزارة الإعلام فى قطر ، دويا هائلا محمودا فى كل الأوساط العلمية العالمية المشتغلة بدراسة المسكوكات الاسلامية .

ولا جدال فى أن الناس هنا ، فى قطر ، خلال القرون ، قد عرفوا واستخدموا كل أو بعض ، تلك النقود التى جاء ذكرها فى ذلك السفر الكبير ، من فلوس ودراهم ودنانير ، وأنهم قد استخدموا النقود الساسانية التى سكها أباطرة الفرس على الجانب الشرقى من الخليج ، والنقود المغولية التى سكها ملوك المغول فى امبراطورية الهند الاسلامية وعلى تخوم الصين وأواسط آسيا ، والنقود البيزنطية التى





ملوية الحسا (اللارن) : كانت تصنع من الفضة (والنحاس) واستخدمت خلال القرن السابع عشر ، كعملة تجارية بين منطقة الخليج العربي والهند وسرنديب .



ربع آنة : كان في وسع الانسان في قطر في ذلك التاريخ أن يشترى بها كل حاجات منزله في يومه ! ويلاحظ على ربع الآنة أنها سكت سنة ١٨٨٦ بواسطة شركة الهند الشرقية



كنز من النقود الفضية ، عثر عليه أحد المواطنين وأهداه للمتحف القطرى ، كان محفوظا في جرة من الفخار مدفونة في شمال قطر .



روبية هندية تحمل صورة الملكة فيكتوريا (١٨١٩ ـ ١٩٠١) مؤسسة ومهندسة الامبراطورية البريطانية التى كانت لا تغيب عنها الشمس ، حكمت بريطانيا وايرلندا منذ عام ١٨٣٧ . وأصبحت امبراطورة الهند عام ١٨٧٦ ، ومنذ ذلك التاريخ دخلت عملتها قطر ومنطقة الخليج .

كانت لاشك تدخل السوق العربية عندما يتغلب الروم على الفرس ...

كذلك عرف الناس لاشك في قطر النقود التى سكها السامانيون والخوارج والعثمانيون ...

وحيث أن الإسلام قد دخل إلى قطر وما حولها في السنة الثامنة أو السادسة من الهجرة النبوية الشريفة ، على يد الصحابى الجليل العلاء الحضرمي رضى الله عنه ، فلابد وأن الناس في قطر قد عرفوا نقود الإسلام منذ البداية ، تلك التى يذكرها كل من ابن تغرى بردى في الجزء الأول من موسوعته « النجوم الزاهرة » وابن الأثير في كتابه « الكامل في التاريخ الجزء الرابع » حيث جاء :

« ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب الدراهم على نقش الكسروية غير أنه قد زاد في بعضها « لا إله الا الله وحده » وفى بعضها « الحمد لله » وفى بعضها « محمد رسول الله » ، وفى خلافة عثمان رضى الله عنه ضرب دراهم نقشها « الله اكبر » وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلد سيفا .

وضرب عبد الله بن الزبير دراهم مدورة بمكة ،



درهم أموى من الفضة ، مضروب فى واسط بالعراق عام (١٠٥ هـ) وهو من مجموعة متحف قطر الوطنى



حزام بدوى محلى بالريالات ، الماريا تريزا ، وأنصاف الريالات ، وهو –أيضا– من مقتنيات متحف قطر الوطنى

وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة . وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحا غليظا قصيرا ، فدورها عبد الله ونقش على أحد وجهي الدرهم « محمد رسول الله » وعلى الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، وهذه لاشك انها استخدمت فى قطر ، فلما استوثق الأمر لعبد الملك ابن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير ، فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير فى سنة ست وسبعين ، وقيل إن عبد العزيز بن مروان كان قد نصح لعبد الملك بضرب دنانير سنة ٤٦ هـ .. وذكر الدميرى فى موسوعته « حياة الحيوان » ضربا من النقود يقال لها « البغلية » قال « ان رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسى مكتوب بالفارسية « نوش خور » أى « كل هنيئا » وذكر أن هنالك نقودا ضربها الأمراء والولاة فى عهد الخلفاء الراشدين ، أقدمها يرجع إلى سنة ٢٨ هـ فى طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفى « بسم الله ربى » وآخر يرجع إلى سنة ٣٨ هـ ، على دائرته هذه العبارة أيضا وآخر سنة ٦١ هـ فى يزد ، على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين » على أن هذه المسكوكات لم تعتبر رسمية فى الدولة الاسلامية وأول من سك نقودا « رسمية » هو عبد الله بن مروان الذى بعث نقوده إلى جميع بلدان الإسلام ، ومنها قطر لاشك ، وتقدم إلى الناس فى التعامل بها ، وتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها ، وأمر بإبطال التعامل بالنقود الرومية والفارسية وردها إلى مواضع العمل حتى تعاد إلى السكك الاسلامية . ورغم ذلك فإننا لازلنا نجد نقودا من تلك التى أمر عبد الملك بإعدامها فضة وذهبا ، ولهذا نطمع فى أن يسفر البحث والتحرى عن وجود مقتنيات من تلك النقود (الممنوعة) لدى الأفراد فى مجموعاتهم الخاصة ، مما سوف يضيف إلى البحث العلمى فى مجال دراسة المسكوكات اضافة كبرى ...

وهنالك عملات أو نقود غريبة الشكل والنمط ، كانت تصنع على هيئة أسلاك مطروقة من النحاس أو الفضة استخدمت فى قطر وما حولها ، وهى تلك التى سماها الفرنجة باسم (اللارن) واطلق عليها العرب اسم (ملوية الحسا) وشاع استخدامها إبان القرن السابع عشر بين منطقة الخليج (بفرسها وعربها) وبين بلاد السند والهند وسرنديب (سيريلانكا) وكانت لا تعرف ولا تتداول إلا فى هذه الطريق التجارية فقط ، ولذلك ضرب العرب مثلا فى منطقة الخليج ، حيث يقال ان فلانا مثل (ملوية الحسا) أى أنه غير معروف فى غير موطنه ولا قيمة له ولا يأبه له الناس خارجه !!

وتراثنا لا نزال نجد حتى اليوم من الألفاظ المتداولة بين الناس بقايا كلمات من عهود قريبة نسبيا ، تحتاج إلى تصنيف تاريخى يضع النقاط على الحروف بالنسبة لكلمة ، روبية ، وآنة ، وبيزة ، وريال (الفرنسا) والبرغش والريال . فقد سادت لفظة (روبية) مثلا وهى كلمة سنسكريتيه من الهند معناها ، النقد الفضى ، ولا يزال كبار السن حتى يومنا هذا يطلقون على الريال ، وهو العملة الرسمية المتداولة ، لفظ (روبية) ، كما أن الناس لا يزالون يطلقون على النقود جملة لفظ (بيزات) جمع بيزة ، وهى تساوى خمس آنة والآنه تساوى جزءا من ستة عشر جزءا من الروبية الفضية .. ولقد تداول الناس فى قطر وما حولها تلك العملات الهندية إبان سيطرة الانجليز وهيمنتهم الامبراطورية على الهند ، وارتباط تجارة اللؤلؤ الخليجى ، من قطر وغيرها ، بأسواق الهند .

ولقد كانت القيمة الشرائية لتلك النقود فى أيدى الناس ، من القوة بحيث أن من كان يمتلك فى ذلك الزمان غير البعيد جدا ، مائة من الروبيات الفضية ، كان يعتبر بمقام مليونير معاصر فى دنيا النفط !!

كذلك تداول الناس فى قطر ، النقود التى سكها سلاطين عمان وزنجبار ، واشتهر منها « البرغش » ، وتداولوا الريال السعودى والريال (الفرنسا) الذى سكته الامبراطورة النمساوية ماريا تريزا قبل موتها سنة ١٧٨٠ م ، ولا أدرى إذا ما كانت نقود ابنتها الامبراطورة الفرنسية المشهورة (مارى انطوانيت) قد وصلت إلى قطر ؟؟ . كذلك استخدم الناس نقود شركة الهند الشرقية ، التى مهدت لإحتلال بريطانيا (العظمى) للقارة الهندية ، ونقود البرتغاليين إبان سطوتهم على الخليج بشاطئيه ، العربى والفارسى فى القرن الخامس عشر الميلادى ...

ونحن فى حاجة إلى بحث علمى مبوب مفصل ، يتناول تداول كل ما ذكرنا من النقود ، وقيمتها محليا وعالميا ، ونشأة النقود المشتركة بين قطر ودبى فيما بين سنة ١٩٦٦ ، سنة ١٩٧٣ وما تلاها بعد ذلك ..

ولعل جهات الاهتمام فى أبواب هذا البحث ، والتى نخص منها ، مؤسسة النقد القطرية ، وقسم التاريخ فى جامعة قطر ، ومركز التراث الشعبى الخليجى ، ومتحف قطر الوطنى ، والهواة من الأفراد أن تتضافر جهودهم ، وتتجمع معلوماتهم ، لإخراج هذا البحث إلى حيز الوجود ، لما له من قيمة علمية وتراثية . فضلا عن أنه مجال لطيف لمقارنات تمس جوانب المعيشة ، كأن يذكر مثلا ، كم كان ثمن الجمل أو القنطار من التمر أو المثقال من اللؤلؤ فى عام كذا ، يوم كانت العملة المتداولة هى كذا ، ولا ننسى فى هذا المجال أن نذكر حقيقة تاريخية قد لا يعرفها كثير من عباد الله ، وهى أن (منطقة البحرين) ، قد ارسلت من الزكاة والجزية إلى عاصمة الاسلام الأولى المدينة المنورة ، مبلغا من المال تجاوز (ثمانين ألف دينار) وهو مبلغ لم تعرفه الدولة الاسلامية من أى مكان آخر ، منذ أن جاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا ...

درويش مصطفى الفار



فارس مملوكي على صهوة جواد عربي للفنان كارل فيرنيه (١٧٥٨ ـ ١٨٣٦)

كتاب الشهر

الحصان
أجمل حيوان وأروع لوحات

عرض وتقديم : حسني شحادة

هذا الكتاب « الحصان في الفن » يعتبر بحق تحفة رائعة ، بما احتوى من معلومات ولوحات فنية ، ومراجع وفهارس . ولذلك فانه كتاب جدير بالمطالعة ، وجدير أيضاً بترجمته إلى العربية ، لاظهار كيف أن الجواد العربي هو أجمل الخيول على الاطلاق .



لوحة عالمية تمثل مروض الخيول ، وهو يمسك بعنان الحصان العربي

- الجواد العربي أجمل وأغلى الخيول في العالم
- حصان يهاجم أسداً في لوحة عالمية رائعة
- الحصان هو التجسيد الحيّ للوفاء والارتباط بصاحبه

تغنى الأدباء والشعراء بالخيل وجمالها ، ومناقبها ، وشيمها ، ووفائها ، وشجاعتها ، وقوتها ، ورسموا لذلك صوراً بلاغية رائعة ، يكاد القارئ أو السامع لها ، أن يتصور تلك اللوحة الفنية من خلال الاستماع ، أو القراءة ، فاذا كان ذلك هو دور الأدب والشعر ، فكيف بأرباب الفن ؟!

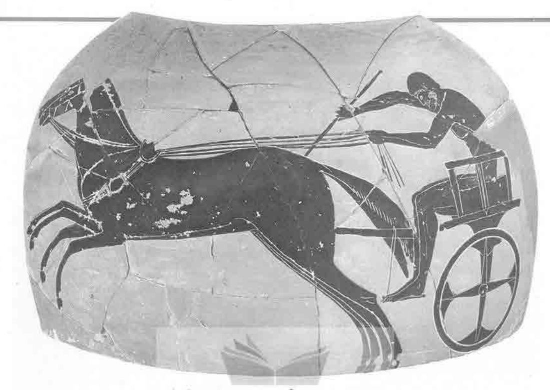
لقد خلبت الخيول ألباب الفنانين ، واستولت قوتها ومهابتها على أفئدتهم ، وحرك جمال قوامها أشرعة خيالهم ، وسجل تلك الخلجات واللمسات ، مؤلف انجليزي ، في كتاب « الحصان في الفن » ، وهو يقع في مائة وستين صفحة من القطع الكبير . ويحتوي على ثمانية أبواب ، ومحلى بعدد كبير من اللوحات الفنية الملونة وغير الملونة ، من رسومات كبار الفنانين العالميين ، حتى جاء هذا الكتاب بحق تحفة فنية رائعة ، أضافت إلى مكتبة المعارف الانسانية لبنة فنية جديدة .

بدأ الكتاب بمقدمة « بول ملتون » ، يقول فيها : « إذا كنا نحب الجمال ، فان الجمال الأحب الينا ، هو ذاك الذي يعتمل في شعورنا ، ويتصل بحياتنا ، وفي هذا الكتاب ، جمع مؤلفه « جون باسكت » . كل أولئك الذين أحبوا الخيل ، حيث نجد في أعمالهم الفنية ولوحاتهم بهجة لأنفسنا ، ومتعة لعيوننا ، وراحة للقلوب ، لأنها أعمال فنية اختلطت فيها المشاعر بالحب ، لأن الحصان حيوان جميل ولطيف ، يحرك في شعورنا ذكريات تجلب إلينا مسرة ، وحبوراً لا ينتهي » .

الحصان في الحضارة القديمة

أثبت علماء الانثروبولوجيا . أن علاقة الانسان بالحصان ، قديمة جدا ، وأثبتت الآثار القديمة ، التي اكتشفت من باطن الأرض ، عن قبور في « أوراسيا » بها رسوم نادرة ، وآثار تدل على أهمية الحصان ، في حياة الانسان .

كما وجدت آثار كثيرة في مواطن الحضارات القديمة كحضارة وادي النيل ، وحضارة ما بين النهرين ، والحضارة التي قامت على ضفاف نهر الفولجا ، ونهر الدانوب ، وغيرها ، وكل تلك



سباق العربات الاغريقية ، فوق آنية زهور تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد

الآثار ، تدل على هذا الارتباط بين الانسان والحصان ، واستطاع العلماء بعد مزيد من البحث والتدقيق ، وضع مقولة تؤكد ، أنه أينما أوجد الانسان بصماته الحضارية عبر التاريخ ، فانها تكون غالباً مرتبطة بالحصان .

وقد أثبت المؤلف هذا القول في عرض لوحات جميلة فناً وذوقاً وشكلاً للحصان ، منها ما هو في القرن الرابع قبل الميلاد ، ومنها ما هو في القرن الخامس ، ومنها ما هو في القرن العاشر ، وفي أماكن كثيرة من العالم ، ومن أجملها تلك اللوحة الفنية التي وجدت في قبر أحد القادة الصينيين تمثل خيله التي دفنت معه .

الفروسـيـة في العصور الوسطى

الفروسية ذات معنى رائع ، تتمثل في حماية الضعفاء ، وعقاب الجور والظلم أينما وجدا ، وتولي أمر كل قضية عادلة أو كريمة ، حتى تفوز وتنتصر ، لتثير ذكريات الاستبسال العفيف ، والتضحية الفردية والجماعية ، وإغاثة الملهوف ، وإجلال السمو الأخلاقي ، لتحرك في النفس معاني السماحة الباسمة وسط المخاطر ، والرقة الوادعة التي تلازم القوة ، والتودد الكريم .

ولكن هذه المعاني النبيلة ، والأهداف الغالية ، والمرامي السامية ، استغلت استغلالاً يتنافى مع كل مرمى خلقي ، أو هدف أخلاقي ، في حملات الحروب الصليبية على بلاد الشرق ، حيث تجرد أولئك الفرسان من كل معاني السمو والشرف والسماحة والعدل ، فبلغوا غاية الطغيان ، وكانوا أظلم من الظلم ، وتشهد عليهم شوارع القدس القديمة ، التي سالت فيها دماء الأبرياء بغزارة ، من سيوف أولئك الفرسان التي أعملوا فيها ذبحاً للأطفال والشيوخ والنساء .

في هذا العصر ربيت الخيول القوية لأغراض الحرب والفروسية ، فأعطت الخيول مظهراً متميزاً ، وقد سرح الفنانون في الخيال ، فأبدعوا في الرسم والتصوير ، بلوحات بديعة ، عرض الكتاب عدداً منها ، تمثل الفرسان بكامل ملابسهم المزركشة ، وأسلحتهم المختلفة ، كما في لوحة « سان مارتيني » (١٢٨٤ ــ ١٣٢٤) ، أما لوحة المبارزة للفنان « رينيه دوانجو » سنة (١٤٠٩ م) فهي بديعة في اتقانها وألوانها وأضوائها .

عصر النهضة

عصر النهضة مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية ، حيث نزح العلماء والفنانون إلى ايطاليا ، ومعهم تراث اليونان والرومان ، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر الميلادي ، والسادس عشر الميلادي ، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا ، وأسبانيا والمانيا ، والأراضي الواطئة ، وانجلترا ، وإلى سائر أوروبا .

برزت في هذه الأثناء ــ نهضة فنية راقية ، كان من أعظم شخصياتها « ليونارد دافينشي » و « مايكل انجلو » و « رافائيل » ، وكان لهذه الحقبة لمسات فنية ، أصبحت ذات تأثير واسع النطاق في الفن ، والعمارة ، فكانت هذه النهضة عودة واعية إلى المثل العليا ، والأنماط الكلاسيكية ، حيث تحرر الفنانون جزئياً من التقاليد القاسية ، واحتلت الدراسات عن الخيل مكاناً بارزاً ، فرسمت لوحات رائعة للخيل ، فنبغ فنانون كبار أمثال « رافائيل » الذي رسم للحصان لوحات رائعة ، وكذلك « روناد مونتو فالو » و « جيافيني بولوتا » ، وآخرون .

ولقد أطلق بعض المؤرخين على القرن السادس عشر عصر العباقرة ، عندما برزت ثورة ثقافية فكرية كبرى ، غيرت مجرى الحياة الأوروبية ، فكان هذا القرن مفتاحاً للحقبة التاريخية التي تعتبر بدءاً للعصر الحديث ، في هذا القرن ارتقى

● ارتبط الحصان بالفرسان الذين يقومون بحماية الضعفاء ويدافعون عن القضايا العادلة



منظر ريفي في أوربا القرن الخامس عشر ، ونرى الخيول وهى تقوم بالحرث

خوذة (إغريقية) من البرونز محفور عليها حصان ، تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد

الذروة فنانون عاصروا الحقبتين وولدت عبقريات جديدة . فأصبحت أسماء مايكل انجلو ، وتيسيان ، ودافنشي ، ورافائيل ، وتينتوريتو ، تلوح كأسماء ذات أبعاد تخرج بها عن نطاق عصرها .

عصر الباروك

للقرن السابع عشر سمات عامة وخصائص فنية ، وسعت من نطاق الرؤيا ، وأضافت إلى تجارب الانسان في مضمار الفنون أشياء جديدة أثرت روح الفن وتعابيره . كما تميز هذا العصر ببحثه الدائب حول النور والظل ، وبعودة الفنان إلى الواقع وسياحاته في مجالات الطبيعة ، وبحثه عن التناسق المعبر ، وتنظيم الفضاء ، وتوازن الحجوم للأشياء ، وانجذابها ، وارتباطها ، وبذلك قدمت حلاً لكل المشاكل المتعلقة بالنور واللون ، والزمن ، والفضاء ، من خلال العمل الفني . فبدت في أسلوب العمل الفني ، سمة عامة ، تتمثل في سيطرة « الباروك » الذي أصبح رمزاً للعصر ، ومدلولاً عاماً لا ينتسب إلى وطن معين ، وانما يحمل سمات فنية مشتركة ، بين بلاد عدة ساهمت في اثراء الحياة الفنية في هذا العصر ، بمعالم لها خصائص البذخ والترف والفخامة والمبالغة ، وحرية التكوين في أشكالها المركبة ، التي ابتدعها الباروك ، حيث ساد اتجاه التأليف والاقتباس من اتجاهات مختلفة ، فكانت اللوحة في هذا العصر ، مسرحاً لالتقاء عديد من الاتجاهات والاساليب وتجميعها وصياغتها .

ولقد جاء الباروك كرد فعل مضاد للكلاسيكية التي عادت في عصر النهضة ، ومن أعلام هذا العصر « برتيني » و « بورديني » و « فينولا » ، وبلغ هذا الفن ذروته في عهد لويس الخامس عشر ، وازدهر في ألمانيا والنمسا ، وبلغ ذروة تطوره في اسبانيا على يد « شيريجيرا » .

وظهرت في هذا العصر لوحات رائعة للخيول مثل لوحة « شارلس لوبرون » ، ولوحة « السير انتو فان دايك » ولوحة « ديفو فالس كويز » ولوحة « البرت تيوب » ولوحة فيليب « وفر مانز » ولوحة « رميراند فان ريجي » وآخرون .

الحصــــان في فنون الشرق

تطرق « جون باسكت » بشكل سريع مبسط ، الى الخيل في الفن الشرقي ، وأورد لوحات عديدة فارسية ، وصينية ، ويابانية ، وهندية ، وكانت أبرزها لوحة للمبارزة بين « رستم » و « اسفنديار » في القرن الرابع عشر ، وهي مأخوذة من الشاهنامة ، وأورد لوحة من المدرسة المغولية لفارس يطلب الماء من أصحاب بئر ، وهي مرسومة في الهند عام ١٦٦٢ م .

القرن الثامن عشر

« عصر الروكوكو »

اذا كان القرن السابع عشر تميز بأنه عصر « الباروك » ، فان القرن الثامن عشر عرف في عالم الفن بعصر « الروكوكو » ، ذلك الطراز الذي يعد امتداداً للباروك ، بعد أن فقد عنفوانه الجارف ، وتحول إلى ضرب من المقاييس الجمالية المتسمة بالأناقة والرقة والحلاوة .

كانت أوروبا في هذا العصر تعيش عهداً من الرخاء ، والحياة المرفهة ، حيث أمدتها المخترعات العلمية بوسائل الرفاهية ، والحياة الاجتماعية ، واتسع مجالها .

أما بالنسبة للحصان ، فقد اتسم هذا القرن بفترة الفن الكلاسيكي في انجلترا ، فكانت اللوحة الجميلة للسير « روجر بيرجن » على صهوة جواده ، والتي رسمها « جيمس سايمور » سنة

الحصان
أجمل حيوان وأروع لوحات

١٧٤٠ م ، وكان من أبرز الفنانين الذين أعطوا الخيل اهتماماً كبيراً الفنان « جورج سبنس » ، الذي وضع كتاباً في علم الحيوان ، ورسم لوحات رائعة ، منها لوحة تمثل « دوق ريشموند » في رحلة صيد سنة ١٧٦٠ م ، كما رسم لوحة شهيرة أخرى لمجموعة من الخيل في أوضاع مختلفة ، وقد رسمت هذه اللوحة سنة ١٧٦٢ م « لماركيز روكنجهام » ، وله لوحة أخرى بديعة لحصان يهاجمه أسد ، وثالثة لحصان خائف مرتاع لمنظر أسد يتحفز لمهاجمته .

وقد رسم « ساوري جلين » سنة ١٧٩٢ ، لوحة رائعة لحصان عربي ، تفنن في هذه اللوحة في الاضاءة والظلال ، وفي حركة الحصان ، ولونه .

العصر الحديث

يتصف النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بعصر انتصار الرومانسية على الكلاسيكية الجديدة ، على حين كان نصفه الثاني هو عصر الواقعية والانطباعية ، ويعتبر هذا العصر عدة عصور فنية متداخلة في بعضها البعض وقد بدأت بالصراع بين الكلاسيكية الجديدة والرومانتيكية ، وانتهت بنوع آخر من الكلاسيكية على يد « سيزان » و « سيرا » من ناحية ، وبنوع آخر من الرومانتيكية على يد « جوجان » و « فان جوخ » من الناحية الأخرى .

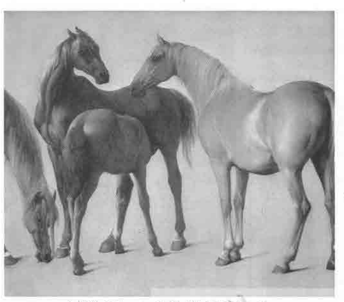
وبالنسبة للحصان ، فقد اشتهرت لوحات « جيمس وارد » و « جون فريدرك هاننج » و « إدوارد تروي » .

وكانت اللوحة الشهيرة للفنان « بول جوجان » ، الذي اتخذ رسم الحصان ليس لقوته ونبله بل لجماله الذي لا يقاوم ، وكان ذلك سنة ١٨٩٨ .

كما رسم الرسام الشهير « بابلو بيكاسو » بعد زيارته الأولى لباريس لوحات كثيرة للحصان ، أورد الكتاب ثلاثاً منه .

الأحوال والانساب والأسماء

ولقد خص المؤلفون من أدباء ، وشعراء ، وعلماء ، وفنانين ، الخيل بعناية كبيرة ، فعالجوا شتى الجوانب المتصلة بها ، فبحثوا في صفاتها ، وأحوالها ، وأنسابها ، وأسمائها ، وألوانها ، وأصواتها ، وأشكالها ، كما صنفوا مواضع الفروسية ، ورعاية الخيول ، وكل ما يتصل بها . وذلك لما وهب الله الخيل من جمال الشكل ، وحسن الطبع ، وحب الالفة ، فلها سرعة الطير ، وقوة الدابة ، وشجاعة الانسان ، ولها خفة النسيم ورشاقته ، وعتو الريح وصولته ، وكان من نصيبه حسن الخلقة ، من إهاب قائم ، وشهاب أبيض في الجبهة ، وكريم خلق ، من ذكاء في الكر والفر ، وحمية المتيقن في القتال .



مقطع من لوحة للخيول للفنان الانجليزى « جورج استبز » (١٧٦٢ م)

أن في القرآن الكريم تشريف عظيم للخيل ، اذ يقسم بها الله سبحانه وتعالى في قوله الكريم : « والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ، إن الانسان لربه لكنود » صدق الله العظيم .

وكذلك ورد هذا المعنى في حديث رسول الله صلوات الله عليه وسلامه :

« الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

ولعل الناظر من أول وهلة إلى الحصان يدرك أصالته ومزاياه ، ويوجز الأمير « عبدالقادر الجزائري » في رسالة إلى الجنرال الفرنسي « دوما » صفات الحصان الكريم فيقول :

« إننا لنعرف أن الحصان لا يكون عريقاً حقاً إلا إذا اقترن جمال تكوينه بالشجاعة والخيلاء ، وازدهى عجباً وسط الطلقات والنوازل ، فيعتز بفارسه ، ويأبى أن يمتطيه سواه ، ولا يأكل قط فضلات حصان آخر ، ويسره أن يعكر بأقدامه ما قد يقابله من الماء الصافي ، وهو بسمعه ، وبصره ، وبمهارته وذكائه ، يستطيع أن يقي صاحبه آلاف المكاره في الطرد والحرب ، كما يشاطر فارسه مشاعر الألم والسرور ، ويعاونه بالقتال معه ، والاتحاد وإياه في كل زمان ومكان . »

أما في القتال ، فيبذل الفرس الأصيل العون لفارسه أثناء المعركة ، فيعض العدو في صدره ، ويدافع عن فارسه ، باليدين والرجلين ، ويكر ويفر ، وينقض على العدو في لحظة انطلاق السهم ، واذا مضى الفارس يبحث عن ملاذ ، ولمح الجواد ملاذاً ، سابقت سيقانه بصره ، وطوى المسافة التي تفصله عن هدفه ، كما تطوي الريح السحاب ، واذا رأى الرماح تهدد صاحبه ، هب إلى الزود عنه ، وشب بجماع جسمه ليحميه ، واذا هوجم الفارس من الخلف ، ينزلق تحت بطن حصانه ، أو يتعلق بعنقه ، وحصانه المسرع سرعة البرق ، كفيل بأن يحميه بعيداً عن الخطر .

لذلك فان الرابطة التي تصل الحصان بفارسه ، رابطة قوية ، حتى اننا لانجد اسم المقاتل إلا مقترناً باسم جواده ، لذلك فقد التزم الشعراء في قصائد وأبيات لا حصر لها ، في مدح بطولات جيادهم ، بكلمات مختلجة بالعاطفة ، يوحيها التقدير وعرفان الجميل ، تنطق بالالفة والحنان ، وكأني بها ، وهي تنشد في المعركة ، تزكي في نفس الجواد حمية وفخراً ، فهذا الاخنس بن شهاب يقول لفرسه « زيم » :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم
مثلي على مثلك يدعى العظم

ويقول « زيد بن سنان » في فرسه الوجزة :

رميتهم بوجزة إذا تواصوا
ليرموا نحرها كثبا ونحري
إذا نفدتهم كرت عليهم
كأن فلوها فيهم وبكري

ويقول « حمزة بن عبدالمطلب » رضي الله عنه في



الرحلة إلى بيت لحم : لوحة للفنان الايطالي « بينوزو جوزولي » يعود تاريخها إلى عام ١٤٦٣ م

فرسه « الورد » :

أتقي دونه المنايا بنفسي
وهو دوني يغشى صدور العوالي
فإذا ما هلكت كان تراثي
وسجالاً محمودة من سجالي

وهذه اللوحة الشعرية

وقد رسم الشاعر العربي امرؤ القيس هذه اللوحة الشعرية الرائعة للجواد فيقول :

وقد اغتدي والطير في وكناتها
وماء الندى يجري على كل مذنب
بمنجرد قيد الأوابد لاحه
طراد الهوادي كل شأو ومغربِ
على الأينِ جياشٍ كأن سراتَهُ
على الضّمر والتعداء سرحةُ مَرقبِ
له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وصهوة عير قائم فوق مرقبِ
له كفل كالدّعصِ لَبّده الندى
الى حاركٍ مثل الغبيطِ المذأبِ
وعين كمرآة الصَّناع تديرها
لمحجرها من النَّصيفِ المنقَّبِ
له أذنان تعرف العتقَ فيهما
كسامعتي مذعورة وسط ربربِ
ومستفلك الذّفريّ كأن عنانه
ومثناتَهُ في رأس جذع مُشذَّبِ
واسحم ريان العسيب كأنَّهُ
عثاكل قنو من سميحةِ مرطب

اذا ما جرى شاوين وابتلّ عِطفَهُ
تقول هزيزُ الريح مرّت بأثأب

هذا غير ما يروى من ذكر أخبار الخيل ، كالفرس « جذعة » التي ظلت تعدو من الصباح إلى مغرب الشمس ، حتى سقطت ميتة في معسكر فارسها بعد أن انقذته ، وكذلك الفرس « جلاب » ، التي نحرها حاتم الطائي لاطعام ضيوفه ، والفرس « الاطلال » التي وثبت وثبة ارتفاعها أربعون ذراعاً ، والفرس « عوج » التي قطعت قيودها ، وانطلقت تعدو أربعة أيام متصلة حتى وجدت صاحبها .

قصص الفروسية في الغرب

ونجد مثل هذه الأمثلة تملأ قصص الفروسية في بلاد الغرب ، فظهرت كتب كثيرة باللغة الفرنسية واللغة الانجليزية والالمانية والاسبانية والبولونية والروسية وغيرها ، وتغنى بالجواد الشعراء والأدباء في بلاد الغرب ، فهذا « لا مارتين » شاعر فرنسا الكبير يقول :

« إن عيون الجياد العربية هي لغة بكاملها ، إذ يعبر الجواد بعينيه الساحرتين عن كل شيء ، وبها يفهم كل شيء ، وتتفجر من محاجرها حدقة من نار ، وسط بياض مبقع بالدم » .

ويقول « بوفون » العالم الفرنسي :

« إن الجواد هو أنبل كسب سيطر الانسان عليه »

وقد ملأت أسماء الجياد قصص الفروسية الغربية ، تروي كيف أيقظ جواد « أوجيه » صاحبه عند اقتراب العدو . وفي قصة « رينو دي مونتوبان » يصيح « رينو » وهو يتحدث إلى جواده « بابار » قائلا :

« ألا بوركت الساعة التي ولدت فيها » . ثم يخاطبه بعاطفة يفهمها كل من يحب الخيل ، بقوله :

« إيه « بابار » ! ليتك استطعت النطق ، حتى تخفف من شدة ألمي » .

وتروي قصص أخرى ، كيف عاد « دوستون » بعد غياب دام سبع سنوات ، فلم تعرفه خطيبته ، بينما عرفه حصانه !

كلمـــة أخيرة

وبعد فسيبقى الحصان مصدر الهام للفنانين على طول المدى ، وسيبقى كذلك مصدراً يتغنى به الشعراء ، وقد اهتمت المكتبة العربية مؤخراً بالخيل ، فصدرت مجموعة من الكتب أبرزها كتاب الجواد العربي ليوسف ابراهيم يزبك ، الذي أخذ كثيراً من لوحاته من كتاب « جون باسكت » .

أما كتاب الحصان في الفن ، فانه تحفة رائعة ، بما احتوى من المعلومات واللوحات الفنية ، هذا عدا ثبت كبير بالمراجع ، وفهارس للوحات الكتاب الفنية . انه كتاب جدير بالمطالعة ، وجدير بترجمته إلى العربية لاظهار كيف أن الجواد العربي ، أجمل الخيول على الاطلاق .

حسني شحادة

سفن الدوحة
في إحساس الفتيات القطريات

بقلم: الدكتور محمود البسيوني

يجذب نظر الزائر الجديد لمدينة الدوحة الى مجموعة المراكب الكائنة فوق شاطىء المدينة ، بأنواع مختلفة ، وأحجام متعددة ، ويرى تلك السفن معروضة فى بركة بمتحف قطر الوطنى ، لتحكى تاريخ الدوحة حينما كان شاطئها الرئيسى فى مياه الخليج حيث يعمل عدد من السكان باصطياد اللؤلؤ ، والمحار ، والأسماك ، أو بالتجارة عبر هذه المياه المتسعة .



سفن الدوحة من خلال رؤية للطالبة عائشة خميس الخليفي



لوحتان من وحى السفن على الشاطىء : الاولى للطالبة مريم أحمد الموسى .. والأخرى للطالبة بدرية عيسى البدر





رؤية أخرى لسفن الدوحة للطالبتين : ليلى حسين النعمة .. ووفاء ماجد الخليق

● الأنامل الرقيقة ترسم السفن في أكثر من لوحة وتعبر عنها بصورة فنية نابضة

ووضع السفن على الشاطىء بهذا التراكم مثير للرؤية ، ويعبر عن لمسة وفاء لتلك الأجسام التى صنعها الانسان بيديه لتخدم أغراضه . وطالما أن الأيدى هى أدوات التشكيل فسيتبعها انفعالات الإنسان التى شكلها ، وصاغها فى قوالب مميزة ، تدركها حينما نقارن هذه السفن بغيرها التى تنتمى لبيئات أخرى .

وكل سفينة مصنعة لتخدم غرضها ، فلها بدن عريض فى الوسط ، وتصيبه النحالة والرشاقة حينما يمتد إلى الأمام حيث مقدمة السفينة ، الذي يلتقى عنده الجانبان الأيمن والأيسر فى واجهة تكاد تشبه منقار الطائر ، أو رأس السمكة . أما الخلفية التى تكون الدفة الموجهة للسفينة فهى قاعدة مستعرضة تربط الجانبين ربطاً يجعل للشكل الكلى للسفينة كياناً تجريدياً خالصاً ، من صنع الإنسان ، ويزيد هذا الكيان جمالاً الصوارى التى كانت تحمل أشرعة السفينة ، فهى تصنع عادة لتعبأ فيها الرياح التى تدفع السفينة إلى الأمام ، تشق طريقها عبر أمواج البحر العاتية ، وهى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال فى جو راقص حالم .

والسفينة لها أهمية كبيرة فى حضارة الانسان وانتقاله من مكان إلى مكان ، وذكرها القرآن الكريم مع نوح وفى قصة موسى والخضر الذى خرق السفينة ليحتفظ بها لأصحابها من يد ذلك الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً . ورسمت السفينة على جدران المعابد وجسدها المصريون القدماء فى نماذج تشرح النشاط البحرى الذي كانت تقوم به حتشبسوت فى أعالى النيل .

وقد تناول مصورون عديدون السفينة كموضوع للتعبير التشكيلي . وكان كل منهم يبرز فيها المعالم التى تروقه ، أحياناً يبرزها كجسم صلب له كيان مميز صامت ، تلفعه أمواج البحر ، وأحياناً أخرى يفجر الفنان من حولها الحركة ونشاط التجارة أو الصيد .

سفن الدوحة
في إحساس الفتيات القطريات



ثلاث لوحات تمثل فيضا أصيلا تلقائيا للطالبات : ناهد ابراهيم السليطي (على اليمين) وموزة أحمد آل ثاني (أعلى) ثم وفاء أحمد الحمد





ولقد استخدم موضوع السفن الراسية على شاطىء الدوحة لطالبات قسم التربية الفنية جامعة قطر في مقرر أسس الرسم (١١٠) تحت اشراف الكاتب . وانتقلت الطالبات إلى الشاطىء حيث هذه السفن ، يستلهمن منها النظام المعماري المميز في تركيباتها ، ثم زرن متحف قطر الوطني يتأملن السفن القائمة في بركة الماء داخل المتحف ، وطبيعي أن يثمر هذا الاستلهام بابداعات متنوعة ، وتكوينات مميزة ، أخذت وقتاً وصبراً وأناة لتخرج إلى النور .

وأهم ملاحظة في هذه التكوينات أنها ليست أكاديمية ، ولم تسيطر على الطالبة فيها نزعة النقل الفتوغرافي الآلي الميت ، وانما انصب الاهتمام على التكوين ذاته ، وادراك العلاقات ، وتميز الأشكال من الأرضيات ، حتى ألواح الخشب التي شكلت جوانب السفينة ، وأشكال المسامير المتراصة فوقها ، وبعض المظاهر الأخرى كالشباك ظهرت لتعطى أنغاماً ، وايقاعات للتكوين . وها هي نماذج مختارة من هذه التكوينات حققتها الدارسات في هذا الموضوع البيئي الحي . ولكل صورة قصتها ، وشخصيتها ، وقراءتها التي تبين أن مدخل كل طالبة كان البحث عن الابداع وعن الجديد ، وكانت الألوان أدوات لبناء التعبير بتصميمات واعية ، استفيد فيها من مداخل الفن في القرن العشرين ، مثلما استفيد من تراث التصوير الإسلامي كما ظهر في المخطوطات المعروفة .

فالشكل (١) يتضح فيه الايقاع القوسي في دوران الشاطىء وتنظيمات السفن المرصوصة في تتابع دائري تتبعه أقواس أمواج الشاطىء .

أما الشكل (٢) فتداخلت الأشكال القوسية في إيقاعات جمالية ممتدة حتى نهاية الشاطىء الآخر بألوان دافئة زاهية مثيرة .

والشكل (٣) صور مجموعة المراكب في ترابط وتآلف ، وكأنها كائنات حسية تتحدث لبعضها البعض .

والشكل (٤) انشغلت فيه الطالبة بالانعكاسات في البحر ، وبنوع من الرومانتيكية المسيطرة على الزوارق ، في لحظات الشفق التي تدعو للتأمل .

والشكل (٥) بنائي لوني فياض بالتناغم والحس المرهف .

والشكل (٦) أبرز المسامير في ايقاعات جميلة تكسو أجسام السفن الزرقاء والصفراء والخضراء .

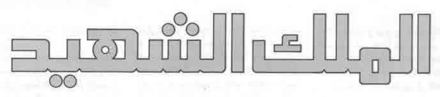
والشكل (٧) تشريحي إيقاعي في السفن وفي الكثبان الرملية ، وتنظيمات الخطوط القوسية ، يدعمها اهتمام الطالبة التلقائي بالملامس .

والشكل (٨) استخلصت فيه الطالبة نظاماً تجريدياً خالصاً تلمح من خلاله آثار الألواح والصواري والمياه الزرقاء .

هذه نماذج قليلة من كثير تمثل فيضاً من احساسات الفتيات القطريات ، وهو فيض أصيل ، تلقائي ، غير متأثر بمحفوظات راكدة ، ولا بعوائق القواعد التي تغلق عادة منافذ التفكير .

إن تلك الابداعات تمثل ثراء ، وتحمل خيراً بالنسبة لاعداد مدرسة التربية الفنية الجامعية الحديثة في دولة قطر ، فتحية لهذه الأنامل الرقيقة التي أفاضت علينا بهذه النسمات التي تدعونا للتأمل والاهتمام والتقدير .

محمود البسيوني



الملك الشهيد

بقلم: أحمد العناني

سنكون في صفحتنا هذه المرة مع الملك العربي العامري الجبوري مقرن بن زامل الذي سقط شهيد الواجب في وجه البغي البرتغالي في البحرين، وهو ابن الملك زامل بن حسين مؤسس حكم الاسرة الجبورية في نجد والاحساء، والذي امتد حكمه في فترة من أواخر القرن الخامس عشر فشمل البحرين وهرمز وعمان.

ولابد لنا من عرض سريع يعرف القارئ بكيفية نشوء هذه الدولة العربية، والظروف والأوضاع التي أدت إلى ارتفاع شأنها... من المعروف أن ضعف الخلافة العباسية في بغداد ضعفاً واضحاً منذ القرن الرابع للهجرة أدى إلى قيام سلسلة من الحركات الثورية المشبوهة وكان آخرها وأشدها عتواً حركة القرامطة التي استفحل أمرها في البحرين والاحساء وجنوبي نجد، وتطاولت على أقدس أقداس المسلمين بعدوانها على البيت الحرام ونقل الحجر الاسود من مكانه التاريخي إلى عاصمتهم في هجر، وقد شاء الله تعالى أن ينقسم أولئك المخربون الاشرار على أنفسهم لأسباب انتهازية بسبب تأييد بعضهم للدولة الفاطمية بمصر واتصال الآخرين بمقر الخلافة في بغداد...

إذ ذاك دبت الحماسة في السكان المحليين وقام زعيم قبيلة العيونيين الاحسائية بالاتصال ببغداد حيث أُنجِدَ بفرقة من الفرسان تتألف من سبعة آلاف مقاتل انضم اليهم أربعة آلاف من رجال القبائل العرب، فحاصروهم بضعة أشهر في قلاعهم بالاحساء إلى أن أجبروهم على التسليم.

وبدأت فترة من حكم القبائل في مثلث الاحساء البحرين قطر بدأها العيونيون الذين انتهى أمرهم إلى تناحر شديد بين فروع قبيلتهم مما أدى إلى ظهور بني عصفور من آل عقيل من بني عامر في مكانهم، وقد اشتهر هؤلاء بقافلتهم التي كانت تضمن الأمان لحجاج بيت الله الحرام، وقد دام ضمانهم للقوافل بين الخليج والحجاز بضع مئات من السنين لم يتحدهم خلالها سوى قبيلة طيء التي نزلت في البصرة ولكن ذلك التحدي انتهى إلى الفشل.

ولا يعرف مدى الصلة التي تربط آل عصفور بالجبوريين، وإن كان بعض الرواة يدعون أن العصفوريين والجبوريين هم فرعان من عامر بن عقيل، ولكننا نعلم يقيناً أن هيبة بني عصفور امتحنت امتحاناً عسيراً في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي، وذلك بتقدم إمارة هرمز الغنية وبسطها نفوذها على البحرين، ونحن نرى هذه الحالة ممتدة أوائل القرن الخامس عشر الميلادي إذ كان لقب قطب الدين فيروز شاه ملك هرمز هو ملك هرمز والبحرين والحسا والقطيف، الأمر الذي يؤكد ما توردة مصادر مختلفة عن تهافت دولة العصفوريين.

لم تكن مملكة هرمز الصغيرة مؤهلة لملء كل الفراغ المنسوب لها ملؤه ولذلك نجد الفترة الأولى من القرن الخامس عشر شديدة الغموض حيث تشير كل الدلائل إلى قيام تدخلات منوعة في شئون المنطقة بعضها من قبائل تترية كالآق قونيللو، ولعل مناسبة ذلك التدخل الذي شمل الفرس وقبائل البحرين والاحساء هو صراع الأخوين سيف الدين مهار ملك هرمز وأخيه فخر الدين توارنشاه حاكم ميناء قلهات بعمان، الأمر الذي أضعف قدرة هرمز على فرض أية هيمنة في المنطقة.

قيام دولة الجبوريين — الشيخ زامل بن حسين

منذ سقوط القرامطة، ونجد والاحساء هما مصدر القوة الأفضل لملء فراغ النفوذ في حوض الخليج، وقد أدت الأحوال المضطربة بعد ضعف هرمز إلى ظهور الجبور بزعامة زامل بن حسين في كل من نجد والاحساء والبحرين، في وقت وصل فيه مد الفوضى بين قبائل تيمورلنك وقبائل السلاجقة والتركمان إلى أسوأ مراحله.

ومن منطقة بمدينة اليمامة راح زامل يعزز مركزه الحساس على طريق القوافل بين الخليج والحجاز، خصوصاً بعد امتداد نفوذه إلى البحرين.. ولم يتردد في استخدام الأرباح المتاحة له في زيادة العنصر الحضري من الجنود المرتزقة في جيشه الذي كان به فصائل هامة من البدو.

إن هناك غموضاً حقيقياً، وتضارباً لا يمكن إخفاؤه بين مصادر تاريخ هذه الفترة من نهاية القرن الخامس عشر حول شجرة انساب الجبوريين، فبينما يؤكد العيوني في كتابه عن تاريخ الاحساء أن مقرن هو ابن زامل، نرى آخرين يجادلون بشدة بأن مقرن إن هو إلا حفيد لزامل، وأن والده هو، أجود، الذي كان له فضل يفوق فضل زامل في توسيع رقعة الحكم الجبوري بحسن الاستفادة من الصراع الداخلي في هرمز، حتى حل

الجبوريون محلها في كل من البحرين والقطيف والداخل العماني.

وتبسيطاً لأمور القارئ العادي نقول ان هناك ثلاثة أسماء لمعت في تاريخ الجبوريين لزامل وأجود والملك الشهيد مقرن وبينما كان زامل هو المؤسس في داخل شبه الجزيرة بين الاحساء ونجد فان الفضل يعود لأجود في حلول مملكة الجبوريين محل مملكة هرمز في سائر مناطق نفوذها في البحرين والاحساء وعمان.

وكان أجود هو الذي انفرد بسلطان البحرين والقطيف والاحساء وشيخ نجد، ومن الثابت أن ملك المملكة البهمنية في منطقة حيدر آباد بوسط الدكن في الهند قد كانت بينه وبين أجود مراسلات تجارية وغيرها. وكانت مملكة الدكن البهمني هذه على صلات تجارية وثيقة مع دولة المماليك في مصر. ومن المعروف عن أجود أنه انتهج سياسة مكيافيلية في إفادته من الصراع الداخلي سواء بين الطامحين بالانفراد في ملك هرمز أو بين الاباضيين في داخل عمان وسليمان النبهاني حليف هرمز على السواحل ومنذ ذلك الحين أصبح للجبوريين وجود دائم داخل عمان أثر في مستقبل الاحداث بها مدى قرنين متكاملين

وحين كان لأجود اليد الطولى في إعادة سلغور شاه إلى عرش هرمز، وصل نفوذ الجبوريين قمة إنجازه. وكانوا جديرين حقاً بأن يصبحوا القوة الاساسية في شرقي الجزيرة العربية لولا الظهور المفاجئ للبرتغاليين في مياه الخليج عام ١٥٠٧ للميلاد من جهة، والمتاعب القبلية التي بدأوا يواجهونها بالحاح شديد وتواصل في داخل نجد، وهي متاعب أعاروها اهتماماً بالغاً لأنها تقع في موطن «العمق» الذي يرتكزون عليه في إحكام صلتهم بددل عمان. وفي ازالة التهديد عن طرق القوافل إلى الحجاز.

ومما يذكر لأجود بن زامل جهوده الجبارة في إعادة قوة السنة في سائر المنطقة الساحلية بتشجيع أنشطة العلماء السنيين واستقدامهم مع الحفاوة البالغة إلى سائر المراكز الحضارية للدعوة إلى التزام السنة. وفضلاً عن ذلك أصبح جائزاً أن يقال بأن الجبوريين باتوا هم حماة المواقع المقدسة في مكة والمدينة حيث أنه من الثابت أن الشريف بركات استنجد بهم فظهروا في موسم الحج بقوة قدرت بخمسين ألف مقاتل.

الملك الشهيد مقرن في مواجهة البرتغاليين

لا شك أن ظهور البرتغاليين بالكيفية التي ظهروا بها منذ ختام القرن الخامس عشر في كل من شرقي أفريقيا، وسواحل المحيط الهندي والخليج قد أكسبهم، باعتمادهم عنصري المفاجأة وسرعة البطش الشديد، نفوذاً مهيمناً وكسباً معنوياً كبيراً، ولا شك أيضاً في أن علاقات الجبوريين بكل من هرمز والبحرين كانت علاقات مربحة لهم. فغير خاف أن هرمز ربما كانت من أغنى الدويلات التجارية التي برزت على مسار التاريخ، ولاجرم كان لنفوذ الجبوريين فيها منذ بداية الربع الأخير من القرن الخامس عشر أثره في زيادة مداخيلهم، وحسن الاهتمام بالمتطوعة من جنودهم، وكذلك، وإلى حد أقل كانت فائدة البحرين للجبوريين.

لهذا كان لابد من الاستماتة في الدفاع عن الموقعين إن أمكن أو أحدهما على أقل تقدير.

كانت أمور الدولة الجبورية قد آلت إلى مقرن في بداية القرن السادس عشر للميلاد، حين تعقدت ظروف الصراع في الخليج على شكل لم يسبق له نظير من قبل، وليس من المبالغة في شئ القول بأن الروايات الخيالية عن فداحة غنى السكان في جزيرة هرمز قد هيجت أطماع الطامعين على النحو الذي سوف نشير له.

أولاً كان على رأس الطامعين ذلك النفر من قراصنة البحر البرتغاليين المغامرين الذين كانوا يعلقون خطاياهم على مشجب الكنيسة مدعين أنه كلما زاد الضرر الذي يوقعونه بالمسلمين، وتنوعت أشكال قسوته كان ذلك أدعى إلى الافتخار بأفضل ما ترضى عنه الكنيسة الكاثوليكية من الانجاز، وعلينا أن نعلم أن الرابطة التي كانت تجمع تلك الزمر من وحوش البحر إنما كان الغنائم؛ فهم يتصيدون السفن البريئة في عرض البحر، فيقتلون من فيها بلا تردد، ويصادرون أحمالها من البضائع، وهم يباغتون الموانئ الآمنة الصغرى ليلا فيذبحون أهلها وهم يثيرونهم من نومهم ذبح النعاج؛ وأكثر ما يهمهم أن يستولوا على حلي النساء وأموال التجار.

ولكنهم حين يواجهون موقعاً محصناً كهرمز يستدعون سائر قواتهم ويطلبون النجدات من كل من مركزهم الرئيسي في جوا بالهند، ومن عاصمة بلادهم لشبونه.

في بداية القرن السادس عشر كان ضغط الاتراك على شمال وغرب ايران ضغطاً عنيفاً جداً، كان قمته الانتصار التركي الساحق على الشاه الصفوي اسماعيل في موقعة جاليران الشهيرةعام ١٥١٤م (حوالي ٩١٩هـ)، ومن الأمور المعروفة أن الاتراك العثمانيين كانوا قد وفقوا في الحلول محل السلاجقة في آسيا الصغرى وفي اقتحام عاصمة الدولة البيزنطية «القسطنطينية» عام ١٤٥٣، ثم راحوا ينتشرون في كل اتجاه، ملاحظين أن ظهور الدولة الصفوية في ايران وتوجهها للتفاهم مع اعداء العثمانيين كان جديراً بأن يحد من اندفاعهم في أوربا، ولذلك آثروا مناجزة الصفويين فكان انتصارهم الحاسم الذي أشرنا له عام ١٥١٤.

ولم يتردد شاه الصفويين في الاتصال الفوري بالبرتغاليين والتحالف معهم. وكانت ميزة البرتغاليين بالطبع هي تفوقهم البحري..

ولم يكن في وسع الاتراك ولا الجبوريين أن يحولوا دون سقوط هرمز أمام تحالف البرتغال وفارس، ولولا أن الغزاة كانوا حريصين على عدم تدمير موقعها كأعظم محطة للتجارة العابرة في العالم، وما يعنيه ذلك من أرباح اسطورية من الجمارك لفعلوا في هرمز نظير ما فعلوه في صحار ومسقط وغيرهما من مدن عمان التي كانوا دمروها تدميراً قبل أن يحاصروا هرمز، ويتوصلوا معها إلى نوع من الصلح الاستسلامي بفضل جهود الشاه عباس في عام ١٥١٤م

ومنذ تلك اللحظة أصبح موقف الجبوريين في منتهى الحرج...

فلقد أدى انشاء القلاع البرتغالية في سواحل عمان وشحنهابحاميات قوية إلى اضعاف مركز الجبوريين في داخل عمان..

والآن أدى سقوط هرمز ليس لخسرانهم ما كانوا يجنونه من ارباح مباشرة وغير مباشرة نتيجة نفوذهم وتعاملهم التجاري معها على التوالي، ولكن أيضاً للادعاءات الوقحة من البرتغاليين بأنهم باحتلالهم هرمز أصبحوا ورثاء شرعيين حتى لنفوذهم المندثر في كل من البحرين والقطيف وهو ما يعني القضاء على الجبوريين..

مقرن يحصن البحرين

لم يكن في وسع مقرن أن يتدخل في هرمز بسبب قربها المباشر من الساحل الذي يهيمن عليه الصفويون في فارس، ولقوة الاسطول البرتغالي في البحر، لذلك قرر مقرن أن يجعل خط دفاعه في البحرين لقربها من الاحساء، وامكان حشد سائر السفن العربية لحماية المسافة البحرية بين البر والبحرين في كل من الاحساء وقطر...

وبالفعل فان مقرن راح يواجه تحديات البرتغاليين بمثلها: فهم يتعرضون لسفنه المتجهة لهرمز أو للخروج إلى المحيط الهندي، وهو بدوره يضايق سفنهم المتجهة إلى البصرة أو موانئ فارس الشمالية.

وقد غدا واضحاً أن موقع الحسم بين القوتين هو جزيرة البحرين، التي فشلت بضع محاولات بحرية برتغالية في الاقتراب منها، لكنه عندما قام

ملك الجبوريين مقرن بن زامل عام ٩٢٦ للهجرة بأداء فريضة الحج ، انتهزها البرتغاليون وأحلافهم الصفويون والهرامزة فرصة ، فتوجهوا بقوة ضخمة إلى البحرين . ولكنه أتضح أن مقرن وإن كان قد غاب مؤقتاً عن مسرح الأحداث ، لكنه كان على حق في ركونه لمناعة دفاعات الجزيرة ... وقد أفلح المهاجمون في انشاء بعض رؤوس الجسور المؤقته على بر الجزيرة إلا أن هجمات النبالة والفرسان العرب كانت سرعان ما تصفيهم أو تلجئهم للمسارعة إلى سفنهم .

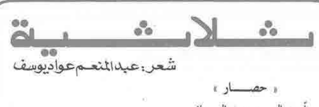
وفشل الهجوم الأول فشلا ذريعاً . وراح الطرفان يعيدان تشكيل قواتهما ، فيما أرسل البرتغاليون يطلبون المزيد من النجدات البحرية من جوا وغيرها ، فان الجبوريين كانوا قد أعدوا قوات احتياطية بينهم كتائب من الخيالة ورماة السهام ، وعدد محدود من رماة البنادق .

استشهاد الملك العربي

وردت الانباء في صيف العام التالي (٩٢٧ للهجرة) ١٥٢١ م عن تقدم قوة برتغالية هرمزية تحت قيادة مشتركة من انطونيو كوريا أميرال البحر البرتغالي والريس شرف الدين ملك هرمز الخاضع للبرتغاليين ، وكان في الحملة أكثر من أربعمائة سفينة نقل ، والعديد من سفن الهجوم الصغرى السريعة المزودة بحملة البنادق ورماة السهام . ولكن أشد شئ تهديداً للمدافعين كان بلا شك وحدة البوارج الحربية الثقيلة المجهزة بمدافع الميدان الضخمة ، والتي لم تكن السفن التي أعدها الجبوريون على مستواها العسكري في شئ .

جرت المعارك في جولات متلاحقة ، فالبرتغاليون يمهدون بقصف مدفعي ثم يتقدم رماتهم ومن ورائهم المشاة ، والمدافعون تتقدم سراياهم الدفاعية وعلى رأسها في كل حالة الملك الباسل مقرن ، منادياً بثارات المسلمين ومحرضاً جنده بأنهم إن يهزموا فلن تقوم للعرب قائمة في الخليج ، وانه لمن أسف بالغ ولسوء حظ العرب الجبوريين والبحرينيين انه في آخر مراحل المعركة وقد أصبح النصر الحاسم قاب قوسين أو أدنى استطاع البرتغاليون تمييز الملك الباسل في مكانه بالمعركة واصابته بجراحات بالغة ، ولكن الجبور لم يفقدوا معنوياتهم إلا حين توفى مقرن ، فبادروا للانسحاب إلى القطيف . وهناك دارت معركة طاحنة من أجل جثمان الملك الشهيد إلى أن تمكن البرتغاليون منه فقطعوا رأس الجثة وانهارت مقاومة الجبور ... وكان للحادث ما كان من آثار مؤسفة في الخليج .

احمد العناني



ثلاثية

شعر : عبد المنعم عواد يوسف



« حصـــار »

محصوراً بين البحر ، وبين الصحراء

لو أفلتُ من قيعان الرملِ ، أصارع دوّاماتِ الماء

يا رملاً يملأ حلقي ..

ملحٌ أنت ورمـــلُ

يا ملحاً يفعم روحي ..

رملٌ أنت وملحُ

تماسك ذراتُ الملح ، فتصبح رملاً في الحلقِ ..

ملوحته تتيبّسُ في الأعضاء

تتفتتُ ذرّاتُ الرمل ، تذوبُ فتصبح ملحاً ..

أسقط بين الرمل وبين الماء

« هـــروب »

أحياناً يجلسُ في الركن الأيمن محشوراً في سترته الحمراء

أحياناً يجلس في الركن الأيسر منكمشاً في سترته الخضراء

يحسب أن ينطلي الأمر على مكر ثعالبها الرقباء ..

لا يدري أن عيوناً تمرق تحت الجلد ..

تفتش عن أصل الأشياء

فاجلس ما شئت ، يميناً ويساراً ..

وأجلس ما شئت ، أماماً ووراء

لن تُفلت من قبضتهم ..

مهما موّهت الموضعَ ..

مهما بدّلت الأزياءْ

« توحّـــد »

في زمنٍ يعلو فيه بغاث الطير ، ويشمخُ في استعلاءْ

ويصيحُ بوجه النسرِ ..

يجلجل مثل الطبل الأجوف ، تسكره الخيلاء

فيطاول مسرى النسر ، غروراً ..

يعلو يعلو ..

لا استبصار ، ولا استحياء

ماذا في وسع النسر ، سوى أن يقبع في استخفاء

كن نسراً أوحدَ ، والزمْ وكرك ..

أكرم من أن تَسْبَحَ وسط الطيرِ ..

إذا اصطبغت بالزيف الأجواء

رســـالة القـــاهرة تكتبها : ســـــارة

الكاتب الرّوائي جمال الغيطاني يفتح النار على الحياة الأدبيّة

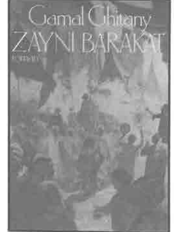
« ما من شيء يثبت على حاله ، لو حدث ذلك لصار العدم ، كل شيء في فراق دائم ، المولود يفارق الرحم ، والليل يفارق النهار ، والنهار يفارق الليل ، والساعة تفارق الساعة ، والدهر يفارق الدهر ، الجسد يعانق الجسد ثم يفارق ، حتى الأيام التي اعتقدنا أنها لن تتبدل قط ، ولن تتغير ، ولن تزول ، كل شيء ، كل شيء في فراق ، كل شيء يتغير ، كل شيء في سفر دائم ، والدنيا منزل من منازل المسافر.

أعاني ثقل الشوق الذي لا فائدة ترجى منه ، ويأسرني الفقد الذي لا راد له ، وأذوق مر الفراق الذى لا لقاء بعده ، والنأي الذى لا وصول يليه أو ينهيه ، وأتحسر على ما انقضى ، وما فاتني بلا فائدة ترجى ».

هذا هو جمال بن أحمد الغيطاني ف تجلياته الأخيرة ، في سفره الأول وسفره الثاني ــ والثالث تحت الطبع ــ وتحتار فيهما أيهم يشدك ، جمال الوطن ، جمال الحزن ، جمال الخوف ، جمال الفراق ، جمال الشوق ، جمال الغربة ، جمال الدهشة ، جمال اليتم ، جمال الانتكاسة ، جمال النأي ، جمال الحنين ، جمال العشق ، جمال الحيرة ، جمال الرحيل ، جمال الدهر ، جمال التاريخ ، جمال الحاضر ، جمال التراث.

وتحتار أكثر ف تحديد هوية التجليات وصاحبها ، هل هي تجليات صوفية وصاحبها صوف ، أم هي تجليات فلسفية وصاحبها فيلسوف ، أم هي تجليات لغة الشعر ف إعجازها المذهل وصاحبها شاعر ، أم هي قمة الإبداع الروائي في شكل متفرد ومتميز أكسبها الأصالة والحداثة والحساسية والعمق والتفرد ، وصاحبها روائي.

وتحتار أكثر.. وأكثر.. من هو البطل ف تجلياته وأسفاره ، اللغة النابضة الشجية ، التراث



غـلاف الطبعـة الفرنسية لـرواية « الزيني بركات »

المشحون بالوجع ، الزمن الجبار القاهر ، في صيرورته الرهيبة ، ومحاولة كسره بمفتاح الذاكرة والتخيل ، والد الكاتب أم الكاتب نفسه ، .. عبد الناصر ، أم صاحب « الفتوحات المكية » محيي الدين بن عربي .. أيهم ؟!.

و.. أدعوكم للسفر معي إلى عالم الغيطاني ، الشجي ، الدافيء ، النابض ، الحي ، المتدفق ، الغاضب ، المتجدد ، المتسائل ، المتوحش ، الأسيان.

الغيطاني يحكى لنا

• ظلال الحسين سيد الشهداء تلف طفولتي وشبابي ، كان أبى يمسكني بيد ويمسك أخى بيد ، ثم نمضي لزيارته ، نخلع نعالنا ، ونلج ضريحه ، نقبل أعتابه ، كان أبى ملازما لضريحه ، دائم الطواف حوله ، لم ينقطع عن صلاة به إلا لمرض أو سفر أو غم عظيم ، كان



جمال الغيطاني

. لم أقرأ شيئاً في حياتي ليوسف السباعي . يحى حقي أهم وأعمق من يوسف إدريس . وزكى مبارك أهم بكثير من طه حسين . رفاعة الطهطاوى فتنته باريس عن نفسه ووطنه وتراثه . علي مبارك باشا سبب الآلام التي تعانيها مدينة القاهرة اليوم . « الفصعامية » ... أو اللغة الثالثة بين الفصحى والعامية شيء لا وجود له .

يستجير به في أيام الشدة ، وكان يقول لمن يرضى عنه أنه سيقرأ الفاتحة عند مقامه ، وكنا نخرج لنطوف بالشوارع القريبة ، باعة البخور ، السبح ، المصاحف ، كتب السيرة والملاحم ، والعنبر ، واللبان ، نقف أمام دكان صغير ، صغير جدا ، يشترى لنا أبى الخروب ، يقدمه البائع في طاسات نحاسية ، نتمهل في تذوقه ، الطعم مسكر عذب ، أورثتني هذه الوقفة عشقاً لمشروب الخروب ، صار له عندي أثر حسي ، وأثر لا يدرك أبداً ، لم أك أدرك أن عبير المشروب ، غامق اللون ، سيصحبني إلى نهاية عمري المقدر ، وأن عبيره الرطب سيرعش أغشية قلبي ويرقرق فؤادي .

• كان أبي ينقل الماء إلى بيوت عديدة ، كان يمشى متثاقلا يمسك فم القربة ، وكان يهيم على وجهه ، يخشي الظهور في دروب القرية ، لم يكن يملك إلا جلباباً وطاقية وسروالاً ، الجلباب تهرأ تمزق ، كان أحياناً يغسله بالماء ، هكذا نزل إلى الترعة ليحجب عريه أثناء مرور أربعة من الجمالية يسوقون جمالهم المحملة بالقش والحطب والجريد .

• تواضعت آمال أبى صار انتقاله من عمله كعتال يحمل الأجولة إلي ساع يفرق البريد أمراً يستحق المجاهدة ، وأشد أهمية من التحاقه بالأزهر أمنيته الأولى ، وكنت أخجل من التصريح بوظيفة أبى وعمله كساع ، كان ذلك في زمن جاهليتي ، قبل هدايتي وانحيازى إلى الفقراء أمثالي .

• في مكتب سكرتير مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية . إبراهيم أفندي ، يقول : إن المصاريف خمسون قرشاً ، يقول أبى إنه سيدفع أول الشهر. يقول ابراهيم أفندي : بإمكانك ألا تدفع لو قدمت شهادة فقر ، يقول أبى : هذا فأل سيء ، إنها أول مصاريف أدفعها لولدي جمال .

•مات أبي وأنا في غربة ــ ١٩٨٠ ــ لم أر إغماضة عينيه . ولم أحمل جثمانه ، ولم أشهد لحظة مواراته ، ولم أدر ، ولم أعرف ، ولن أدرك ماذا رأى في اللحظات الختامية ، أو أي الصور أو الأطياف التي تجلت وتبدت له . لم ير أبى لحظة ميلادي . ولم أر لحظة غيابه الأبدي ، وما بين القوسين سر غربتنا ، طريق أبي في الحياة غريب ، وطريقي في طريق أبي غريب ، وقد عقدت العزم ، وأضمرت النية على بناء مقبرة أنقل إليها أبى حتى لا يكون ضيفاً على آخرين ، حتى لا يكون غريباً في رقدته كما عاش ، حتى تكون رقدتنا إلى جواره ، عسى أن تساعدني ظروفي عسى .

• بعد رحيله أغلقت على ثيابه حقيبة ربما تبقى شذى رائحته فيها ، الرائحة التى لا يمكن أن أخطئها أبداً ، والرائحة التي لن يتكرر مذاقها أبداً ، عبير زمني الآ من ، وعطري المتبدد ، و .. آه .. من البعد ، ما يجمعه وقت يفرقه وقت .

• اعتقلت في أكتوبر عام ١٩٦٦ ، دخل اثنان من المخبرين السريين المتخصصين في الجلد واستنطاق المتهمين ، وقوفهم إلى الخلف يحدث قلقاً ويبث اضطراباً في النفس ، تصبح الضربة ، متوقعة في أى لحظة . والضربة غير المرئية تؤلم أشد ، كنت موزعاً بين مواجهة الضابط والإجابة على أسئلته ، وبين انتظار الضربة وآلمني انتظار الضرب أشد من وقعه على جسمي عندما بدأ .

• اسألوا ذلك الضابط العتيد الذي طرق بابنا في الفجر ، وأرعب أمي وأرجف أبى ، وأفزع إخواتي ، مما ترك أثراً غائراً في شقيقى الأصغر على لم يمح حتى اليوم . رأيت إخراج أوراقى وكراريسي وصورى ، استولى على هذا كله ، فجردني من كنز ذكرياتي حتى صوري مع زملاء دراستي الابتدائية والإعدادية جردني من كل أثر احتفظت به حتى ذلك العام ، فلم يعد لي من ذلك الزمن المنقضى ما يحتفظ بملامح أحبتي .

• رأيت أيام الضياع العظمي بداية فقد عصر بأكمله ، مفتتح زمن البلوى ، رأيت الشظايا لحظة اختراق الأجسام ، رأيت موت الأحباب ، رأيت آلام الجراح لحظة الميلاد على الوجوه ، ورأيت هجرة الأهل لبيوتهم ، رأيت الأشجار تتوقف عن الطرح والإخصاب بعد أن أفزعتها الشظايا ، وتكالبت الجروح عليها ، فالأشجار تفزع كما يفزع الإنسان ، كنت لا أطيق العودة إلى بيتي ، أخشى الهجوع ، وأخاف الانفراد ، من مقهى إلى مقهى تنقلت ، من شارع إلى شارع ، ظهر الجند المتعبون والمنسحبون من خط الدفاع الثاني ، ضجت سيناء بالظمأى والقتلى ، وشبعت الضباع والذئاب .

• في حجرة رمادية الطلاء بمبنى إحدى الصحف قابلته ، كان مبحوح الصوت بعد طوافه يوماً وليلة ، وجمع من الخلق وراءه يهيب بعبد الناصر ألا يذهب ، ألا يمضى في تنفيذ ما قاله عندما أطل بوجهه مكروباً على شاشة التليفزيون ، قبل ظهوره بثوان كنت آمل في مفاجأة يعلنها أو تطور في أنباء القتال يخفف بدايات جراحاتي ، كنت مقدد الحزن ، لكني عندما رأيت ملامحه الثكلى تضعضعت أماني ، تدكدكت الأيام ، في الحجرة المطلية باللون الرمادي ، قال صاحب الوجه المتألم : لا فائدة ترجى من الكلام الآن ، ضاع الوطن الأول ، ويضيع الآن جزء من الوطن الثاني ، ما من حل إلا القتال ، انصرفنا ، افترقنا ، أمام المبنى سألت صاحبى الذي يعرفه . من يكون ؟ قال إنه فلسطينى يدرس الزراعة في القاهرة ، وينظم الشعر ، أما اسمه فهو : مازن أبو غزالة ، كم مر من الزمن حتى قرأت اسمه في الصفحة الأولى للجرائد ، ربما شهر أو شهران ،

الكاتب الروائي جمال الغيطاني يفتح النار على الحياة الأدبية

ذات صباح من الصباحات المؤدية إلى الشتاء استشهد مازن أبو غزالة ــ أقول استشهد ولا أخشى ــ فوق مرتفعات طوباس ــ مازلت أذكر الموقع الذي سالت فيه دماؤه ، مازلت أذكر موضع الخبر من الصفحة ، وعبارات البيان ، مازلت أذكر طوباس ، إذن أنا حي القلب ، نعم الذكرى لمن كان له قلب ، مازن ، عرفت كيف تموت ، ولم نعرف كيف نحيا .

• كنا نحارب ولم نكن بخائفين ، فكيف بعد أن صرنا قادرين ؟ في ليلة تغير هذا ، رفرف علمنا بجوار علمهم ، تلقت إذاعاتنا المرئية والمسموعة البث المباشر منهم ، ما كان مستحيلا تصوره وقع ، كنت ملوعاً مغموسا في حزن طري كالقار الساخن ، ياويلتا على ما فرطنا .

• يسعى قلبي ، يمشي ، قلبي أنا المنتزع من وطنه الذى هو صدري : ها هو ذا حي ينبض ، هذا خفقه ونبضه ، أتعرف إلى الخفقة المتعبة التي أصغى إليها الأطباء طويلا ، قبل أن يصرحوا لي بتعب قلبي نتيجة علة قديمة ، وكأنه لا ينقصه إلا عطب مادي مع أنه ناء وفاض ، وخفت إجراء عملية لإصلاح علتي ، عندما علمت أنني أغيب عن وعيي ، وأن الطبيب المداوي يشق صدري ويستخرجه ويغرز فيه المشرط والرباط ، كنت أجزع ولا يغمض لي جفن كلما تخيلت ذلك .

رفيقة دربه تحكي لنا

لأول مرة تقدم واحدة من أكبر دور النشر الفرنسية المتخصصة في الأدب ــ دار السوي ــ رواية عربية هي « الزيني بركات » هذه الدار هي نفسها التي سبق وقدمت « جارسيا ماركيز » الكاتب الحائز على جائزة نوبل ، وقد استقبلت الدوائر الأدبية في باريس هذا الحدث باهتمام واضح تمثل في حجم اللقاءات والندوات التي أقيمت مع كاتبها الغيطاني ، وقد توج هذا الاهتمام بخطاب اعجاب وتقدير من الرئيس الفرنسي « ميتران » .

ماجدة الجندي ، رفيقة صاحب التجليات ، الصحفية بمجلة « صباح الخير » تحكي لنا عن سفرهما معاً لحضور هذا الحدث الثقافي الكبير :

وصلت مع جمال إلى باريس قبل يومين من نزول نسخ الكتاب إلى المكتبات ، كان الفرح بداخل قلبينا مكتوماً ، خجلاً ، لا تطاوعنا النفس على إظهاره قبل أن نمسك بأول نسخة في أيدينا ٩ يناير ٨٥ م كان الموعد المحدد لتأخذ (الزيني بركات) مكانها جنباً إلى جنب مع أي رواية لأى كاتب يقرأ له العالم ، نزلنا معاً ، لفنا صمت قلق ، كنا في طريقنا وبداخل كل منا سؤال : ترى أين سنرى أول نسخة معروضة للبيع ، وفي أي مكتبة ، وبأى شارع ، نظرت إلى جمال ، أعرف وجهه حين يقول ، ولا يقول ، أشفقت وحنوت وتمنيت اللحظة المرتقبة ألا يطول انتظارها ، في إحدى مكتبات « الكي دورسيه » دخلنا ، لم أصدق نفسي وأنا ألمح الاسم أولا ، كسرت هدوء المكتبة رغما عني .. « الحق ياجمال .. الزيني » عدت طفلة أضحك وأتكلم وأمسك بيده وأتشبث بعيونه ، مازال يسكنها التعب لكن عليها الآن أن تفرح ، قلت : « تسمح لي ياجمال أشترى أول نسخة بحر مالي اللي أخذته منك امبارح » ! ، وأمسك جمال الغيطاني أول نسخة من مكتبة فرنسية ليخط عليها أول إهداء .. إلى ولدي وعمري الجديد الممتد ، إلى صديقي الصغير الكبير ، إلى من يسكن قلبي « محمد جمال الغيطاني » هذه هي « الزينى بركات » وقد بدأت تأخذ طريقها إلى العالم » .

أسأل أنا ويجيب الغيطاني

ملحوظة ذات دلالة : تم تسجيل هذا الحوار في مقهى الفيشاوي بالحسين بناء على طلب الكاتب نفسه

• سألت جمال الغيطاني عن أهم سؤالين أثارا انتباهه في لقاءاته الصحفية في باريس بمناسبة ترجمة « الزيني بركات »

فأجابني قائلا :

ــ أحد هؤلاء الصحفيين ويدعى برنارد جيين من مجلة « كانزان ليترار » وهي مجلة أدبية متخصصة سألني إذا كنت قد زرت اليابان ، فأجبته بالنفي ، وسألته بدهشة لماذا اليابان بالذات ، فقال :

لأن ما قدمته من تفاصيل لعمليات « البص » أو التجسس على حرية الإنسان الفرد يحدث الآن وفي اليابان بالذات وفي بعض بلاد العالم ، وبنفس التفاصيل ولكن بالكمبيوتر ، إذن فالهم واحد ، عاني ويعاني منه الإنسان سواء كان في العصور الوسطى حيث تجري أحداث الرواية أو في أخريات القرن العشرين ، وربما كان ذلك أحد عناصر عالمية العمل ، أما السؤال الثاني فهو هل الأدب العربي القديم عرف فن القص أو الرواية وأجبتهم مستنكراً بأن أدبنا يحوي أعظم نص قصصي في العالم « ألف ليلة وليلة » وهي عمل يضم عشرات الأساليب في القص ، وحدثتهم عن نماذج كثيره من القص موجودة في الأدب العربى ليست بالضرورة قصاً مباشراً مثل السير الشعبية والملاحم والمقامات ، بل توجد نصوص أخرى من القص غير المباشر كتجارب المتصوفة والتاريخ .

• لقد احتميت في الزيني بركات بأطار مملوكي لتقول رأياً في عصرك ، بينما اتجه نجيب محفوظ إلى المباشرة في الكرنك فما رأيك ؟ .

ــ أعتقد أن الفارق بين الروايتين هو اختلاف في الظروف وفي الهدف ، لقد شهدت لحظة ميلاد الكرنك إذ كنا نجلس عصر أحد الأيام أنا وأستاذي الكبير نجيب محفوظ في مقهى عرابي في العباسية القديمة ، وإذ برجل أبيض البشرة ، جاحظ العينين يدخل ، وجلس ليلعب الشطرنج ، ولاحظت أنه قوبل باحترام شديد ، وسألت خادم المقهى عنه فأجابني بأنه حمزه بسيوني مدير السجن الحربي ، وعندما علم نجيب محفوظ بذلك نبتت فكرة الكرنك في ذهنه كما أخبرني بذلك فيما بعد ، إذن الكرنك كتبت لإدانة مرحلة معينة ، لهدف سياسي واضح ، وكتبت عبر معاناة الآخرين وليس عبر معاناة شخصية ، والزيني بركات كانت عكس ذلك تماماً ، لقد كتبت عبر معاناة شخصية حادة ، وقصدت بها إدانة القهر في جوهره ، ولم أقصد إدانة فترة زمنية معينة ولا حتى لحظة تاريخية محددة .

• إذا اعتبرنا « خطط الغيطاني » بمثابة تخطيط تمهيدي للتجليات ، فهل نستطيع اعتبار ــ المقتبس من عودة ابن اياس ــ وهداية أهل الورى ــ وكشف اللثام ــ بمثابة تخطيطات تمهيدية للزينى بركات ؟ .

ــ نعم ، فكل الروايات التي كتبتها كانت تتواجد على شكل إرهاصات في قصص قصيرة ، ولكن عند كتابتي لهذه القصص لم يكن في ذهني أبداً أنها ستتطور في يوم من الأيام إلى روايات ، ويمكن اعتبار هذه القصص درجات من إلحاح الهم أو الفكرة أو الحاح المشاعر ، فالزيني بركات كانت فعلاً موجودة في القصص التي ذكرت بالإضافة إلى قصة « اتحاف الزمان » وقصة « المغول » التي كتبتها بعد خروجي من السجن عام ١٩٦٦ ، والتي كانت بداية توجهي للتاريخ ، كما أن قصة « وقائع حارة الطبلاوي » كانت بمثابة تخطيط تمهيدي « لوقائع حارة الزعفراني » ، ويمكن اعتبار مجموعة « ذكر ما جرى » كلها تمهيدا لرواية « خطط الغيطاني » كما أن الخطط كانت مدخلاً إلى التجليات خاصة على مستوى الشكل ، فأعمالي كلها مترابطة وتنتمي إلى عالم واحد وإن تعددت الرؤى والألوان والأشكال .

• كيف يبدأ إذن مشروع الرواية في نفسك ، وهل اختلاف البدايات يعني الاختلاف في أسلوب التنفيذ ؟

ــ من الصعب الإجابة على هذا السؤال خاصة فيما يتعلق بالبدايات ، فقد تلح علي نفسى فكرة ما ، وربما تعيش معي هذه الفكرة عدة سنوات ، وقد تظهر على شكل قصة قصيرة دون وعي مني بذلك ، ولكنها تظل هاجساً ملحاً ومقلقاً ينمو ويتمدد ويكبر حتى يأخذ شكل الرواية ، فأنا كاتب روائي ولست كاتب قصة قصيرة ، والقصة عندي بمثابة تمرين تمهيدي للرواية ، ولكل رواية عندي ظروفها المختلفة وبداياتها المختلفة .

• صديقي مازن عرف كيف يموت ونحن لا نعرف كيف نعيش
• كان أبي ساعي بريد وأنا لا أخجل من ذلك بل أعتز به
• تعلمت من نجيب محفوظ تنظيم العمل والسيطرة الحديدية على الزمن والإخلاص الشديد للأدب

كما أن الهم العام يختلط ويتشابك مع الهم الخاص ، فوقائع حارة الزعفراني كتبتها في ذروة معايشتى للمادة التي استمرت ثلاثين عاما ، والزيني بركات بدأت بفكرة إدانة نوع معين من النمط الانتهازى الذي عايشناه في الستينيات عندما كان عبد الناصر يندد في خطبه بالذي اختلس خمسة آلاف جنيه ، وهذا النمط أصبح ساذجاً جداً وبريئاً في السبعينات التي شهدت اختلاسات بلغت خمسة مليارات . هذه كانت الفكرة التي بدأت بها كتابة الزيني بركات ولكني فوجئت بعد كتابتها بأنها قد تحولت إلى رواية ضد القهر والبص واستلاب حرية الانسان الفرد . أما التجليات فكان باعثها وفاة أبي ذروة الحزن على المستوى الشخصي ، وعلى المستوى العام كانت زيارة السادات لاسرائيل ذروة الفجيعة بالنسبة لي أنا الذي عايشت تضحيات البسطاء عن قرب أثناء عملي كمراسل حربي ، لقد تعلمنا نظرياً بأن العالم سياق متصل وبناء منطقي متراكب واكتشفنا أن ما تعلمنا كان « الضرورة » التي ينبغي أن تكون ثم لم تكن .

أما بالنسبة لمرحلة التنفيذ فإنها تنقسم إلى مرحلتين ، المرحلة الأولى هي الكتابة التلقائية ، وأعمل فيها بلا توقف . وعندما تنتهي هذه المرحلة لا أعود إلى الكتابة إلا بعد أن يدفعني الحنين إلى الشخصيات والعوالم التي خلقتها ، ساعتها أعود إلى الكتابة من جديد ، والكتابة بالنسبة لي عملية ضبط لاتزاني النفسي والعاطفي ، وفي هذه المرحلة أكتب بشكل بطيء وبمتعة أكبر لأنني أعود لشخصيات حية نابضة ، وعوالم قد تشكلت على الورق ، ولم يعد ينقصها إلا الألوان والظلال ، والعمل الوحيد المستثنى من هذا النظام « التجليات » لأنه عمل قد يستغرق عشرين أو ثلاثين عاما ، من يدري ، وأقوم بكتابته ونشره على شكل أجزاء منفصلة .

• لقد أحسسنا بالقاهرة القديمة ــ المدينة ــ بأحيائها وعاداتها وأزقتها بطلاً رئيسياً في الزيني بركات ، كيف نجحت في ذلك ؟

ــ إن الجهد الذي بذلته في التحضير للزيني بركات يعادل جهد التحضير لرسالة دكتوراه ، وإن خبرتي بالقاهرة القديمة نتجت عن الإعداد لهذه الرواية . وبفضلها أعد حالياً من خبراء القاهرة القديمة ولي أبحاث في ذلك وقد دعيت لبعض المؤتمرات العلمية الخاصة بالآثار الإسلامية ، لقد كنت أكتب الرواية وأمامي خريطة للمدينة القديمة ، فإذا كان لموكب السلطان ــ مثلا ــ أن يسير في أحد شوارعها ، كان على أن ألتزم بخط سيره تماماً كما كان أيام ا بن إياس .

وكان لهذا الشارع علامات معينة من المباني مثل قصر الأمير قوصون وقصر الأمير بشتاك ، واستلزم ذلك مني بالتالى معرفة شكل العمارة في تلك الحقبة الزمنية بالإضافة لمعرفة دقيقة للحياة اليومية المصرية وخاصة أنها مدونة يوماً بيوم منذ الفتح العربي على يد مؤرخين أمثال ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب » . الحقب التي وصفها الشهود تتعاقب وكأن كل كاتب يسلم إلى الآخر شهادته ، من القضاعي إلى المسبحي إلى المقريزي ، إلى ابن تغرى بردى ، إلى ابن إياس الذي جاء في القرن السادس عشر ، إن ابتعاث عصر بأكمله بكل تفاصيله الدقيقة تطلب مني جهداً رهيباً ، بالإضافة لذلك فأنا عاشق للقاهرة القديمة ، عمري متناثر في أرجائها ، بل إنني أحفظ كل شبر فيها ، وأستطيع أن أحدثك عن حركة الظل في الشارع المقابل لمسجد قلاوون منذ شروق الشمس وحتى غروبها ، والمكان عندي مسور بالزمن ، في صغري كنت أريد أن أسكن في الدقي ، خاصة وأن أبي كان يمشي أربعة كيلو مترات يومياً ذهاباً وإياباً من الحسين إلى مقر عمله ، ولكن أبي رفض إنتقالنا « مش ممكن أسيب الحسين » كان أبي يردد ذلك ، وعندما كبرت فهمت ماذا يعني الارتباط بمكان مؤطر بلحظة زمنية معينة .

• بماذا ترد على تساؤل وتحليل « سيزا قاسم » لشخصية الزينى بركات بأنه قد ينظر إلى استمراره في شغل وظيفته على أنه رمز للسلطة التي استمرت بعد هزيمة عسكرية نكراء ، فهل هو استعاره عن

جمال الغيطاني في سطور

• من مواليد ٩/٥/ ١٩٤٥ من قرية جهينة في محافظة سوهاج بالصعيد وقد نشأ بحي الجمالية والقاهرة القديمة .

• درس فن تصميم السجاد ويعتبر في مصر من خبرائه ومارسه بين ١٩٦٢ ــ ١٩٦٨ .

• اشتغل بالصحافة منذ عام ١٩٦٨ ، ويعمل الآن بجريدة الأخبار .

• عمل مراسلاً صحافيا في جبهات القتال وغطي الحرب الاسرائيلية ــ العربية ، بيروت ، إيران ، العراق .

• ترجع بداياته في الكتابة إلى عام ١٩٦٣ حينما نشر قصتين إحداهما في مجلة الأديب اللبناني والاخرى في مجلة الأدب المصرية .

• في الفترة الممتدة بين عام ١٩٦٩ ــ ١٩٨٥ صدرت له خمس روايات . وثماني مجموعات قصصية ، بالإضافة إلى ستة كتب تتضمن دراسات ومشاهدات منها : المصريون والحرب ١٩٧٤ ــ أسيلة القاهرة ١٩٨٤ .

• له تحت الطبع « كتاب التجليات » السفر الثالث ، وثلاثة كتب تتضمن دراسات عن بيوت القاهرة القديمة ــ الحياة اليومية في القاهرة القديمة ــ شارع المعز لدين الله .

• تدرس أعماله في عدد من جامعات العالم منها جامعة أكسفورد ــ معهد الاستشراق في نابولي . الجامعة الأمريكية في القاهرة ، ومعظم الجامعات الفرنسية .

• ترجمت قصصه القصيرة إلى اللغات : الانجليزية ــ الايطالية ــ الأسبانية ــ الروسية ــ اليابانية ــ الصينية .

• ترجمت روايته « وقائع حارة الزعفراني » إلى اللغة الانجليزية ، و« الزيني بركات » إلى الروسية عام ١٩٨٤ ، كما ترجمت أيضا هذا العام إلى اللغة الفرنسية وصدرت عن « دار لوسوى » وستترجم من الدار ذاتها إلى ثماني لغات عالمية .

• حصلت حفيدة إبراهيم ناجي الطالبة ساميه محرز على شهادة الدكتوراه ــ الشهر الماضي من إحدى الجامعات الأمريكية وكان موضوعها عن أعمال الكاتب جمال الغيطاني .

الكاتب الروائي جمال الغيطاني يفتح النار على الحياة الأدبية

جمال عبد الناصر الذي استمر في الحكم بعد الانهيار العسكري عام ١٩٦٧ م ؟

ـ هذا استنتاج خاطىء ، فأنا لم يكن في ذهني عبد الناصر وأنا أرسم شخصية الزيني بركات ، وقد ظن الروس ذلك أيضاً عندما فكروا في ترجمتها ، وظلوا يتأرجحون في ظنهم هذا حتى اقتنعوا في العام الماضي وقاموا بترجمة الرواية ونشرها بعد أن تأكد لهم بأنني لم أقصد بشخصية الزيني بركات استعارة عن عبد الناصر .

• ما الصلة بين « الزيني بركات » و« مائة عام من العزلة » ؟

ـ الصلة بينهما هي النزوح من التراث العربي ، فماركيز قرأ ألف ليلة وليلة ، واعتبرها من الأعمال الكبيرة والهامة ، وقد استخدم بعض عناصرها في أعماله ، إذن الصلة بين عملينا أننا مضينا في اتجاه واحد ومتقارب وهو الاعتماد على التراث ، وماركيز اعتمد على تراث عربي وتراث محلي من حكايات شفهية ، والروايتان فيهما جهد الإحساس بالخصوصية ، ومن هنا نجحت الزيني بركات في باريس ليس باعتبارها فلكلوراً وإنما باعتبارها شكلاً روائياً أصيلاً ، كما نجحت من قبل « مائة عام من العزلة » ، من هذا المنطلق أيضاً ، وأنا شديد الدهشة من موقف المثقفين العرب ، فعندما كتب ماركيز في إحدى قصصه عن الفتاة التي أمسكت بملاءة السرير وطارت ، هللوا لها ، ونســـوا أن جزءاً من تراثنا في الخيـــال الصوفي قـــائم على الطـيران في الهـــواء والمشي على الماء ، لكن كعادتنا كان من الضروري أن يأتي واحد من الغرب ليوظف هذه الجزئية من تراثنا لنعيد نحن اكتشافها ، كما حدث مع ألف ليلة وليلة عندما كتب عنها جورج لويس دراساته ، ومما يثير غضبي ماتتعرض له ألف ليلة الآن من إدانة ومصادرة في المحاكم المصرية .

• في تحقيق في الأصول الثقافية لجيل الستينات في الرواية المصرية ذكر سامي خشبة أن من العوامل التي حددت اتجاهكم نحو التراث وساعدت على ظهور الزيني بركات و« أيام الانسان السبعة » لعبد الحكيم قاسم ، و« الطوق والاسورة » ليحيى الطاهر عبد الله : الحملة المنظمة من جانب وسائل الإعلام الجماهيرية للترويج للنزعة إلى الماضي وتقديمها بوصفها النبع الأصلي للفكر الرسمي ، فهل تتفق معه في ذلك ؟

ـ هذا غير صحيح ، بل إن أجهزة الإعلام قابلت هذه الأعمال بالتعتيم الكامل ، وقد فرض علينا حصار إعلامي طوال السبعينات ، ومن أجل ذلك فقد وصلت شخصياً إلى اقتناع خاص بي يتمثل في الزهد بأجهزة النشر المصرية ، ونشر بعض أعمالي خارج مصر على الرغم من أنني أعمل في دار نشر صحفية كبرى ، وقد نشأ عن ذلك أن الأدب الصادق عن حركة الواقع الجوهرية كان يصطدم ـ نظراً للحصار الذي ضرب عليه ـ بتلك المؤسسات ، فكان أقصى ما استطعت فعله هو طبع عدد محدود من أعمالي على آلة الزيودكس ، ووزعتها أنا وأصدقائي بطريقة بدائية ، وكان الهدف من ذلك مجرد تسجيل لظهور تلك الأعمال ، وكنت أعي أن القارىء الذي أريد الوصول أليه قارىء خاص .

كما أن النزعة التقليدية المسيطرة على المجتمع كانت نزعة معادية للفن ، إذن فجيلنا ، جيل الستينات ولد خارج الأطر الرسمية ، وخارج الأطر الإعلامية .

• ما مفهومك للرواية التاريخية ؟

ـ كان هناك مفهوم سائد بالنسبة للرواية التاريخية وهو إعادة سرد أحداث معينة في التاريخ بشكل روائي مثل روايات جرجي زيدان ، أو التركيز على حادثة معينة واستلهامها في عمل روائي مثل روايات الكسندر دوماس الأب والابن ، أو بعض روايات نجيب محفوظ الأولى مثل « عبث الأقدار » و « رادوبيس » ، وأنا أختلفت مع هذا المفهوم كما اختلفت مع جورج لوكاش في كتابه « الرواية التاريخية » ، فهو يعتبر استخدام الوثائق في الرواية التاريخية أمراً مرفوضاً ، ويعتبر أن خروج الروائي بالهدف من مجرد سرد أحداث تاريخية محددة خروجاً بالرواية عن مفهومها التاريخي ، وقد كتبت الدكتور رضوى عاشور في مجلة الطريق اللبنانية أن الزيني بركات قامت بنقض مفهوم لوكاش للرواية التاريخية ، وأعتبر أن أدق تعريف للزيني بركات ماكتبه الأديب السوري الكبير أديب اللجمي ، وكان وكيلا لوزارة الثقافة ، على الطبعة السورية من الرواية بأنها « رواية تستعيد التاريخ ولا تعيده » ، وهذا مفهومي للرواية التاريخية .

• هل هناك ثمة تناقض بين التجديد والاستفادة من التراث ؟

ـ الاستفادة من التراث هو لب التجديد ، فلقد نشأت الرواية العربية الحديثة غريبة في أحضان الرواية الغربية منذ تحول الروائيون الأوائل عن ينابيع الفن القصصي والروائي في تراثهم العربي ، عندما شرعوا في كتابة رواية عربية حديثة ، واتجهوا صوب الغرب لينقلوا عن رواياته ويقلدوها ويبدعوا على منوالها ، فوقعوا في شباك الغزو الفكري الغربي بالأنموذج الحضاري الغربي المتقدم الوافد مع الاستعمار الغربي لبلادنا في أوج عنفوانه وازدهاره ، وبدأت غربة الرواية العربية عن أصولها التراثية كاملة بتبنيها لموضوعات غربية وأشكال غربية تابعة من حضارة غربية وتراث غربي وثقافة غربية ، وكان المطلوب إيجاد خصوصية للرواية العربية ، والخصوصية تعني تأصيل شكل فني للرواية العربية ، إذ أن الأشكال القصصية العربية في التراث العربي هي أشكال متميزة لا تخضع للشروط الغربية لفن القصة والرواية ، فلكل حضارة أشكالها وتراثها ، ومن ثم فان استبعاد الأصول القصصية العربية على أسس ومقاييس غربية كان عملاً تعسفياً من قبيل الخضوع للغزو الفكري الغربي .

إن العودة لتراثنا المهجور وإعادة الاتصال به مع استيعابنا في نفس الوقت للتراث العالمي يمكن أن يؤدي بنا إلى التفرد والتميز ، ومن هذا المنطلق فإن هناك كثيرا من المسلمات قد أعدت النظر فيها وفقدت إيماني السابق بها كدور رفاعه الطهطاوي في حياتنا وكذلك علي باشا مبارك وحتى طه حسين نفسه .

• ماذا تعني أنك فقدت الايمان بدورهم في حياتنا ؟

ـ في اعتقادي الخاص أن علي باشا مبارك الذي يرجع له الفضل في بناء القاهرة الحديثة هو سبب الكوارث التي تعاني منها القاهرة المدينة اليوم ، فإن المعمار العربي والإسلامي الذي كانت القاهرة قائمة على أساسه كان نتاج بيئة وتقاليد وعقائد وثقافة خاصة ، وعندما جاء علي باشا مبارك ليخطط للقاهرة الحديثة اتجه للغرب بانبهار أعمى ولا أريد أن أقول إنه اتجه بإحساس بالدونية ، فطبق نظام البوليفار والذي يعنى نظام الشوارع المستقيمة الرأسية في شارع محمد علي ، على غرار شارع ريفولي في باريس ، كذلك شارع الجيش ومنطقة عماد الدين وسليمان باشا ، بل زاد على ذلك أنه استعان بالمهندس الذي وضع أساس باريس الحديثة ليضع أساس القاهرة ، فانقسمت مدينتنا إلى مدينتين : مدينة إنسانية تحنو على ساكنها في فنها المعماري وهي القاهرة القديمة ، الجمالية ، الدرب الأحمر ، والقلعة ، ومدينة القاهرة الحديثة الممتدة من باب الحديد إلى منطقة القصر العيني ، والتي لم يبن فيها مسجد واحد في الوقت الذي بنيت فيها كنائس على الطراز السويسري ، بل إننا نجد أمام نقابة الصحفيين كنيسة على الطراز القوطي ، وكنيسة كاثوليكية في شارع محمد فريد ، جميعها كنائس تابعة لمذاهب الكنيسة الغربية ، أما الكنائس القبطية فنجدها في قلب القاهرة القديمة ، في الدرب الأحمر ، حارة السقايين ، بل ان هناك ديرا للسيدات في باب الشعرية ، وقد وصلنا إلى قمة التغريب في العمارة في السبعينات مع الاستسلام التام للغرب والثقافة الغربية المتمثل في إقامة الأبراج الألمونيوم ، هل من المعقول أن تشيد مثل هذه المباني في بلد تصل فيه درجة الحرارة إلى

خمسين درجة في الصيف ؟ ، أين هذه الأبراج التي تقوم بتعليبنا وتأطيرنا داخل قيم ونسق غربية من بيوتنا العربية التي تحنو علينا في معمارها كبيت السحيمي مثلا وبيت مصطفى جعفر ، إن العمارة كفن كائن حي وليست مجرد حجارة مرصوصة ، ويجب التعامل معها على هذا الأساس .

• وماذا عن رفاعة الطهطاوي ؟

ـ لقد وجدته ساذجاً في انبهاره بحضارة الغرب في كتابه « تخليص الابريز في تلخيص باريز » وقد يكون محقاً في انبهاره بالنظم الديمقراطية هناك ، أما فيما عدا ذلك فأنا أعتقد أنه استسلم دون وعي لثقافة الغرب ، بل أنني لم أعثر على كلمة واحدة في يومياته تشير إلى اعتزازه بانتمائه وثقافته ووطنه .

• و .. طه حسين ؟

ـ لقد قرأت في السنوات الأخيرة تراث الدكتور زكي مبارك ، وأعتقد أنه أكثر إخلاصاًللثقافة العربية وأكثر وعياً بها من طه حسين ، ففي كتابه « تاريخ النثر الفني في القرن الرابع » أذهلني وعيه بقيمة الثقافة العربية ، واطلعت على الآراء التي أبداها وعارض فيها آراء طه حسين وخاصة فيما يتعلق بموضوع ما إذا كان العرب عرفوا فن القصة ، وهذه الآراء التي اتفق معه فيها وصلت إليها أنا باجتهادي الخاص قبل الاطلاع على كتابه القيم ، فطه حسين مع احترامي لدوره في حركة التنوير والتعليم إلا أنه يمثل في اعتقادي الخاص مدرسة المستشرقين .

• أتساءل عن موقفك النفسي إزاء إجماع النقاد على أن « الزيني بركات » قد استنفذت شكلها الذي يعتمد على التراث وأن محاولتك تكرار هذا الشكل في عمل آخر يهددك بالتكرار دون التجديد ؟

ـ أعترف بأنني تأثرت بآرائهم ، وهذا اعتراف يدينني ، بل انني توقفت لعدة سنوات بعد الزيني بركات ، وانتابني القلق والحيرة ، خاصة وأنني أوغلت في مجاهل لم تطرق من قبل ، وخاصة أيضاً أن معايشتي للعصر المملوكي قد استنفدت أغراضها ، وعكفت على الاطلاع الدؤوب ، لأكتشف عند محيي الدين بن عربي طريقة متميزة في قص الحدث أو الكلام عن شخصية معينة ، طريقة متفردة لم أقرأ مثلها في أي رواية ، إنها أقرب إلى وجداني ، وأنا أقدر على تذوقها ، لماذا لا أتمثلها وأحاول أن تكون تلك بمثابة انطلاقي تماماً كما حاولت من قبل مع تراث التاريخ المكتوب ، كنت أعي مشروعي الخاص في الكتابة ، إنه التعبير عن ثقتي بالتراث ورفضي النموذج الأوروبي ، ومن هنا ولدت التجليات التي دحضت إجماع النقاد بعجز التراث عن التجديد والابتكار والتفرد ، وكشفت أن من ادعوا عجز التراث لم يعرفوا التراث بمفهومه الواسع .

• هل هذا اتهام للنقاد بالسطحية ؟

ـ لا .. ولكني أتهمهم بتأثرهم الكبير بالمدارس النقدية الغربية ، وعدم بذل أية محاولة جادةلتطوير المدرسة العربية في النقد ، وجهلهم بالتراث وما يحتويه .

• ما الصلة بين تجلياتك وتجليات محيي الدين ابن عربي ؟

ـ كلمة تجلي هي مرحلة في الطريق الذي يسلكة الصوفي ، وتجليات ابن عربي تجليات صوفية فلسفية في إطار مذهبه برقت به فيها بعض الحقائق الأزلية والتقى خلالها ببعض الشخصيات التي لم يعش عصرها أو عاش في عصرها مثل ابن رشد ، وتجلياته تجليات ميتا فيزيقية أو درجة من درجات التصوف ، تجل في المذهب وفي الفكرة ، أما تجلياتي ، فتجليات واقعية ويمكن القول بأنها وسيلة فنية للتعبير عن أشياء محددة أردت قولها ، وإن كان هناك من صلة بين تجلياتي وتجلياته فهو ثراء اللغة وتدفقها .

• كيف تفسر وجود النزعة الصوفية الحادة والنزعة الدنيوية الحادة أيضا في التجليات ؟

ـ التعلق الشديد بالحياة والانشغال الشديد أيضا بالعدم .

• بينك وبين الزمن أو كما تحب أن تسميه الدهر قضية أو قضايا ، كيف بدأت هذه القضية والام وصلت . ولماذا الدهر هاجسك الملح ؟

ـ منذ زمن بعيد ، وفي سن مبكرة جدا ، كان السؤال البسيط جداً والمذب جداً الذي طرحته على نفسي « امبارح راح فين . وبكره جاي منين » . كان هذا السؤال الهم والهاجس القلق الذي ظل ينمو معي ويكبر ، وكان ذلك أحد الأسباب القوية التي جعلتني أتجه إلى التاريخ بمراحله المختلفة : والتاريخ عندي هو الزمن الذي يحولنا باستمرار إلى الماضي الذي يجلب الذكرى والنسيان ، وقد تأملت طويلا الزمن وأمعنت التفكير فيه بدءاً من الحركة الميكانيكية البسيطة للثواني والدقائق والساعات ، إلى حركة الأفلاك ، توالي الليل والنهار ، وإلى الميلاد والموت ، التاريخ عندي هو الزمن المنقضي ، المنتهي ، لا فرق بين لحظة مضت منذ ثوان ، ولحظة مرت على انقضائها آلاف أو ملايين السنين ، كلاهما لا يمكن استعادته ، والإنسان ما بين لحظتين : لحظة مضت لن تعود أبداً ولحظة آتية قد لا نعلمها على الإطلاق ، ومن هنا فإنني لا أصغي باهتمام كبير إلى من يقول : « إنك تكتب رواية تاريخية » الكل صار ماض ، ماض من المستحيل استعادته ، لقد تأملت طويلا في الزمن ، وقرأت عنه في الفكر الانساني القديم ، في الأساطير ، في الدين ، في الفلسفة ، غير أنني لم أصل إطلاقاً إلى ما يمكن أن يهدىء من همي الدائم هذا ، لقد وصل بي الأمر إلى أنني كنت أمشي في الشوارع أنظر للناس بعيني إنسان آخر سيعيش بعدي ، بل إن من الأسباب الرئيسية التي دفعتني للعمل كمراسل حربي بعد الدافع الوطني فكرة تحدي الموت . ولقد كدت أن أصافحه بيدي أثناء عملي ، لكني لم أمت ، وهناك ثمة حقيقة مؤكدة وهي أن الشيء الوحيد في هذا العالم الذي لا يمكن قهره أو مقاومته أو التصدي له هو الزمن ، وعندما كانت الحضارة تصل إلى ذروتها كان التعبير عن الرغبة في الخلود يصل إلى ذراه أيضاً ، وإذا تأملنا تاريخ الفن خاصة في العصور القديمة فإننا سنجد جوهره محاولة قهر الفناء ، كالهرم الأكبر ، أو بالسيرة العطرة ، أو الايمان بأن هناك عالماً آخر في حياة أخرى .

وإذا كان القدر هو بطل التراث اليوناني ، فالزمن كان جوهر الفكر الفلسفي القديم في مصر الفرعونية والذي انتقل منها إلى التراث الشعبي ، وأنا أعتقد أن في القرآن الكريم حقائق دقيقة جداً وجليلة وخطيرة جداً وقوانين تحكم علاقة الإنسان بالدهر وبالكون ، ولم يعبر عنها نص آخر كما عبر القرآن : « والعصر إن الإنسان لفي خسر » و« ما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » وعشرات الآيات الكريمة غيرها .

ولذا فإن الفلسفة الإسلامية أصدق الفلسفات في الاقتراب من جوهر الحقيقة ، وقد جاء القرآن بدستور حسم هذه القضية « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . ولذا فإن أصعب ما يواجهني هم البسطاء يرحلون ولا يبقى منهم شيء ، حيالهم تبدو لي فكرة العدم غير إنسانية ، والفن بالنسبة لي أرقى جهد لمقاومة العدم ، والتجليات كانت محاولة مني لتحدي الزمن ، ومحاولة للابقاء على اللحظات النبيلة في حياتنا .

• كيف وصلت إلى أن تجعل من اللغة بطلاً رئيسياً في التجليات ؟

ـ لغتنا العربية من أثرى لغات العالم ، ونحن للأسف لا نتعامل معها بشكل شامل ، فهي متنوعة الأساليب ، وكل أسلوب يكاد يكون لغة منفصلة ، فهناك أسلوب للمؤرخين ، وأسلوب للمتصوفين ، وللشعر أسلوب ، ولأدب الرحلات أسلوب أيضاً ، بل إن التعبير في اللغة العربية يختلف من قرن إلى قرن ، وإن كان التعبير عن الأحاسيس الإنسانية والوجدانيات لم يختلف كثيراً في المعنى وإن اختلفت الأشكال .

واللغة بالنسبة لي عنصر فاعل ومؤثر في العمل الأدبي ، اللغة بالنسبة لي حالة أيضاً وليست مجرد أسلوب يمكن إتقانه واستخدامه كأداة ، والحال كما هو معروف يتغير ، وهكذا تتغير اللغة عندي من عمل إلى آخر ، وأعتقد أن لدي تجربتين أساسيتين في اللغة ، الأولى عبر الحس التاريخي والثانية عبر الحس الصوفي ، فعندما كتبت قصصي القصيرة « المقشرة » و« اتحاف الزمان » و« ابن سلام » ثم « الزيني بركات » كنت أتقمص روح اللغة التاريخية المنتمية إلى القرن السادس عشر ، وحتى أنفذ إلى روح هذا الأسلوب وجوهره اقتضى هذا جهداً كبيراً في مطالعة القرون الوسطى ليس« بدائع الزهور في وقائع الدهور » لابن إياس فقط ، ولكن انتظمت حوله مؤلفات عديدة كانت تكمل عناصر العصر الذي تزايد إحساسي به ، كنت أطالع صفحات كاملة من بدائع الزهور بصوت مرتفع

الكاتب الروائي جمال الغيطاني يفتح النار على الحياة الأدبية

وأنقل إلى كراساتي صفحات كاملة منه في محاولة للتوصل إلى الإيقاع الداخلي للغة ابن إياس ، وهذا ما حدث معي أيضاً في التجليات ، لقد بدأت بدراسة أسلوب المتصوفين والذي كان الأنسب للتعبير عن تجربة الموت والزمن والعدم والدهر ، ولم أكتف بقراءة الفتوحات المكية لابن عربي ، أو الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلاني ، أو الإشارات الآلهية للتوحيدي ، إنما كنت أنقل بخطي صفحات كاملة من هذه المؤلفات على مهل وبأناة لا لشيء إلا لمحاولة تشربي لسر الأسلوب ونفاذه إلي ، المهم الإحساس بخصائص الأسلوب ، ومحاولة النفاذ إلى جوهر هذه اللغة الصوفية المرتبطة تماماً بتجربة روحية عميقة محورها الإنسان والكون ، والتي امتزجت بألم عميق لوفاة والدي .

وعايشت التراث الصوفي بدءاً من الجنيد والحلاج والقشيري والإمام الشعراني وابن سبعين والسهروردي ومازلت أعايشه ، وهكذا كانت لغة التجليات بمثابة نتاج حالة ، وأدى هذا إلى أن اللغة أصبحت بطلا رئيسياً في محاولة مني لتطويعها للإمساك بمناطق من الإحساس والشعور والذاكرة قد تفلت منها .

• ما موقفك من اللغة المتوسطة كما وصفها عيسى عبيد أو اللغة الثالثة كما دعاها الحكيم أو « الفصعامية » كما أطلق عليها زكريا الحجاوي وعرفها بأنها « لغة قصت فيها الفصحى شعرها وذوائب أصوليتها ، ونظفت فيها العامية بدنها ، وابتسمت قليلاً لتخفي ما بين تجاعيدها من هموم » ؟ .

— ليست هناك لغة متوسطة أو ثالثة أو « فصعامية » فاللغة كما قلت حالة تتغير من حال إلى حال ، والقضية هي اللغة التي تستطيع أن تعبر عن أدق ما يريد الكاتب قوله ، وعندما اطلعت على لسان العرب الذي يحتوى على ثمانين ألف كلمة ، اكتشفت أن سبعين ألف كلمة غير مستخدمة ، واكتشفت في كتاب « المقتضب في ما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب » ، أن كثيراً من الكلمات العامية المتداولة على ألسنة الناس والتي يخاف كتابنا من استخدامها هي في الواقع كلمات فصحى ، بل إن كثيراً من الكلمات المتداولة في الحارة موجودة في لسان العرب لابن منظور ، ومشكلة كتابنا أنهم في حاجة إلى إتقان اللغة العربية ليس بمفهوم النحو والصرف حسب اعتقاد الأدباء الكبار الذين يتهمون جيلنا بجهل اللغة ، ونحن الاقدر على فهمها والأكثر حساسية في التعامل معها ، فهم يتعاملون معها على أنها نحو وصرف فقط ، ونحن نتعامل معها على أنها كائن حي يمنحك بقدر ما تحنو عليه وتمنحه من اهتمام وتقدير .

• قلت انك بدأت في مرحلة الانبهار بيوسف إدريس ونجيب محفوظ ، ومع ذلك كانت كتاباتك في الخط المعاكس لهما ، كيف استطعت النجاة من مصيدة الانبهار العام ؟

— نجيب محفوظ بالنسبة لى الأب الروحي والكاتب العربى الذي توقفت عنده طويلاً وقرأته بعناية وعمق .

وقد بدأ اهتمامي به وأنا في الخامسة عشرة من عمري كذلك تعرفت به في نفس المرحلة ، وربطتني به علاقة عميقة أثرت في على المستوى الشخصي عندما قرأت رواياته لأنها كانت تحمل عناوين نفس المنطقة التي أعيش فيها . خان الخليلي . بين القصرين ، السكرية ، قصر الشوق ، وربما أيضاً لأنني وجدت رواياته في مستوى الروايات العالمية التي قرأتها ونموت من خلالها ، وقد تعلمت منه كثيرا ، وتأثرت به في صفات شخصية عديدة منها تنظيم العمل والسيطرة الحديدية على الزمن ومنها الشعور بالإخلاص الشديد للأدب ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون كتاباتي في الخط المعاكس رغبة مني في الخصوصية والتفرد ، وإلا ماذا تعني كلمة مبدع ، وعندما أعجز عن الإضافة ، وعندما أعجز عن أن أكون أنا فسأتوقف عن الكتابة .

وأنا لم أقرأ لمحمد عبد الحليم عبد الله أو يوسف السباعي ، وفي سن متأخرة قرأت لتوفيق الحكيم يوميات نائب في الأرياف ، وقد أعجبتني ، أما عودة الروح فقيمتها تاريخية أكثر منها فنية .

والكتاب الذي أثر في من كتب الحكيم يمت إلى المذكرات وهو زهرة العمر ، أما مسرحه فأجهله . بالنسبة ليوسف إدريس فقد قرأت له عدداً من القصص المتفرقة في مرحلة متأخرة نشبياً لمجرد الفضول ، وقصصه تكرار لتشيكوف ، فهو لم يقدم جديداً غير التعبير عن الواقع المصرى فقط ، باستثناء محاولته الاستناد على التراث الشعبي في الفرافير ، كما أنه يكتب بلغة عادية وبدون أدنى اهتمام بها .

وفي اعتقادي الخاص أن إنجاز يحيى حقي في القصة القصيرة أهم وأعمق من إنجازات يوسف إدريس ، وتكفي مجموعته « دماء وطين » التي صدرت عام ١٩٣٢ م ، والتي أعدها من الأعمال الرائدة والهامة في الأدب العربي ، واعتبرها البداية الحقيقية للقصة القصيرة على مستوى التكنيك واللغة والموضوع .

• وقلت أيضاً إنك منذ البداية كنت تشعر بالرغبة في أن تكتب شيئاً لم تقرأ مثله وكنت تطمح إلى تجاوز نجيب محفوظ وتولستوي ودوستويفسكي ، في رأيك هل نجحت ؟

— عليك بمراجعة أعمالي من جديد .

• يهمني رأيك الخاص .

— نعم .. لقد تجاوزتهم .

• إذن هل نستطيع أن نؤرخ بأعمالك لمرحلة ما بعد نجيب محفوظ ويوسف إدريس ؟

— ليست أعمالي وحدي ، ولكنها أعمال من أبناء جيلي البارزين ، وهي أعمال منحت الأدب العربي الخصوصية والتنوع والتفرد والثراء منهم صنع الله ابراهيم — القعيد — ابراهيم اصلان — محمد البساطي — مجيد طوبيا — جميل عطيه — يحيى الطاهر عبد الله .

• في ماذا تلتقي وتختلف مع إميل حبيبي ؟

— إميل حبيبي من أكبر كتاب الرواية في العالم العربي ، وتجربته من أهم التجارب الروائية العربية بالنسبة لى لأننا نمضي في اتجاه واحد وهو تأصيل الرواية العربية ، و« الوقائع الغريبة في اختفاء سعد أبي النحس المتشائل » من أكمل التجارب العربية وأتمها في هذا الاتجاه ، وتوجه إميل للتراث لم يأت من فراغ ولكنه كان نوعاً من حماية الذات القومية الفلسطينية ، ولكني اختلف عنه في أنه عاش فترة طويلة جداً كسياسي ولم يقرر التفرغ للكتابة إلا في سن متأخرة . وأنه أكثر اهتماماً مني في التعامل مع التراث البلاغي ، وقد التقيت به في أوروبا عام ١٩٨٠ وأجريت معه حواراً طويلاً عن تجربته الروائية ، وأعتبره أيضا واحداً من ظرفاء العرب ، ولولا أنني أرفض استخدام وسيلة البريد بين مصر واسرائيل لكانت بيننا مراسلات ذات قيمة كبيرة .

ولا أنسى أن أذكر المسعدي الكاتب التونسي الكبير وقد قرأت له « حدثنا أبو هريرة » وأعتبرها أيضا من أهم التجارب لتأصيل شكل عربي للقصة وقد وصل فيها إلى مستوى من اللغة أحسده عليه وإن تمنيت لو كانت أكثر التصاقاً بالواقع وأقل تجريداً .

• هل تتفق مع أحمد محمد عطية في اعتبار « البحث عن وليد مسعود » تجربة روائية يدفع بها جبرا بمسيرته الروائية وثقافته الغربية نحو أصول التراث العربي ؟

— جبرا مثقف عربي ، لكني لا أتفاعل مع عالمه الروائي لأن فيه درجة كبيرة من التغريب وقيمته عندي كمترجم أهم من قيمته كروائي ، وقد قرأت روايته المذكورة ، وأحسست أن جبرا يتعامل مع التراث في روايته تعامل « خواجه » ، والتعامل مع التراث لا يعني مجرد محاولة تطعيم العمل الروائي به كزينه أو حلية ، ولكنه حياة وتوجه وتفاعل كامل ، وأعتقد أن عطية قد بالغ جداً في قوله هذا .

و .. ينتهي حواري مع جمال الغيطاني الكاتب الذي وصفته جريدة « الكانارد أو تشينيه » الفرنسية بأنه « أستاذ من صفوة الروائيين العظام في زماننا » ينتهي زمن الحوار ، ولا ينتهي زمن التجليات . ولا زمن كاتبها الذي مازال ، يتشعلق بالأتوبيس في مشاويره اليومية ! »

سـارة — القاهرة

أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد جمالاً مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

● ديمقراطية الطبيعة ●● عتاب ●●● ديون إسماعيل باشا



ديمقراطية الطبيعة

بقلم : أحمد أمين

يعجبنى البحر فى جماله وبهائه ، وجلاله ولا نهايته ، ويعجبنى كذلك فى ديمقراطيته ، فهو لا يسمح لأحد أن ينغمس فى مائه إلا اذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التى خلقتها المدنية ، يجب أن يتجرد أولاً من ملابسه التى تميز بين الغنى والفقير ، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التى اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها فى بعض . ففى البحر تتساوى الرءوس ، لا غنى ولا فقير ، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا حاكم ولا محكوم ، لا يتميزون بشيء إلا بلباس البحر ، وفى الحقيقة ليس هو لباس البحر ، وانما هو لباس البر ، فليس للبحر لباس إلا ماؤه . ودليل أنه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض ، واتخذوا منه شعاراً للغنى والأناقة واللياقة والوجاهة ، والبحر لا يعرف شيئاً من ذلك ، إنما يعرف ذلك البر ، ومن أجل هذا سرعان ما ينغمس الناس فى البحر ، فيسدل بمائه الأزرق الجميل ستاراً على كل أثواب الرياء حتى لا ترى بعد إلا رءوساً عارية لا يميز بينها شيء من الصنعة ، ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على السواء ، فتغازل الأسود كما تغازل الأبيض ، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح ، وتعبث بلحية العالم ، كما تلعب برأس الجاهل ،وأحياناً يهيج هائجه ، وتثور حفيظته ، فيزفر من الغضب ، حتى ليكاد يخرج من إبه ، ويطفر من ثيابه ، ويربد وجهه فيلفظ بالزبد ، وينتفخ ويرتعد ، ويرقص من غير طرب ، وهو فى هذه الحال لا ينسى ديمقراطيته ، يأتي للباخرة الضخمة قد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليه فيبتلعها فى لحظة ، لا تغنى عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث ، كما يبتلع أحياناً صبياً وديعاً وشيخاً ضعيفاً ، ليبرهن أنه لا يعبأ بقوة ولا ضعف ، ولا يخشى بأس كمي ، ولا يرحم ضعف أعزل ، سواء هو فى هزله وجده ، وسواء هو فى حلمه وغضبه ـ ما أجمل البحر ، وما اجله ، وما ألطفه ، وما أقساه !

على أنه يظهر لى أن الطبيعة فى جملتها ديمقراطية لا أرستقراطية ، ولا أرستقراطية إلا فى الانسان الكاذب ، فالشمس ترسل أشعتها



الذهبية ، والقمر أشعته الفضية ، على الناس سواء . على المؤمن والكافر ، والأسود والأبيض ، والغنى والفقير ، والكوخ الحقير ، والقصر الكبير .

ويأتي الجو بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء ، لا تميز عظيماً ولا حقيراً . ولا شريفاً ولا وضيعاً ، ثم يأتي بريح طيبة تنعش الناس كذلك ، لا يعرف في شيء من ذلك محاباة ، ولا يعرف طبقات ، ولا يعرف أى نوع من أنواع التفاوت التى تواضع عليها الناس ، يرسل فى الصيف شواظاً من نار فيدخل على الكبير فى قصره ، وعلى الفقير فى كوخه ، فلا يهاب عظيماً ، ولا يحتقر وضيعاً ، ويرسل فى الشتاء برده القارس فلا يستطيع أن يتقيه الغنى بصوفه وملابسه ، ولا بمدفأته وناره ، كما لا يتقيه الفقير فى عدمه وبؤسه ، ثم تطلع شمس جميلة ، ويعتدل الجو ، فتحتضن الطبيعة الناس على السواء وتكون لهم جميعاً أماً حنونا ، مشفقة باردة ـ إن تحدث الباشا أو البيك فى نفسه بأنه فوق طبقات العامة ، وأنه يستطيع فى شرع العرف والعادة أن ينعم بما لم ينعموا ، فتفسح له الطريق ، ويخلى له السبيل ، وتفتح له أبواب المجتمعات ، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء ، فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير فى حر ولا برد ولا نور ولا ظلام ، فان أخطأ فى ذلك وظن أنه يغالب الطبيعة فى شيء من قوانينها صفعته صفعة آمن بعدها بالقدر خيره وشره حلوه ومره ، وأدرك أنه إن علا الناس بماله أو جاهه ، وإن تلاعب بأوضاع الناس لسخف الناس ، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل .

* * *

ثم يأتى القدر فينثر نعمه ونقمه ، وشره وخيره على الناس جميعاً ، فصحة فى الأغنياء والفقراء ، ومرض فى الأغنياء والفقراء . وتجد غنياً فاتر القوى منقوف الوجه ، يبيت يتضور من الألم ، يود لو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود إليه صحته ، وبجانبه فقير مستحكم الخلقة ، متين البنية ، ممتلىء قوة وشدة وصلابة ـ وتجد جمالاً فى الأغنياء والفقراء ، وقبحاً فى الأغنياء والفقراء ، فهذه فقيرة مشرقة الجبين ، صافية الأديم ، مفرطة الجمال ، معتدلة القوام ، لا تفتح العين على أجمل منها صورة ، ولا أتم منها حسناً ، وهذه سيدتها الغنية دميمة الخلقة ، منكرة الطلعة ، تنبو عن منظرها الأحداق ، وتتفادى من مرآها الأبصار ، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلي والملابس ، فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحاً ، على حين أن جارتها الفقيرة جميلة فى طبيعتها ، جميلة فى بساطتها ، جميلة حتى فى ثيابها المهلهلة !

وللقدر فى ذلك بدع ، فأشهر طبيب فى القلب يموت بالقلب ، وأعظم جراح يموت بالتسمم ، وتلد الفلاحة الفقيرة فى الطريق وهى حاملة قدرتها مملوءة ماء على رأسها ثم يقطع « الخلاص » وتحمل طفلها وتذهب الى بيتها سالمة غانمة ، وسيدتها الغنية يحلل دمها وغير دمها قبل الوضع ، ويعقم كل شيء فى حجرة ولادتها ، ويقف مشاهير الطبيبات والأطباء على بابها ، حتى اذا آذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل إليه الطب الحديث ، والكيمياء الحديثة ، والعلم الحديث ، وأمضت جمهرة الأطباء فى التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة ، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلا ، ثم هى بعد تصيبها حمى النفاس ، ويقف الطب والعلم دهشاً حائراً ، ثم تسلم الروح الى ربها ، هازئاً بكل ذلك القدر .

* * *

وهناك نوع من الأرستقراطية غريب ، هو الارستقراطية العلمية . فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم ـ وربما عدهم الناس أيضاً ـ نوعاً ممتازاً من الناس ، يختلفون عنهم نوعاً من الاختلاف ، ويرتفعون عليهم نوعاً من الرفعة . فالمتعلم ينظر الى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شيء من التعاظم ، وشيء من الازدراء ، وشيء من الغرور ، وان ساواه فى الدم ، وان ساواه فى الغنى أو الفقر ، وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه فى كل شيء خير الآراء ، وأن غير الجامعي لا يحق له أن يبدى رأياً بجانب رأيه ، حتى فيما ليس له اختصاص فيه .

وهو كذلك نوع من الأرستقراطية الكاذبة لا تعبأ بها الطبيعة ولا تعيرها أى التفات ، فقد جعلت بين المتعلمين أذكياء وأغبياء ، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء ، بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرأ ولا يكتب جاهلاً وأمياً ونحو ذلك من الأسماء ، ويسموا من يقرأ ويكتب متعلماً ، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدهما ، ونحن لو نحينا غرور المتعلمين جانباً لهزئنا بالقراءة والكتابة فى كثير من الأحيان ، ولوجدناهما وسيلة من وسائل الرقى ، ولكن بجانبهما وسائل أخرى ، ولوجدنا أنهما لا تستحقان هذا الغرور الذى ينشيء نوعاً من الأرستقراطية ، فالحكمة فى تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعى ، وسعة العلم كما تعتمد على الفطرة البشرية ، والغريزة الانسانية . ومن ثم قد ترى الجامعي الحائز لأرقى الشهادات العلمية وهو أخرق فى الحياة ، سفيه فى التصرف ، وأخاه الذى يسمونه جاهلاً أمياً حكيماً فى تصرفه مدبراً لشؤونه وشؤون اخوته الجامعيين ، وترى الأمة قد تصاب على يد متعلميها فى أحوالها السياسية والاجتماعية أكثر مما تصاب على يد جاهليها ، والفلاح القروى الأمى قد يرزق من الحزم فى تصريفه ، وبعد النظر فى آرائه ، وصدق الشعور فى وطنيته ، مالا يرزقه أخوه الأستاذ فى الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية ، بل قد يصدر من الرأى العام الجاهل فى شؤون وطنه ، وفى المسائل الهامة التى تعرض عليه ما يفوق رأى متفلسفة المشرعين ، وحيل القانونيين .

ان نظرنا الى الذكاء ، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل ، وان نظرنا الى حكمة التصرف ، والحزم فى ادارة الأمور ، وتدبير شؤون الحياة ، فذلك أيضاً أمر مشاع بين الناس ، ففيم غرور المتعلمين وانشاؤهم أرستقراطية بجانب ارستقراطية الأموال والأعمال والطبقات . يطالبون أن يكال لهم المال جزافاً ، ويطالبون ألا يهيئوا أنفسهم فى عمل ، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آبائهم أكبر نصيب ، ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم وحثالته لما يسمونه الجاهلين .

ما أسعد الأمة تخفف من غلوها فى ارستقراطيتها ، بجميع أنواعها ، وتقلد الطبيعة فى ديمقراطيتها واعتدالها ..

أحمد أمين

عتاب

بقلم: محمد قدري لطفي

كان النبى صلى الله عليه وسلم يود لو أنهم أسلموا ليعتز بهم الاسلام ، ويدعو الله أن يهبه من لدنه حكمة لعله يصرفهم عن الضلالة أو يجعلهم من المهتدين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على إسلامهم ملحاً فيه ، لأن أشخاصهم عند قريش مهيبة ، وأسماءهم عند العرب رفيعة ، فلما دخل عليهم وقد اجتمعوا عنده ، حياهم فردوا عليه تحيته ، مخلصين أو غير مخلصين . ثم أخذ مكانه بينهم ، فكان صمت ، وكان جلال رهيب ، ولم يلبث أن سرى بين الجمع صوت مهيب ، فيه قوة لأنه صوت الحق ، وفيه إيمان لأنه وحي القلب ، وكان الصوت متجهاً نحو عتبة بن ربيعة وأخيه ، يقول : أما آن ياعتبة أن تدخل أنت وأخوك شيبة فى دين الله ؟ ما دعوتكما لأمرى ولا لشيء هو من عندى ، وانما دعوتكما لأمر الله رب العالمين ، وهذا كلامه بين يدى فاستمعاه واصغيا إليه لعله تعالى يهديكما فتكونا من عباده المسلمين .

ولكن عتبة وأخاه لم يلبثا أن جادلاه فجادلهما ، وأخذ النبي منهما وأخذا منه ، حتى اذا غلبهما الرسول بمنطقه وقوة حجته ، لم يلبثا أن عقد الصمت لسانهما ، فالتفت النبى الى العباس ابن عبد المطلب وكان مصغياً يستمع الى قوله لابنى ربيعة ، وقال له إنك يا ابن عبد المطلب لو اهتديت بهدى الاسلام وأنت من صناديد قريش لاهتدى معك جمع كثير ، فلا تكونن بصدك عن دين الله حائلاً بين الناس والجنة ، ولا تضربن لقريش مثلاً من الغى والضلال ، فتضل وتضل ، وأنت حرى أن يكون لهم منك هاد معين .

فلم يرفع العباس رأسه ولم تتحرك له شفتان ، وانما ود لو أن النبي تركه الى الوليد بن المغيرة أو الى أمية بن خلف ، فلما شعر النبي أن العباس حائر بين عقله وعاطفته ، ورآه مطرقاً الى الأرض ، لم يلبث أن تحول عنه الى أمية بن خلف ، قال : يا أمية ، ما كان لسادة الناس أن يكفروا بسيد العالمين ، الله الذى فضلهم على عشيرتهم وذوى قرباهم ، وما كان لك أن تكون لقومك قدوة سوء ، لعمر الله ليس بعد الكفر ذنب ، وما ينبغى لك أن ترغب عن دعوة الله وتصد قومك عن الدين باعراضك عنه . قال يا محمد أمهلنى يوماً أو بعض يوم ، فان الأمر أعسر عندى من يسره لديك .

واتجه الرسول الى أبى جهل بن هشام وكان يجلس بجوار الوليد بن المغيرة ، فقال لهما وقد دنا منهما : أيحق لكما أن تسبقا الناس فى الدنيا حتى إذا كانت الآخرة كنتما آخر الناس عند الله ؟ ، والله مالكما فى آلهتكم غناء ، وما كنتما لتجعلا رضى الشيطان فى عصيان الله . ولكن أبا جهل لم يكن ليصبر كما صبر العباس ، أو يسكت كما سكت ، وانما جادل النبى فى عنف ، فجادله النبى فى لين ، وآثر أبو جهل الحدة ، ولم يكن النبى ليحتد . واتجه الرسول الى القوم جاداً فى دعوتهم ، ملحاً فى إقناعهم ، يمنيهم بالوعود يوم الدين ، ويحذرهم عاقبة الكفر يوم القيامة . وأخذ النبى يفيض عليهم من بيانه ، ويشع على القوم قبساً من إيمانه ، حتى أقبل الكل عليه يستمعون له ويصغون إليه .

وبينما النبى يدعوهم فينصرف الى الدعوة بكل إيمانه ، كان يسعى إليه رجل يتوكأ على عصاه يتحسس بها الطريق إليه حتى إذا بلغ مجلس النبى لم يستمع إليه ولم يلق بالاً الى قوله ، ولم يدر أن النبى يدعو صناديد قريش الى ما دعا الله ، وإنما بادر النبى يسأله أن أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكان النبى عنه فى شغل ، وكان ضيوف النبى قد تلهوا عنه بما هم فيه ، فلم يلتفت إليه أحد ، ولم يرد عليه مجيب ، فقال أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، فلم يكن حظه فى الثانية خيراً منه فى الأولى ، والرجل واقف فى مكانه لا يريم ، ملح فى طلبه لا يسأم ، فأخذ يعيده ، وطفق يكرره ، حتى كره النبى صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه الحديث ، وأى حديث ، أو يلقى عليه قول ولم ينتبه من قوله ، فعبس فى وجه الرجل وأعرض عنه ، ولم يلبث النبى أن انصرف القوم من عنده ، فيهم الذى أوشك أن يقتنع ، وفيهم الذى مازال متبرماً بالدعوة ساخطاً ، وفيهم الذى ينكر على الرسول قوله ، وفيهم الذى يحب أن يتريث فى الأمر فلا يقطع فيه برأى ، وكان النبى قد ظن أنه بالغ منهم فى يومه ما لم يبلغه فى أمسه ، وانه لابد اليوم مقنعهم حتى يسلموا ، فلم يدر بعد ذهابهم ماذا أخذ عليه نفسه وقد كانت معه وله ؟ ولا كيف ضاق صدره وقد كان واسعاً لا يضيق بشيء ولا يتبرم بسوء ؟ وشعر النبى بحرج لم يدر ما هو ولا من أين أتاه ، فقد كان عند أمر ربه يؤدى الرسالة فى صدق وأمانة ، لم يدع سبيلا لهداية القوم إلا سلكها ، أو باباً الى قلوبهم الغليظة إلا طرقه .

ولم يلبث النبى إذ خلا لنفسه أن أحس بما يحس به حين يريد الله أن يبعث إليه بحديث أو ينزل عليه شيئاًمن آيه ، واذا الوحى له لا للمسلمين ، واذا القول له لا للمشركين ، واذا الله عاتب عليه يقول إنه : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ويقول له « وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى » واذا ربه يلومه ويقول فى لومه « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة » .

عند ذلك ذكر النبى قوم قريش وما كان بينه وبينهم من حديث ، وهتف هاتف كأنه عمرو بن قيس يقول : أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وتصور النبى حال الرجل يسأل وليس من مجيب ، ويقف وليس من يأذن له بالجلوس ، ولكنه لم يكن يدرى أنه أساء إلى الرجل أو قصد الى إساءته . فليس النبى من يسيء إلى أحد ، وليس النبى من يصد عن الناس بله عن السائلين ، وانما شغله أمر ربه فاشتغل عن عمرو وأقبل على سادة قريش ، فألهاه حرصه على إسلامهم وهم كفرة عمن أسلم ، وانما يريد أن يقرأ وأن يستزيد من العلم .

وبات النبى ليلته مسهد الجفن قلقاً ، يفكر فيما سمع من ربه ، وفيمن عبس بالأمس فى وجهه ، وأعرض عنه ، حتى اذا طلع الفجر كان النبى يلتمس ابن أم مكتوم يلقاه هاشاً باشاً ، يسلم عليه ويشد على يده ويقول له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، وكان النبى يلقاه بعد ذلك فيكرمه ويسأله حاجته ، وكأنما أراد الله أن يصبح إعراض النبى عنه إقبالاً عليه ، وأن يغدو عبوس النبى فى وجهه بشاشة له وارتياحاً للقائه ، واذا عمرو بن قيس مؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واذا عمرو ابن قيس خليفة رسول الله على المدينة ، لم يستخلفه النبى عليها مرة أو مرتين ، وانما استخلفه عليها فى غزواته ثلاث عشرة مرة ، واذا النبى يخرج الى حجة الوداع فلا يستخلف على المدينة إلا عمرو بن قيس . وكان حقاً قول المصطفى : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ..

محمد قدرى لطفى

١٩٣٤



ديون إسماعيل باشا

بقلم: عبد العزيز عبد الكريم

إن ما قام به اسماعيل باشا من جليل الأعمال لا يضارع ، وما تم في عصره من المشروعات والاصلاحات العامة لا يتسنى لأى حاكم آخر في مركزه أن يأتي بمثلها ، بيد أن خطأ اسماعيل باشا كله يرجع الى السرعة وتعدد المشروعات ، وفرط الثقة بدهاة أوروبا السياسيين والماليين ، وعدم الاحتياط في الانفاق على الأعمال ، وخلو البلاد من المستشارين المخلصين .

كانت زيادة الثروة في البلاد في أوائل حكم اسماعيل بسبب ارتفاع أثمان القطن المصري لنشوب الحرب المدنية في أمريكا في ذلك الوقت أول عامل على تشجيع الوالي في سياسته ، فعقد قرضاً كبيراً لتوهمه ان الحرب ستستمر طويلاً ، ولكن الحرب وقفت فجأة في عام ١٨٦٥ م . ولم يقف اسماعيل باشا عند هذا الحد بل أخذ يعقد القرض بعد القرض ، بشروط فادحة حتى عجز عن سداد الدين ، بل عن فوائده التي بلغت الخمسة أو الستة ملايين من الجنيهات في العام .

وكان اسماعيل يجد من أوروبا التشجيع في سياسة الاقتراض طمعاً في ثروة مصر ، ولأن كبار الماليين كانوا يبحثون عن البلاد الصالحة لاستثمار رؤوس أموالهم فيها ، فوفد الكثيرون منهم الى الاسكندرية في أوائل حكم اسماعيل ، وأسسوا فيها الشركات ، وأخذوا يتصلون بالوالي ، ولجأ كثير من الأجانب في ذلك الوقت الى مصر لطلب الرزق ، وقد أخذت مصالح الأوربيين تنتشر في مصر من ذلك الوقت .

وبعد أن فتحت قناة السويس التي أصبحت أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب ظهرت مطامع انجلترا وفرنسا الاستعمارية نحو مصر ، فأخذتا تتنافسان في استغلال مصر وامتلاكها .

وكان اسماعيل مسرفاً في الواقع ، فكان ينفق الأموال الطائلة في اكرام الضيوف الأوروبيين ، والهدايا ، والقصور ، والحفلات وغير ذلك ، ولكنه أنفق معظم الأموال التي حصل عليها في الاصلاحات ، وكان اسماعيل سليم الطوية ، على حين ان دهاة أوروبا كانوا ينصبون له الحبائل بطرق غير شريفة .

ديون اسماعيل باشا

كانت ديون اسماعيل ثابتة وسائرة ، فالثابتة هي القروض المحدودة التي عقدها في بنوك انجلترا وفرنسا ، وقد بلغت حتى عام ١٨٦٨ م نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات ، وتراكمت عليه الديون السائرة الصغيرة المستحقة الدفع ، فكان يجددها بفوائد باهظة حتى بلغت ثلاثة أو أربعة أضعاف المبلغ المقترض .

وفي عام ١٨٦٨ م ابتدأت الحكومة تتوقف عن دفع مرتبات الموظفين ، فأخذ مركزها المالي يتزعزع ، وكانت الضرائب تجبى مقدماً ، فساءت أحوال البلاد ، فأصدر الباب العالي في تلك السنة فرماناً يحرم تقديم أى قرض الى مصر بدون استئذان الحكومة التركية ، لكن اسماعيل عقد سلفة جديدة برهن ايرادات أملاكه الخاصة ومقدارها ٧ ملايين من الجنيهات بفائدة ١٣ بالمائة فاحتج الباب العالي على ذلك لدى الحكومة الانجليزية .

واستمرت الحكومة في عقد القروض الى أن اقترح اسماعيل صديق (المفتش) وزير المالية في عام ١٨٦٨ م فكرة (المقابلة) ، وكان المقصود منها أداء ديون الحكومة كلها ، وذلك بأن يقوم الأهالي بدفع ضرائب ستة أعوام مقدماً نظير اعفائهم من نصف الضريبة بصفة دائمة . فحصلت الحكومة

على ٨,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات ولكن الدين الثابت بلغ فى ذلك الوقت ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات ، ولشدة حاجة الحكومة الى المال الوفير لسداد بعض الديون عقدت سلفة جديدة تبلغ ٤,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات .

وسافر اسماعيل الى الاستانة وحصل من الباب العالى فى عام ١٨٧٢ م على فرمان خول له حق عقد القروض بدون قيد ولا شرط ، فرجع الوالى الى مصر فوجد الحكومة فى ضائقة شديدة فعقد سلفة مع أحد البيوت المالية الانجليزية مقدارها ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات بفائدة ٨ بالمائة .

وقد باعت الحكومة المصرية أسهمها فى القناة بثمن بخس لانجلترا ، وكانت هذه الصفقة أكبر غلطة سياسية ومالية ارتكبها اسماعيل باشا فى حياته .

بعثات حكومات أوروبا : (١) بعثـــة كيف

وبعد مضى أيام قليلة على شراء الأسهم تألفت لجنة انجليزية برئاسة (كيف) لدرس الحالة المالية فى مصر فى عام ١٨٧٦ م ، وكان هذا العام بدء التدخل الفعلى فى مصر وارسال البعثات المختلفة التى كان الغرض منها اصلاح الادارة بوضعها تحت المراقبة الأوروبية ضماناً للدائنين .

وقد اقترح (كيف) توحيد الديون المصرية كلها على أساس فائدة معتدلة تتناسب وحالة البلاد ، وتأجيل الاستحقاقات لخطورة الحال ، ووضع الادارة المالية تحت رقابة أحد كبار رجال المال الانجليز فى ذلك الوقت ، ولكن اسماعيل لم يوافق على هذا الشرط الأخير واتفق مع الماليين الفرنسيين وأصدر فى مايو مرسومين بإنشاء (صندوق الدين العمومى) وتحويل جميع الديون السائرة والثابتة الى دين موحد بفائدة ٧ بالمائة ، وقد عين فى صندوق الدين مندوبون عن الحكومات الفرنسية والنمساوية والايطالية .

(٢) بعثة جوش

وقد امتنعت الحكومة الانكليزية عن تعيين مندوب لها ، وعارضت المشروع فى بادىء الأمر ، ثم تم الاتفاق على ارسال بعثة جديدة مؤلفة من (جوش) ممثلا للدائنين الانكليز و (جوبير) ممثلا للدائنين الفرنسيين لاجراء تصفية عامة .

واصطحب تلك البعثة سياسيون من ذوى الخبرة لتمثيل انجلترا وفرنسا فى مصر ، ووضع قواعد المراقبة الثنائية (كوندومنيوم) .

وقد كانت أهم نتائج بعثة (جوش — جوبير) المالية ايجاد دين ممتاز قدره ١٧,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات بفائدة ٥ بالمائة وتخفيض الدين الثابت الى ٥٩,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات بفائدة ٧ بالمائة فأصبح مجموع ما يدفع من فوائد الدين سنوياً لا يبقى لمصر من الايرادات ما يكفى للانفاق على الادارة وتعهد الأعمال الهامة مثل الرى وغيرها التى هى عماد الثروة فى البلاد .

أما نتائج البعثة السياسية فتتلخص فى نظام المراقبة الثنائية (الكوندومنيوم) الذى يشرك انجلترا وفرنسا فى ادارة مصر على الوجه الآتى :

(أولا) : بتعيين مراقبين (انجليزى وفرنسي) عامين للمالية المصرية .

(ثانيا) : بتعيين مندوبين من الأجانب للدين العام تعرض أسماءهم الحكومات الأجنبية على الحكومة المصرية ، وتنحصر مهمتهم فى تسلم ايرادات الجهات المرهونة ضمانة لسداد أقساط الدين السنوى من يد مراقب الايرادات العام ، وتسليمها لبنكى انجلترا وفرنسا ، واتخاذ الاجراءات اللازمة لاستهلاك ذلك الدين .

(ثالثاً) : بتعيين مندوبين آخرين لادارة مصلحتى السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ، مصريين وفرنسى وانجليزيين تحت رياسة العضوين الانجليزيين . وتنحصر مهمتهم فى تسليم ايراد هاتين المصلحتين الى مندوبى الدين العام وذلك علاوة على الأشغال الادارية .

(٣) بعثة ريفرس ولسن

ظلت ادارة البلاد وأحوالها وماليتها فى ارتباك مستمر ، وعمت الشكوى فطلب اسماعيل باشا ارسال بعثة جديدة فأصدر فى عام ١٨٧٨ م مرسوماً يقضى بتعيين لجنة للتحقيق ، تحت رياسة المسيو دي لسبس لفحص الحالة المالية فحصاً دقيقاً ، وفوض لهذه اللجنة السلطة المطلقة لاجراء ما تراه كفيلا لتحقيق الغرض الذى أنشئت من أجله .

وقد تألفت هذه اللجنة وكان وكيلاها السير ريفرس ولسن ورياض باشا وأعضاؤها مندوبو الدول الأربعة فى صندوق الدين ، وكان رئيسها الفعلى ريفرس ولسن . وقد رفعت اللجنة تقريرها التمهيدى الى الخديو وطلبت أن تدفع الى الموظفين مرتباتهم ، وختمت تقريرها بقولها (ان الحاكم الأعلى يتمتع بسلطة لا حد لها) .

وبناء على ذلك كلف اسماعيل بتكوين وزارة مسئولة ، فأصدر مرسوماً فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٧٨ م بتأليف وزارة برياسة نوبار ، وريفرس ولسن فى المالية ، ودى بلينيير المراقب المالى الفرنسى فى الأشغال .

وألغيت المراقبة الثنائية التى قام عليها (الكوندومنيوم) ، وضمنت انجلترا لنفسها النفوذ الأول فى الوزارة الجديدة ، وبذلك انتقل الحكم المطلق من اسماعيل الى الأجانب أو الى السير ريفرس ولسن وزير المالية الانجليزى .

وقد واصل ولسن خطة اسماعيل فعقد قرضاً جديداً مع بيت روتشلد مقداره ٨,٥٠٠,٠٠٠ من الجنيهات بضمانة أملاك الخديو ، واستخدمت الوسائل القديمة فى جباية الضرائب ، فعم البؤس البلاد ، وأخذ السير ريفرس ولسن يفكر فى تسوية الدين بطريقة نهائية بعد أن تحققت أغراض السياسة الانجليزية ، وانتزع السلطة من الحاكم الشرعى ، فاقترح على اسماعيل إعلان إفلاسه وتأجيل دفع بعض الديون وتخفيض الفوائد الفادحة الى ٥ بالمائة .

بيد أن هذا الحل جاء بعد ما ساءت أحوال البلاد وتدخل الأجانب فى شؤون المصريين ، فثارت حمية القومية فى نفوس المصريين ، واضطر اسماعيل الى المقاومة فعزل الوزارة الأوربية فى عام ١٨٧٩ ، وعين وزارة وطنية بحتة برياسة شريف باشا .

وقد اشترك اسماعيل باشا مع نواب الأمة فى وضع خطة مالية جديدة ، وكانوا هم الضامنين لها ، ولكن الدول لم تغفل عن هذه الاهانة ، فسعت لدى الباب العالى الى أن تمكنت من عزل اسماعيل فى عام ١٨٧٩ م .

وكان من المكن حل الأزمة المالية بوضع الادارة تحت رقابة مالية أو أوربية كما حصل عند إنشاء صندوق الدين ، ولكن طمع انجلترا وفرنسا أدى الى تحويل المسألة المالية الى مسألة سياسية وحال دون انفراج الأزمة . وختمت الكارثة بقانون التصفية فى عام ١٨٨٠ م والاحتلال فى عام ١٨٨٢ م .

عبد العزيز عبد الكريم
اسكندرية — ١٩٣٤

قصة قصيرة





بقلم : وداد عبد اللطيف

« إياكم وبكاء اليتيم فانه يسري والناس نيام »

« حديث شريف »

* * *

قبع جاسم في زاوية المطبخ واضعاً كفاً صغيرة جمدها البرد على صدغه بينما أخذت يده الأخرى تعبث بأطراف السجادة المهترئة التي خصصت لجلوسه في اللحظات القليلة التي لا يكلف فيها بعمل ولأستذكاره ونومه أيضاً ، ... سجادة بالية لم تكن تمنع بحال برودة البلاط من التسرب إلى عظامه فتدفعه إلى التكور والتقوقع داخل نفسه أكثر وأكثر ...

أسند رأسه المتعب على الجدار وأخذ يفكر وإشراقة حزينة تطوف بوجهه بين الحين والحين فتزيد من بروز وجنتيه وتدفع بعض ذوي القلوب الرحيمة إلى لثم هاتين الوجنتين الشاحبتين وإلى مده ببعض الريالات التي لا تلبث أن تختفي من يده حالما تقع عليها عينا أم ناصر سيدة الدار ...

عينان بارزتان شد ما تشبهان عيني صقر متحفز للانقضاض بهدف وبدون هدف ، ولم يكن ليحزنه أن تخطف تلك الهبات القليلة منه فهو أساساً لم يكن راغباً فيها ولم يحلم يوماً باقتناء أي من الاشياء المفرحة التي يتباهى بها أمامه زملاؤه في المدرسة ، كل ما يؤلمه حقيقة هو الاتهام الصامت المطل من حدقتي الرجل الذي آواه وأدخله بيته ، عمه أبو ناصر ، اتهامه بسرقة تلك النقود من جيبه أو من حقيبة زوجه أم ناصر وهو اتهام تترجمه الأخيرة كل مرة إلى كلمات جارحة تنفذ إلى أعماق اليتيم بقسوة فيردد بصوت مكسور مدافعاً عن نفسه : إنها جارتنا أم علي أعطتني و ... فتشجب الكلمات المترددة بصفعة قوية من يد زوجة العم الغليظة فترسم الخواتم العديدة علامات داكنة على البشرة الرقيقة لعدة أيام وتستطرد بصوت كالفحيح :

ـ ولماذا تعطيك أم علي نقوداً ، أتراها تملك كنزاً ونحن لا ندري ؟ هو أيضاً لا يدري لماذا تهبه أم علي نقوداً دون الباقين في حين أن ناصر ابن عمه يماثله في العمر ، ربما لأنه متفوق في دراسته أكثر منه ... ربما لأنه أقصر منه قامة وربما لأنه ... لكن هي لم تفصح أبداً عن سبب اهتمامها به أكثر من الآخرين .

كلمات قليلة كانت ترددها كلما ضمته إلى صدرها وكلما رأته يكنس ساحة الدار أو المساحة الواقعة أمام المنزل والشمس الحارقة تلفع وجهه الضامر والعرق والتعب ينهشان في أعوامه الثمانية ، حينها كانت تردد :

ـ الله يعوضك خيراً ، لك الله يا بني لك الله .

ولا يملك لحظتها إلا أن يرفع رأسه المبلل بالعرق عالياً وينظر إلى السماء بعد أن يظلل عينيه بيديه وكأنه يعتذر بصمت لكونه نسي أن له أحداً في هذا العالم يرعاه ولو عن بعد .

وأفاق الصغير من ذكرياته العاصفة على صوت بقربه يقول :

ـ البرد قارس ؟ أجاب جاسم : نعم شكراً ، وامتدت يده الواجفة للغطاء الذي وضعه صديقه الغريب على ركبتيه ولف جسده به جيداً وعاد يفكر ، ... لأول مرة يشعر بأن لديه شيئاً خاصاً به ... شيء لا يتقاسمه أحد معه . وجاست عيناه الواسعتان في المكان البارد ... يا الله كم يتوق في هذه اللحظة لو أنه يهب واقفاً ويهرع إلى حقيبته القديمة ويستخرج من بين كتبه كنزه الثمين .. قلم الحبر الجاف الذي قدم اليه كمكافأة على تفوقه وحسن سلوكه . كم يود لو أن صديقه الغريب لا يشاركه الفراش في هذه اللحظة .. فقط لقام من توه وأحضر الكنز وضمه إلى صدره بقوة . أكيد أن الدفء لحظتها سيتسلل إلى جسده و ...

الليل يطول داخل المطبخ المعتم .. والرياح الباردة لا زالت تنفذ من ضلفة الباب فتصطدم بجاسم وتستكن في عظامه شأنها شأن الحزن السرمدي المتغلغل في صدره فيلملم أطراف اللحاف من حوله ويحاول أن يبحر مع الفرحة التي سيهديها مع قلمه غداً لفرد من أفراد الأسرة .. أسرة عمه غداً في عيد الأسرة .. منذ بضعة أيام فقط كان يشعر بتعاسة لا حدود لها لعجزه عن شراء هدية صغيرة يذكر بها من حوله أنه موجود وأنه فرد من الأسرة يحبهم جميعاً وإن بخلوا عليه بالحب ، .. هدية واحدة فقط يهديها لمن يحبه أكثر . وهاهي الآن معه تربض بين كتبه أهديت إليه في الوقت المناسب وسيتصرف بها غداً ولكن عليه قبل كل شيء أن يقرر لمن يعطيها وبعد أن يصل إلى قرار سيغلفها بذات الورقة الملونة التي كانت عليها من قبل ، ولكن ، وعاد يهز رأسه بحزن وكأن أحزانه لا تكفيه فها هو حزن آخر يجتث الفرحة المسروقة من أعماقه فأطراف الورقة قد تمزقت ولم تعد صالحة للاستعمال مرة أخرى وهو لا يملك الوقت ولا المال لشراء ورقة أخرى جديدة ، ويباغت استغراقه في مشكلته الصغيرة صوت الغريب الغارق في النوم وهو يقول بعربية ركيكة الوقت متأخر يجب أن تنام وإلا ... ويعود الغريب للنوم تاركاً الصغير يكمل الجملة في ذهنه والرهبة تضج في صدره : وإلا ، إنه يعلم ما سيحدث .. ستنهال عليه رفسات قوية من عمه أبو ناصر رفسات عمياء لا تميز الوجه من الخاصرة .

وسيتلوى ألماً لوهلة ثم يهب واقفاً متجنباً إياها بينما عبارات اللوم والتأنيب تنهال عليه فيمتد الألم

إلى مساحات أكبر وأعمق من الجسد :

أيها الكسول قم وإلا فاتتك الصلاة ؟ هل تريد أن تهمل واجبات ربك أيضاً ... قم لمن ... ، وسيبتلع الكلمة المبتورة مستغفراً بعد أن تكون قد صكت أذنه و ... تتساقط الأحزان في الذاكرة ، أمه ، أبوه ، شقيقته الصغرى التي لم تتجاوز الثلاثة أيام من عمرها وسيارة مسرعة تغتال الحلم والأحباب أثناء العودة من مستشفى الولادة ، وتتركه يتيماً يلوذ بالصدور بحثاً عن قطرة حب .. عن لحظة أمن قصيرة تخدر وحدته لفترة فلا يجد إلا السراب ...

بلل شفتيه بلسانه وعاد يفكر بقوة وإصرار في هديته وفي عيد الأسرة ، وردد بصوت هامس عيد الأسرة ، عيد الأ ... آه انه يتذكر الآن أن أحد زملائه قال إنه عيد الأم وقد سمي بعيد الأسرة حديثاً ... إذن لم لا يهدي كنزه الثمين إلى أم ، أم ... ناصر مثلاً إنها طيبة وحنونة حين تضم ناصراً إلى صدرها وهو لا يمل من مراقبتها وهي تحنو على ابنها الوحيد تداعبه وتدلله بأحلى الأسماء لحظتها يرى حب العالم كله يتجمع في مآقيها ويرى اللهفة تطل من عروق يدها المتصلة على ظهر ناصر وهي تضمه أكثر وأكثر نعم سوف يهديها قلمه وسيقول لها بكل حب وصدق : كل عام وأنت بخير يا أمي ...

لكن قد تصرخ في وجهه بأنها ليست أمه إنها أم ناصر فقط وقد ترمي هديته في وجهه و .. وهذا الأدهى قد تتهمه بسرقتها ... إنه حينها لن يستطيع أن يقول لها بأنها هدية تفوقه حتى لا تغضب أكثر وتتهمه بالتلميح إلى تخلف ابنها في دراسته .. لا لا ... لا يقدر على أن يتجرأ ويهديها شيئا ... ليبعد هذه الخاطرة من ذهنه وليفكر مرة أخرى في شخص آخر :

يالغبائي ... همس جاسم لنفسه ، كيف لم أفكر في عمي ، أبو ناصر ، انه أحق بهديتي من أي كائن آخر ألم يأوني في بيته ألم يدخلني المدرسة ألم يقل لي أكثر من مرة إنه بمثابة والدي ويجب أن أمتثل لأوامره ... إنه يحبني بالتأكيد وإلا ما تحملني طيلة السنوات الثلاث التي مضت ، عمي يحبني ويخاف علي ...

وضع رأسه على الفراش توسد كفيه وشعر براحة من يصل إلى قرار ، أغمض عينيه وفتحهما .. ماذا به ... لماذا تهاجمه هذه الأفكار من جديد وتسخر من قراره ؟ أفكار كالسوسة تنخر في رأسه بجد واصرار ... تقلب على مضض حاول الهروب منها ـ لكن عبثاً ننسلخ عن الحقائق ـ ولكن ما يدريه أنها حقائق تلك التي قالتها له الجارة الطيبة أم علي من أن عمه استولى على إرثه باعتباره وصياً عليه وباع بيت أبيه ووضع الثمن في جيبه ، حتى في الفترات القليلة التي هم فيها بالدفاع عن عمه كانت تكتفي بالقول وعيناها تنظران إلى بعيد : يا ويله من الله ، ياكل مال اليتيم ...

اعتدل في جلسته للمرة الخامسة غير آبه بأسنانه التي بدأت تصطك بفعل البرد وأخذ يتساءل ، ألا يجوز أن يكون ما قالته مجرد تخريف أو إشاعات لا صحة لها ؟

ودفعه تساؤله إلى استحضار صورة عمه في حين بدأت أمور صغيرة تقفز إلى سطح الذاكرة ، .. كان يوماً ممطراً ... الأرض عطشى تشرب هبات السماء بلهفة والجفاف يغطي كل مساحات جسده المرتجف والصداع كاد يفتك به وناصر ابن عمه مسترخ في السيارة الفارهة ينعم بالدفء والترف بينما عليه هو أن يقطع الشارع في مثل هذا الجو لينتظر الباص رغم أن مدرستهما واحدة ... وفجأة قفز ببراءة متخطياً بركة صغيرة من الماء وجلس بدون مقدمات بجانب ابن عمه وشعور ناعم يتسلل إلى نفسه رغم الصداع الشديد ولم يتسن له يوماً أن يعيش هذا الشعور طويلاً ، اختطفته يد كثيفة الشعر من شعره الناعم ومنعه الألم والصداع من أن يرفع رأسه ليرى صاحب اليد الغاشمة وقبل أن يرفع صوته بالبكاء وصله صوت عمه :

هذا ليس مكانك ، هل فهمت ، ليس مكانك ؟

إنتفض جاسم كمن يريد أن يطرد كابوساً يجثم على أنفاسه الرقيقة وقال لنفسه : لقد تعبت كثيراً حتى عرفت أن مكاني هنا في المطبخ ، لا لن أعطي عمي هديتي ... لقد أبكاني يومها ثم إنه يبخل علي حتى بمصروف المدرسة رغم أن نقودي عنده كما تقول أم علي ... رحمها الله ، لو كانت على قيد الحياة لما ترددت في اهدائها قلمي رغم أنها تجهل الكتابة والقراءة إلا أنها ستقدر هديتي وستفرح بها ... رحمها الله ليتها أخذتني معها فالمكان هنا بارد ...

عاد يفتح عينيه بدون هدف وابتسم فجأة حين عنّت جملة في خاطره : إن الظلام ليس في داخلي فقط إنه في الخارج أيضاً ، إنه يتفلسف أحياناً كما تقول زوجة عمه ولكن بعفوية ودون تبجح ... عاد يبتسم وهو يردد لنفسه : حين أكبر سأدرس الفلسفة .. رفع يده ليزيح خصلة شعر تدلت على جبينه فاصطدمت اليد الفضة بوجه حبيب ينام قبالته وعلقت أصابع جاسم بدموع لم تنشف بعد ... ياللصديق العزيز إنه يطلق دموعه الحبيسة كلما خلا إلى نفسه ... يبكي زوجته وأطفاله وأمه العجوز وغربة لا يجني منها إلا بضعة ريالات يرسلها آخر كل شهر مع رسالة مطولة تحمل أساه ولوعته .

ياللصديق العزيز ، كرر جاسم وهو يحتضن وجه صديقه بيديه ... انني والحمد لله أفضل منه حالاً فليس لدي من أبلل وسادتي من أجله كل ليلة .

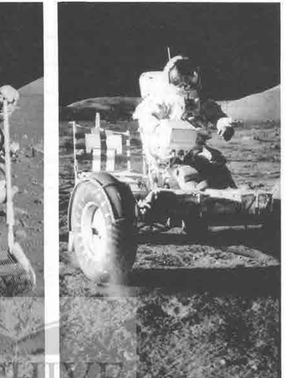
خيوط الفجر تتسلل من ستارة المطبخ القاتمة ونهار جديد بدأ يعلن عن ميلاده وجاسم لا زال يتخبط في أفكاره : لمن أهدي لمن أهدي ؟ : ناصر ، ومضى الاسم في ذهنه بشكل مفاجئ كيف غاب عن باله هذا الاسم كيف ؟ غداً بإذن الله سيهدي قلمه العزيز لابن عمه ، ارتاحت نفسه للفكرة وبدأ يخطط الطريقة التي سيقدم بها هديته ... هل يقدمها له قبل أن تنطلق به سيارته إلى المدرسة أم ينتظر إلى فترة الغداء ... أم ... اصمتي يا نفسي لا تدعيني أتردد في قراري هذه المرة أيضاً اختبئي أيتها الذكريات في أعماق أعماقي ، لم تصادرين الفرحة المختلقة ؟ ... وتقفز الذكريات إلى السطح غصباً عن جاسم ، ناصر وتعاليه عليه أمام الزملاء وأوامره التي لا تنتهي : احضر كتبي واحملها عني حتى السيارة ، أريد كوب ماء ... اكتب واجب الحساب عني ، وأوامر متصلة لا تنقطع في البيت والمدرسة إنه يعامله بفوقية غريبة لا يدري من أين استمدها ... يا للذكريات البائسة ، ليبعدها عن فكره فلم يتبق أمامه سوى ناصر وسوف يهديه الهدية شاءت الذكريات أم أبت ... لكن ماذا لو سخر ناصر من هديته فهو يعلم بأنها مهداة إليه ولم يدفع فيها نقوداً ، ناصر نفسه قال ، حين رأى قلمه بعد أن أخرجه من علبته : إنه رخيص ، لدي أقلام أغلى وأجمل من قلمك هذا إنه لا شئ ؟ نعم سيسخر مني ومن هديتي ولن أقدر على إفهامه بأني لا أملك نقوداً لأشتري هدية قيمة أهديها له في عيد الأسرة ، سوف ...

واستغرق الصغير في النوم دون أن يصل إلى حل وبين اليقظة والمنام خيل إليه أنه يسمع صوت والده الحنون يداعب سمعه : قم يا ولدي للصلاة ، يا حبيبي ، ولم يدم الحلم إلا لوهلة وتهاوت الرفسات العمياء على جسده المتكور ... تأوه فتح عينيه ببطء ودهشة أين ذهب والده كان هنا منذ لحظة ... الرفسات تتوالى وعيناه لا زالتا تبحثان عن والده الطيب ... وهناك أمام الموقد الكبير وقف صديقه الأجير ينظر إليه بأسى وحزن ودموع حبيسة صادقة كالتي ذرفها الليلة الماضية تتماوج في عينيه وكأنها تعلن بأن لا حيلة ولا قوة لصاحبها من صد الأذى عن الجسد الغض .

إذن لم يكن والده من داعب أذنه بصوت عطوف ، كان صديقه هو من حاول إيقاظه حتى يجنبه هذه الرفسات ... رفسات عمه ، وكرجل صغير نهض اليتيم بهدوء واللعنات المبتورة تلاحقه والألم يزحف من صدره وظهره إلى رأسه والقهر يكبر في داخله وسؤال حائر يطوف بين جنبات نفسه :

هل هو حقاً عيد الأسرة ؟ ولكن أين هي الأسرة ... أين أمه وأبوه وشقيقته الرضيعة ؟ أين أم علي .. ؟ أين الأحبة .. تختلط الأسئلة بالحزن المبكر وتنساب دموعاً غزيرة لا يملك حبسها على الوجنتين البارزتين ... أنهى جاسم صلاة الفجر ووضع حقيبته القديمة على ظهره ويمم وجهه شطر الباب وقبل أن يغادر الدار دس في يد صديقه الغريب علبة ممزقة الأطراف ...

غريب يهدي غريباً .



العربة التي استخدمت فى التنقل فوق سطح القمر

هكذا استطاع الانسان أن يسير على سطح القمر

غزو الفضاء يفتح آفاقا جديدة للبشرية

هل يستقرّ الإنسان على القمر بعد عشر سنوات ؟

إعداد : ياسر السباعي

متى ستصبح الرحلات الفضائية إلى القمر رخيصة ومنتظمة ؟ وهل سيواجه الانسان حياة أخرى فى الكون ، وما شكل هذه الحياة ؟ وهل ستتغير حضارة الانسان جذرياً بعد الاحتكاك بحضارات كونية أخرى ؟ وهل ستتقاتل قوى الأرض من أجل امتلاك القمر ؟ إلى كل من يتساءل عن أهمية غزو الفضاء أمام الكثير من المشاكل الخطيرة التى لم تحل على الأرض والى كل من يستفهم عن فائدة غزو القمر نطرح هذه الحقائق .

أصبح من الواضح الآن أن العملاقين يزمعان توطين الانسان على سطح القمر في العقد القادم ، وهذه احدى الحقائق التي قد تطغى على القضايا الانسانية . ومن الضروري أن نعرف أهمية القمر في مستقبلنا ، ولا يكون الانسان قد صعد إليه عبثاً ولا يعرف ماذا يفعل عند وصوله . إن الكثير من الناس يتخيل أن اكتشاف القمر يبدو سباقاً بين العملاقين . لا أحد يستطيع أن ينكر العنصر القوي والحماس الوطني للتنافس ولكن على المدى الطويل ستقل أهمية هذه الناحية .

عشرات البلايين لماذا ؟

ويتساءل بعض العلماء التقليديين عن مبررات صرف عشرات البلايين من الدولارات لتوطين عدد قليل من البشر على كتلة صخرية قاحلة خالية من الهواء ، وليست أكثر من كومة كونية من الخبث البركاني تلدعها الشمس نهاراً ، وتتجمد ليلا ، مع أن المناطق القطبية للأرض أكثر ضيافة . وحتى أعماق المحيطات يمكن اكتشافها وتعميرها بجزء بسيط من تكاليف غزو القمر . وهذا صحيح ، فالقمر كتلة قاحلة خالية من الهواء ويتفجر بالاشعاعات ، ولكنه خلال قرن واحد يمكن أن يكون مفيداً أكثر من حقول القمح وآبار النفط من وجهة النظر الشاسعة للمغامرة والرومانسية والوحي الفني والمعرفة العلمية . ومع ذلك فإن غزو القمر يمكن تبريره بالاقتصاد ، وليس فقط بالعلماء والشعراء .

ولنفند أولا أحد المبررات العامة لغزو القمر ، المبرر العسكري ، فقد أشار أحد جنرالات علم القذائف إلى أن القمر يعتبر أرضاً عالية يمكن استخدامها لقصف الأرض . إن الجهود المطلوبة لانشاء قاعدة عسكرية قمرية واحدة بكل تسهيلاتها يمكن أن تبنى ١٠٠ قاعدة أرضية بنفس تلك الجهود . كما أن اعتراض صاروخ قادم من القمر ، يستهلك عدة ساعات بالنسبة للتلسكوب والرادار ، أسهل من اعتراض هذا الصاروخ وهو متسلل على محيط الأرض في عشرين دقيقة ، إلا إذا نقل الانسان صراعاته القبلية إلى الكواكب الأخرى ، في هذه الحالة سيصبح القمر ذا فائدة عسكرية .

وقبل مناقشة المبرر الحضاري لغزو القمر لنلخص الحقائق الرئيسية عنه وأهمها : المساحة : إذ يبلغ نصف قطر القمر عدة آلاف من الأميال أي ربع نصف قطر الأرض . إذن فساحته $\frac{1}{16}$ من مساحة كوكبنا ، أي أكثر من مساحة أفريقيا ونفس مساحة الأمريكيتين . الوزن : يزن القمر ٧٥٠ طناً (طبعاً على يمين هذا الرقم ٢١ صفراً) وهو ليس كتلة كافية من أجل الجاذبية . فزائر القمر ذو سدس وزنه الأرضي .

الجاذبية : هذه الجاذبية المنخفضة ذات نتائج مفيدة أهمها أن القمر غير قابل للاحتفاظ بالجو . ولو كان له جو ، فانه كان سيفلت منذ زمن بعيد من مكابحه الضعيفة ويضيع في الفضاء .

الجو : بما أنه لا يوجد جو يخفف أشعة الشمس أو يعمل كخزان حرارة لليل فإن القمر عالم من انخفاض الحرارة وارتفاعها بشكل كبير . فعلى أرضنا قلما تتجاوز الحرارة مائة درجة ، إلا في الخط الاستوائي . وتنزل إلى ٢٥ تحت الصفر في (انتار كتيكا) القطب الشمالي ولكن كل منطقة في القمر تتجاوز ضعف هذه الأرقام خلال اليوم القمري .

الطقس :
إن عدم وجود الهواء يعني عدم وجود طقس ، ولا توجد أية تغييرات جوية على القمر تجعل الحياة مثيرة ، إلا الدورة غير المتغيرة لليل والنهار القمريين .

اليوم : يدور القمر ببطء حول محوره . لذا فإن اليوم القمري أطول بثلاثين مرة من يومنا وهكذا فإن الحد بين الليل والنهار عندنا والذي يتحرك خلال ١٠٠٠ ميل بالساعة على خط استواء الأرض ، تصل سرعته القصوى أقل بعشرة أميال بالساعة على القمر . ولأنه يدور حول محوره بنفس الوقت الذي يدور فيه حول الأرض ، فإنه يجعل دائماً نفس نصف كرته باتجاهنا .

المستوطنون يعملون

إن بعض الافتراضات التي يقبلها الناس كأمور معقولة الآن ، كانوا سيضحكون عليها قبل ثلاثين عاماً ، وأولها أن يستطيع الرواد المجهزون أن يقوموا بعملياتهم الهندسية على سطح القمر مباشرة أو بواسطة أجهزة التحكم عن بعد عبر الانسان الآلي . وثانيها أن القمر يتألف من نفس عناصر الأرض ، ولكن بنسب وتركيبات مختلفة . وان أكثر معادننا المألوفة سوف تنفد ، مثل الفحم الحجرى والحجر الكلسي . لكن على القمر يوجد الهيدروجين وأوكسجين وكالسيوم بأشكال أخرى . وبالإمكان تطوير تقنية استخراجها . ومن الممكن أيضاً أن تكون هناك كميات هائلة من المياه المجانية (المجمدة) تحت سطح القمر بقليل . ودون الدخول بتفاصيل التعدين والمناجم ومعالجة الخامات والهندسة الكيميائية فمن الممكن الحصول على كل هذه المواد اللازمة للحفاظ على الحياة ببناء صناعة داعمة ذاتية قائمة كلياً على المصادر والثروات القمرية . أذ تأتي الآلات والتجهيزات من الأرض والباقي من القمر . ولقد أجري الكثير من الدراسات حول استيطان القمر . واتفق كل المختصين على الصورة العامة ، على أنه قد تستهلك إقامة مستوطنة قمرية قابلة للحياة خمسين أو مائة سنة ولكن بسبب المصاريف والمخاطر والمصاعب على سطح القمر غير المضياف يتساءل العلماء : ماذا يمكن للقمر أن يقدم لنا مالم نجده على سطح الأرض ؟

إن الإجابة الفورية على هذا السؤال : لا شيء ! ولكن بإمعان النظر نرى أن الكثير من الصناعات الحديثة قائمة على التفريغ الهوائي التقني . فالاضاءة الكهربائية ونتائجها والراديو والالكترونيات لا يمكن تصنيعها بدون أنابيب التفريغ الهوائي . ولكن اختراع الترانزستور ساهم قليلا بتخفيف أهمية التفريغ (علماً بأن الخطوات الاولى لصناعة الترانزستور نفسه يجب أن تتم في فراغ هوائي) ، كما أن الكثير والضخم من المعالجات الفولاذية والكيماوية في إنتاج العقاقير كالبنسلين ممكنة في فراغ هوائي ولكن من المكلف اصطناع فراغ هوائي كامل ، ومن المستحيل اصطناع فراغ كبير جداً .

وعلى القمر هناك فراغ هوائي كامل ذو ضخامة لا توصف . وهذا لا يعني نقل الصناعة الأرضية إلى


أرضنا .. من القمر

هل يستقر الإنسان على القمر بعد عشر سنوات ؟

القمر ، حتى لو كانت تكاليف الشحن تسمح بذلك . ولكن تاريخ العلم يؤكد أن المعالجات والاكتشافات الجديدة الهامة ستتطور عندما يبدأ الانسان بإجرائها في الفراغ القمرى . إن فيزيائيات الضغط المنخفض وكذلك التقنية ستعالجان الخرق البالية وتحولانها بين ليلة وضحاها إلى صناعات كبيرة لا يمكن تخيلها اليوم ، حيث تسوق منتجاتها على الأرض . وبهذا الاتجاه تكون أجور الشحن قليلة نسبياً .

انطلاق بدون وقود

إن هذا يقودنا إلى دور كبير سيلعبه القمر في تطوير النظام الشمسي . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا العالم الصغير جداً الذى في متناول أيدينا أي القمر (وصل إليه أول صاروخ خلال ٣٥ ساعة فقط) هذا العالم القمري هو نقطة الانطلاق إلى كل الكواكب الأخرى ، بسبب جاذبيته المنخفضة . فهو يتطلب أقل ٢٠ مرة من الطاقة عما هو عليه على الأرض ، وكقاعدة تزود بالطاقة لكل العمليات بين الكواكب فللقمر فائدة كبيرة على الأرض . وبالامكان المثور أيضاً على المواد التى يحتاجها الانسان هناك . وهذا أحد الأسباب التى تدعو إلى تعليق أهمية كبيرة على تطوير التقنية والصناعة القمرية .

وبسبب جاذبيته المنخفضة يعتبر القمر أرضية عالية بينما نحن على الأرض نشبه الساكنين في أسفل حفرة عميقة جداً ، حيث علينا أن نتسلق كل مرة نرغب فيها أن نجري أى اكتشاف كوني خارج هـذه الحفرة . إن علينا أن نحرق مائة طن من وقود الصواريخ لكل طن حمولة نطلقها في الفضاء في رحلة ذهاب فقط . أما لرحلة العودة فإننا نحتاج إلى آلاف الأطنان من وقود الصواريخ . لهذا فإن كل المشاريع الفضائية على الأرض تعتبر ميئوساً منها وغير اقتصادية ، وتحتاج إلى استهلاك هائل للوقود من أجل القليل من الحمولة . وكأننا من أجل نقل ١٢ راكباً فقط عبر الأطلسي علينا بناء سفينة مثل سفينة الملكة اليزابيث ، ولكن بكلفة أكثر بكثير ، وبالاضافة إلى ذلك فان المركبة الفضائية تستخدم مرة واحدة فقط ، لأن أقسامها تتحطم أثناء الطيران . ومن أصل عشرات الآلاف من الأطنان التى تغادر الأرض ، تعود منها كبسولة صغيرة فقط أما الباقى فهو أجهزة حرق الوقود التي تغوص في المحيط أو تسوح في أجواء الفضاء .

أما أن نزود الصاروخ بالطاقة النووية ، فإن الوضع سيتغير من الشكل المستحيل إلى الشكل العبثي . لأنه حتى الصواريخ النووية عليها أن تحمل مئات الآلاف من الأطنان ككتل رد فعل ، وذلك لتوفير قوة عنيفة عند الاطلاق ، فعلى كل صاروخ ، نووياً كان أو كيماوياً أن يحمل شيئاً يدفعه عكسياً . وهذا الشيء ليس بالهواء المحيط كما يعتقد الكثير ، إنما هو وقود الصاروخ نفسه . ومع ذلك فإن الصاروخ النووى يستخدم أبسط أنواع الوقود أي هيدروجين الطائرات . اذن لابد من وجود هذا الهيدروجين بوفرة على سطح القمر مركباً مع الماء (١١ منه هيدروجين) أو بشكل آخر . وأول عمل في اكتشاف القمر هو معرفة المصادر التى يمكن الحصول منها على الهيدروجين . ومن الممكن أن تتزود المركبات الفضائية بالوقود ثانية على القمر ، وعند ذلك تخف تكاليف وصعوبات وتعقيدات كل العمليات الفضائية عشر مرات على الأقل .

وبما أن المركبة الفضائية لا تحتاج إلى حمل الوقود لرحلة العودة فلن يكون ضرورياً بناء ورمي مركبات تزن عشرة آلاف طن في البحر أو الفضاء ، وذلك من أجل ايصال أطنان فقط . وبدلاً من أجهزة الوقود الضخمة هذه ، يمكن استخدام صواريخ صغيرة نسبياً يعاد تزويدها بالوقود ، وتطير ثانية وثالثة . وسيخرج الطيران الفضائي من وضعه الحالي كبهلوانات مكلفة بشكل خيالى ، وسيبدأ بشكل اقتصادي بل وربما تجاري .

وهذا طبعاً مجرد بداية . فالانطلاقة الكبرى نحو عمليات فضائية فعالة تعتمد على أن القمر بدون جو . كما أن الظروف الفريدة المسيطرة هناك (وهى فريدة بمعيارنا وطبيعية بالمعيار الكونى) تسمح بتقنية الانطلاق بشكل اقتصادى أكثر بكثير من قوة الدفع الصاروخية . إنها نفس الفكرة القديمة عن (القاذفة الفضائية) التى أبدعها الكاتب العلمى الخيالي الفرنسي جول فيرن منذ



حوالى مائة عام . ولكنها لن تكون قاذفة فضائية خيالية إنما مسار انطلاق أفقي كالمستخدم في الطائرات ، حيث من خلاله تتمكن العربات الفضائية من التسارع كهربائياً حتى تصل إلى سرعة كافية للانطلاق من القمر .

إن هذه الوسيلة غير عملية مطلقاً على الأرض حيث أنه على الجسم أن يصل إلى السرعة الحالية المألوفة وهى ٢٥ ألف ميل بالساعة . كما أن عشر جاذبيات قاومها مسبقاً رواد الفضاء بفترات زمنية قصيرة جداً يستهلك التسارع فيها دقيقتين ، ليصل إلى هذه السرعة . ويجب أن يكون مسار الانطلاق بطول ٤٠٠ ميل . وإذا قل التسارع إلى النصف لزيادة الاستمرارية فيجب أن يتضاعف طول مسار الانطلاق . وبالتأكيد فإن أى جسم ينطلق بهذه السرعة في الجو المنخفض سيحترق ، ويتفتت إلى أجزاء . اذن لندع القاذفة الفضائية الارضية جانباً .

وعلى القمر يكون الوضع مختلفاً تماماً ، فبفضل الفراغ الهوائي الكامل تقريباً قد يتم التوصل إلى سرعة الانطلاق القمرية (حوالي ٥٢٠٠ ميغافون) بدون أى خطر من مقاومة الهواء . وبتسارع عشر جاذبيات فعلى مسار الانطلاق أن يكون بطول ١٩ ميلا فقط وليس ٤٠٠ ميل كما في الأرض .

وعلى القمر أيضاً ستتمكن العربات من مغادرته بدون حرق أى وقود أبداً ، وسيتم الانطلاق بمراكز قوى ثابتة على الأرض يمكن أن تكون كبيرة وكثيفة حسب الطلب . وسيكون الوقود الوحيد الذى تحتاجه مركبة فضائية عائدة إلى الأرض مجرد كمية قليلة للتشغيل والملاحة فقط . وبالنتيجة فإن مقياس العربة اللازمة لمهمة من القمر إلى الأرض سيكون أقل بعشر مرات . كما أن سفينة فضائية تزن مائة طن يمكن أن تقوم بعمل سفينة بزنة ١٠٠٠ طن .

وقود بالمنجنيق القاذف !

وسيكون نوع الرحلات الفضائية مثيراً للاعجاب . فالمرحلة القادمة ستكون المرحلة المصيرية الحقة . انها مرحلة استخدام القاذف المنطلق من القمر أو المنجنيق القاذف لتزويد الوقود في مكان احتياجه في مدار حول الأرض أو قرب أو على أي كوكب في المجموعة الشمسية .

إن الرحلة الفضائية الطويلة ــ أى فيما وراء القمر ــ ستصبح ممكنة فقط ، عندما نستطيع إعادة تزويد مركباتنا بالوقود وهى في مدارها . وقد رسمت خطط بتفاصيلها لعمليات تضم أسطولاً من الصواريخ الخازنة ، وقد نستطيع خلال سنوات إنشاء محطات وقود فضائية ستكون مكلفة بشكل خيالى . لأنها تتطلب ٥٠ طناً من وقود الصواريخ لوضع طن واحد من الحمولة في مدار الأرض على بعد ٢٠٠ ميل فقط .

ولكن القاذف المنطلق من القمر يمكن أن يقوم

بنفس العمل على مسافة ٢٥٠ ألف ميل بجزء من عشرين من الطاقة وبدون استهلاك أي وقود صواريخ . ولسوف تطلق خزانات الطاقة المولدة نحو الأرض ، كما أن الأنظمة القيادية التحكمية المناسبة ستبقيها فى مدارات ثابتة حسب الرغبة .

اذن فإن كميات هائلة من الطاقة ستلزم لتشغيل هذا المنجنيق القمرى ولن تكون ثمة مشكلة فى القرن ٢١ . فقنبلة هيدروجينية واحدة تزن بعض الأطنان تطلق طاقة كافية لاطلاق مائة مليون طن بعيداً عن القمر وستتوفر هذه الطاقة لصالح الانسان عندما يحتاج إليها أحفاده .

وهناك تطبيق آخر للمنجنيق القمري . فبامكانه قذف منتجات تكنولوجيا القمر بأي طريق نحو الأرض . فبامكان كبسولة قوية شاحنة مخروطية أن تطلق من القمر لتهبط آلياً فى أى مكان على سطح الأرض . ولن تكون ثمة حاجة لوقود الصاروخ ، الا بعض الكميات للتشغيل فكل طاقة الاطلاق ستأتى من الطاقة الثابتة على سطح القمر اما عملية التبطيء فسيقوم بها جو الأرض نفسه . وعند اكتمال هذا النظام فلن تكون ثمة تكاليف شحن من القمر إلى الأرض أكثر من تكاليف نقل الشحن من قارة إلى أخرى بالطائرة . كما أن المنجنيق القاذف يمكن أن يكون صغيراً ، لأنه خال من البشر ، وإذا تم تشغيله بتسريع خمسين جاذبية فيكفيه مسار بطول ٤ أميال فقط .

لقد نوقشت هذه الفكرة لسببين : الأول أنه بالاستفادة من الجاذبية الضعيفة للقمر وخلوه من الهواء واكتنازه بالمعادن تظهر هذه الفكرة كيف يمكن اجراء اكتشافات فضائية بشكل اقتصادى أكبر مما هو عليه على الأرض . والواقع أنه حتى يتم اكتشاف منهج جديد فى عالم الدفع والتسيير ، فإنه من الصعب أن تكون رحلات الفضاء عملية على مستوى كبير . أما السبب الثاني فهو تاريخي فقد نوقشت هذه الفكرة لأول مرة عام ١٩٥٠ فى صحيفة جمعية الكواكب البريطانية . وقبلها بخمس سنوات تم اقتراح اطلاق توابع من أجل اتصالات الراديو والتليفزيون . ولم يتوقع أحد أن يرى ذلك مجسداً فى حياته ، ولكن حدث أحد هذين الأمرين . والتساؤل الآن هل نستطيع أن نرى الآخر ؟

الضوء بدلا من الصوت

ان موضوع الاتصالات يقودنا إلى استخدام آخر ومهم للقمر . فسطح القمر معرض مباشرة للفضاء بينما سطح الأرض ــ بالنسبة لنا ــ محجوب عن الفضاء بعدد من الحواجز اشهرها الغلاف الايوني الذى يعكس كل شيء إلا موجات الراديو القصيرة العائدة إلى الأرض . أما أقصر الموجات فإنها تذهب عبره بصعوبة قليلة لذا فإن الغلاف الايوني لا يعيق الاتصالات الفضائية .

أما الحاجز الخطير ــ وهذا ما اكتشف منذ عشرات الأعوام ــ فهو الجو نفسه . ولكن بفضل تطوير جهاز الليزر الاشعاعي فإنه يبدو الآن أن أفضل وسيلة اتصالات للمسافات الطويلة ليس الصوت (الراديو) بل الضوء . فالضوء الكشاف يحمل أكثر بملايين من الرسائل ما تحمله الموجات الصوتية . ويمكن أيضاً ضبطه بدقة متناهية . وفعلا فإن ضوءاً كاشفاً يطلقه جهاز الليزر يمكن أن ينتج بقعة ضوئية على القمر عبر مئات من الأقدام فقط ، حيث يبلغ قطر الضوء الكشاف القادم من الضوء الباحث آلاف الأميال . وهذه الدرجة العليا من الضبط يمكن الحصول عليها بطاقة قليلة جداً . وتظهر الحسابات أنه بفضل الليزر يمكن التفكير بوضع إشارات للنجوم وربما للكواكب !

ولكن المشكلة أنه لا يمكن استعمال الضوء الكاشف لارسال الرسائل عبر جو الأرض التائه فبامكان أية غيمة عابرة سد الاشارة التى انتقلت خلال مليار ميل فى الفضاء . أما على القمر الخالى من الهواء فلن تكون ثمة مشكلة لأن السماء ــ القمرية ــ صافية دائماً أمام موجات كل الترددات من أبعد موجات الراديو الصوتية ، عبر ضوء مرئي يمر خلال الأشعة فوق البنفسجية ، وحتى خلال أشعة اكس القصيرة التى يمكن لعدة بوصات من الهواء أن تسدها . ان هذه الدرجة الكبيرة من الموجات الكهرومغناطيسية ستتوفر من أجل الاتصالات أو أى استخدام آخر . وربما أن هذه التطبيقات تستخدم لبث الطاقة التى لم ولن تتم أبداً على الأرض . وسيكون هناك عمق موجي كاف أو (فضاء أثيري) لكل خدمات الراديو والتليفزيون .

ومن الممكن أن نتخيل القمر كنوع من الاضاءة المركزية للاتصالات عبر الكواكب التى توجه موجات الضوء البؤري إلى كواكب أخرى وإلى السفن الفضائية . فأية رسالة تهم الأرض يمكن ارسالها صوتياً عبر ٢٥٠ ألف ميل على الطول الموجي الذى يخترق كوكبنا .

وهناك عدة أسباب أخرى تتيح للقمر أن يكون قاعدة للاتصالات عبر الكواكب . فالجميع يعرف الآن التلسكوبات الضخمة التى بنيت لتصل قدرتها إلى الفضاء ، ولتحافظ على اتصال مع هذه الأبعاد التى تسبر أغوارها (مثل تلسكوبات رانجرز وماريتزر وبرسبكتر) وأكثرها دقة هو التلسكوب الصوتى العملاق (قطره ٦٠٠ قدم) وهو أكبر بناء متنقل على الأرض ويحتوى على ٢٠ ألف طن من المعدن الذى تكلف أكثر من ١٠٠ مليون دولار .

وعلى سطح القمر ستكون التكلفة والوزن لهذا البناء أقل بكثير فبفضل الجاذبية المنخفضة للقمر يمكن استخدام بناء أخف بكثير مما هو عليه على الأرض . كما أن الفراغ الهوائي القمرى يساهم من ناحية أخرى ، لأن التلسكوب الأرضي يتطلب عاملا أمنياً بديلا يمكنه مقاومة أسوأ حالات الطقس . ولكن لاخوف من العواصف على القمر ، لأنه لا توجد حتى أرق النسمات التى قد تداعب الشعر !

إن الجهة البعيدة عنا من القمر جهة هادئة ، وهى أهدأ من أية منطقة على سطح الأرض منذ ملايين السنين ، وهذا طبعاً من وجهة النظر الصوتية . فمنذ بداية هذا القرن كان كوكبنا يصدر جلبة متزايدة باستمرار إلى الفضاء مما أحدث قلقاً بشكل خطير بالنسبة لفلكيي الأصوات الذين كان من الممكن أن تنسف ملاحظاتهم وجهودهم بصوت آلة حلاقة كهربائية على بعد ١٠٠ ميل فقط ! وكان القمر وراء التوصل إلى هذه الضوضاء الالكترونية ، لأنه محجوب عن ضجة الأرض بواسطة مائتى ميل من الصخور الصلبة ، وهذا أفضل من حماية ملايين الأطنان من الفضاء الفارغ . وبما أن ضوء الأرض لا يشع أبداً ، فسترتبط مراكز الاتصالات المستقبلية بين الصوت والضوء الكاشف وبين كل الكواكب المأهولة ، ويوماً ما قد يصل الانسان إلى ما وراء المجموعة الشمسية ليتصل بحيوات عاقلة أخرى . ونجاح هذا البحث صعب ، مالم يتم التخلص من دوي كل محطات الراديو والتليفزيون .

من يملك القمر ؟

يعتبر القمر أهم الأجرام فى المجموعة الشمسية حتى من مارس والزهرة ، رغم أنه قد يكون ثمة حياة على تلك الكواكب . ولأن سطح القمر لم يمسه أحد عبر العصور ، فإنه يعتبر سجلا للظروف الموجودة منذ ملايين السنين عندما كان الكون فتياً ، أما على الأرض فكل هذه السجلات قد محيت بالهواء والأمطار وبقوى أخرى . وعندما وصل الانسان إلى القمر شعر وكأنه أمام مكتبة ضخمة كاملة من مجلدات كانت مفقودة ، مكتبة أقدم بمليون مرة من مكتبة الاسكندرية المدمرة ، وهى مثيرة تفتح فجأة ولأول مرة أمام ناظريه !

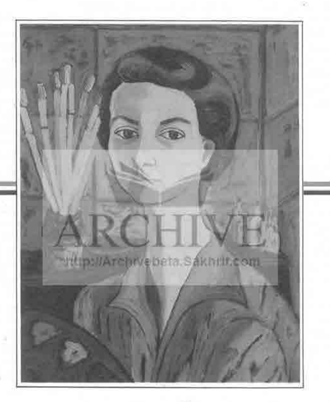
إن المقابل سيكون المهارة التى سيكتسبها الانسان أثناء الإكتشاف والاستيطان على هذه الأرض الجديدة في الفضاء . ومن المؤكد أن الانسان سيتعلم طرق إنتاج الغذاء على سطح القمر خلال سنوات أكثر مما ينتجه على الأرض خلال قرون . فهل يمكن تحويل الصخور إلى غذاء ؟ علينا أن نتحكم بهذا الحل إذا كان علينا أن نغزو الفضاء . والأكثر إثارة من هذا هو الامكانيات المفتوحة أمام طب الجاذبية المنخفضة الذى يطرح السؤال الكبير : هل سيعيش الانسان فترة أطول فى عالم لايبلى فيه قلب فى مقاومة الجاذبية ؟ والسؤال الأهم الآن يدور حول مصداقية من يقول ان من يملك القمر هل يهيمن على الأرض ، وعلى أية منطقة يصل إليها فى الكون .. فهل الهبوط على سطح القمر يخول ملكيته ؟

وهل سيصبح القمر ميدان حروب لامتلاكه ؟ نأمل ألا يحدث ذلك !

ولكن هل يكفِ الأمل لتحقيق هذه الرغبة ؟

: ياسر السباعي

أبوها هو حسن بك أفلاطون ، ابن محمد باشا أفلاطون ، كان الوالد أستاذاً مرموقاً وعالماً في ميدان « الحشرات » ، معروفاً على المستوى العالمي ، فهو الذي افتتح قسماً لدراسة علم الحشرات بكلية العلوم بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة حالياً) كما تولى منصب عميد كلية العلوم قبل احالته إلى التقاعد .. وهناك قاعة بهـذه الكلية تحمل اسمه حتى الآن . والوالدة « السيدة صالحة أفلاطون » هي ابنة عمه ، وكانت من سيدات المجتمع النشيطات ، انها أول عربية مصرية اشتغلت بتصميم الأزيـاء . وقد افتتحت عام ١٩٣٦ بالاشتراك مع بنك مصر : « محل صالحة للأزياء الراقية » وكان أول مشغل للأزياء يقام بأيد عربية ورأسمال عربي .



إنجي أفلاطون

عاشقة الأشجار والضوء الأبيض

بقلم : صبحي الشاروني

ولدت «انجي أفلاطون» في هذا المناخ الأرستقراطي المثقف عام ١٩٢٤ ، في ظروف متيسرة اقتصادياً وتسمح بأشكال متعددة من الاستمتاع بالحياة والثروة ، لكنها شبت وفي أعماقها بذرة الفن التي دفعتها الى التمرد على الاطار الذي تعيش فيه .. كانت تملأها رغبة قوية في القاء نظرة عميقة وشاملة خارج هذا الغلاف الرقيق الدافئ الذي يحيط بها ، ولعل أهم ما يميز رحلة حياتها هو سعيها الدءوب نحو الجذور الشعبية .

كان أول أشكال هذا التمرد على ظروفها المنزلية هو رفضها الاستمرار في الدراسة بمدرسة «الساكركير» (مدرسة القلب المقدس) . وهي مدرسة فرنسية كانت تخضع تلميذاتها لنظام صارم وتجمع بنات الأسر والبيوتات المصرية ، واستطاعت أن تقنع أسرتها بترك هذا المجتمع المرفه لتستمتع بدرجة من الحرية في مدرسة «الليسيه الفرنسية» ، وهي أقل صرامة وارستقراطية ، وفيها بدأت تشبع هوايتها الأولى وهي الرسم إلى جانب دراستها .

كانت الفرنسية هي لغة البيت والمجتمع الصغير المغلق الذي يضم مجموعة الأسر المسلمة التي تنتمي إلى أصل تركي .. وهو مجتمع معزول عن عامة الشعب ، لكنه يتصل بالأدب والفن والثقافة ... فأختها الكبرى (جولبري) أديبة معروفة بين المتحدثين بالفرنسية ، تكتب الشعر وقصص الأطفال منذ مراهقتها المبكرة ، وكانت تسلم ما تكتبه لأختها «انجي» التي تضع لها رسوماً من خيالها ، وكانت خالتها متزوجة من الكاتب والناقد المعروف «أحمد راسم» الذي أصدر في الثلاثينات مجلة للمتحدثين بالفرنسية نشر

أحلام الحرية : لوحة للفنانة ، تشعر من خلالها أن كل لمسة أو بقعة لونية قد وضعت بعد دراسة طويلة .. ولوحة أخرى عنوانها : نخيل من الريف



انجي أفلاطون
عاشقة الأشجار والضوء الأبيض

فيها بعضاً من قصص أختها مع رسوم « انجي أفلاطون » . ولم يكن عمر الثانية يتعدى العاشرة .

حاول والدها أن يوجه ميلها الفطري للفن بتكليفها بعمل بعض المستنسخات العالمية ، وأطاعته مرة لكنها تمردت على هذا النوع من الرسم الذي يلغي ذاتيتها ويركز على النقل الأمين والحرفي بغير انفعال ، ذلك لأنها حرصت من البداية أن تبحث عن الفن الذي يعبر عن ذاتها ، وهكذا استطاعت « انجي أفلاطون » أن تصوغ لنفسها شخصية فنية قوية لها اليوم بصماتها الواضحة في مسار حركة الفنون الجميلة بمصر .

ولعل أبرز مثل على الاصرار هو عبورها حاجز اللغة ، فقد ظلت حتى الثامنة عشرة من عمرها لا تعرف إلا القليل من لغتها العربية ، لكن عشقها للفن والفكر المعبرين عن الواقع المصري دفعها إلى دراسة اللغة العربية واجادتها ، وقد حصلت على شهادة التوجيهية (الثانوية العامة) ثم واصلت دراسة اللغة والتحدث بها حتى أجادتها .. كان هذا هو طريقها للاندماج بالشعب العربي المصري حيث التقت بعد ذلك بالعديد من المثقفين الوطنيين الذين استفادت من أفكارهم في تشكيل وعيها تشكيلاً مختلفاً ، يتناقض مع طبقة الصفوة من المجتمع المصري .. لقد تمتعت من البداية بقلق فطري ضد كل الأشكال الثابتة والقوى المتسلطة .

طريق السيريالية

بدأت علاقتها الأولى بالرسم بداية تلقائية بغير توجيه ، وعندما تنبهت الأسرة لهذه الموهبة ، وفرت لها دروساً في الرسم ، لكنها لم تزد عن تكبير الصور الشخصية ورسم المناظر الطبيعية نقلاً عن الصور المطبوعة .. وترفض « انجي » الاستمرار في هذا الطريق ، وتطلب أن يكون مدرسها أستاذاً فناناً ..

كان عمرها ستة عشر عاماً فقط عندما حدثت نقطة التحول الرئيسية في حياتها ، فقد اختارت الأسرة مدرساً جديداً للرسم هو الفنان الراحل كامل التلمساني . وكان « التلمساني » رساماً ومصوراً معروفاً قبل أن يعمل بالاخراج السينمائي الذي تركه وسافر إلى بيروت ليعمل مستشاراً فنياً لفرقة اخوان رحباني حتى وفاته .

في نهاية الثلاثينيات ذاع صيت « كامل التلمساني » كأحد مؤسسي جماعة الفن والحرية التي كانت تدعو لاتباع المذهب السيريالي في الفنون الجميلة ، وكان من بين أعضائها رمسيس يونان وسمير رافع وجورج حنين ، كما كانت تحظى بتأييد الفنان محمود سعيد .. ان قيام جماعة الفن والحرية يمثل أول ثورة في الحركة الفنية العربية المصرية ضد الاتجاهات المدرسية في الفن ، وقد فتحت الطريق للاتجاهات الفنية الحديثة ، وقامت باستيراد الفكر الأوربي الفني وحاولت إعطاءه طابعاً عربياً مصرياً .

عندما طلب منها « التلمساني » أن ترسم لوحة ليراها في الزيارة التالية ويقرر على أساسها كيف يتعامل مع هذه التلميذة الأرستقراطية ، فوجئ بأنها اتجهت اتجاهاً غير متوقع ، فقد كانت لوحتها مملوءة بالرموز التي صورت فيها نفسها وهي تحاول الخروج من فتحة في شجرة تحاصرها النيران ، وكان في رسمها جرأة وحيوية وشخصية قوية ، وقد أعجب الاستاذ بالجوانب التعبيرية في تلك اللوحة ، فقرر أن يعرفها بتاريخ الفن ويحدثها عن الاتجاهات الفكرية والسياسية في العالم ، كما جعلها تشارك في نشاط جماعة الفن والحرية وتعرض أعمالها في معارض الفن الحر (المستقلين) ابتداء من عام ١٩٤٢ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت الوانها في تلك المرحلة قاتمة ولوحاتها متشائمة مملوءة بالرموز والخيالات .

لكن أهم ما تعلمته الفنانة على يدي « كامل التلمساني » هو أنه ليس هناك شيء ممنوع في الفن ، وليس عليها إلا أن تتعلم القواعد الأساسية في استخدام الألوان الزيتية ، ولم يهتم باطلاعها على لوحاته التي كانت تنتمي في ألوانها إلى المذهب الوحشي (أسلوب الفوف) ، وفي ترتيبها للعناصر إلى الفكر السيريالي .. فلم تشاهد التلميذة رسوم أستاذها إلا بعد مرور أكثر من عام على بداية دروسه لها ..

وعندما اشتركت في المعرض الثالث لجماعة الفن والحرية كانت أصغر الفنانين المشاركين في هذا المعرض سناً ، وتردد اسمها بين أسماء جورج حنين ورمسيس يونان وفؤاد كامل وكامل التلمساني والبير قصيري وايتين ماربيل ومارسيل بادجيني ... وغيرهم .

لقد فتح لها هذا النشاط نافذة ثقافية أطلت منها الفنانة الصغيرة على حقيقة مصر ومشاكل مواطنيها خلال فترة الحرب العالمية الثانية .. وقد انبهرت بالأسلوب السيريالي الذي يحطم الأشكال التقليدية ، ويهتم بادهاش المشاهد أو القارئ ، ومفاجأته بكل ما هو غريب وغير مألوف ، وقد اهتم النقاد بأعمالها المبكرة فكتب أحدهم يقول : « انجي افلاطون ذات السبعة عشر ربيعا .. تلميذة التلمساني منذ عامين . رائعة هي هذه المناظر الليلية ، بخضرتها المتداخلة وكأنما هي أدغال من الأفاعي .. وكأنها ساحرة ركبت فرشاتها .. »

لقد كشف التلمساني عن مواهبه كأستاذ ممتاز .. فلم يكتف بأن جنب تلميذته تأثير انتاجه هو ، بل علمها كيف تستخدم ألوانها على نحو لم يعد هو نفسه قادراً عليه .

ولو قدر لهذا النجاح ألا يدير رأس « انجي افلاطون » ، فانها سوف تكون رسامة من المستوى الذي نحبه » .

كما كتب المفكر جورج حنين في نقده للمعرض يقول : « إن مفاجأة المعرض الثالث للفن المستقل تتمثل في تنوع أشكال الخضرة البالغ حد الهذيان في لوحات انجي افلاطون ، هذه الفنانة الشابة صغرى فناني مصر « المستقلين » ، تستثمر الامكانيات الفنية ــ المحدودة نسبياً ــ المتاحة لها بذكاء نادر » .

ونستطيع أن نلاحظ اليوم من متابعة أعمالها المبكرة أن عنصر « الشجرة » في لوحاتها هو عنصر ثابت في معظم أعمالها من ذلك التاريخ رغم اختلاف الموضوعات التي تناولتها .. فقد كانت الأشجار في تلك المرحلة الأولى تبدو كالآدميين ، فتتخذ شكل أم تحمي ابنتها (التي هي الفنانة ذاتها) من طائر متوحش يهاجمها .. ولقد عبر هذا الخوف الخاص عند الفنانة عن الخوف العام الذي اجتاح العصر من ويلات الحرب العالمية الثانية ودمارها ، ففيها يلتقي الاحساس الشخصي بالاحساس العام ويعبر في نفس الوقت عن الصراع من أجل التحرر من الاستعمار .

أما روح التمرد على الأوضاع الاجتماعية لبيئتها فقد دفعها لخوض تجارب متعددة ، فقد ارتفعت نبرة الاحتجاج على انتمائها الاجتماعي الموروث عندما أصبح ما تحمله من آراء وأفكار ليس مجرد رفاهية فكرية وانما عقيدة راسخة فاذا بها تقرر أن تعتمد على نفسها في كسب قوتها ، فعملت فترة في معمل للتحاليل الطبية ، وكان أول أجر تقاضته ستة جنيهات ، واشتغلت عاملة على الآلة الكاتبة ، ثم مدرسة للرسم واللغة الفرنسية في مدرسة « الليسيه » التي تعلمت فيها .. كما عملت أيضاً بالصحافة وكانت مسئولة عن صفحة المرأة في جريدة « المصري » .. وكان هذا المنبر يمثل وسيلتها لنشر آرائها وأفكارها .

النشاط النسائي

اتسعت اهتمامات انجي افلاطون وبدأت تخرج من محيط الأسرة والمدرسة إلى المجتمع الكبير .. وبدأت تشارك في الجمعيات النسائية التي تهتم بوضع المرأة في المجتمع . وهكذا سافرت عام ١٩٤٥ لتشارك كعضو مؤسس في المؤتمر الأول للاتحاد النسائي الديمقراطي الدولي . ويعتبر هذا المؤتمر من أهم العلامات في تاريخ الحركة النسائية العالمية حيث اختارت هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ كعام عالمي للمرأة بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على انعقاد هذا المؤتمر .

وتحولت انجي افلاطون من الرسم إلى الكتابة ، كأداة أسرع وأوضح في توصيل أفكارها والتعبير عن مطالب المرأة في العصر الحاضر .. وفي عام ١٩٤٧ صدر لها كتاب بعنوان « ٨٠ مليون امرأة معنا » ، كتب مقدمته عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، وهو يتحدث عن الحركة النسائية في العالم وضرورة ارتباط الحركة النسائية المصرية بها .

وأصدرت كتابها الثاني عام ١٩٤٩ بعنوان «نحن النساء المصريات» الذي يشرح القضايا الاقتصادية والاجتماعية للمرأة المصرية ويحدد مطالبها قبيل منتصف القرن العشرين ، وقد كتب مقدمة هذا الكتاب المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي . وفي عام ١٩٥١ نشرت كتابها الثالث بعنوان «السلام والجلاء» معبراً عن إرتباط قضية السلام العالمي بجلاء الانجليز عن أرض مصر ، وقضايا التحرير من الاستعمار في العالم .

وبسبب اندماجها في العمل السياسي والنشاط النسائي توقفت أربعة أعوام عن ممارسة الرسم ، ثم تزوجت عام ١٩٤٨ من الاستاذ «محمد محمود أبوالعلا» ، وهو من رجال القانون المستنيرين ، كان يعمل في وظيفة وكيل النائب العام .. وقد شجعها على العودة إلى الرسم والتفرغ له بعد انشغالها عنه بالأحداث التي حولها .. فعادت وهي أكثر نضجاً ووعياً بالواقع الاجتماعي .. فقد أصبحت معالم الطريق الفني واضحة أمامها ، فاتجهت إلى الريف الذي ظل من ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا موضوعها المفضل ، تصور طبيعته البكر وفلاحيه وفلاحاته الذين يصنعون النماء وينتجون الخير لصالح الشعب بأكمله .. وهكذا استطاعت أن تحقق توافقاً مثالياً بين رسومها وكتاباتها وعواطفها ..

وفي هذه الفترة التحقت لمدة عام بقسم الدراسات الحرة بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، وبعدها تلقت عدة دروس بمرسم الفنانة «مارجوفيون» ، كما تتلمذت على يدي الفنان حامد عبد الله بعض الوقت . وصاحبت الفنانة «بورشار سميكة» في جولاتها في الريف حيث كان أستاذها الدائم – ولا يزال – هو الطبيعة المصرية .

المعرض الأول

أقامت الفنانة معرضها الخاص الأول في شهر مارس عام ١٩٥٢ بقاعة «آدم» بشارع سليمان باشا (طلعت حرب حالياً) .. أقيم هذا المعرض في الفترة التي أعقبت حريق القاهرة وسبقت قيام ثورة يوليو .. أما موضوعات لوحاتها فكانت تدور حول ظروف المرأة المصرية الفقيرة المتدهورة اجتماعياً ، كما عرضت عدداً من اللوحات عن شهداء معارك الفدائيين عند قناة السويس ضد قوات الاحتلال الانجليزي ، ولقد عبرت بصدق عن حسها الوطني وأفكارها الثائرة عندما ترجمت نشاط المرأة المصرية الذي تزعمته الراحلة «سيزا نبراوي» عام ١٩٥١ عند تشكيلها اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية بعد إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية وبدء الكفاح المسلح في منطقة قناة السويس ضد القوات البريطانية .

كان أسلوبها في هذا المعرض تعبيرياً ، تتغاضى عن النسب الطبيعية وتقوم بتحوير العناصر من أجل تأكيد الجوانب التعبيرية وإبرازها .. الألوان قاتمة وضعت بانفعال ، ويسود اللوحات جو مشحون .. وقد كان الانسان هو العنصر الرئيسي في هذه الأعمال .

بعد المعرض عرضت عليها أسرتها السفر إلى باريس لدراسة الفن ، ورفضت هذا العرض لأنها خشيت أن يتبخر ما اكتسبته من «مصرية» بمجهودها الخاص استجابة لرغبتها في التعرف على جذور مجتمعها .. لقد أدركت أنها ستندمج في المجتمع الأوربي بسهولة وتنقطع الروابط التي وطدتها بأرض بلدها .

وتوالت معارضها بعد ذلك حتى بلغ عددها ٢٦ معرضاً للآن في مصر والخارج ..

وحصلت في عامي ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ على جائزتين من معرض صالون القاهرة الذي تنظمه سنوياً جمعية محبي الفنون الجميلة في مصر .

ثم توفي زوجها عام ١٩٥٧ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره .. ان الفنانة عندما تذكره الآن تقول إنه كان إنساناً عظيماً ومتحرراً .. وبعد وفاته رفضت أن تتزوج مرة أخرى ، لأنها لم تجد الانسان الذي يقبل المرأة المتحررة كزوجة .. انه من الصعب أن تجد انساناً متقدماً فكرياً ويطبق أفكاره في الواقع الفعلي فيقبل أن يكون لزوجته عمل وفن تكرس له جل وقتها .

سنوات الحصار

في عام ١٩٥٩ نظمت الادارة العامة للفنون الجميلة والمتاحف بمصر معرضاً لأعمالها ، سجلت في مقدمته كلمة كان قد كتبها الفنان المكسيكي الشهير «جوزيه الفاروسيكيروس» عندما زار مصر وشاهد لوحاتها عام ١٩٥٧ بعد أحداث العدوان الثلاثي على مصر .. ويقول «سيكيروس» في كلمته : «اتخذت انجي افلاطون الطريق إلى فن اجتماعي وواقعي في نفس الوقت ، ويبدو من الاحساس العميق بالقومية ويتحرك بتصميم في المجالات الفنية مع الكائنات والحياة الكاملة للناس في بلدها .

ولطريقة رسمها خواص فنية جيدة سواء في الشكل أو اللون أو الملمس . وهي لا ينقصها شيء مما يقود الى الواقعية الحديثة : الواقعية الجديدة الأكثر بلاغة والأغنى من الواقعية القديمة ، الواقعية التي سارت نحو احتواء كل ما سبقها من أبحاث واكتشافات ، كما أنها حققت اكتشافات عظمى تشير إلى مستقبل هذا الاتجاه .. انها تسير بكل ما لديها من عاطفة فياضة وفردية نحو فن قومي ذي أصداء عالمية» .

وفي نفس العام حصلت على الجائزة الأولى في مسابقة لرسم المناظر الطبيعية .. وكانت أعمالها تعبر عن احتفالها بالانسان ، كما امتلأت لوحاتها بوجوه عمال المصانع والفلاحين والعاملات .

نشاطها الفني

وأقامت معرضاً جديداً لأعمالها عام ١٩٦٤ الذي قدمه الفنان «جان لورسا» (رائد فن السجاد المعاصر في فرنسا) .. ثم حصلت على منحة التفرغ للانتاج الفني من وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٦٥ ولمدة عام كامل ، أقامت في نهايته معرضاً لانتاجها خلال التفرغ مع ثلاث من زملائها هم رمسيس يونان ومحمود موسى ومصطفى أحمد .

وحصلت على الجائزة الثانية في معرض أقيم في المجر عن الريف ، ولها لوحة في أحد المتاحف العالمية تمثل الأمومة في الريف . وفي مؤتمر السلام بهلسنكي التقت الفنانة بعدد كبير من رجال الفكر والأدب والفن أمثال «سارتر» و «اليا اهرنبرج» والشاعر الشيلي «بابلو نيرودا» .

والى جانب نشاطها هذا شاركت «انجي افلاطون» في كثير من المناسبات الفنية العربية ، فكانت ضمن الوفد المصري في مهرجان الواسطي بالعراق ، وشاركت في ملتقى الفنانين العرب بتونس عام ١٩٧٣ .

وأقامت في عام ١٩٦٧ معرضاً في قاعة «لانيو فابيزا» .. في روما ، وقدم كتالوج المعرض الفنان الايطالي «ريناتوجوتوزو» .. ثم أقامت في نفس السنة معرضاً آخر في جالاري الجامعة بباريس . وفي عام ١٩٧٠ أقامت معرضاً خاصاً لأعمالها في مدينة «درسدن» ، ثم برلين بالمانيا الشرقية ، ثم في وارسو عاصمة بولندا كما أقامت في عامي ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ معرضاً متجولاً أقيم في عدد من العواصم الأوربية . وفي عام ١٩٧٩ دعيت من مجلس الثقافة الهندي لاقامة معرض لأعمالها في نيودلهي . وفي عام ١٩٨١ عرضت أعمالها في أكاديمية الفنون الجميلة المصرية في روما .

أما المعارض الجماعية الدولية فقد شاركت في بينالي ساوباولو بالبرازيل عام ١٩٥٣ ، وبينالي فينيسيا مرتين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٨ وبينالي الاسكندرية لدول حوض البحر الأبيض المتوسط عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦٥ ثم في صالون المستقلين بباريس عام ١٩٧٦ .

كما اشتركت عام ١٩٧١ في معرض الفن المصري المعاصر في باريس الذي أقيم في متحف «جاليرا» ، وكانت المشرفة الفنية على هذا المعرض . وكذلك في معرض الفن المصري المعاصر في بلجراد عام ١٩٧٤ . وساهمت عام ١٩٧٥ بمناسبة السنة الدولية للمرأة في تنظيم المعرض التاريخي الكبير الذي أقيم تحت اسم «عشر فنانات مصريات في نصف قرن» الذي أقيم بالقاهرة .

وفي عام ١٩٧٦ كانت ممثلة مصر فنياً والمشرفة على جناح الشرف للفنان المصري المعاصر الذي أقيم في الصالون رقم ٨٧ للمستقلين بباريس في قاعة القصر الكبير (جراند باليه) .

وقد منحتها الحكومة الفرنسية عام ١٩٨٤ وسام الشرف بدرجة «فارس» .

وتنتشر أعمالها في العديد من المتاحف

إنجي أفلاطون
عاشقة الأشجار والضوء الأبيض

والمعارض الدائمة ، كما توجد نماذج من لوحاتها في متحف الفن الحديث بالقاهرة ومتحف الفنون الجميلة بالاسكندرية ، وقاعة لانوفابييزا بروما ، ومتحف الفن الحديث في درسدن والمتحف الوطني في وارسو ، ومتحف الفنون الشرقية ، ومجلس النواب الايطالي .. كما تنتشر أعمالها في العديد من المجموعات الخاصة بمصر وفرنسا وايطاليا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وكندا ، وسويسرا ، والولايات المتحدة .

مميزات فنها

يتميز أسلوب الفنانة في الرسم بمعالجته لموضوعات مصرية لها حضورها الاجتماعي مثل العمل في الريف وحياة العمال وخاصة المرأة العاملة .. كان أسلوبها في البداية يميل إلى الرمزية مع الفطرية في تصوير الأشخاص .. ثم انتقلت إلى أسلوب ينتمي إلى المذهب « التأثيري » الذي يرى الأشياء من خلال الضوء الساقط عليها .. ضوء الشمس الأبيض الذي يتكون من ألوان الطيف السبعة .. ليس من بينها الأسود ، فالاسود هو الظلمة أو اللا لون ، والفنانة تؤكد حبها لكل الألوان التي تكون ضوء الشمس ، فهي ترسم الأشكال وهي مغتسلة بالضوء فتبدو بشكل بهيج ومتلألئ ، ألوان واضحة وغير ممتزجة ، كل ضربة فرشاه مستقلة عن الأخرى تسمح للهواء والضوء الأبيض أن يتخللها .. وتتولى عين المشاهد مهمة المزج بين هذه الضربات أو توصيلها بعضها ببعض لنتعرف على الخط غير المرسوم الذي يحدد النخلة أو الشجرة أو المرأة التي تعمل في الحقل بهمة ونشاط.. لقد استطاعت أن تستوعب وتطبق بمهارة وحساسية المفهوم العملي الذي اكتشفه « التأثريون » منذ مائة عام لحقائق اللون ، وسارت به خطوات إلى الأمام نحو أسلوبها الخاص الذي يمزج بين تنقيطية « بيسارو » وحيوية ضربات الفرشاة عند « فان جوخ » دون أن تنتمي اللوحات في النهاية لاحدهما ، وانما لانجي افلاطون .

ورغم أن الريف المصري والواحات والبحر الأحمر والمناطق المختلفة التي رسمتها ليست دائماً مغمورة بهذا الفيض من النور المبهج والألوان الشفافة ، التي نحسبها ـ في لوحاتها الزيتية ـ مرسومة بالألوان المائية ، بسبب أسلوبها الذي يحفظ شفافية الألوان .. إلا أننا نحب هذا الريف وهذه المناظر ونتعاطف معها .

وإن موضوع الفنانة الذي يشغلها هو تمجيد العمل وجهاد الفلاحين ، فهي تلتقط لحظة الفرح وقت الحصاد ، موسم الخوخ أو البرتقال أو الموز أو القطن أو اللوف أو الباذنجان ... عندما يجني الفلاحون ثمرة عملهم الطويل الصبور لكي تثمر الأرض وتخرج خيراتها . ونلاحظ أنها تواصل في الرسم طريق كفاحها في الجمعيات النسائية سواء بمصر أو كممثلة للمرأة المصرية في المحافل الدولية ، فتعطي البطولة الانسانية في لوحاتها للنساء العاملات ، لأنها لا تنسى أبداً جهادها من أجل تحرير المرأة حتى وهي ترسم البهجة في أيام الحصاد .

لقد أحبت أعمال « فان جوخ » واعتبرته أستاذها الثاني بعد الفنان كامل التلمساني ، وتعلمت طريقته في تشكيل اللوحات باللمسات العنيفة الانفعالية وحركة عجينة اللون الدسمة غير المترددةوالتي تعبر عن الحركة والعنف .

وكما اتجه فان جوخ إلى الريف اتجهت هي أيضاً إلى الريف ، لكن في مصر ، في محاولة منها لاكتشاف أثر الضوء على العناصر من ناحية ،



موسم الحصاد



صيادون



الفدائي

أحزان الجبل

وللتعبير عن حياة العمال الزراعيين والفلاحات من ناحية أخرى .

واتخذت لوحاتها شكل السجاد الشرقي الملون الكثير اللمسات وأصبح في لوحاتها تقابل بين الألوان الساخنة والباردة حتى تبدو في مجموعها أشبه بنوافذ الزجاج الملون المؤلف بالرصاص ، وكأنها أثواب مطرزة بالدرجات اللونية الساخنة والباردة .. في هذه اللوحات يشيع جو الفرح والسلام .

وفي أعمالها الأخيرة اهتمام واضح بعنصر الضوء ، حيث أصبحت الخلفية البيضاء تلعب دوراً أساسياً في العمل الفني .. ونحس البساطة والتلخيص للعناصر مع الرهافة البالغة . انها تستخدم التقابل بين الألوان مع ليونة اللمسات المتقطعة المتلوية والمعبرة عن الحركة .

إنها توحي في لوحاتها بأنها تغوص في أعماق الشكل ، والعناصر التي ترسمها تبدو كما لو كانت محفورة على سطح اللوحة . كما استفادت من الفن الياباني في العلاقة بين مسطح اللوحة الأبيض والعناصر المرسومة عليه ونوعية الألوان التي تتلاءم مع هذا الاسلوب . وهي تحيط لمساتها بهوامش بيضاء تساعد على تألق الألوان واكسابها اشعاعاً فوسفورياً ينسينا ما يعتري الرسم من فطرية لاندري إن كانت عفوية أم متعمدة ..

قد لا تظهر ملامح الوجوه في لوحاتها ولكن حركة الأجسام تعبر عن الحياة ، وكأن العاملين ينشدون أغنية جماعية أو يتحركون وفق ايقاع موسيقي حماسي .. وقد رسمت الفدائيين المصريين ثم الفلسطينيين والمقاومة النسائية الشعبية ولكن بأسلوبها الذي يجعل من كل لوحة قطعة من النسيج المزخرف . وفي احدى مراحلها الفنية تخففت أعمالها من الزحام ، وسيطرت اللمسة اللونية على لوحاتها حتى نحس أن كل لمسة أو بقعة لونية قد وضعت بعد دراسة طويلة .

ولا تهتم الفنانة بالايحاء بالعمق ، انها تحترم سطح اللوحة ذا البعدين .. وفي آخر مراحلها الفنية عادت إلى تصوير الحقول المزدحمة ، فيبدو جامعو الثمار بين الاشجار كما لو كانوا هم الثمار ، يتحركون في كل اتجاه وكأنهم يتراقصون ويتمايلون بنشاط واجتهاد .

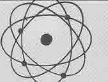
وقد وصف أحد كبار الفنانين أعمالها الأخيرة بقوله : « انها تعتبر سطح اللوحة الخام قبل أن تطمسه الفرشاة بحراً من الضوء الأبيض الشفيف .. وتعتبر لمساتها الفسيفسائية كأنها راقصات الباليه التي تسبح فوقها ، فتبدو الخلفية البيضاء وكأنها نوافذ يتسلل منها الضوء ليتخلل اللمسات الراقصة المبهجة بزخرفتها السعيدة برشاقتها ، المزهوة بأناقتها ...

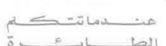
والضوء هو عنصر مرادف للمناخ الصحي ، والصحوة ، واليقظة ، والأمل والحرية .. ولذلك تكتسب لمساتها في رحابة نبضاً ايقاعياً راقصاً بهيجاً وباعثاً للتفاؤل ، حتى يمكننا أن نطلق على « انجي افلاطون » لقب « فنانة الأمل » .

بينما كانت رؤية الفنان الايطالي « ريناتو جوتوزو » مختلفة عن رؤية النقاد المصريين فهو يقول :

« إن أسلوبها يعتبر بدائياً طبقاً لاختيارها الخاص ، وهو يخلو من الطبيعية والتعبير العقلي ، أما الألوان بما فيها من خطوط قصيرة وضربات فرشاة موجزة سريعة ، فهي تبدو ككتابة رشيقة منظمة في نسيج غني بالحواشي والاقواس والدوائر وعلامات التشكيل ، ان الاتزان والتآلف النابض باعتبارهما من صفات حروف الهجاء العربية ، هما من الأمور التي لا تبدو غريبة عن هذا النسيج الذي كونته الألوان » .

صبحي الشاروني





عندما تتكلم الطائرة

أصبحت أجهزة الملاحة والتحكم والاتصال في الطائرات الحديثة متعددة ومعقدة التركيب ، مما جعل مهمة قائد الطائرة مهمة صعبة ، فكل حواسه في حالة استنفار مستمر ، وخاصة في الطائرات المقاتلة .

ولذلك فكر مهندسو الطيران في الاعتماد على آخر تطورات في مجال الدوائر الالكترونية ، والكمبيوتر لمساعدة الطيار في مهمته ، وذلك باستخدام دوائر تحليل وتوليف الصوت ، بحيث يستعيض قائد الطائرة بالأوامر الشفوية عن استخدام يديه أو بصره . فبدلاً من أن يقوم مثلاً بتغيير تردد جهاز الارسال أو الاستقبال يدوياً ينطق أمام الميكروفون بترددات الموجات التي يريدها .

كما يستطيع قائد الطائرة بواسطة هذا الميكروفون توجيه الاسئلة إلى الكمبيوتر عن الارتفاع الحالي للطائرة وسرعتها وكمية الوقود المتبقية الخ .. عندئذ تتولى دوائر توليف الصوت الاجابة شفوياً عليه ، ودون أن يضطر الطيار إلى تشتيت انتباهه والنظر إلى أجهزة القياس الموجودة في كابينة القيادة . وتستطيع هذه الدوائر التعرف على ٧٥ كلمة ، وهو عدد كاف جداً ، فالطيار لن يحتاج إلى أكثر من ثلاثين كلمة فقط .



كابينة قيادة احدى الطائرات الحديثة

ولقد أثبت هذا النظام عند تجربته على طائرة مقاتلة من طراز « ميراج ــ ٢٠٠٠ » ، أنه يوفر الكثير من الوقت والجهد بالنسبة للطيار . ومن المتوقع أن يمتد استخدام أجهزة التحكم الشفوية إلى الطائرات المدنية بعد نجاح تجربتها في الطائرات العسكرية .

جيل جديد من المجاهر

تغزو الموجات فوق الصوتية مجالاً جديداً من مجالات البحث العلمي . فبعد أن حلت محل الأشعة السينية في فحص وتصوير الكثير من أجهزة الجسم الداخلية ، تمكن فريق من الباحثين الألمان من استخدامها بنجاح بدلاً من الأشعة الضوئية لفحص العينات المجهرية .

وبعد أبحاث دامت أربع سنوات ولد أول مجهر يستخدم تقنيات الموجات فوق الصوتية .

ويؤكد الباحثون أن المجهر الجديد يتميز بقوة تكبير أكبر من المجاهر التقليدية ، مما يسمح بفحص تكوينات متناهية الدقة ، فضلاً عن أن الموجات فوق الصوتية لاتسبب أي تلف للتكونات الميكروسكوبية التي يجرى فحصها .

ومن أهم مجالات استخدام هذا المجهر أبحاث المعادن والتركيب البللوري لأشباه الموصلات ، والأبحاث البيولوجية والطبية .



جيل جديد من المجاهر

ويوفر هذا الجيل الجديد من المجاهر وقت الباحثين ، نظراً لسهولة استخدامه . فالعينات لا تحتاج إلى تحضير قبل فحصها كما في المجهر الضوئي أو المجهر الالكتروني .

الأذن الإلكترونية

تمكن الأطباء مؤخراً من اختراع جهاز الكتروني يزرع في الأذن الداخلية فيعيد للأصم حاسة السمع .

ويعتبر هذا الجهاز تطوراً جوهرياً للأجهزة المساعدة للصم ، والتي كانت قاصرة حتى الآن على تكبير الموجات الصوتية . فالجهاز الجديد يقوم بدور الخلايا الشعرية الموجودة داخل عظمة القوقعة ويحفز بالتالي ألياف العصب السمعي مباشرة .

في الأذن السليمة تنتقل الذبذبات الصوتية خلال العظمات السمعية إلى السائل التيهي الذي يملأ عظمة القوقعة ، وينقل هذا السائل الموجات الصوتية إلى خلايا شعرية متناهية الصغر موجودة داخل القوقعة . وتقوم هذه الخلايا بدورها بتحويل الذبذبات إلى اشارات كهربية ترسلها إلى عصب السمع . وعندما يحدث تلف لهذه الخلايا ، نتيجة حادث أو مرض ، يفقد المصاب القدرة على السمع .

الأذن الالكترونية

ولكن الأذن الالكترونية تستطيع اعادة حاسة السمع جزئياً إلى مثل هذا المصاب . وهي تتكون من ميكروفون في حجم ظفر اصبع يثبت في الأذن ، ويقوم بالتقاط الأصوات ونقلها بواسطة سلك إلى ميكروكمبيوتر صغير يضعه الأصم في جيبه . ودور الميكروكمبيوتر هو تعديل الاشارة الكهربية المعبرة عن الموجه الصوتية ، وإرسالها إلى جهاز ارسال صغير مثبت وراء الأذن . وعندئذ يقوم جهاز استقبال مغناطيسي مزروع تحت الجلد بالتقاط الاشارة من خلال الجلد وارسالها إلى قطب كهربي صغير مزروع داخل القوقعة . ويتولى هذا القطب تحفيز ألياف عصب السمع لينقل الاشارات إلى مركز السمع في المخ .

إلا أن هذه الأذن الالكترونية لا تمكن الأصم من التفرقة بين درجات الصوت ، لأنها تحفز القوقعة عند نقطة واحدة فقط ، ومن ثم فهو يستطيع سماع بوق سيارة ولكنه لا يمكنه تفسير الكلمات عند التحدث اليه . ولذلك يحاول الباحثون تزويد الميكروكمبيوتر بدوائر تستطيع فصل الترددات المختلفة للأصوات ، وارسالها على التوالي إلى القطب المزروع في الأذن الداخلية ، بحيث تقوم كل مجموعة من الألياف العصبية لعصب السمع بالتقاط مدى معين من الترددات ، وبالتالي يتمكن الأصم من التفرقة بين صوت الكمان والبيانو مثلاً .

ومن ناحية أخرى تجرى تجارب على أذن الكترونية أكثر تطوراً ، تستخدم ثمانية أقطاب بدلاً من قطب واحد ، توزع على تلافيف عظمة القوقعة بحيث يستطيع الاصم التفرقة بين درجات الصوت المختلفة .

تصميم أول مدينة عائمة

وضع مهندس فرنسي تصميم أول مدينة عائمة تتسع لاقامة عشرة آلاف شخص . ويبلغ طول هذه الجزيرة الاصطناعية أربعة كيلومترات ، وتضم أكثر المعطيات التقنية تطوراً .

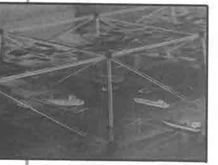
وتنقسم هذه المدينة إلى قسمين : قسم طاف فوق سطح البحر ، والقسم الآخر مغمور تحت الماء على عمق ٣٥٠ متراً . وتتكون أساساتها من ثمانية أهرامات مزدوجة مقلوبة ، صنعت من ألياف الكربون . وعلى قاعدة هذه الاهرامات تقام جميع المنشآت ، وأغلبها من البلاستيك الصلب الشفاف .

والهدف من إقامة هذه المدينة هو الاستغلال الأمثل للثروات البحرية من ثروات معدنية وبترولية وسمكية ... الخ . ويتركز جزء كبير من نشاط هذه المدينة تحت سطح البحر ، حيث توجد ورش العمل الواقعة داخل الاهرامات . ويقوم العمال في هذه الورش باستخراج المعادن من حديد ومنجنيز ، ومراقبة مزارع الاسماك والطحالب ، كما يقوم فريق من الربوت بالتنقيب عن البترول تحت اشراف فنيين موجودين في كبائن مراقبة مغمورة تحت الماء .

ويتم نقل المعادن المستخرجة من القاع اتوماتيكياً إلى المستوى الأول من المدينة العائمة حيث المنطقة الصناعية ، وفيها يتم معالجة الخام والمنتجات البحرية المختلفة وتحلية مياه البحر ، كما تتركز أهم عمليات انتاج الطاقة . وتتميز هذه المدينة باكتفاء ذاتي فيما يتعلق بالطاقة مستغلة لذلك الطاقة الناتجة عن حركة الأمواج وعن التيارات المائية الساخنة .

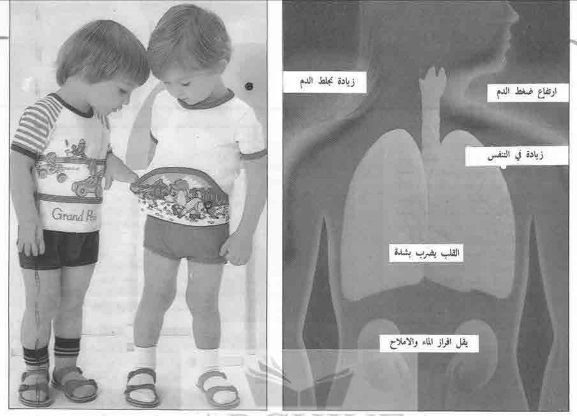
ويضم هذا القطاع من المدينة ثلاثة آلاف شخص ، يستخدمون للانتقال الرأسي مصاعد وأرصفة متحركة ، أما الانتقال الأفقي فيتم بواسطة حافلات هوائية .

ويوجد أعلى المنطقة الصناعية قطاع الادارة والأعمال حيث تتجمع كل المكاتب وقاعة تجارية ضخمة ، ودار سينما ومسرح ، فضلاً عن جامعة متخصصة في دراسة البيئة البحرية .



• ماكيت • المدينة العائمة

أما المساكن فتتجمع في شكل قرى صغيرة معلقة في قمم الاهرامات ، تضم كل قرية ٣٠٠ شخص ، وصنعت بيوتها من هياكل بلاستيكية مثبت فيها قطع الأثاث وتتوفر في هذه المنازل كل أسباب الراحة والتسلية بحيث لا يشعر سكان هذه المدينة العائمة بأي نقص أو ملل .



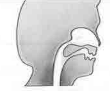
ميكانيكية حدوث الأمراض النفسية الجسمانية

كثيراً ما يتعرض بعض الأطفال للاصابة بالأمراض النفسية الجسمانية

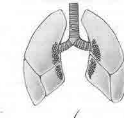
الداء في المعدة والقولون والرئة .. والسبب نفسي!

بقلم: الدكتور سامي عزيز

- الحرمان من الحب والعطف والحنان قد ينتهي بقرحة في المعدة!
- النزوع إلى العدوانية والثورة والتذمر في العمل وتجنب المسئولية يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم!



١ ـ حساسية الأنف



٢ ـ الربو الشعبي

٣ ـ الارتيكاريا والحساسية

٤ ـ مرض البول السكرى

هذه هي أهم الأمراض النفسية الجسمانية

• هل للحالة النفسية للانسان تأثير على أجهزة جسمه ؟

• ما هي الأمراض السيكوسوماتية ؟

• وما هو تأثير الانفعال الذى كثيراً ما نتعرض له في وسط معركة الحياة على أعضاء بدننا الداخلية ؟

• هل تتأثر المعدة وشرايين القلب والقولون والشعب الهوائية بالحالة النفسية التى نمر بها ؟

منذ أقدم العصور أدرك الانسان العلاقة بين النفس والجسم .فقدماء المصريين لم يفصلوا بين المرض الجسمي والمرض النفسي ، بل نظروا الى المريض نظرة شمولية . كذلك كانت نظرة علماء بابل وآشور . كما أن أبوقراط أكد على وجود علاقة بين مرض الجسد ومرض الروح . وعرف الطبيب العربي الأمراض النفسية الجسمية (السيكوسوماتية) ووصفها . يقول الطبيب ابن العباس المجوسي المتوفي سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤م في كتابه «كامل الصناعة الطبية ، الجزء الثاني ص ١٨ : «فأما الأمراض النفسانية فانه قد ينبغي ألا يدمن الانسان على الغم ولا يستعمل الغضب ولا يكثر من الهم والفكر ولا يستعمل الحسد فان ذلك كله مما يغير مزاج البدن ويعين على إنهاكه وضعف الحرارة الغريزية . ومن كان مزاجه حاداً فان هذه الأعراض تولد الحميات الرديئة بمنزلة حمى الدق وقرحة السل وما يجري هذا المجرى . فلذلك قد ينبغي أن يتجنب الانسان الأعراض النفسانية كلها وأن يلهم نفسه الفرح والسرور فانه يقوي الحرارة الغريزية ويحركها الى ظاهر البدن ويزيد في النشاط ويقوي النفس » .

ومن أنواع حمى الدق التي يذكرها ابن العباس حمى الذبول المؤدية الى هزال الجسم ، ومن أسبابها «الهم والغم والغضب والتعب والسهر وعدم الطعام والشراب لا سيما إن اتفق ذلك في سن الفتوة والشباب » . وهذه الحمى عسرة البرء (الجزء الأول ص ٣٠٤)

وكلمة سيكوسوماتية تعني الأمراض المرتبطة بالحالة النفسية للمريض . وقد يلعب العامل النفسي دوراً خطيراً في نشأة هذه الأمراض أو تكرار الاصابة بها .

وأهم ما يميز الأمراض السيكوسوماتية :

(١) وجود إرتباط بين عودة أعراض المرض وسوء الحالة النفسية للمريض ، والحالة النفسية ترتبط أيضاً بطول النوبة المرضية وشدتها .

(٢) نسبة حدوث هذه الأمراض تختلف باختلاف النوع (الجنس) :
ا ـ فالأزمة الربوية مثلا أكثر انتشاراً في الأولاد عن البنات قبل سن البلوغ ولكن بعد هذه السن تكون نسبة حدوثها في الاناث أكثر منها في الذكور .
ب ـ الأرتيكاريا المزمنة وزيادة إفراز الغدة الدرقية أكثر انتشاراً في الإناث .
ج ـ قرحة المعدة ، أمراض الشرايين التاجية ، إرتفاع ضغط الدم ، أكثر انتشاراً في الذكور .

(٣) غالباً ما تظهر هذه الأمراض بطريقة دورية على مدار السنة .

(٤) كثيرا ما يكون هناك جانب وراثي وراء هذه الأمراض ، وغالباً ما يصاب أكثر من فرد من نفس الأسرة بنفس المرض أو بمرض آخر من الأمراض النفسية الجسمية .

الأمراض السيكوسوماتية المعروفة لنا :

بلغ عدد الأمراض السيكوسوماتية المعروفة لنا الى الآن أكثر من ٣٠٠ مرض ، ونكتفي هنا بذكر أهمها وأكثرها انتشاراً :

١ ـ اضطرابات الجهاز التنفسي :
ا ـ الربو الشعبي .
ب ـ حساسية الأنف .
٢ ـ اضطرابات الجهاز الهضمي مثل :
ا ـ قرحة المعدة
ب ـ الشره أو فقدان الشهية للطعام
ج ـ اضطرابات القولون ـ القولون الحائر أو القولون العصبي .
د ـ بعض حالات الامساك والاسهال .
٣ ـ اضطرابات الجلد مثل الأرتيكاريا والحساسية .
٤ ـ اضطرابات الجهاز العضلي والمفاصل :
ا ـ الروماتويد المفصلي .
ب ـ بعض أمراض الأنسجة الضامة .
٥ ـ اضطرابات الغدد الصماء مثل :
ا ـ زيادة افراز الغدة الدرقية
ب ـ مرض البول السكري .
٦ ـ اضطرابات الجهاز الدوري والقلب :
ا ـ ارتفاع ضغط الدم .
ب ـ أمراض الشرايين التاجية .

الداء في المعدة والقولون والرئة .. والسبب نفسي!

ج ـ اضطرابات الدورة الدموية للمخ
د ـ الصداع النصفي .
٧ ـ اضطرابات الجهاز التناسلي مثل :
ا ـ اضطرابات الدورة الشهرية
ب ـ التوقف المفاجئ للدورة الشهرية .

هل للإنفعال فوائد ؟

الانفعالات المعتدلة فيها بعض الفوائد أهمها :

١ ـ الإنفعالات المعتدلة تصاحبها شحنات وجدانية تزيد من تحمل الشخص وتجدد من دوافعه ورغباته وتدفعه الى مواصلة العمل وتحقيق أهدافه .

٢ ـ كما أن لها جانباً اجتماعياً إذ أنها تزيد من إرتباط الاشخاص بعضهم ببعض .

٣ ـ الإنفعالات المعتدلة تدخل السرور وتزيل الملل .

٤ ـ لا شك أن الانفعالات تنبه الجهاز العصبي اللاإرادي والجهاز الغدي مما يزيد من مقاومة الشخص .

ولكن رغم هذه الفوائد ، هناك العديد من الأضرار التي تنشأ مع الانفعال وأهم هذه الأضرار :

١ ـ يؤثر الانفعال على التفكير ، فيجعله بطيئاً ، وصعباً كما هو الحال في الحزن والإكتئاب .

٢ ـ يقلل من قدرة الشخص على النقد كما أن تصرفاته تصبح عشوائية مشوهة .

٣ ـ يساعد الانفعال على تفكك الأفكار فتتغلب المعلومات الغريزية على التفكير والسلوك مما يؤدي الى سلوك اجتماعي غير مهذب

٤ ـ ضعف الذاكرة خاصة أثناء الإنفعال .

٥ ـ اذا تبلد الانفعال كما في حالات الانفصام ، يكون المريض عرضة للاتيان بأي جريمة أو انحراف شاذ .

٦ ـ اذا توالت الانفعالات بشكل مستمر دون أن تنتهي المواقف الى نهاية سوية ، تنشأ تغيرات فسيولوجية وينتهي الأمر بتغيرات عضوية في الأنسجة مما يؤدي الى الأمراض النفسية الجسمية أو السيكوسوماتية التي سبق ذكرها .

كيف تحدث الأمراض السـيكوسوماتيـة ؟

من أهم العوامل التي تؤدي الى الأمراض السيكوسوماتية :

١ ـ الحرمان من الحب والعطف والحنان مع رغبة المريض الملحة في الحصول عليها ، وغالباً ما يستجيب الشخص للحرمان الذي يعانيه بالصمت والطموح الزائد ومضاعفة الكدح والتظاهر بعدم المبالاة ، وبذل الحب والعطف للغير ، وهذه الحالات الانفعالية كثيراً ما نراها في الاشخاص المصابين بقرحات المعدة .

٢ ـ النزعة الى العدوانية والثورة والتذمر في العمل وتجنب المسئولية كما في حالات ارتفاع ضغط الدم .

٣ ـ الخوف من فقد الزوجة أو الأم ، أو الفشل في الحب أو في الزواج أو في العمل ، إذ أن عدم النضج الانفعالي والتعلق الشديد بمن يحبهم يؤدي الى ظهور الأمراض السيكوسوماتية كما في حالات الربو الشعبي .

ميكانيكيـــة حـــدوث الأمراض السيكوسوماتية

"تصاحب الإنفعال تغيرات في الجهاز العصبي اللاإرادي ، لذلك يزيد نشاط الجهاز العصبي السيمبثاوي في حالات القلق والخوف . وينتج عن ذلك زيادة ضربات القلب والتنفس وارتفاع ضغط الدم واتساع حدقة العين إرتفاع نسبة السكر في الدم . ويساعد على ظهور هذه الأعراض زيادة نشاط الغدة فوق الكلوية وإفرازها لهرمون الأدرينالين في الدم . ولكن قد يصاحب الانفعال زيادة في نشاط الجهاز البارسيمبثاوي ، فتقل ضربات القلب والتنفس ، وتزيد الرغبة الملحة في التبول وغير ذلك . والإنفعالات عموماً تؤثر على أعضاء الجسم المختلفة . فالمعدة مثلا تزيد كمية الدم الواردة اليها وتنتفخ الأغشية الداخلية المبطنة لجدارها ، وتنقبض عضلاتها بقوة ، وترتفع نسبة إفراز حمض الهيدروكلوريك بها .

أما القلب فيضرب بشدة وترتفع كمية الدم التي يضخها في الدقيقة ، وتنقبض الشرايين الطرفية للجسم ، ويصاحب ذلك إرتفاع ضغط الدم . ويؤثر الانفعال على الكليتين إذ يقل إفراز الماء والأملاح من الجسم مع التوتر . كما وجد حديثاً أن هناك علاقة بين سرعة تجلط الدم والانفعال . فالاجهاد النفسي يزيد من كثافة الدم مما يزيد من قدرته على التجلط أكثر من الطبيعي ، وهذا يفسر لنا العلاقة بين القلق النفسي الشديد وأمراض الشرايين التاجية واصابتها بجلطة أو احتشاء قلبي .

وتجدر الاشارة أيضاً الى أن الانفعال يمتد أثره الى الغدد الصماء ، وخاصة الغدة فوق الكلوية ، فترتفع نسبة الأدرينالين في الدم ، ويترتب على ذلك العديد من التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للانفعال . كما يؤثر الانفعال على الجهاز العضلي اللا ارادي وعلى الجهاز العصبي ومراكزه المختلفة ، وخاصة الهيبوثلاموس والجهاز الطرفي والفص الجبهي للمخ .

قد تصيب الأطفال أيضاً ...

العجيب أن الأطفال أيضاً عرضة للاصابة بالأمراض السيكوسوماتية ، وأهم هذه الأمراض الربو الشعبي الذي يعتبر من أكثرها انتشاراً في الأطفال ، ويليه اكزيما الجلد والتهاب القولون التقرحي ، وحتى قرحة المعدة من الممكن حدوثها في الأطفال ـ وهذه الأمراض تظهر في الأطفال بصورة مزمنة ، ويتوقف ظهورها وعودة الأعراض واشتدادها على الحالة النفسية للطفل . ولكن من الصعب تحديد منشأ هذه التغيرات النفسية . بمعنى آخر هل الاضطراب النفسي ظهر قبل المرض العضوي أم أنه ظهر نتيجة له ؟

ومن أهم الأمراض السيكوسوماتية التي تم تحديد معالمها حديثاً وأهتمت بها المجلات الطبية المختصة بطب الأطفال في السنوات القليلة الماضية .. مرض يظهر على هيئة مغص متكرر مع قيء وألم شديد في البطن في المنطقة المحيطة بالسرة ، وشعور بالغثيان ، ورفض الطعام ، وصداع ، وفقدان الوزن وربما إرتفاع بسيط في درجة الحرارة ، والأعراض تتكرر بصورة دورية ... كل اسبوعين أو مرة كل شهر . ولكن غالباً ما تظهر بعد اضطراب عاطفي .. قسوة من الوالدين .. أهمال .. شعور بعدم الحب .. إحباط في المدرسة .. فشل في الدراسة وغيرها من العوامل النفسية التي تدفع بالأمراض الى التكرر والظهور . وهنا لا يستجيب الطفل لأي دواء .. وتستمر متاعبه . ولذلك يبدأ التفكير في احتمال أن تكون هذه الأعراض علامة على وجود متاعب نفسية عند الطفل .

كلمة أخيرة ...

أشارت الأبحاث التي أجريت أخيراً الى أن أكثر من ٤٠ بالمائة من حالات الأمراض الباطنية لا يعانون من مرض عضوي بل من أمراض سيكوسوماتية ، وهم لا يعبرون عن قلقهم بصراحة . والأمراض السيكوسوماتية تكثر مع الحروب ومع التغيرات الاجتماعية المفاجئة .. وقد وجد أن الطبقة الوسطى أكثر عرضة للأمراض السيكوسوماتية عن غيرها من الطبقات نظراً لزيادة أعبائها وما تستلزمه من كفاح لمسايرة الحياة . وتشير الأبحاث الى أن الأشخاص الانطوائيين أكثر عرضة للاصابة بالأمراض السيكوسوماتية عن الأشخاص الاجتماعيين .

وعلاج هذه الأمراض لن يتم بالعقاقير المخفضة للضغط أو الموسعة للشعب الهوائية أو مضادات الحموضة وحدها .. ولكن بمزيد من الحب والعطف والحنان ورفع المعاناة النفسية وتأمين السلام والفرح الداخلي لكل مريض .

سامي عزيز

النقيض

شعر: محمد الظاهر

أمشي واقتربُ
والأرضُ تغتربُ

فالأرضُ عصفورةٌ طليقةٌ ، وأنا شهادةُ الموتِ ، أوْ حُمّى الصِّراعِ ، إذا مرَّتْ على جُثّتي أشْرَعتُ قنطرةً ، مِنْ أرْجُوانِ المدى ، مِنْ لَحْمِ مَنْ صُلِبوا

ضجَّ الغموضُ ، فقلتُ الآنَ ذاكرتي ، خَريطَةُ الرَّفْضِ ، أوْ نَقْضٌ لما يجِبُ

لا ، ليسَ مِنْ مِلَّتي التّهويشُ وَالْغَضَبُ
وليسَ في جَعْبَتي الثَّوْرِيُّ وَالبَطَــــلُ

إني اختطَفْتُ سؤالي مِنْ مخاطِبَتي ، هذا الهديرَ ، وَمِنْ أسرارِ ملحمتي أنّي إذا راوَحَتْ في مِعْطَفي سُلْطَةٌ رَسْمِيَّةٌ ، أكْتوي مِنْها وَأشْتَعِلُ

وَأظَلُّ أرْتَحِلُ
وَأظَلُّ أتّصِلُ
بشارعٍ حاقدٍ ، أوْ ظِلِّ عاصمةٍ تَحْبو وَتَحْتَجِبُ

تغتالُني الدُّوَلُ

أوْ تشتهي جُثّتي الأعرابُ مُذْ دَخَلَتْ حُمّى التَّحَوُّلِ وَالتَّغْييرِ كُلَّ دَمٍ آخى دَمي وَاسْتَشاطَ القَوْمُ وَانْفعلوا

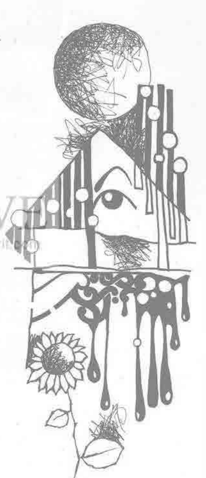
أمشي إلى دَمِهِمْ
أمشي ولا أصِلُ
وَأظَلُّ أتّصِلُ

لكنّني مُذْ بَلَغْتُ الحُلْمَ ، صارَ دَمي إشارةَ الحَرْبِ ، ها لُغَتي ، أصابعٌ وَدليلٌ ، كُلّما نفرَتْ ، تقابَلَ الحُلْمُ وَالتَّجْسيدُ ، وَاكْتَمَلَتْ إضاءَةُ الرّوحِ وَامْتَدَّتْ لها السُّبُلُ
فَلْيَدْخُلِ البحرُ في ظِلّي وَيَحْتَجِبُ

وَلْيخرجِ النّهرُ مِنْ قُدّاسِ أسْلِحَتي ، طقساً مِنَ السِّحرِ ، شرياناً وَأوْرِدةً ، يُعطي الملامحَ للتاريخِ إنَّ لَهُ ، في سُرَّةِ الأرضِ ميثاقاً ، ولي سببُ

وَأظَلُّ أقْتَرِبُ
وَالأرْضُ تَغْتَرِبُ
وَأظَلُّ أتّصِلُ
أمشي إلى دَمِهِمْ
أمشي وَأتّصِلُ
أمشي ولا أصِلُ

هذا التناقضُ إلحاحي فهل عَجَبُ
أنــي أُعَقْلِنُ ما يَهذي بِهِ العَرَبُ



لقطات مختلفة من الفيلم الأرجنتيني «قصة رسمية»، تصور أولاها في أعلى اليمين سعادة الزوج بابنته بالتبني، ثم زوجته مدرسة التاريخ بين طلبتها، وفرحتها بعودة صديقتها. تتوسط ذلك لقطة تصور بداية احساس الزوجة بالارتباك بعد أن روت لها صديقتها تجربتها الأليمة مع الاستجواب والتعذيب .. والكابوس الذى يجثم على وجدان الناس .. ويطل من عيني هذه الطفلة المفقودة

سينما

مهرجان "كان" في مواجهة الإرهاب



بقلم: رؤوف توفيق



كثيرة هى الأخبار التى رددتها وكالات الأنباء وشاشات التليفزيون ، عن القلاقل السياسية فى أمريكا اللاتينية ، عبر السنوات الماضية وحتى الآن ..

ربما يتذكر المرء بعضاً من هذه الأخبار .. وربما تاهت منه وسط زحام أحداث العالم التى تتوالد وتتراكم فى كل لحظة .

ولكن ميزة السينما .. أنها تجسد ــ اذا أرادت ــ هذه الأحداث ، لتبعث فيها الحياة ، ولتصبح رسالة إلى ضمير العالم .. حتى لا ينسى .. وحتى ينتبه ، ألا يتكرر ما حدث فى مكان آخر .. !

تقوم السينما هنا .. بدورها الحقيقى كفن شامل .. يجمع بين سخونة الواقع ، وخيال الكاتب ، ومهارة المخرج فى التعبير بالصورة وبكل المؤثرات الفنية .. ليصبح الفيلم ، وثيقة باقية ، يفوق تأثيرها عشرات الأخبار والتعليقات المكتوبة أو المنطوقة !

وسينما أمريكا اللاتينية ، كان لها حضور قوى فى مهرجان «كان» السينمائى لهذا العام .. ففى المسابقة الرسمية للمهرجان عرض فيلمان .. أحدهما من الأرجنتين «قصة رسمية» .. والثانى من البرازيل اسمه «قبلة المرأة العنكبوت» ..

مهرجان «كان» في مواجهة الإرهاب



الممثلة الأرجنتينية «نورما اليندرو» في دور الزوجة الذي حصلت به على جائزة أحسن ممثلة



«ويليام هيرت» الذي فاز بجائزة أحسن ممثل عن دوره في فيلم «قبلة المرأة العنكبوت» الذي شاركت به البرازيل في المهرجان.

والفيلمان يتعرضان لموقف الانسان في مواجهة الارهاب السياسي.

والمثير تماماً .. أن كلا الفيلمين قد فازا بجوائز التمثيل في المهرجان.

جائزة أحسن ممثلة .. ذهبت إلى الممثلة الأرجنتينية «نورما أليندرو» عن دورها في فيلم «قصة رسمية» .. وقد حصلت على الجائزة مناصفة مع الممثلة الأمريكية «شير» بطلة فيلم «قناع»!

أما جائزة أحسن ممثل فقد استحقها الممثل الأمريكي «ويليام هيرت» عن دوره في الفيلم البرازيلي «قبلة المرأة العنكبوت».

واستقبلت هذه الجوائز بترحيب شديد .. وبدون أدنى اعتراض من النقاد أو الجمهور .. وهذا شيء نادر في جوائز المهرجانات عموماً .!

ولم يكن هناك تبرير لهذا «الرضا» .. سوى أن هذين الفيلمين .. كانا على أعلى مستوى فني متميز .. شكلا ومضموناً!.

ونتوقف هنا بالعرض والتحليل للفيلم الارجنتيني لما له من أهمية خاصة.

• الأرجنتين .. والتاريخ الرسمي !

الفيلم الأرجنتيني «قصة رسمية» يحكي عن تلك المرأة من الطبقة المتوسطة، والتي تعيش حياة مستقرة مع زوجها الموظف الحكومي، وابنتها بالتبني ذات الأعوام الخمسة.

الشكل الخارجي يعلن أنه بيت سعيد .. توافرت له كل أسباب الانسجام والترابط .. فالمرأة تعمل كمدرسة تاريخ في مدرسة ثانوية خاصة ..

ومن الواضح أن لها شخصية محبوبة .. قيادية .. تعرف كيف تفرض وجودها واحترامها في فصل يمتلىء بالشبان المراهقين تحت ملامح وجوههم يبدو الفضول، والعنف .. واللامبالاة أحياناً .. والتمرد والرفض أحياناً أخرى..

ولكنها دائماً قادرة على السيطرة ممسكة بكتب التاريخ المدرسية .. مؤمنة تماماً أن سطور الكتب هي كل الحقيقة .. وأن التاريخ مادة لا تقبل الجدل أو الشك .. ذلك لأن الوقائع التاريخية ــ على حد تعبيرها ــ سجلها المؤرخون بمنطق حيادي .. ومن هنا علينا أن نتعامل مع التاريخ على أنه ذاكرة الانسان لفهم العالم.

وهي تعيش هذا الاقتناع الكامل بأنها تعرف الحقيقة .. سواء من خلال زوجها، الموظف «الرسمي» .. أو من كتب التاريخ المطبوعة «رسمياً».

وهي تتوقع من طلبتها أن يكونوا مثلها .. وأن يغنوا النشيد القومي صباح كل يوم .. بنبرة عالية، وبنفس الحماس والغيرة الوطنية مثلها .!

ولكن .. في بلد تعيش الاضطرابات السياسية ــ مثل الأرجنتين ــ تصبح وجهة النظر «الرسمية» للدولة .. دائماً عكس الحقيقة الواقعة!!

وتدريجياً تكتشف تلك المرأة مدى الوهم والزيف الذي تعيشه..

• اعترافات صديقة !

يحدث الاكتشاف من خلال ثلاثة أحداث جوهرية ..

عودة صديقتها بعد غياب طويل خارج البلاد .. تستقبلها في بيتها .. تحتفل بها .. تضمهما جلسة طويلة وحميمة من الذكريات ..

نامت الطفلة في سريرها .. ونام الزوج مفتوح العينين، وعلى وجهه ملامح الضيق من وجود تلك الصديقة في البيت ..

والصديقة تسترسل في ذكرياتها .. تحكي للزوجة عن الأيام العصيبة التي عاشتها قبل أن تضطر للفرار من البلاد .. كيف قبضوا عليها .. وتفننوا في تعذيبها، لكي تعترف على حبيبها .. كانوا يريدون معرفة أسماء الأشخاص الذين يتعاون معهم .. ولما لم تستجب لهم .. ضاعفوا من تعذيبها .. وحاول أحد رجال الشرطة الضغط عليها لإذلالها!.

تحكي وصوتها يرتعش بالمرارة والغضب .. كيف كانت في زنزانتها تسمع نشيج البكاء يحوم حولها، يمزق صمت الليل الطويل والكئيب .. دون أن تعرف من أي مكان في السجن يأتي صوت البكاء هذا .. وكأن السجن كله يبكي!

تحكي عن حالات اجهاض النساء الحوامل في السجن .. حالات الولادة في هذا المكان الضيق القذر .. واختطاف الأطفال الرضع .. وفجيعة الأمهات عندما يكتشفن ضياع أطفالهن!

وتنتفض الزوجة في ذعر .. وتقاطع صديقتها .. وتسألها بحدة :

ــ لماذا تقولين لي كل هذا ..؟

وتفاجأ الصديقة برد الفعل .. وترد بهدوء :

ــ إنني لأول مرة أحكي عما حدث .. وكنت أتصور أنك من الممكن أن تسمعيني ..

وتغالب الزوجة دموعها وارتباكها .. وهي تشيح بوجهها كأنما تريد أن تتخلص من كابوس



صرخت الطفلة فى فزع من لعبة الأطفال بالمدافع الرشاشة .. وجاءت الأم لتهدئ من روعها .. وأغمضت الأم عينيها لتهرب من تساؤل مرير : هل عاشت الطفلة هذه اللحظة من قبل ؟

ثقيل . وتتمتم :

ــ هذا غير محتمل .. اننى أشعر بالذنب ..

وتستأذن الصديقة منصرفة .. وهى تحاول أن تهدىء من انفعالات الزوجة .. تربت عليها فى حنان .. وتعتذر لاجهادها بهذا الحديث .. وتخرج .

وتبقى الزوجة فى مكانها .. فاقدة القدرة على الحركة .. وكأن ما سمعته قد زلزل كيانها .. ولكنها صدمة الحقيقة !

وكان هذا اللقاء .. هو أول اكتشافاتها الشخصية لما يحدث حولها ..

• فزع الطفلة !

ويأتى الاكتشاف الثانى .. فى الحفلة التى أقامتها ببيتها بمناسبة عيد ميلاد ابنتها الصغيرة .. تتجمع فى البيت مجموعة من أطفال الأصدقاء والجيران .. ويشترك الأطفال فى اطفاء الشموع الخمس .. وفى اللعب والمرح ..

وفجأة تتسلل الابنة الصغيرة الى غرفتها .. وتغلق الباب وراءها .. وتمسك بعروستها تغنى لها .. وتهدهدها .. وتضمها على سريرها وتغطيها وتمسح على شعرها .. كأنما تدعوها للنوم .. وفى هذه اللحظة من الهدوء والسكينة .. تنفتح أبواب الغرفة بقوة ليظهر الأطفال ممسكين بألعابهم من المدافع الرشاشة والمسدسات .. وهم يصوبونها ناحيتها ويصرخون فى وجهها أن تستسلم لهم !

انها مجرد لعبة من ألعابهم .. ولكن الابنة الصغيرة لم تحتمل المفاجأة فأطلقت صرخة فزع رنت فى البيت كله .. وانتفض جسدها الصغير ببكاء هستيرى .. ويهرع اليها الأب والأم ..

الأب ينهر الأطفال عن هذه الألعاب السخيفة .. ويصرفهم من البيت .. أما الأم فقد أخذت طفلتها بين أحضانها .. تهدىء من روعها ، تمسح دموعها ، تقبلها فى حب وحنان . تربت عليها حتى استسلمت الطفلة للنوم ..

فى هذه الليلة لم تنم الأم .. ظلت بجوار طفلتها مفتوحة العينين وقامت لتفتح أحد الأدراج لتخرج ملابس قديمة لطفلة فى عمر عامين .. وظلت تقلب هذه الملابس .. وهى تغالب دموعها ..

فى هذه الليلة .. هاجت المشاعر والتساؤلات حول طفلتها .

انها طفلة بالتبنى .. حصلت عليها عندما كان عمرها عامين .. وهذه هى الملابس التى كانت ترتديها .. ولكن من تكون أمها الحقيقية ؟ .. وهل هناك علاقة بين صرخة الفزع التى أطلقتها الطفلة فى هذه الليلة .. وبين ما يكون قد حدث بالفعل للأم الحقيقية ؟!

• تورط الزوج

ويأتى الاكتشاف الثالث .. عندما تدخل فصلها المدرسى .. فتجد السبورة مغطاة بالمنشورات التى تتساءل عن « المفقودين » فى الأرجنتين .. منشورات مليئة بصور المفقودين .. والنداءات التى يرفعها الأهل بحثاً عن أبنائهم ..

فى الميدان الرئيسى بالعاصمة .. كانت هناك أيضاً مظاهرة من النساء العجائز يرفعن اللافتات المكتوب عليها : « اخبرونا أين ذهب الأطفال المفقودون » « ماذا فعلتم بأبنائنا » ؟ .. المظاهرة صامتة ، ولكن فى عيون النساء العجائز حزنا هائلا مكتوما ...

تهرع الزوجة إلى مقر عمل زوجها .. تفاجأ بأن هناك مواطناً يحاول لقاءه .. ولكن رجال الأمن يمنعونه .. والمواطن يصمم على اللقاء ويبدأ صوته يعلو .. فيحاول رجال الأمن دفعه بالقوة إلى احدى الغرف واغلاق الباب عليه .. والمواطن يقاوم مستميتاً ، فاردا ذراعيه ، ممسكاً بالباب حتى لا يغلقوه عليه .

ويخرج الزوج من مكتبه .. وما أن يلمحه المواطن حتى يصرخ فيه مستغيثاً .. : « لماذا تريد ادخالى السجن .. » ؟!

ويشير الزوج الى رجال الأمن أن يتصرفوا معه .. وتندفع إليه زوجته متسائلة عما يحدث .. فيرد عليها بالجملة التقليدية التى تعود أن يرددها : « لا تقلقى نفسك بهذه المسائل » .

تنظر إليه فى دهشة .. فيحسم الموقف بأن يخبرها باضطراره للسفر العاجل إلى بوليفيا فى مهمة عمل .. يودعها .. ولاينسى أن يقول لها منبهاً فى تأكيد : « افتحى عينيك جيداً على طفلتنا » ! .

تقف الزوجة مذهولة .. وقد عصفت بها الحيرة والشكوك..

من الواضح أن زوجها متورط مع رجال الأمن .. وأنه مشارك فيما يحدث . ! ! لماذا يخفى عنها الحقيقة ؟! .

• ما هى الحقيقة ؟

وتستبد بها الحيرة .. فهى تحمل أسئلة بلا اجابات .. تلجأ إلى أحد رجال الدين .. فالمفروض





لقطة لمظاهرات عائلات المفقودين وأخرى لامرأة عجوز اغتيل ابنها ، وتم اختطاف زوجته .. وابنته

فى رجل الدين ألا يكذب .. تسأله أين الحقيقة فيما يحدث .. ولكن رجل الدين يلوذ بالصمت .. تكرر السؤال مرة واثنتين وثلاثاً .. ويتهدج صوتها بالانفعال والقلق .. ورجل الدين لا يرد .. ويكتفى بأن يصلي لها .. ويتركها وينصرف !

إلى هذه الدرجة .. الحقيقة مرعبة؟!

يعود زوجها من مهمته .. وتقرر أن تواجهه ..

تلقي إليه بسؤالها المحدد : « هل تكون ابنتنا .. واحدة من الأطفال المخطوفين »؟!

يتجمد وجه الزوج مذهولا .. ولكنه يتمالك نفسه بسرعة وكأنما لم يسمع شيئا : « ماذا تقولين »؟!

وتقرر الزوجة لحظتها .. أن تبدأ رحلتها الخاصة لاكتشاف الحقيقة ..

• لقاء يفجر الشكوك

وفى مكاتب تلقي بلاغات المواطنين عن فقد أبنائهم وأحفادهم .. تبدأ فى البحث عن الحالات التي تنطبق عليها مواصفات ابنتها بالتبني ..

رحلة طويلة بين الملفات .. المليئة بالضحايا والدموع ..

وتقترب منها امرأة عجوز من الواضح أنها تريد أن تحكى مأساتها لأحد ، وفي مشهد من أجمل مشاهد الفيلم .. تخرج العجوز من حقيبتها أربع صور فوتغرافية قديمة .. وتحكى عن ابنها الذي اغتالوه بالرصاص فى الطريق العام .. ها هى صورته وهو طفل .. وصورته وهو فى المدرسة .. وصورته فى شبابه .. وصورة زفافه .. وتبكى .. وتتكلم فى صوت منخفض وتمسح دموعها التى تسللت إلى تجاعيد وجهها ..

تحاول الزوجة أن تهدئها .. « البكاء لا يفيد أحداً الآن » ..

تبرر العجوز دموعها .. بأن حفيدتها كانت تحمل ملامح ابنها .. وهي تبحث الآن عن حفيدتها لترعاها كامتداد لابنها .. ولكن أين تجدها .. وهل هي على قيد الحياة .. أم أنها ماتت مثل الآخرين ؟!

وتعيد الزوجة تأمل صورة الابن وهو طفل صغير .. إنه يشبه تماما طفلتها بالتبني .. هل تكون طفلتها هى حفيدة تلك المرأة؟!

دوامة من الشكوك !

وقد برع المخرج فى تكوين هذا المشهد داخل أحد المقاهي .. مستخدما مؤثرات صوتية من تلك الألعاب الأتوماتيكية المنتشرة في المقاهى .. ألعاب الحرب .. وأصوات المدافع الرشاشة .. وكأن أصوات الرصاص هى معزوفة الحياة المرعبة ، والموت السريع فى ظل الإرهاب ..

• مواجهة الزوج

يتكرر لقاء الزوجة مع هذه المرأة العجوز .. اينما ذهبت تجدها أمامها .. تحدق فيها وكأنها تنتظر شيئاً ..

إنها تجدها أمام مدرسة طفلتها .. وتجدها فى طريقها إلى منزلها .. وتجدها فى المظاهرات تحمل اللافتات .. وصورة مكبرة لابنها مع عروسه فى ملابس الزفاف ..

تطاردها لافتات عائلات المفقودين : « أخذتم أبناءنا أحياءنا .. نريد ارجاعهم أحياء » ..

تقرر الزوجة أن تحسم شكوكها .. تصطحب تلك المرأة العجوز إلى منزلها .. لتواجه بها زوجها .. تجلس صامته فى انتظار حضوره .. تمر الساعات .. وهى تغالب خجلها .. وتحاول أن تنصرف .. ولكن الزوجة تصر على بقائها حتى يحضر الزوج ..

ويأتى الزوج مرهقا من عمله .. ويفاجأ بوجود المرأة العجوز .. ويعلم بالموضوع .. فينفجر فى غضب وهياج شديد مؤنباً زوجته : « هل تريدين ادخالى فى مصيدة؟ » .

وتفاجأ الزوجة بهذا المنطق .. وبرد الفعل غير المتوقع من الزوج .. انه يطرد المرأة العجوز من البيت .. ويغلق الباب وراءها بعنف .. ويستدير ليواصل هجومه عليها ! . « إذا كانت طفلتنا قد فقدت أمها .. فهل تريدين لها أن تفقد أمها الثانية ؟» ..

إنه نفس المنطق المغلوط .. لا يهم ما حدث للأم الحقيقية المهم استمرار الوضع كما هو ! !

زلة لسان كشفت عن الحقيقة ..

إنه واحد من أدوات الارهاب .. وأحد المستفيدين من استمراره ..

عاشت معه تصدق كل ما يقوله .. حتى سقطت الأقنعة أخيرا ..

تنظر إليه فى ذعر .. وكأنه شخص غريب .. وحش هائج يجرى إلى غرفة الطفلة .. يبحث عنها .. فلا يجدها ..



حين تصور الزوج أنه فقد طفلته بالتبنى ، وأن الأقنعة قد سقطت عن دوره في الارهاب ، انفجر في غضب وهياج وحشى ، وانهال على زوجته ضرباً حتى أسال دمها .

يصرخ في زوجته .. وينهال عليها ضربا .. ويمسك برأسها ويدقه في الحائط حتى تنزف الدماء منه ..

لقد تصور أنه فقد الطفلة ..

ماكان لايبالى به بالنسبة للآخرين الذين فقدوا أبناءهم .. أصبح هو يعانى منه الآن ..

ولكن التليفون يرن بإلحاح .. يسرع إليه .. يجد على الطرف الآخر صوت والدته تخبره بأن طفلته تريد أن تحادثه .. ويسمع صوت طفلته وهى تغنى له ..

ينظر لزوجته غير مصدق ما حدث ..

يترك سماعة التليفون يتردد منها صوت الطفلة .. بينما يتجه منكسرا إلى زوجته .. يحاول الاعتذار ..

ولكن الزوجة كانت قد اتخذت قرارها بعدم الاستمرار .. تفتح باب البيت وتخرج مندفعة .. يقف الزوج باكيا منهارا .. فاقدا القدرة على الحركة ..

والطفلة على مقعدها الهزاز في بيت الجدة .. مازالت ممسكة بسماعة التليفون وهى تغنى :

« البلد التى لم تعد تتذكر شيئا

« خطوت ثلاث خطوات .. ثم توقفت .. فقدت الطريق

« ولم أعرف أين وضعت قدمى ..

« انا خائفة .. أنا خائفة » ..

وينتهى الفيلم بأغنية الطفلة .. وذلك الأحساس الرهيب بالمجهول .

• حق المعرفة

فإذا كان التاريخ هو ذاكرة العالم .. كما قالت بطلة الفيلم في البداية وهى تواجه تلاميذها .. فهل يعرف الأبناء حقيقة ما حدث .. أم أنهم سيفقدون الذاكرة .. ويكتفون بالقصص الرسمية .. والتاريخ الرسمى !

والفيلم رسالة إلى المستقبل ..

وهو لا ينتهى نهاية سعيدة .. بل بالعكس ، إنه يضع في النهاية أكثر من علامة استفهام .

فتلك الزوجة التى تصورت أنها تعرف الحقيقة من خلال ما يعلن عنه رسميا .. ثم اكتشفت الزيف .. وعاشت الرعب الذى خيم على أنحاء المدينة .. كان أمامها أحد اختيارين :

إما أن تعيش في أمان وتواصل حياتها الناعمة .. وهى بذلك ترضى بالأكذوبة وخداع النفس .. وإما أن تتمرد وتهجر هذه الحياة .. وهنا أيضا لا يضمن الفيلم النهاية السعيدة !

ولكن الذى يضمنه الفيلم — وهذا شيء واضح — هو المصالحة مع النفس ، والتشبث بحق المعرفة . ذلك لأن المعرفة .. تقود إلى العدل والقوة ..

• كيف استقبلت الأرجنتين هذا الفيلم ؟

وقد صاحب عرض هذا الفيلم في الأرجنتين .. موجة من التأييد والترحيب .. شارك فيها آباء وأجداد المفقودين أيام الحكم الديكتاتورى .. وقد سجلوا آراءهم في الفيلم من خلال البرقيات والبيانات .. وشارك معهم أعضاء جمعية حقوق الانسان والتى كان لها دور بارز في توصيل أخبار جريمة الاختطاف السياسى إلى المحافل الدولية .

ومخرج فيلم « قصة رسمية » هو الفنان الأرجنتينى « لويس بينزو » .. البالغ من العمر ٣٩ عاما .. وقد اشترك في كتابة سيناريو الفيلم مع الكاتبة الأرجنتينية « عايدة بورتنيك » ..

وهذا هو الفيلم الروائى الثالث الذى يخرجه « لويس بينزو » بعد مشوار طويل في السينما بدأه منذ أن كان عمره ١٩ عاما .. تدرج من التصوير إلى أفلام الدعاية .. إلى الكتابة للسينما .. إلى التخصص في المؤثرات الصوتية .. ثم انتقل إلى الاخراج .

وهو يقول عن فيلمه : « نحن أغلب الأرجنتينيين .. كنا نظن أنفسنا إما ضحايا أو جلادين .. الآن ندرك تماما أننا مزيج من الاثنين » .

ولقد سقط النظام الديكتاتورى في الأرجنتين مع نهاية عام ٨٣ وبعد ست سنوات حافلة بالحديد والنار .. ومازالت الأرجنتين تعانى من جرائم الاختطاف السياسى التى تمت في تلك الفترة .. وقد سميت بمأساة العصر في أمريكا اللاتينية .. ومن هنا جاءت أهمية هذا الفيلم كرسالة تحذير حتى لايتكرر ما حدث في أى مكان آخر بالعالم !

وها هى الممثلة الأرجنتينية « نورما أليندرو » بتفوقها الرائع في أداء دور الزوجة مدرسة التاريخ .. وبفوزها بجائزة أحسن ممثلة .. تعطى للفيلم تأشيرة مرور أوسع إلى شاشات العرض العالمية ..

« رءوف توفيق »







استراحة الدوحة

مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة :

رووف

أصل وصورة







الأصل والصورة للمفكر الاسلامي جمال الدين الأفغاني الذى أصدر صحيفة « العروة الوثقى » مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده .. وبين أصل وصورة المفكر الكبير هناك سبعة إختلافات بسيطة ، إذا تعرفت عليها فلك جائزة .

مثل يقول



هناك مثل شعبى عربى يعبر عن هذا الرسم الكاريكاتيرى ، حاول أن تتعرف عليه لتحصل على جائزة .

لوحة لم تتم



هذه اللوحة التي لم تتم لمطرب عربى ، أطلقوا عليه لقب : مطرب المطربين .. أكمل اللوحة وتعرف عليه لتحصل على جائزة .

لعبة الظلال



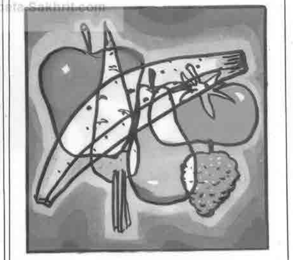
هذا اللاعب فشل فى العثور على ظله الحقيقى ، ساعده في حل مشكلته ، وأرسل لنا الحل لتحصل على جائزة .

هات أجمل تعليق :



هل تستطيع أن تجد تعليقاً خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيرى ؟ .. حاول وأرسله إلينا لتفوز بجائزة .

لأقوياء الملاحظة فقط !



أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة ، حاول أن تتعرف عليها ، فقد تفوز بجائزة .

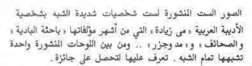
يخلق من الشبه أربعين











الصور الست المنشورة لست شخصيات شديدة الشبه بشخصية الأديبة العربية « مى زيادة » التي من أشهر مؤلفاتها « باحثة البادية » و « الصحائف » و « مد وجزر » .. ومن بين اللوحات المنشورة واحدة تشبهها تمام الشبه . تعرف عليها لتحصل على جائزة .

بقلم
عبد الله الجفري



زمن الصخب والزحام

في هدأة الليل ينتشر الغبار فيغطي سماء المدينة ويتحول لون السماء الأزرق الصافي إلى لون أحمر مشوش بالأتربة ، وعلماء الارصاد أو « الموظفون » فيها يقولون : إنه المنخفض الجوي القادم من أي مكان ، ولكن السماء حمراء ، ولابد أن تقفل الزجاج ، وأحيانا تنعدم الرؤية ، ومن الأحسن لك أن تقفل بعد الزجاج ستائر النوافذ ، فأنت أسير « المكيف » الهادر بشيء من البرودة ، ومع هذا الهدير تفقد هدوءك ، وتتحد أصوات السيارات التي تشق سكون الليل ، وتمزق استرخاءك » وتطوح برأسك داخل كل ما في رأسك ، وفي فصل « السنبلة » ياويل سكان السواحل مثل جدة . ولكني رأيت كيف دخل فصل « السنبلة » إلى مدينة أبها في جنوب المملكة ، وكان الدخول مختلفا ، فهنا في جدة انعدمت الرؤية بسبب زوابع الغبار والأتربة والعواصف الرملية ، وفي أبها انعدمت الرؤية بسبب كثافة الأمطار التي هطلت فجأة وبغزارة ، ولابد أن يكون الفرق هنا « شاعريا » ! على الأقل .

ولكننا في عصر يقوم على الصخب والضجيج وعلى الزحام ، ودائما .. العودة من الضجيج إلى السكون تبقى هي المطلب ، ودائما .. الخروج من الهدوء إلى الصخب والزحام يبقى هو النتيجة ، أو الضرورة كسمة لعصر يتصف بهذا الزحام !

وهذا « التطبيق » يتم على كل أشيائنا بلا تمييز أو استثناء ، ولكنه تطبيق يتردد أحيانا ، وربما نستطيع أن نتخلص منه عندما ننجح في فهمنا لأشياء الحياة وفي فلسفتنا حين التفكير ، وفي عواطفنا حين العفوية ، وهذه نقطة هامة تجعلني أتوقف عندها بعض الوقت .. متأملا ومضطربا ، وضائعا أحيانا !

إن كل هذا الصخب أتت به المدينة من رقعته ، وأضافت عليه العديد من الألوان ، هذه المفاهيم المكتسبة فينا .. من قراءاتنا ، ومواقفنا ، وتجاربنا ، وصدماتنا العاطفية ، وأحزاننا الخاصة ، وآلامنا التاريخية ، ومن عنعناتنا .. فالصخب يأتي من الزحام ، والزحام يتولد من اندفاعنا نحو الغرض ونحو الرغبة في الوصول السريع ، ونحو الاكتشاف من أقصر مسافة ، ونحو الموت بأتفه الأسباب مثل أسباب حوادث السيارات ! !

وهذه الصورة .. تبدو هي المحور الذي ترتكز عليه فلسفة (القيمة) للحياة عند كثير من (المتسجمين) مع صفات العصر ، فلكي تخوض الزحام لابد أن تتفعل وأن تدافع ، وأن تنافس ، وأن تتحدى ، وتعتقد أنك ستعود بحصيلة من وسط الزحام ، أو أنك تستطيع أن تتخلص من هذا الزحام دون أن تصاب بالجروح ، أو بالغرور ، أو بالاختناق ، أو بالنسيان !

ولم يفعل الجيل الجديد شيئا يغاير الطبيعة الانسانية ، ولكنه استطاع أن يكثف مشاعره ، وأن ينقل الضجيج من الأرصفة ، والطرق ، والشوارع المكتظة ، والأندية إلى داخل صدره ، وإلى داخل رأسه ، وأن تتحول أفكاره إلى أرصفة ، ومقاه ومنتديات خطابة ، واضطرابات سياسية وانحرافات ايديولوجية ، وأن تتحول عواطفه إلى بغاء يمارس ضد العفوية ، وضد الصدق ، وضد العشق ذاته ، وأن تتبدل مطالبه فتصبح مجرد ماديات تخضع لمتعة الدقائق ، وتصبح حيرة في كيفية الاقتراب من طفل جميل يتقافز فوق عتبة داره وفي يده وردة ، ومن أمامه تمرق عربات قطار سريع ، أو تطأ فوقه عجلات سيارة لا ضوابط في قدمي سائقها !

وربما من هذه الصورة التفصيلية للزحام .. استطاع أن ينجح بعض كتاب القصة في تصويرها ، وأن يستخلص هذا البعض إيقاعا دراميا من بين مشاهد الزحام ، أو فصول الصخب ، ولكن لا أحد يقرأ أبدا ! !

ومشكلة هذا الجيل أنه ولد على صوت طلقات المدافع وتعاقب الحروب ، وتوالي الخدع السياسية وانهزام العاطفة وثلوجة الحنان .. ويتم ذلك كله عبر التمزق الفاجع في داخل نفسية الإنسان الذي عاد بعد خوضه للحرب العالمية وقد فقد الكثير من ذكرياته الحميمة !

وهذا التمزق موجود أيضا في نفسية الإنسان الجديد المتحرك بشبابه ، وبطموحه ، وبعلومه ، وبفنونه وبآدابه ، ورفضه لكل القطارات التي مرت وحملت معها الدمار والدماء مع الطيبة والهدوء والحزن الصامت .. فهو إنسان يفتش عن عاطفته بين حطام الأسرة التي تفككت ، ويفتش عن إنسانيته في غياب السلام العالمي والاستقرار ، والحدث على الأرض !

وأحسست أنه من المستحيل أن يأتي كاتب يمثل النهج الذي عرفت به « بيرل باك » مثلا ، أو يأتي أديب يعجب بأسلوب وملامح أدب المنفلوطي ، أو حتى توفيق الحكيم أو بمشاعر روائي عتيق منسي مثل أرسكين كالدويل ! !

إنه جيل لا يعرف ما الذي يرفضه ، وما الذي يتقبله .. فهو جيل مرغم أن يتقبل أشياء يخترقها ، وأشياء تخترقه ، وأشياء يمارسها ثم يبصق عليها !

ولكن .. لابد أن يكون اعتبارنا لهذه المرحلة .. يعني الانتقال من جيل إلى آخر ، ويعني أيضا الخروج من مفاهيم تدجنت أو دجنت الانسان .. إلى مفاهيم أفضل وأجدى ، وفي كل الأحوال .. فإن الانسان يهرب من الصخب إلى الهدوء فيمله ، وينطلق من الهدوء إلى الزحام فيضيع فيه .. وهدفه أن يقدر على التعبير ، وعلى الحركة ، وأن يقدر على التبدل باستمرار ! !

جده